التيسـير في أصول التفسير
(سـورة البقـرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسـير في أصول التفسير

(سـورة البقـرة)

عطاء بن خليل أبو الرشته

الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

الطبعة الثانية (مدققة) ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

دار الأمّـة

للطباعة والنشر والتـوزيع

ص.ب. ١٣٥١٩٠

بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

.... إلى الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل......

..... إلى حملة الإسلام العظيم الذين يرتقون بدينهم من شاهق إلى شاهق، يصدعون بأمر الله ولا يخافون لومة لائم.....

..... إلى المتسنمين خطا رسول الله ﷺ، العاملين لاستئناف الحياة الإسلامية في الأرض

ليستظلوا براية الإسلام الواحدة في دولة الخلافة الراشدة.....

.... وإلى محبيهم ومؤيديهم وناصريهم والمنافحين عنهم.....

.... إلى جميع هؤلاء أقدم سورة الزهراء، وكلي ضراعة إلى الله ورجاء، أن يتدبروها ويفقهوها فيرتقوا بها إلى نصر من الله، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد....

٢٤ ذو الحجة ١٤١٨هـ

٢١ نيسان ١٩٩٨م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

التيسير في أصول التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

بعث الله محمدا برسالة الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد[1]، وجعل معجزته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ودليل نبوته كتابا من عند الله مباركا، القرآن الكريم، كلام الله العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد[2].

أنزله الله بلغة العرب، من حروف كلامهم، مخاطبا إياهم بلسان عربي مبين، يدعوهم ليؤمنوا به ويفقهوه ويلزموه، لكنهم وجدوه لا يقرّ لهم هوى ولا يقيم لأصنامهم وزنا، ولا يجعل من فسادهم وإفسادهم شرعة كما كانوا يصنعون، بل يُسفّه أصنامهم وينكر بطشهم وظلمهم وطغيانهم، يسوّي بين السادة والعبيد، والقريب والبعيد، العربي والعجمي سواء إلا من كان الأتقى فهو الأنقى، "**لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**"[3]، كلكم لآدم وآدم من تراب، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[4]. فلما سمعوا هذا الذي جاء به رسول الله ﷺ عقلوه وعلموا أنه من عند الله، كلام الله وليس كلاما لبشر، فهم أهل اللغة وحذّاقها، هي لسانهم وهي سليقتهم، هي الصناعة

---

[1] ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ إبراهيم/آية١.

[2] ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت/آية٤٢.

[3] قال ﷺ : "**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى ولا لأحمر على اسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**" أحمد: ٤١١/٥، مجمع الزوائد: ٨٤/٨، الدر المنثور: ٩٨/٦.

[4] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات/آية١٣.

والبضاعة، بهـا في أسواقهم يتنافسون وبغرائبها يتحاجون.

غير أنهم وقفوا عند هذا الذي سمعوه، وفكروا وقدروا، فكيف مع عبيدهم على سواء يكونون؟! ... وكيف بلا قيان يعيشون؟! ... ثم كيف يكونون سادة إذا لم يكونوا طغاة وظلمة يتجبرون وعتاة لا يرعوون؟! ... كيف وكيف؟! ...

عندها أنكروه بعدما عقلوه، وقالوا إن أنت إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء[1] وتولوا وهم مستكبرون، ومدُّوا في طغيانهم يعمهون.

وظنوا أن الأمر سينتهي عند هذا الحدّ فهم أكثر عددا وأكثر قولا، سيقولون ويقولون إنّ ما يأتي به محمّد ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها أو أمليت عليه فهو يقولها بكرة وعشيا[2] وإنهم لو شاءوا لقالوا مثل ما قال[3] ولتلوا كما يتلو ثـمّ يتولون يضحكون وهم سامدون.

ولم يتوقعوا أن حجة ستقام عليهم، ومن يحجّهم؟! بل من يحاجّهم؟! إن قال محمّد كلمة قالوا عشرا، وإن رفع صوته درجة جمعوا له أصواتا عالية الصياح والصراخ، تنعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون[4] ويقصون الأباطيل في مقابل القصص الحق ويظنون أنهم بتلك الأباطيل يجعلون الحق في وسط الزحام يضيع.

لكن الأمر جاءهم على غير ما يشتهون، ومن حيث لا يحتسبون فقيل لهم إن كنتم في زعمكم صادقين وأن ما يتلوه محمّد هو قول البشر وأنكم لو أردتم لقلتم مثل ما قال، فالسّاحة أمامكم والميدان قدّامكم، وهذا القرآن شاهد وليس بغائب، تسمعون آياته وتعقلون كلماته، حروفه من نفس الحروف التي بها تنطقون فهلمَّ مثله، فإن فعلتم وجئتم بمثل هذا القرآن[5] كان الأمر كما قلتم.

لكنهم لم يفعلوا، بل نكصوا على أعقابهم مضطربين، فهم من وجه يدركون أنه كلام الله كما نطق به الصادق الأمين، فهم أهل اللغة وأربابها، ومن وجه لا يستطيعون

---

[1] ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ يس /آية١٥.

[2] ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ الفرقان/آية٥.

[3] ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأنفال/آية٣١.

[4] ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة/آية١٧١.

[5] ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء/آية٨٨.

البوح بذلك فأصنامهم وأحلامهم ومصالحهم الفاسدة المفسدة ستكون إن فعلوا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، وذلك هو الضلال البعيد، فداروا واستداروا وطفقوا يبحثون لعلهم يجدون ما يطيل أمد إعلان سقوطهم في التحدي فيؤخّر إقامة الحجة عليهم أياما أو بعض أيام، فوجدوها بقول لسان حالهم، إن الإتيان بمثل القرآن كله أمر عسير فخفف الحمل قليلا، فقيل لهم إذن فأتوا بعشر سور مثله[1] فلم يستطيعوا وعادوا لمقولتهم الأولى، فصدعتهم الحجة البالغة، ائتوا بسورة واحدة[2] أنتم وكلّ عون لكم مستطاع من مخلوق أنّى كان ومهما كان.

لكنهم كذلك لم يفعلوا، وكانت الحجة الحجة والفصل الفصل، أإنكم ليس فقط لن تفعلوا الآن بل ولن تفعلوا[3] إلى أبد الآبدين، فالقرآن كلام الله الحقّ، وهو لا يدنو من حماه كلام إنسان ولا يرقى إلى ما يقترب منه قول جان، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وكان هذا كافيا كي يؤمنوا، إلا أن الشيطان استحوذ عليهم، وفتكهم الهوى، وزيّن لهم حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث[4]، فضلوا على علم وكابروا وعاندوا، واستمروا على كفرهم وهم يعلمون.

وأورثهم ذلك حيرة فوق الحيرة، واضطرابا فوق اضطراب.

فكيف يقنع السادة عامة الناس أنّ هذا القرآن ليس كلام الله؟ وكيف يصرفونهم عنه كي لا يتبعوه؟!

وأهمهم الأمر، وجدّوا في البحث عن مخرج من هذا المأزق، لكن تدميرهم كان في تدبيرهم فبدل أن يتبينوا مخرجا زادوا المأزق مأزقا، وكانوا

---

[1] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ هود/آية١٣.

[2] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يونس/آية٣٨.

[3] ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة/آية٢٣-٢٤.

[4] ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ آل عمران/ آية١٤.

كالباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه[1]، فدخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، وأقاموا الحجة على أنفسهم بدل أن يقيموا الحجة لهم.

قالوا: إن هو إلا قول محمّد، لكن كيف وكلام محمّد يختلف عن هذا الذي يتلوه، ومحمد أمي من قومهم وهم يقرءون ويكتبون وقد عجزوا عن الإتيان بمثله فلا يستقيم القول إنه من كلام محمّد، فمضوا عن هذه وتركوها.

وقالوا: يعلمه بشر من غيرنا، وذكروا نصرانيا أعجميا، لكنهم نُكسوا على رؤوسهم لقد علمتم أنه أعجمي وهذا لسان عربي مبين[2]، فمضوا عن هذه كذلك وتركوها.

ثمّ قالوا: إن هو إلا سحر يؤثر، سحر من البيان، ولكنهم وجدوها حجة عليهم، فهي دليل عجزهم حتى بدا الكتاب أمامهم كأنه السحر لقوته وعظمته. وحجة عليهم كذلك لأن السحر له واقع معروف لهم لكثرة تعاملهم معه، وهم يدركون اختلاف هرطقات السحرة عن هذا الكلام العظيم.

فكادوا يمضون عن هذا القول لولا أنهم وجدوا أن القول بالسحر يمكن أن يقنع بعض العامة بالقول لهم ألا ترون أن دخول الإسلام لأهل بيت ما يجعل الابن إذا أسلم يخرج عن عبادة أصنام أبيه وبالتالي يفرق الإسلام بينهم فكأنه السحر.

ووجدوا أن هذه أقرب إلى التضليل من غيرها، فاعتمدوها وقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر[3]. لكنهم في ذلك كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

فإن الذي يسمع كلام الله يتلى يوقن كلّ اليقين بأن ما سمعه ليس سحرا، لهذا تعاهدوا فيما بينهم أن يحولوا بين الناس وبين سماع القرآن وقالوا الغوا[4] فيه للتشويش عليه حتى لا يسمعه من رسول الله أحد، بل وصل بهم الحال أن يتلقوا الركب يتكلمون عن سحر محمّد والقرآن ويفترون على الله الكذب ويحاولون إقناع الناس بعدم القرب

---

[1] ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾ الرعد/آية١٤.

[2] ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ النحل/آية١٠٣.

[3] ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ المدثر /آية١٨-٢٤.

[4] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ فصلت/آية٢٦.

من محمّد ﷺ تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، خشية أن يسمعوه فيدركوا أنه من عند الله كما أدركوا هم في قرارة أنفسهم، كي لا يؤمن البادي والقادم والحاضر، وحتى يؤخروا إن استطاعوا ظهور الإسلام وارتفاع لوائه، ويحولوا دون تزايد جند الرحمن وعلو كلمته وأنّى لهم ذلك لو كانوا يعقلون.

وهكذا ساروا، يشدهم من جانب إدراكهم أن هذا القرآن كلام الله، حتى إن سادتهم ليذهبون كلٌّ مستخفٍ عن غيره إلى بيت رسول الله ﷺ يسمعون ما يتلو ليلا من آي القرآن والذكر الحكيم، فإذا رأوا بعضهم وهم راجعون تعاهدوا أن لا يعودوا ثانية حتى لا يراهم العامة، لكنهم يعودون ويأخذ القرآن بألبابهم فيقول قائلهم: إن عليه لطلاوة، وإن به لحلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأعلاه لمثمر إقرارا بأنه ليس كلام بشر.

هذا من جانب، يشدهم إدراكهم أن هذا القرآن كلام الله، ومن جانب آخر تشدهم أصنامهم وما كان عليه آباؤهم ومصالحهم وشهواتهم.

فمن سلمت فطرته وصفا عقله وعى وارعوى وآمن واتقى.

ومن عميت بصيرته واستقرت بأدنى الدركات، وارتقت عنده دنياه الفاسدة أعلى الدرجات، بقي يَعْمَه في طغيانه مرتميا في أحضان أصنامه، وهكذا آمن من آمن وكفر من كفر ... وتسارع للإيمان من تسارع وتباطأ عنه من تباطأ حتى أُقيمت دولة الإسلام في المدينة المنورة وانتشر الإسلام في الجزيرة ثم امتدّ ذاك النور ليزيل ظلام الدول الكبرى آنذاك، فحُطِّمت فارس، وتقطعت أوصال الروم، وعظمت دولة الإسلام، وانتشر العدل مصاحبا للجهاد، وارتفاع راية العقاب راية لا إله إلا الله محمّد رسول الله، واتّسع الفتح والفتوح وأشرقت الأرض بالإسلام وبجند الإسلام.

* * *

لقد نشأت بالإسلام أمة كانت خير أمة أخرجت للناس[1] وقامت بالإسلام دولة كانت منارة للدنيا تنشر العدل في ربوع العالم، وكان لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ السيادة والقيادة لهذه الأمة وهذه الدولة.

كان المسلمون في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ يفهمون الكتاب والسنة فهماً سليماً، فهماً تطمئن به القلوب وتنشرح له الصدور، فإذا

[1] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران/آية١١٠.

بيّن رسول الله لهم آية أو بعض آية بياناً شرعياً فأعطى الكلمة أو الآية حقيقة شرعية التزموها واتّبعوها، وإن لم يعطها حقيقة شرعية التمسوها في لغتهم، اللغة العربية، التي أنزل بها القرآن ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ وبها كان اللسان ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾.

وهكذا فإذا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ثم بيّن الصلاة بالأفعال والأقوال المخصوصة اتبعوا هذه الحقيقة الشرعية في فهم الآية وأدائها وتركوا الحقيقة اللغوية للصلاة التي هي بمعنى الدعاء.

أما إن قرأ عليهم: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ المائدة/آية٣ ولم يعطها ﷺ حقيقة شرعية فهموها بلغتهم العربية تحريما لأكل الميتة لاقتران التحريم مع الميتة كما هو بيّن في لغتهم.

وهكذا كانوا يفعلون، فإن صحّ عن رسول الله ﷺ بيان التزموه واتّبعوه، وإن لم يكن التمسوه في لغتهم التي بها أنزل القرآن، فأورثهم هذا الأمر فهما سليما وصراطا مستقيما ساروا عليه فعزّت الأمة وقويت الدولة وكان لهم بذلك شأن عظيم.

ومما زاد النقاء نقاء والصفاء صفاء أنهم أضافوا إلى إدراكهم للغة القرآن إدراكهم كذلك لحدود العقل البشري الذي ميّز الله به الإنسان[1]، فقد أدركوا أن العقل محدود في صلاحياته، ومحصور في إمكانياته فلا يبحث إلا فيما له واقع محسوس، أما ما لم يكن له واقع فلا دور للعقل في إنتاج فكر فيه بل كلّ بحث فيما لا واقع له لا يعدو كونه ضربا من ضروب الخيال.

فهم قد فكّروا في مخلوقات الله وتدبّروا آياته، فرأوا أن هذا الكون والإنسان والحياة بمحدوديته وعجزه واحتياجه ووجوده بهذا النظام المحكم الدقيق، يدل بالقطع على أن له خالقا عظيما أزليا قويا حدّده في وجوده ونظّمه في بقائه، والقادر على سدّ عجزه وتأمين احتياجاته، فآمنوا بالله الخالق الواحد الأحد نتيجة تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته من خلال واقعها المحسوس لديهم.

ثمّ آمنوا بالقرآن الكريم وأنه كلام الله ﷻ لسقوطهم في التحدي وعجزهم أن يأتوا بسورة مثله وهم أهل الفصاحة والبيان، ولغتهم هي لغة القرآن، فكان عجزهم

[1] انظر تفسير آية: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ سورة البقرة/آية٣١.

دليل القطع بأن القرآن كلام الله ﷻ، فآمنوا بالقرآن الذي يقرءون آياته أو يسمعون، فهو محسوس لديهم غير مغيَّب عنهم.

وهكذا فقد ثبت لهم أن محمدا هو رسول من عند الله، فهو قد جاءهم بكلام الله بوحي منه سبحانه. فآمنوا بأن محمدا رسول الله وهو محسوس لديهم ليس مغيباً عنهم.

ولكنهم لم يعملوا العقل في المغيبات غير المحسوسة لديهم، فلم يخضعوها للبحث العقلي لأنها ليست من مجاله، بل اكتفوا (بالنقل) أي بما ورد عنها في كتاب الله أو ما سمعوه من رسول الله أو نقل إليهم عنه ﷺ.

ولذلك فلم يُعْمِلوا العقل في بحث صفات الله أهي مخلوقة أم غير مخلوقة؟ أهي متصلة بالذات أم منفصلة عنه؟! ... لأن واقعها غير محسوس لديهم فآمنوا بها كما وردت عن طريق (النقل) من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ. فالقرآن كلام الله آمنوا بذلك وأيقنوا بكل ما فيه دون شك ولا ريب.

والله سميع بصير عليم حكيم له الأسماء الحسنى، آمنوا بذلك وأيقنوا دون بحث في كيفية هذه الصفات بل سلّموا بها تسليما.

فتمّ الإيمان بالمغيبات كما أوردها القرآن لا زيادة ولا نقصان، ولا تأويل ولا تضليل فاطمأنت بذلك القلوب وانشرحت به الصدور.

وهكذا فإنهم كما أدركوا مجال اللغة في فهم آي القرآن، أدركوا كذلك مجال العقل والنقل في الإيمان فلا يفهمون القرآن بغير اللغة التي بها نزل ولا يُعمِلون العقل فيما لا واقع محسوس له بل ينقلونه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويؤمنون به على وجهه، فلا يتجاوزون اللغة في فهم القرآن ولا يتجاوزون مجال العقل الذي ميّز الله به الإنسان، وكان التزامهم بهذين: اللغة والعقل، وفهم حدودها ومجالاتها طريقا إلى سلامة العقيدة وصحتها، وإلى حسن أداء أحكام الشرع وإتقانها.

هذا ما كان عليه المسلمون في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعين والتابعين لهم بإحسان، سلاحهم في فهم دينهم ما صحّ عن رسول الله ﷺ من بيان، وإدراكهم للغتهم اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ثمّ إدراكهم كذلك لمجال العقل وحدوده وأنه لا دور له في المغيبات غير المحسوسة لديهم إلا بقدر ما ينقله

العقل من كتاب الله وما تواتر عن رسول الله ﷺ.

لكنْ خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ، ضعفت لديهم ملكة اللغة واضطربت عليهم الأمور فخاضوا في تفسير آيات الله بغير اللغة التي بها نزلت، وحمّلوها غير ما تحتمل، وكثر التأويل وجعلوا للنص ظاهرا وباطنا، ونشأت الفرق وأهل الأهواء وتشعبت الآراء، ولم يقف ذلك عند الاجتهاد في الفروع بل تعداه إلى الأصول حتى امتدّ إلى العقائد وفروع العقائد.

والذي زاد الطين بلة، أنهم لم يدركوا مجال العقل وحدوده فأطلقوا له العنان في غير ما خلق له، فأدخلوا البحث العقلي في ذات الله وصفات الله وخلق القرآن، وأوردوا أبحاثا لا هي في كتاب الله ﷻ ولا في سنة رسول الله ﷺ، واشغلوا الناس معهم بأبحاث ما أنزل الله بها من سلطان فرّقت المسلمين بدل أن تجمعهم على الحقّ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه - رضوان الله عليهم -.

ثمّ خَلَفَ من بعد ذلك الخَلْفُ خَلْفٌ آخر، ازدادوا عن الحق بعدا وهبطوا عمن سبقهم رشداً.

فكان الخَلْف السابق عنده مصيبة واحدة بإطلاق العنان للعقل في غير مجاله، ثم بعض مصيبة بضعف ملكة اللغة لديهم.

وأما هؤلاء فقد بقيت المصيبة الأولى على حالها فأطلقوا العنان للعقل في غير مجاله، ثم أكملوا المصيبة الأخرى فأهملوا اللغة ولم يقيموا لها وزنا. ويا ليتهم علموا أنهم على جهل فإنهم حينها سيطلبون العلم يتعلمونه، ولكنهم ظنّوا أنفسهم يعلمون فترى لهم جرأة على دين الله، يُفتون ويفتون ويقرؤون آيات الله وأحاديث رسول الله دون فهم أو تدبر للّغة التي نزل بها القرآن ونطق بها رسول الإسلام ﷺ دون أن يفقهوا علومها أو أساليبها.

فإذا قلت لهم كيف تصدرون أحكاما من الكتاب والسنة وأنتم لا تفقهون لغة القرآن والسنة؟! أو قلت لهم ألا تخشون الله في استنباط أحكام أنتم لستم لها بأهل، وإن عليكم الاهتمام باللغة قبل أن تصدروا الأحكام فتَضِلّوا أو تُضلّوا؟! ... أجابوك باستصغار شأن اللغة في فهم كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

فأضافوا بزعمهم هذا ضِغثا على إبّاله وزادوا المصيبتين أخرى، فتأثر بهم بعض العامة وحملوا بعض المفاهيم الفاسدة والأفكار الخاطئة، وقامت عليها فِرَق وفِرَق بعضها متصل بمن سبق، وبعضها عنها منقطع.

إلا أن الله ﷻ قد منّ على هذه الأمة برجال ورجال، ارتقوا بهذا الدين من شاهق إلى شاهق بفضل الله، وحَفِظ الله دينه، فلم تستطع تلك الفرق أن تغير مساره أو تطمس أفكاره.

وقام علماء فيها أفذاذ، فبذلوا الجهد والوسع في نقل تلك اللغة، لغة القرآن نقية صافية من أصولها ومظانّها، ثمّ بَنَوْا عليها علوماً أخرى في الأصول والفقه، وكانت علوم اللغة مصاحبة لعلوم القرآن والحديث وأساسا لهما.

فحفظوا لنا ونقلوا كيف كان العرب يتكلمون، وكيف كانوا يفهمون كتاب الله وسنة رسول الله باللغة التي بها نزل الكتاب، وباللغة التي نطق بها الرسول ﷺ.

❊ ❊ ❊

وباستقراء اللغة العربية كما دُوِّنت ونُقلت، يتبين أن مصادر العرب في مسمياتهم ومعاني ألفاظهم هي أربعة:

أولاً: الحقيقة: وهي ثلاثة:

أ. **الحقيقة اللغوية:** وهي المعنى الموضوع للفظ عند أصل الوضع في لغة العرب كلفظ (رأس) للإنسان أو الحيوان ـ أعلى الجسد ـ .

ب. **الحقيقة العرفية:** وهي المعنى المنقول للّفظ بعرف العرب في الاستعمال بدل المعنى الموضوع له أصلا كلفظ (الدابة) لكلّ ما يسير على أربع عُرفاً بدل استعمالها في كلّ ما دبّ على الأرض لغة، فتكون كلمة (الدابة) حقيقة عرفية في ذوات الأربع.

وهذه تسمى الحقيقة العرفية العامة أي بعرف العرب العامّ.

وهناك الحقيقة العرفية الخاصة باصطلاح أهل كلّ فن مثل استعمال لفظ (الفاعل) للدلالة على ما أُسنِد له الفعل عند علماء النحو.

ج. **الحقيقة الشرعية:** وهي المعنى المنقول للّفظ بواسطة الشرع كلفظ (الصلاة) للأقوال والأفعال المخصوصة بدل استعمالها في (الدعاء) لغة.

ثانياً: المجاز:

وهو تجاوز الحقيقة في استعمال اللفظ، وبمعنى آخر استعمال اللفظ في غير ما وضع له حقيقةً لقرينة:

أ. **إما مانعة من استعمال المعنى الحقيقي لعلاقة:**

وهذه مجاز مرسل إن كانت العلاقة غير المشابهة مثل ﴿**يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم**﴾ البقرة/آية١٩ فأطلق الكلّ (الأصابع) والمراد أطراف الأصابع أي الجزء، وبذلك فالعلاقة الكلية.

ومجاز عقلي إن كانت العلاقة هي الإسناد لغير الحقيقة مثل (بنى الأمير المدينة) فالبناء أُسند إلى الأمير في حين أن البناة هم غير الأمير.

واستعارة إن كانت العلاقة المشابهة مثل (صعدت إلى رأس الجبل) فأطلق الرأس على أعلى الجبل مشابهة لإطلاق الرأس حقيقة على أعلى جسم الإنسان.

والقرينة في كلّ ما مضى تمنع من إرادة المعنى الأصلي، فالأصابع كلها لا تدخل الأذن والأمير لم يبنِ المدينة حقيقة والجبل لا رأس حقيقة له.

ب. وإما غير مانعة من استعمال المعنى الحقيقي:

وهي الكناية: مثل (نؤوم الضحى) كناية عن الفتاة المدللة المخدومة في بيتها، وهنا فالقرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي فإن تلك الفتاة قد تكون فعلا تنام إلى الضحى.

ثالثاً: الاشتقاق:

فإذا استعمل العرب أصل كلمة ما بمعنى معين، فإن جميع مشتقاتها حسب تفعيلات اللغة يمكن استعمالها بمعنى متصلٍ بمعنى أصل الاشتقاق سواء استعمل العرب هذه المشتقة الجديدة أم لا. مثلا: إذا استعمل العرب (سَلِمَ) بمعناه المعروف واستعملوا سالم، سليم ... ولكنهم لم يستعملوا (سلمان) فإن استعمال (سلمان) على وزن (فعلان) كصيغة مبالغة من (سلم) يكون استعمالا عربيا وتكون الكلمة عربية حتى لو لم يستعملها العرب ما داموا استعملوا جذر الاشتقاق لها، وما دامت هي مشتقة على وزن تفعيلاتهم.

والاشتقاق يكون بسيطا (صغيرا) ويسمى كذلك (العام والأصغر) وهو يكاد يعمّ اللغة كالذي بيّنّاه من تصريف (سلم) بجامع معنى السلامة في مشتقاتها نحو: سلم، يسلم، سالم، سلمى، السلامة، السليم والذي يطلق أحيانا على اللديغ تفاؤلا بالسلامة.

ويكون الاشتقاق في أجزاء من اللغة (كبيرا) (ويسمى كذلك الأكبر) وهو تقليب حروف الكلمة بجامع من المعنى.

نحو (جبر) فتكون (جرب)، (برج)، (بجر)، (رجب)، (ربج) بجامع معنى القوة والشدة.

- (جَبَرَ): جبرت العظم أو جبرت الفقير إذا قويتهما وشددت منهما، والجبْر الملك لقوته وتقويته لغيره.

- (جَرَبَ): رجل مجرب أي جبرته الأمور فقوت متنه وشدت شكيمته، والجراب لأنه حفظ ما فيه وإذا حُفظ الشيء وروعي اشتدّ وقوي.

- (برج): لقوته في نفسه وقوة ما يليه به (البُرج).

- (بجر): منه الأبجر القوي السرّة.

– (رجب): رجّبت الرجل إذا عظمته وقويت أمره، ومنه شهر رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، ومنه الرُّجبة. وهي ما تدعم بها النخلة إذا مالت لتستند إليه وتقوى به.

– (ربج): ومنه (الرَّباجي) وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله أي يعظم نفسه ويقوِّي أمره.

وهذا الاشتقاق أعوص من الاشتقاق البسيط مذهبا، ومطلبا، فهو ليس في كلّ اللغة بل يوجد في بعضها ولا يخرجه من مظانّه إلا من كان له أهلا.

وعادة ما يكون الاشتقاق من الفعل أو المصدر سواء أكان بسيطا أم كبيرا، مثلا من (سَلِمَ أو سِلْم) ومن (جَبَر أو جَبْر).

ولكنه يكون أحيانا من غيرها كالاشتقاق من الاسم الجامد، مثل: أعرق وأنجد من العراق ونجد، أي ذهب ودخل العراق ونجدا.

وكالاشتقاق من الحرف، مثل لا ليت، ولو ليت قلت لا ولو أو جأجأ الإبل دعاها للشرب بقول جئ جئ، ومثل الفأفأة وهو من ردد الفاء وأكثر منها في كلامه.

ثمّ هناك ما له صلة بالاشتقاق كالنحت المركب والمسمى أحيانا الاشتقاق الكُبَّار، مثل عبشمي من عبد شمس، بسمل من بسم الله الرحمن الرحيم، حوقل قال لا حول ولا قوة إلا بالله.

وباب الاشتقاق باب واسع مهم، وأهميته آتية من كون جميع مشتقاته يجمعها معنى عام.

رابعاً: التعريب:

كأن يضع الأعاجم اسما لشيء عندهم فيأخذ العرب هذا الشيء ويأخذون اسمه معهم لكنهم يجعلون الاسم الأعجمي على وزن كلامهم فيغيرون بعض الحروف أو ينقصون أو يزيدون ليجعلوها على وزن تفعيلاتهم.

وعندها تصبح الكلمة عربية، وللدلالة على الشيء نفسه الذي كانت تدلّ الكلمة الأعجمية قبل تعريبها عليه، مثل: إستبرق وسندس للحرير الغليظ والرقيق على التوالي. وعندما تعرب الكلمة أي يدخلها العرب إلى كلامهم بعد تعديل حروفها لتصبح على وزن تفعيلاتهم، تصبح حينها عربية المبنى والمعنى سواء بسواء مثل أي كلام وضعوه في الحقيقة أو المجاز أو كان مشتقا من أصل استعملوه.

والتعريب كما هو معروف لا يكون إلا في أسماء الأشياء المحسوسة وليس في المعاني، لأن العرب فعلوه فقط في أسماء الأشياء المادية الموجودة في بلاد الأعاجم والتي نقلوها لبلادهم بعد تعديل حروفها حسب أوزان لغتهم.

هذه مصادر العرب في مسمياتهم:

فالكلمة العربية:

- إما أن تكون دلالتها على الحقيقة الشرعية أو اللغوية أو العرفية.
- وإما أن تكون دلالتها على المجاز الذي استعمله العرب.
- أو أن تكون مشتقة من جذر دلالته مستعملة عند العرب.
- أو أن تكون أعجمية أدخلت إلى العربية بعد تعديل حروفها لتوافق أوزان العربية.

وتكون هذه الأربعة عربية سواء بسواء.

وغيرها لا يكون عربيا حتى لو كانت حروفها عربية.

فلو قلنا كلمة (عين) واستعملناها في عين الإنسان المعروفة تكون عربية لأنها استعملت في الحقيقة اللغوية.

أو لو استعملناها بمعنى (الجاسوس) تكون عربية لأننا استعملناها في المجاز الذي استعملته العرب.

لكن لو استعملناها بمعنى (البيت) لا تكون عربية لأنها لم تستعمل في الحقيقة التي استعملتها العرب، ولا في المجاز الذي استعمله العرب، ولا في معنى لأحد مشتقاتها، ولا هي معربة من العرب على أوزانهم بمعنى البيت. فلا تكون كلمة (عين) بهذا الاستعمال عربية حتى وإن كانت حروفها عربية.

كذلك لو كتبت ألفاظا تركية أو فارسية أو إنجليزية بحروف عربية، وكان المعنى لتلك الألفاظ لم يستعمله العرب فإن هذه الألفاظ لا تكون عربية. فلو كتبنا (READ) كما تلفظ بالإنجليزية ولكن بحروف عربية (ريد) واستعملناه بمعنى (اقرأ) كما في الإنجليزية، فإن هذه الكلمة (ريد) بهذا المعنى (اقرأ) حتى وإن كانت مكتوبة بالحروف العربية لا تعتبر عربية، لأن كلمة (ريد) لم تستعمل في الحقيقة أي المعنى الذي وضعه العرب لهذا اللفظ (ريد) ولا بمعنى مجازي وضعه العرب لها، ولا في معنى أحد مشتقاتها العربية ولا هي معربة بأوزان العرب لأن

التعريب لا يكون إلا في أسماء الأشياء المحسوسة وليس في المعاني كالقراءة.

وبذلك فالكلمة حتى تكون عربية يجب أن تكون حروفها عربية من حيث النطق، ومعانيها عربية من حيث استعمال العرب لها في الحقيقة أو المجاز أو الاشتقاق أو التعريب، وبغير ذلك لا تكون الكلمة عربية.

وإدراك ذلك من لغة العرب مهم في فهم القرآن كما فهمه المسلمون في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته من بعده.

فالقرآن عربي اللغة فتفهم آياته وكلماته طبقا للّغة العربية، فلو فسرت كلمة فيه بغير الحقيقة الشرعية أو اللغوية أو العرفية أو بغير المجاز أو الاشتقاق والتعريب، فإن هذا التفسير وهذا الفهم ليس عربيا، وبالتالي فهو مخالف لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد ينشأ عنه ضلال أو كفر والعياذ بالله.

* * *

لماذا الاهتمام باللغة العربية

وهنا لا بدّ من ذكر أمرين مهمين:

- **الأول:** أقوال أقوام أن لا داعي للاهتمام بهذا القدر باللغة لفهم القرآن، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا.

أو بالأحاديث، أي أن الآية تفسر بآية أو حديث، والاعتماد على اللغة بهذا القدر ليس من الضرورة بمكان.

ثم ظهرت على إثر ذلك بعض الكتابات مثل تفسير القرآن بالقرآن، وظنوا أن هذا هو الحق.

هل في اللغة والقرآن مجاز أو لا؟

- وأما **الثاني:** فأقوال أقوام آخرين بأن لا مجاز في اللغة أو في القرآن، وظنوا كذلك أن هذا هو الحق.

أما القول الأول:

فإن المتدبر فيه لا يجده مستقيما لما يلي:

١. ليس كلّ آية لها تفسير بآية أو حديث بل القليل القليل هو الذي له تفسير بآية أو حديث مثل قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا**

مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ المعارج/آية١٩ ـ ٢١ فهنا الآية فسرت معنى قوله تعالى: ﴿ هَلُوعًا ﴾ بأنه الذي ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾.

أو قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ البقرة/٤٣ فبينها رسول الله ﷺ بأحاديثه في معنى الصلاة، ومنها قوله ﷺ فيما رواه أبو حميد الساعدي رضي الله عنه: **"كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائما ورفع يديه حتى يحاذي بها منكبيه، ثم يكبر إذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذي بها منكبيه، ثم قال الله أكبر، وركع ثمّ اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه، ثم قال سمع الله لمن حمده، ورفع يديه واعتدل حتى يرجع كلّ عظم في موضعه معتدلا ثم هوى إلى الأرض ساجدا ثم قال الله أكبر، ثم ثنى رجله وقعد عليها واعتدل حتى يرجع كلّ عظم في موضعه، ثم نهض ثم صنع مع الركعة الثانية مثل ذلك ... الحديث"**[1].

وما روي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: **"لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب"**[2]. وفي لفظ الدارقطني: **"لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"**[3] وقال: إسناده صحيح.

٢. إن هذه الآيات القليلة التي فسرت بآية أو حديث، لا يفهم تفسيرها الوارد في الآية الأخرى أو الحديث إلا باللغة العربية التي نزلت بها الآية وقيل بها الحديث.

وهذان الأمران: ليس كلّ الآيات مفسرة بآية أخرى أو حديث، ولأن الآية المفسِّرة أو الحديث بحاجة إلى اللغة العربية لتحقّق الفهم الصحيح، هذان الأمران يجعلان قول القائلين بأن القرآن يفسر بعضه بعضا، أو يفسر بأحاديث رسول الله ﷺ وأنه لا حاجة للاهتمام باللغة بهذا القدر لفهم القرآن الفهم الصحيح، يجعلان هذا القول غير صحيح ولا تقوم به حجة.

ومن الجدير ذكره أن من أراد أن يفهم القرآن بغير لغته التي بها أنزل يكون قد عطّل فهم القرآن والعمل به، ويكون بذلك قد ارتكب إثما عظيما لأن القرآن قد أنزل باللغة العربية وبغيرها لا يمكن أن يفهم فهماً سليماً.

ولهذا حرص الفقهاء على العربية وعلومها، ناهيك عن المجتهدين ليتمكنوا من فهم القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منه.

---

[1] الترمذي: ٣٠٤، أحمد: ٤٢٤/٥، ابن ماجه: ١٠٦١، أبو يعلى: ٢٩٥/١٢، ابن حبان: ١٧٨/٥

[2] البخاري: ٧٥٦، مسلم: ٣٩٤، أبو داوود: ٨٢٢، الترمذي: ٣١١، أحمد: ٣١٤/٥

[3] الدارقطني: ٣٢١/١، ٣٢٢

فكثير من الضلال قد كان مصدره الضعف في العربية وعدم إجراء آيات الله على معانيها حسب مقتضيات هذه اللغة التي اختصّ الله كتابه بها، حتى إن رسول الله ﷺ قد قال لرجل لَحَنَ: "**أرشدوا أخاكم فقد ضل**"[1] فقد سمّى الرسول ﷺ اللحن ضلالا على اعتبار ما سيؤدي إليه، أي ذكر المسبَّب (الضلال) بدل السبب (اللحن).

ومرّ عمر رضي الله عنه على قوم يسيئون الرمي فقرّعهم فقالوا: إنا قوم متعلمين. فأعرض عنهم وقال: "والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ علي من خطئكم في رميكم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: **رحم الله امرأً أصلح من لسانه**"[2].

فالقرآن عربي اللغة فلا يفهم إلا بهذه اللغة، فمن أراد أن تستقيم عقيدته ويفهم أحكام الشرع على علم فليتقن لغته وليتفقه في دينه كما علم رسول الله ﷺ أصحابه، وكما ساروا ـ رضوان الله عليهم ـ على سنته فعبدوا الله على علم وكانوا من الفائزين.

فمن كان لا يملك علما في العربية مناسبا فلا يخوض في آيات الله محاولا تفسيرها بغير اللغة التي بها أنزل، وعليه أن يسأل من لهم علم ويتعلم منهم معنى آيات الله فإن القول في آيات الله بغير علم أمر كبير عند الله يوقع صاحبه في غضب الله، نعوذ به سبحانه من سخطه ومن النار ونسأله سبحانه رضوانه والجنة.

أما القول الثاني، فإن قائليه قسمان:

قسم يرى أنّ في اللغة حقيقة ومجازا، لكن القرآن لا يوجد فيه إلا الحقيقة.

وقسم يرى أنه لا يوجد في اللغة ولا القرآن مجاز بل كلّ ما ورد عن العرب من استعمال الألفاظ في معانيها، كلّ ذلك حقيقة في اللغة وفي القرآن كذلك.

أما القسم الأول فقولهم لا تقوم به حجة لأن الذي يقرّ المجاز في اللغة عليه أن يقره في القرآن لأن الله جل جلاله قال عن الكتاب: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا** ﴾ يوسف/آية٢، ﴿ **وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ١٠٣** ﴾ النحل/آية١٠٣، فهو عربي اللغة، وما دامت العربية تحوي المجاز وهو مستعمل في لغة العرب وأساليبهم في الكلام، والقرآن أنزل بلغة العرب فلا مندوحة من الإقرار بأن في القرآن مجازا كذلك. هذا من وجه.

---

[1] الخصائص لابن جني: ٨/٢ مطبعة دار الكتب المصرية طبعة ١٩٥٥، إرشاد الأريب: عن ابن مسعود ٨٢/١

[2] إرشاد الأريب: ٦٧/١ مطبوعات دار المأمون، الأضداد لابن الأنباري صفحة ٢٤٤ طبع حكومة الكويت. قال عمر: سوء اللحن أشد من سوء الرمي، الأدب المفرد للبخاري: ٨٨٤

ومن وجه آخر فإن القرآن يحوي بالفعل (مجازا) من الكلام ولا ينكر ذلك إلا مكابر أو معاند، فقوله ﷻ: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ البقرة/آية١٩ استعمال للأصابع في غير ما وضعت له حقيقة بل في جزء من الأصابع أي أطرافها فقط فهي التي تُجعل في الآذان.

وقوله ﷻ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ يوسف/آية٨٢ هو مجاز لأن جدران القرية وبنيانها ليس هو الذي يسأل بل أهلها هم الذين يسألون أي واسأل أهل القرية.

وقوله ﷻ: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ الرعد/آية١٧ هو مجاز لأن الذي سال ليس الوادي حقيقة أي ليس الجزء المحفور من الأرض بل الماء الذي فيه، أي سالت المياه التي في الأودية.

وقوله ﷻ: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ النساء/آية٩٢ مجاز لأن التحرير للعبد المؤمن وليس لرقبته فقط فالمراد ليس الرقبة.

وقوله ﷻ: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يوسف/آية٣٦ مجاز لأن المعصور هو العنب، فذكر (خمرا) والمراد به (عنبا) أي أن المراد من اللفظ غير حقيقة معناه.

وغير ذلك كثير لا ينكره من قرأ القرآن بوعي وتدبر.

لكلّ ذلك فإن قول القائلين بوجود المجاز في اللغة وعدم وجوده في القرآن مجانب للصواب لا تقوم به حجة.

وأما قول الآخرين بعدم وجود المجاز في اللغة ولا في القرآن، فإنهم يدللون على ذلك بما يلي:

١. إن كلّ ما استعمله العرب من معانٍ لألفاظهم هو على الحقيقة لا مَزِيَّة لواحد عن الآخر، فلماذا تقول هذا المعنى وضع أولا فيكون حقيقة، وهذا المعنى استعمل فيما بعد تجاوزا للحقيقة فيكون (مجازا)؟ ولماذا لا يقال إن كلّ تلك المعاني وضعت ابتداء سواء بسواء لتستعمل لذلك اللفظ في أغراض متعددة أي أن اللفظ مشترك في كلّ معانيه على الحقيقة؟

فهم يقولون مثلا في كلمة (رأس) إن العرب استعملوها كما نقل عنهم في:

- الرأس الموجود في الإنسان والحيوان.
- والرأس أعلى الجبل (رأس الجبل).
- والرأس أصل النبع (رأس النبع).

فلماذا نقول الرأس للإنسان والحيوان حقيقة، وهي للجبل مجاز وللنبع مجاز؟

وكيف نقرر أن هذا المعنى وضع أولا للإنسان ثم استعمل مجازا للجبل والنبع؟

ولذلك فإنهم يقولون كلّ هذه المعاني رأس الإنسان ورأس الجبل ورأس النبع كلّ ذلك على الحقيقة واللفظ فيها مشترك.

والمعاني في استواء واحد، وعند استعمالها أو فهمها في نصّ ما نستعرض هذه المعاني كلها ويُعتمد المناسب منها للسياق.

وعلى هذا لا يصح أن نعمد إلى (رأس الإنسان) أولا على اعتبار أنه الحقيقة، فإنْ تعذر هذا الاستعمال في النص عمدنا إلى المجاز، بل نستعرض كلّ المعاني دفعة واحدة وما يناسب السياق يُعتمد، فليس هناك حقيقة أولاً، فإذا تعذرت كان المجاز بل الكلّ حقيقة ولا أولوية لمعنى على آخر إلا بالقرينة في السياق.

٢. يقولون إنه لم ينقل عن العرب في عصورهم الأولى في علومهم أنهم قسموا الكلام إلى حقيقة ومجاز، ولو كان الكلام حقيقة ومجازا لنقل عن العرب في عصورهم الأولى رواية أو كتابة.

لهذين السببين يقولون أنْ لا تقسيم في اللغة إلى حقيقة ومجاز، بل كلّ ما استعملوه هو حقيقة في مستوى واحد.

وهذا القول يمكن مناقشته:

١. فهو يقرّ بجميع المعاني التي استعملها العرب لألفاظهم، وإنها تنطبق على اللفظ في اللغة وفي القرآن كذلك.

٢. عدم تقسيم هذه المعاني إلى حقيقة ومجاز لتعذر معرفة من وضع أولا من هذه المعاني، ولأنها جميعها في درجة واحدة من حيث الاستعمال ولذلك يعتبرونها معاني مشتركة للفظ.

٣. لا أولوية في الاستعمال عند فهم النص، فلا يُعمد إلى الحقيقة أولا فإن تعذرت انتقل في الفهم إلى المجاز، بل كلّ تلك المعاني على سواء وتستعرض جميعها معا عند فهم النص، ويختار المناسب للسياق.

والآن نتساءل هل صحيح أنه يتعذر معرفة المعنى الذي وضع اللفظ له أصلا (الحقيقة) من المعنى الذي استعمل فيه فيما بعد لقرينة مانعة من المعنى الأصلي؟!

وهل المعاني التي استعملها العرب لألفاظهم كلها في درجة واحدة أي تتساوى

في الاشتراك فلا ينصرف الذهن لواحدة أسبق من الأخرى؟! ... أم أن الفهم يسبق إلى معنى معين دون الآخر عند سماع اللفظ؟!

وبتدبر هذا الأمر والتعمق فيه نجد ما يلي:

إن اللفظ لو كان مشتركا في كلّ تلك المعاني لما سبق إلى الفهم عند إطلاق هذه الألفاظ بعض المعاني دون بعضها على اعتبار أنها مستوية في الدلالة، ولكن الأمر غير ذلك.

فمثلاً: استعمل العرب كلمة (رأس) للدلالة ـ كما قلنا ـ على رأس الجسد ورأس الجبل ورأس النبع، غير أن هذا اللفظ (الرأس) لو أطلق بلا قرينة فإن الذهن سينصرف على الفور إلى رأس الإنسان وليس إلى شيء آخر كرأس الجبل أو رأس النبع إلا بقرينة.

وأيضا كلمة (يد) استعملها العرب لليد الجارحة المعروفة وكذلك على القوة (يد الأمير تطال كلّ عابث) وفي الكرم والفعل الحسن (له عندي يد بيضاء). غير أننا لو أطلقنا لفظ (يد) بدون قرينة فإن الذهن سينصرف إلى اليد المعروفة ولا ينصرف إلى غيره إلا بقرينة.

وكذلك (دم) استعملها العرب في الدم المعروف، وكذلك في الدية فقالوا (أكل فلان دم فلان) أي ديته، غير أننا لو أطلقنا لفظ (دم) بدون قرينة لانصرف الذهن إلى الدم المعروف ولا ينصرف لغيره إلا بقرينة.

ثمّ إن العرب استعملوا (بنى) بمعنى البناء المعروف، وكذلك استعملوها في الزواج فقالوا: (بنى فلان بفلانة) أي تزوجها ودخل بها حيث كانت العرب تبني بيتا جديدا (خيمة أو نحوها) للمتزوج الجديد يدخل بامرأته فيها، غير أننا لو أطلقنا لفظ (بنى) بدون قرينة فإن الذهن ينصرف إلى البناء المعروف ولا ينصرف إلى غيرها إلا بقرينة.

وغير ذلك كثير على هذا النحو، وهو يدلّ أن مثل هذه المعاني ليست بدرجة واحدة وأن بعضها (أصل) فينصرف الذهن إليه بدون قرينة، وبعضها الآخر تحتاج إلى قرينة أي أنها استعملت في غير المعنى الأصلي لها بقرينة وعلاقة ما، وهذا هو ما سموه المجاز، أي تجاوز الحقيقة في استعمال اللفظ بمعنى آخر لقرينة وعلاقة مع المعنى الأصلي.

ولذلك فإن هناك حقيقة ومجازا، ويُعمد أولا إلى المعنى الحقيقي فإذا تعذرت الحقيقة عُمد إلى المعنى المجازي.

أما قولهم لو كان هناك قِسمةٌ للكلام إلى حقيقة ومجاز لَنُقِل هذا عن العرب الأوائل مشافهة أو كتابة، فإن هذا القول لا تقوم به حجة وذلك لأن العرب في العصور الأولى: الجاهلية وصدر الإسلام ونحوه، كانوا يستعملون في كلامهم الحقيقة والمجاز ويدركون أن هذا المعنى على الحقيقة وذاك على المجاز، فهم يدركون الفرق بين اليد الجارحة والقوة والكرم، وكذلك بين الرأس للإنسان والجبل والنبع، وإن ذلك المعنى حقيقة لأنه لا يحتاج إلى قرينة وهذا المعنى مجاز لأنه يحتاج إلى قرينة ففرق عندهم بين دلالة لفظ (اللِّسان) بدون قرينة على اللسان المعروف و(لسان) مع قرينة على الذكر الحسن: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الشعراء/آية٨٤ وأنَّ هذا المعنى في أصل الوضع وأنَّ المعنى الآخر تجاوز أصل الوضع لقرينة. إلا أن علوم العربية والقرآن والحديث والفقه والأصول لم تكن مُقَعَّدةً بمصطلحاتها إلا في ما بعد وبخاصة عندما بدأ بعض الضعف يدخل إلى اللسان العربي، فأصبحت توضع تلك العلوم لبيان كيفية كان العرب يتكلمون ليصحح اللسان بموجبها.

عندها وضعت العلوم في دلالات الألفاظ كالمصطلحات المعروفة من منطوق ومفهوم ومجاز والترادف والاشتراك إلى غير ذلك من مصطلحات، ولذلك فإن عدم وجود تقسيم في الكلام إلى حقيقة ومجاز في العصور الأولى لا يعتبر حجة على عدم وجود المجاز في العربية.

وهذا شأنه شأن من أنكر وجود الفاعل والمفعول به والحال والتمييز وغيرها من مصطلحات النحو المعروفة بحجة أن العرب في الجاهلية مثلا لم ينقل عنهم هذه المصطلحات.

فالعرب كانوا يتكلمون العربية على أصولها ويدركون دلالاتها دون أن يقعِّدوا لها قواعد أو مصطلحات فهي لغتهم وسليقتهم، إنما وُضعتْ تلك المصطلحات والعلوم فيما بعد من استقراء كلامهم وأساليبهم لتمكين اللاحقين من إتقان اللغة وأساليبها وإدراك معانيها واستعمالاتها.

وعليه فقول القائلين بأن كلّ ما استعمله العرب من معانٍ لألفاظهم هو حقيقة ولا يوجد مجاز هو قول لا تقوم به حجة.

لكن قول هؤلاء الذين يقرون جميع المعاني التي استعملها العرب لألفاظهم ويعتبرونها كلها معتمدة سواء استعملت في اللغة أو في القرآن، نقول إن قول هؤلاء لا يختلف عن القول الصحيح إلا:

١. في عدم تصنيف هذه المعاني إلى حقيقة ومجاز، بل اعتبارها جميعها حقيقة.

٢. أن لا أولوية عندهم في استعمال المعاني بأن يعمد أولا إلى الحقيقة فإذا تعذرت عمد إلى المجاز، وإنما يعمدون إلى جميع المعاني على السواء ويأخذون المناسب منها، كلّ ذلك فيما إذا طبقوا قولهم واعتمدوه.

نقول: إن هؤلاء إذا جمعوا كلّ المعاني المستعملة عند العرب واعتمدوها لفهم النص وسموها كلها حقيقة، فإن شقة الاختلاف ستكون ضعيفة جدا.

لكن المشكلة تحدث عندما لا يعتمدون إلا المعنى الحقيقي دون سواه في فهمهم للقرآن، عندها يلتقون مع أصحاب القول الأول الذي يقرّ المجاز في اللغة ولا يقره في القرآن، بل يقرّ الحقيقة فقط ويهمل المعاني العربية الأخرى.

المحكم والمتشابه

وهنا تكمن المشكلة، فإهمال بعض المعاني المستعملة عند العرب لألفاظهم وهي (المجاز) واعتماد بعض المعاني الأخرى لألفاظهم (الحقيقة فقط) في فهم القرآن، هذا الإهمال يوجد مشكلة من شقين:

- **الأول**: وقوعهم في الإثم لعدم فهمهم للقرآن باللغة العربية التي أنزل بها، لأن اعتمادهم لجزء من العربية دون الجزء الآخر من المعاني التي استعملها العرب يعني عدم استعمال العربية في فهم القرآن، وهذا مخالف لكون القرآن عربي اللغة.

- **والثاني**: وقوعهم في الاضطراب عند فهم آيات الله لتعطيل جزء من معانيها. فهم إذا قرأوا قوله سبحانه: ﴿ **يَـٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ** ﴾ الزمر/آية٥٦ ﴿ **وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ** ﴾ الرحمن/آية٢٧، واكتفوا بالمعنى الحقيقي للألفاظ (جنب) و(وجه) فإنهم سيضطربون في الفهم لأنهم سيجدون أن الحقيقة اللغوية التي وضعها العرب لهذه الألفاظ هي (الجنب والوجه) المعروفة.

والله منزّه عن هذه المعاني على الحقيقة التي وضعها العرب لهذه الألفاظ لأنه سبحانه ﴿ **لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ** ﴾ الشورى/آية١١ ولذلك يقعون في حيرة ويقولون في تفسيرها (جنب وليس كالجنب) و(وجه وليس كالوجه). وهذا تفسير لهذه الألفاظ بغير العربية:

فهم لم يفسروها بالحقيقة اللغوية التي وضعها العرب للّفظ، ولا هم فسروها بالحقيقة العرفية التي تعارف عليها العرب للفظ، ولم يفسروها كذلك بتفسير نقلوه عن رسول الله ﷺ أي الحقيقة الشرعية للفظ، وكذلك لم يفسروه بالمجاز أو الكناية في لغة العرب بل قالوا: جنب وليس كالجنب، وجه وليس كالوجه، أي أنهم يقرون بأن هذه الألفاظ لم تستعمل في الآيات الكريمة بالمعنى الحقيقي الذي وضعه العرب لها وبدل أن يفسروها بالمعنى المجازي عند العرب تراهم يضعون لها معنى ليس في لغة العرب.

فالوجه مثلا في لغة العرب استعمل للدلالة على الوجه المعروف بالحقيقة اللغوية، وكذلك استعمله العرب للدلالة على ذات الشخص وعبَّروا بالوجه عن الشخص ذاته من قبيل المجاز. ولكنهم لم يستعملوا (الوجه) في معنى (وجه وليس كالوجه). والقرآن عربي اللغة فتفسر آياته وكلماته بلغة العرب.

ولو فعلوا ذلك وتدبروا لوجدوا أن العرب استعملوا:

(جنب) استعمالا مجازيا، فالعرب يقولون: (هذا الأمر يصغر في جنب هذا) أي بالإضافة إليه إذا قرن به وعليه يكون معنى الآية: ﴿ **يَـٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ** ﴾ الزمر/آية٥٦ أي فيما بيني وبين الله إذا أضفت تفريطي إلى أمره سبحانه لي ونهيه إياي.

ومنه حديث رسول الله ﷺ: "**كلّ الصيد في جنب الفرا**" أو "**جوف الفرا**"[1] أي كلّ الصيد يصغر بالإضافة إلى الفرا إذا قيس وقرن به.

وكذلك استعمل العرب (وجه) استعمالا مجازيا في ذات الرجل لشرفه وعظمته فقالوا: (جاء وجه القوم)، وتكون الآية: ﴿ **وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ** ﴾ الرحمن/آية٢٧ أي ذاته سبحانه.

ولا يقال إن هذا تأويل بعيد عن المعنى، لا يقال ذلك لأن هذا استعمال عربي بهذا المعنى فاللغة العربية تقتضيه لأن الكلمة إما لها معنى على الحقيقة أو المجاز.

وحيث يعتقد كلّ مسلم أن الله ﷻ منزه عن الجنب والوجه على الحقيقة التي وضعها العرب.

أي أن الحقيقة متعذرة، عليه يعمد إلى المعنى المجازي الذي استعمله العرب ويفسر بموجبه، لأن العقيدة الإسلامية تقطع بأن الله ﷻ ليس له وجه على الحقيقة اللغوية مثل

[1] تذكرة الموضوعات: ١٦٨، وقال هذا حديث جيد لكن مرسل، كشف الخفا: ٢/١٧٧، تاريخ بغداد: ١٣/٦٠

وجهنا، وليس له جنب على الحقيقة اللغوية مثل جنبنا لأن الله منزه عن الشبيه والمثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ الشورى/آية ١١ وعندها إما:

١. أن تفسر الآية باللغة العربية فيعمد إلى المجاز ويقال الوجه مثلا للدلالة على ذات الله سبحانه.

٢. أو نفسرها بغير اللغة العربية ونقول (وجه وليس كالوجه) وكأن قائل هذا القول خجل أن يقول: لا أدري.

وهكذا فإن القائلين بوجود المجاز في اللغة وعدم وجوده في القرآن الكريم، أو القائلين إن كلّ المعاني التي استعملها العرب للّفظ كلها حقيقة ولكنهم عند الاستعمال في القرآن لا يذكرون إلا معنى واحدا ويتركون المعاني الأخرى في العربية.

كلّ هؤلاء فضلا عن مخالفتهم لنصّ القرآن: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ النحل وهم هنا لا يعتمدون العربية في فهمه، أقول فضلا عن ذلك فإنهم أشغلوا المسلمين في قضايا أثارت فرقتهم وكادت تؤدي بكلّ فرقة أن تكفّر الأخرى وهم لا يشعرون.

ولو أدركوا مدلولات اللغة لما نشأت تلك الفرق، ولما تشاحنت ولاستمروا عباد الله إخواناً.

وأختم بكلمة لأحد علماء اللغة الأفذاذ (ابنِ جنّي)، يقول: "وطريق ذلك أن هذه اللغة أكثرها جارٍ على المجاز وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة، فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها وانتشار أنحائها جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعادتهم من استعمالها". وبذلك صحت عقيدتهم وخلصت أعمالهم لله ﷻ فاستقامت أمورهم وصلحت حالهم وكانوا في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتنكبها إلا ضالّ.

* * *

وهناك أمر مهم في علوم القرآن يتعلق بتفسير آيات الله غير الحقيقة والمجاز وهو وجود المحكم والمتشابه في الكتاب.

ودليل ذلك قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

﴿ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ آل عمران.

فهل المتشابه من الآيات لا يعلم تأويله إلا الله أو لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم؟!

وبمعنى آخر هل (الواو) في: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ هي للعطف فيكون: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ معطوفين على الله وبذلك يعلمون تأويل المتشابه، أو أن (الواو) للاستئناف وبذلك يكون الوقوف لازماً بعد ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا يعلم تأويل المتشابه إلا الله ويكون الراسخون في العلم بداية جملة جديدة استئنافية؟

بتدبر هذه الآية الكريمة يتبين أن الراجح في (الواو) هو العطف وليس الاستئناف للأسباب التالية:

١. انّ الله ﷻ يقول: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ آل عمران عن القرآن الكريم، فإذا كانت (الواو) للاستئناف أي أن الله ﷻ وحده يعلم تأويل المتشابه من القرآن، فإن هذا يجعل في القرآن آيات لا يعلمها الناس، وهذا يعني أن القرآن ليس بيانا للناس ما دام يوجد فيه آيات لا يمكن للناس أن يفهموا معناها. فجعل (الواو) للاستئناف يجعل المعنى معارضا للآية الكريمة: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ آل عمران/آية١٣٨.

وأما جعل (الواو) للعطف فإنه يجعل المعنى: إن المتشابه يمكن بيانه للناس عن طريق الراسخين في العلم، وهذا يتوافق مع كون القرآن بيانا للناس.

٢. إن الله ﷻ قد نصّ على وصف زائد في العلماء وهو الرسوخ في العلم، وذكر الوصف الزائد في لغة العرب يكون لمناسبة الحكم المتعلق به، فإن كانت (الواو) للاستئناف كانت الجملة اللاحقة جديدة، أي أن القراءة تبدأ بها: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وهذا يعني أن هذا الوصف الزائد (الرسوخ في العلم) متعلق بـ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحيث إنَّ الإيمان لا يناسبه وصف زائد في العلم، بل إن العلماء وحتى غير العلماء عندهم إمكانية الإيمان بالله ولا يحتاجون إلى رسوخ في العلم ليؤمنوا، ولذلك فإن هذا الوصف الزائد (الرسوخ في العلم) لا يناسب ما بعده: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

أما إذا جعلت (الواو) للعطف فإن الرسوخ في العلم يكون عائدا لمعرفة تأويل المتشابه، وهذا حقا يحتاج إلى رسوخ في العلم، لأن المتشابه من الآيات هو ما كان لها أكثر من معنى ويصعب تحديد المعنى المراد، وبذلك يتشابه معناه على السامع والقارئ، مثل: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ الفتح/آية١٠، ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾ الرحمن/آية٢٧، ومثل ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾ البقرة/آية٢٢٨ فهذه دلالتها ليست قاطعة كالمحكم الذي له دلالة واحدة.

والمتشابه في هذه الحالة يحتاج إلى رسوخ في العلم لمعرفة تأويله، أي لا يحتاج للعلماء فحسب لمعرفة تأويله بل للراسخين في العلم.

ويكون الوصف الزائد (الرسوخ في العلم) مناسبا لمعرفة تأويل المتشابه. وتكون (الواو) راجحة في العطف، وتكون القراءة: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾.

ومن ذلك يتبين أن الراجح في (الواو) المذكورة أنها للعطف.

ويكون معنى الآية الكريمة أن في القرآن آيات محكمات، معانيها واضحة بينة لا تحتاج إلى جهد كبير لفهمها بل يستطيع فهمها من آتاه الله علماً مناسباً.

وفيه آيات أخرى متشابهة، دلالتها تتردد بين أكثر من معنى، وهي تحتاج إلى جهد كبير لتعيين المعنى الراجح، وتحتاج ليس إلى العلماء فحسب بل إلى من هم أعلم، إلى الراسخين في العلم لتأويله وتحديد المعنى الراجح.

وتُبيّن الآية كذلك أمرين مهمين:

١. إنَّ الآيات المحكمة هنّ أم الكتاب أي أصله وما يرجع إليه، وهذا يعني أنه لو ورد نصّان في مسألة واحدة أحدهما له معنى واحد أي كان محكما، والثاني له أكثر من معنى أي كان متشابها فإن المحكم قاضٍ على المتشابه ويجب أن يحمل معنى المتشابه على المحكم.

٢. إنَّ الذين في قلوبهم شك وانحراف عن الحق، يخوضون في المتشابه وهم ليسوا له بأهل، وذلك طلبا لإيقاع الفتنة والانحراف بالتفسير والتأويل لإحداث تشويه وتضليل.

ولذلك فإن الذي يخوض في المتشابه وهو ليس له بأهل قد يقع في إثم كبير قد يوصله إلى الكفر إن قاده إلى إنكار العقيدة، أو إلى حكم معلوم من الدين بالضرورة.

ومن لم يعلم تأويل المتشابه فليقل لا أدري، فإن الأمر عظيم وهو لا

يحتاج إلى علم فحسب بل إلى رسوخ في العلم. فإن لم يكن من أهله فلينقل عن المجتهدين من أهله وليتعلم منهم حتى لا يقع في غضب من الله كبير.

* * *

الطريقة التي اعتَمدتْ في التفسير

وبعدُ:

لقد شاء الله ﷻ أن ألج باب التفسير للقرآن الكريم محاولا جهدي، بتوفيق الله سبحانه وعونه، أن أجعله يُفهم كما كان يفهم في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ ما وسعني إلى ذلك من سبيل.

وقد اعتمدت في ذلك طريقة على النحو التالي:

أولاً: من حيث اللغة:

إنّ الله ﷻ قد نصّ في محكم كتابه على أنّ هذا القرآن عربي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ يوسف/آية٢، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ النحل فلا توجد في القرآن أي كلمة غير عربية.

ولقد بينا في المقدمة أن الكلام العربي إما:

- على أصل الوضع، أي الحقيقة الشرعية أو اللغوية أو العرفية.
- أو تجاوز على أصل الوضع لقرينة وعلاقة، أي المجاز أو الكناية.
- أو على أساس الاشتقاق الذي استعمله العرب.
- أو أن تكون الكلمة اسما لشيء في بلاد الأعاجم فأدخلها العرب إلى لغتهم بحروف ألفاظهم وبأوزان اللغة العربية وتفعيلاتها، وبذلك تصبح الكلمة المعربة على هذا الأساس عربية سواء بسواء.

وقد أنزل القرآن باللغة العربية على النحو الذي بيناه من أول حرف فيه إلى آخر حرف فيه، ونصّ القرآن على ذلك: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ يوسف/آية٢.

وعليه، فلا يمكن ولا يصح أن يُفهم القرآن بغير اللغة العربية التي بها نزل. ولذلك فقد عمدت في التفسير من حيث اللغة:

أ. الحقيقة الشرعية: فإن صحّ عن رسول الله ﷺ بيان للآية أو لكلمة فيها اعتمدت ذلك في التفسير لأن الحقيقة الشرعية مقدمة في النص الشرعي على باقي أنواع الحقيقة.

ومن الجدير ذكره أن الكلمة لا يكون لها حقيقة شرعية إلا إذا صحّ عن رسول الله ﷺ بيان محدد خاص بها، أما إن لم يكن البيان محددا وخاصا بها فلا يقال إن لها حقيقة شرعية.

مثال الحقيقة الشرعية تفسير الصلاة أو الحج في الآيات: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ البقرة/آية٤٣، ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾ البقرة/آية١٩٧ فقد بينها الرسول ﷺ وفصّلها من حيث أقوالها وأفعالها وكيفياتها ومدلولاتها فأصبح لها حقيقة شرعية هي المعتمدة في التفسير، وليس الدعاء أو القصد كما في معانيها اللغوية على الترتيب.

ب. إن لم يكن هناك حقيقة شرعية عمدت إلى الحقيقة العرفية واللغوية عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم كتفسير الناس والدواب والأنعام الواردة في الآية: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ** ﴾ فاطر/آية٢٨ فتكون الناس للدلالة على آدم وذريته (حقيقة لغوية)، والأنعام للدلالة على الإبل والبقر والغنم (حقيقة لغوية)، والدواب للدلالة على الذي يمشي على أربع (حقيقة عرفية) بدل تفسيرها بكلّ ما يدبّ على الأرض كما هي في أصل الوضع اللغوي، وذلك لأن الحقيقة العرفية المستعملة عند العرب تكون مقدمة على الحقيقة اللغوية.

ج. فإن تعذرت الحقيقة عمدت إلى المجاز والكذناية لأن هذا ما جرى عليه العرب في كلامهم، فمثلا قوله تعالى: ﴿ **يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم** ﴾ البقرة/آية١٩ فإن القرينة هنا مانعة من إرادة المعنى الأصلي، فالأصابع لا تدخل كلها الآذان والمقصود أطرافها فيكون تفسير الأصابع مجازا أي أطرافها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ** ﴾ البقرة/آية١٨٧ فإن المقصود ليس المباشرة اللغوية أي أن يلمس الرجل زوجته، بل المقصود الجماع لأن الممنوع في ليل رمضان كان الجماع ثمّ أزال الله ﷻ هذا المنع، والقرينة هنا لا تمنع إرادة المعنى الأصلي فلا تمنع المباشرة اللغوية، وعليه تكون كلمة ﴿ **بَاشِرُوهُنَّ** ﴾ في الآية كناية عن الجماع في رمضان.

د. ثم إذا كان العرب يستعملون جَذْرَ مشتقةٍ ما، ويستعملون مشتقات لها متعددة، لكنَّ مشتقةً منها لم يستعملوها، فإن هذه المشتقة الجديدة لو وردت يكون معناها متصلا بأصل الاشتقاق حسب تفعيلات اللغة.

فمثلاً: كان العرب يستعملون (رحم يرحم ومنها الرحمة والرحيم ...)

ولكنهم لم يكونوا يستعملون (الرحمن) في معنى وصف الله ﷻ، ولأن هذه الكلمة مشتقة من رحم على وزن (فعلان) صيغة مبالغة من رحم أي الكثير الرحمة، لهذا فحيث وردت في القرآن تعني كثير الرحمة وهي من أسماء الله الحسنى (الرحمن) حتى لو لم يستعملها العرب في هذا المعنى ما دامت مشتقة من جذر استعملوه (رحم).

ولذلك فإن الله أنكر على العرب عنادهم وجدلهم وسقوط حجتهم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾** ﴾ الفرقان فهم يعلمون ماذا يعني الرحمن، وأنها هنا للدلالة على الله ﷻ لأنهم استعملوا مشتقات (رحم) في لغتهم ويدركون معناها ولكنها المكابرة والعناد.

وقال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ الإسراء/آية١١٠.

وبالتالي فإن استعمال أيَّة مشتقة استعمل العرب جذر اشتقاقها يجعلها عربية بنفس المعنى المأخوذ من جذر الاشتقاق حسب تفعيلات اللغة العربية.

هـ. أي اسم لشيء عند الأعاجم أدخله العرب إلى لغتهم بعد أن عدَّلوا حروفه وأوزانه وجعلوه على حروف لغتهم وأوزانها يصبح هذا الاسم عربيا كما لو وضعوه في الأصل.

ويصبح هذا اللفظ المعرب عربيا فصيحا ومعناه يكون نفس المسمى الذي نقل العرب هذا الاسم له.

وحيث ورد في القرآن اسم نقله العرب من لغة الأعاجم على وزن تفعيلاتهم فإنه يكون عربيا ويفسر بنفس المعنى الذي نقل له. ففي قوله ﷻ: ﴿ **عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ** ﴾ الإنسان/آية٢١ فإن ﴿ **سُندُسٍ** ﴾ و﴿ **إِسْتَبْرَقٌ** ﴾ كلمات عُرِّبت وأصبحت عربية استعملها العرب ثم استعملها القرآن لأنه نزل بلغة العرب، ويكون تفسيرها بالمعنى الذي نقله العرب من الأعاجم وهو "سندس" للحرير الرقيق و"إستبرق" للحرير الغليظ.

وتكون هذه الكلمات عربية سواء بسواء، وهذا بنصّ القرآن حيث كلّ ما نزل فيه عربي ﴿ **وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾** ﴾ النحل.

والخلاصة أنني من حيث اللغة لم أفسر أية كلمة في القرآن الكريم إلا بما تقتضيه اللغة العربية التي استعملها العرب، فآخذ المعنى إما:

- من الحقيقة الشرعية والعرفية واللغوية حسب الوضع والنقل.
- أو من المجاز والكناية في لغة العرب حسب استعمالاتهم.
- أو من معنى أصل الاشتقاق حسب تفعيلات اللغة العربية.
- أو من تعريب الأسماء التي نقلها العرب من الأعاجم بعد وضعها حسب تفعيلات لغتهم.

ولم أضع أي معنى لأية كلمة في القرآن الكريم على غير استعمالات العرب في لغتهم ما وسعني إلى ذلك من سبيل.

ثانياً: من حيث العقل:

إن عقل الأشياء أو إدراكها أو إنتاج فكر فيها لا يتمّ إلا إذا كان هناك واقع محسوس ينقل إلى الدماغ بالحواس مع معلومات سابقة تفسر هذا الواقع، وباستعمال خاصية الربط التي ميز الله بها الإنسان في تفاعل الأمور الأربعة المذكورة:

- واقع وحواس ودماغ سليم ومعلومات سابقة تفسر هذا الواقع.
- ومن ثمّ ينتج فكر عنها ويعقلها الإنسان أو يدركها ـ وقد استوفينا ذلك عند تفسير الآية الكريمة ٣١ من سورة البقرة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ـ .
- وما لا واقع له يحس به الإنسان أو يحس بأثره، فإن عقل هذا الإنسان لا يمكن أن ينتج فكرا عنه. ولذلك فنحن نفكر في المخلوقات لأنها وقائع محسوسة لنستدل من التفكير فيها بأن لها خالقاً هو الله سبحانه. ولكننا لا نستطيع أن نُخضع المغيَّبات للبحث العقلي لأننا لا نحس بها ولا بأثرها، وإنما نكتفي عنها بما يرد في النصوص وننقل منها ... وهكذا كل المغيَّبات، فإن العقل لا يمكنه إخضاعها أمامه ليبحثها عقلياً حيث هي غير محسوسة ولا أثر لها محسوساً، فدور العقل فيها هو بمقدار ما ينقله عنها من النص حسب مقتضيات اللغة.

وهذا ما اعتمدته في تفسير المغيبات الواردة في القرآن الكريم. فالمغيبات لا أخضعها للبحث العقلي بل أنقل عنها ما ورد في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾ التوبة/آية٦ فإن الله قد قال عن هذا القرآن الكريم إنه كلام الله، فلا أزيد على ذلك ولا أبحث في كيفية كلام الله فهذا مغيب لا يستطيع العقل الخوض

فيه بل المعول عليه في فهم المعنى هو (النقل) من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهكذا عند البحث في صفات الله ﷻ فلا أتجاوز ما تقتضيه اللغة في ذلك ولا أتجاوزها إلى البحث العقلي في كيفية هذه الصفات، لأن ذات الله وصفاته ﷻ مغيبة عنا والمعول عليه في فهمنا هو النقل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم ذلك حسب مقتضيات اللغة دون زيادة أو نقصان.

فالله ﷻ سميع بصير حكيم عليم ... كما وصف الله سبحانه نفسه ﷻ، ونقف عند ذلك دون الخوض العقلي في كيفيتها لأنها مغيبة عنا ولا دور للعقل البشري كما خلقه الله ﷻ إلا في ما له واقع محسوس بعناصره التي بيناها سابقا.

ولذلك فقد حرصت أن يكون فهم صفات الله ﷻ كما كانت في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته - رضوان الله عليهم - والوقوف عند ما ورد في كتاب الله وما صح نقله عن الرسول ﷺ وإجماع صحابته - رضوان الله عليهم - دونما زيادة أو نقصان، ودون الخوض العقلي فيها كما صَنَعَت الفرق في العصور اللاحقة لعصر الرسول ﷺ وعصر صحابته - رضوان الله عليهم - حيث خاضت فيها على غير وجه.

ثالثاً: من حيث المحكم والمتشابه:

كما بينت سابقا، فقد جعلت المحكم قاضيا على المتشابه فإذا كان هناك نصان في مسألة واحدة أو كانت قراءتان متواترتان لآية واحدة، وكان مدلول أحدهما أو إحداهما متعينا أي محكما ومدلول الآخر أو الأخرى متشابها أي له أكثر من معنى فإن المحكم يقضي على المتشابه، ويُعتمد هو في التفسير وليس المتشابه.

مثلاً قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ المائدة/آية٦ فإن هناك قراءة متواترة النصب: ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ ﴾ وهي محكمة فهي تعني العطف على غسل الوجوه وغسل الأيدي إلى المرافق وبذلك فحكمها الغسل أي المطلوب غسل الأرجل في الوضوء، وهناك قراءة متواترة بجر: ﴿ وَأَرۡجُلِكُمۡ ﴾ وهي من المتشابه لأن لها معنيين:

أ. مجرورة بالمجاورة منصوبة محلا وهي تعني العطف محلا على غسل الأيدي والوجوه، فحكمها الغسل.

ب. مجرورة بالعطف على الرؤوس، فحكمها المسح بالعطف على الرؤوس.

ولأن القراءتين متواترتان فالمعنى فيهما واحد.

ولأن الآية الأولى محكمة في الغسل، والثانية متشابهة في المسح والغسل.

والمحكم قاضٍ على المتشابه، وعليه يكون الحكم غسل الأرجل إلى الكعبين.

وهكذا إذا كان النصان في مسألة واحدة، أحدهما محكم والآخر متشابه فيحمل المتشابه على المحكم لأن المحكم أم الكتاب أي الأصل والمرجع فهو قاضٍ على المتشابه.

ولذلك فقد اعتمدت هذا الفهم حيث ورد المحكم والمتشابه في الآية الواحدة بقراءتين متواترتين، أو في آيتين إن كانتا في موضوع واحد.

رابعاً: علاقة الآية اللاحقة بالسابقة في السورة الواحدة:

لقد سمّى الله ﷻ مجموع الآيات (سورة): ﴿**سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا**﴾ النور/آية١، ﴿**فَأْتُواْ بِسُورَةٍ**﴾ البقرة/آية٢٣.

وقد تمّ ترتيب الآيات في كلّ سورة بوحي من الله إلى رسوله ﷺ فكانت الآية تنزل ورسول الله يقول للمسلمين وللكتبة كذلك: "**ضعوا هذه الآية في مكان كذا**"[1]. فترتيب الآيات في السور توقيفي.

كل ذلك يدل على أن هناك علاقةً بين الآية اللاحقة مع السابقة في السورة الواحدة.

وعليه فقد بذلتُ الوسعَ محاولاً بيان العلاقة بين الآية اللاحقة والسابقة، ولعلي بإذن الله قد وفقتُ، وذلك الفضل من الله.

خامساً: من حيث تعدد الروايات أو الدلالات:

لقد حرصت أن أرجح رواية أو دلالة في تفسير الآية أو الآيات، وأن يكون الترجيح مسبَّباً. ولذلك فلم أترك معنى الآية مترددا بين عدة احتمالات بل بيّنت معنى واحدا محددا راجحا تطمئن به القلوب وتنشرح له الصدور بإذن الله.

❋ ❋ ❋

هذه هي الطريقة التي اعتمدتُها في هذا التفسير الذي سميتُه

---

[1] الترمذي: ٣٠١١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، أحمد: ٣٧٦، ٤٦٨

«**التيسير في أصول التفسير**»، وهو كما يظهر من اسمه ليس تيسيرا في التفسير بل في أصول التفسير، أي في القواعد التي يجب أن يكون التفسير مبنيا عليها ليكون كما كان أو نحو ما كان في عصر رسول الله ﷺ وعصر صحابته – رضوان الله عليهم – ما وسعني إلى ذلك من سبيل.

ولقد بذلت جهدي أن يكون له نصيب من اسمه في تفسير آي الكتاب، ورجوت الله ﷻ أن يكون تيسيرا بحقّ لمن كان عنده بعض العلوم المعتبرة في هذا الباب.

فإن وُفقتُ فيه وكان كما رجوت فذلك الفضل من الله، وإن لم يكن، فحسبي أنني بذلت الجهد مُخْلصا في الوصول إلى فهم سليم لكتاب الله العلي القدير.

سائلا المولى ﷻ لمن طالعه أن ينتفع به خيراً، ولمن تدبَّره أن يزداد به أجراً.

كما أضرع إليه ﷻ أن يتقبله مني بقبول حسن، وأن يكون لي مؤنسا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إنه سبحانه المستعان وعليه التكلان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

(سواقة) – الأردن

يوم السبت في الخامس عشر من ربيع ثانٍ ١٤١٧هـ

الموافق للثلاثين من آب ١٩٩٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

التيسير في أصول التفسير

الحزب الأول/ الجزء الأول

مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

البدء به يوم الأربعاء

الخامس عشر من ذي القعدة ١٤١٦هـ

الموافق الثالث من نيسان ١٩٩٦م

من الآية ﴿الٓمٓ﴾ (١)

إلى الآية ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ (٧٤)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ
تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ
غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ
بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ
مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ
وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ
قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ
مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ
ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ
﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ

وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا
تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ
لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ
وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

التفسير:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

هذه الآية وكذلك باقي الحروف المقطعة في أوائل السور، كلها من المتشابه أي من الآيات التي لها أكثر من معنى، وهي تحتاج إلى بذل جهد في تأويل معناها أي في تعيين المعنى الراجح، فالقطع في معنى المتشابه غير ممكن وإلا لكان محكما.

وقد وردت فيها أقوال، الراجح منها أنها (أسماء للسور تحمل معنى التحدي للعرب).

أما لماذا يرجح كونها أسماء للسور فلأن الاسم عند العرب هو ما يشدّ الأسماع ويلفت الأنظار إلى المسمّى، فإذا قلت (محمّد) عند مرور رجل التفت السامع إلى الرجل المارّ. والابتداء بهذه الحروف المتقطعة في أوائل السور يشدّ الأسماع لتلقي ما يتلى ويلفت النظر لذلك.

وعليه كان في نطق ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول السورة أمام السامعين شدّ لأسماعهم ولفت لأنظارهم إلى السورة التي ستتلى، وكان في ذلك معنى الاسم للدلالة على مسمّى، ولهذا

قلنا هي أسماء للسور، فنقول: سورة آلم البقرة، سورة يس وهكذا[١].

وأما أنها تحمل معنى التحدي للعرب فلأنها تلامس أسماعهم ابتداء بحروف من جنس كلامهم، ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه، هذا فضلا عن أن الأمي لا ينطق أسماء الحروف بل يقول: آ، إل، إم، ولا يقول: ألف لام ميم إلا إذا كان متعلما، ورسول الله ﷺ أمي يعرفونه ويعيش بينهم. وكلّ هذا زيادة في التبكيت لهم وإقامة الحجة عليهم والتحدي لهم.

* * *

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

بعد أن شدّ الله ﷻ أسماعهم لتلقي ما يتلى عليهم كما ذكرنا في الآية الأولى، أعلمهم الله سبحانه حقيقة هذا الكتاب.

فهو أي الذي يتلى عليكم من عند الله حقا، وآياته هدى للمتقين فالذي يهتدي وينتفع بها هم المتقون، هذا من حيث المنطوق وأما من حيث المفهوم فإنها تعني أن الذي يهتدي بهذه الآيات يصبح من المتقين.

فالمسلمون المتقون يهتدون بآيات هذا الكتاب ويزدادون هدى، والكفار الذين يهتدون بآياته أي يؤمنون يصبحون بذلك من المتقين. وعلى هذا المعنى يكون الوقوف في القراءة على ﴿ لَا رَيۡبَۛ ﴾ أي ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

وأيضاً يكون المعنى أن القرآن الذي يتلى عليكم لا ريب في آياته، فآياته مقطوع بها من عند الله، وهو أي الكتاب هدى للمتقين. وعلى هذا يكون الوقوف عند ﴿ لَا رَيۡبَۛ ﴾ أي ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

ففي الوقوف الأول نفيُ الريب هو عن الكتاب جملةً ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ ﴾، والهدى في آياته[٢] ﴿ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾. وفي الوقوف الثاني نفيُ الريب هو عن آيات الله ﴿ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾، والهدى في الكتاب جملةً[٣] ﴿ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

---

[١] من علامات الاسم في لغة العرب دخول (أل) التعريف وياء النداء والإسناد إليه، وهذه الأخيرة هي من أهمّ علامات الاسم عندهم، وهي هنا تنطبق على هذه الحروف لأن {ذلك الكتاب} مسند إلى ﴿ الٓمٓ ﴾ في ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾.

[٢] فيه هدى، أي داخله هدى وهذا يعني أن الهدى في آياته حيث إن ﴿ فِي ﴾ هنا للظرفية.

[٣] لا ريب فيه: أي لا ريب داخله وهذا يعني لا ريب في آياته.

مسندةً إلى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾. والوقوفان صحيحان، والمعنى في المحصلة واحد، لأن كتاب الله هو مجموع آياته والقطع في آياته قطع فيه والهدى في آياته هدى فيه.

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

بعد أن ذكر الله «المتقين» في الآية الثانية ذكر في هذه الآيات بعض صفاهم التي جعلتهم من المهتدين المفلحين، فذكر سبحانه إيمانهم بالغيب وبما أنزل الله من كتب على رسله، ثمّ ذكر إيمانهم بالآخرة، كذلك ذكر الله سبحانه وتعالى إقامتهم الصلاة وإنفاقهم مما رزقهم الله.

والمتدبر لهذه الآيات يجد ما يلي:

١. إن الله سبحانه رتب الفلاح على أمرين: الأول يتعلق بالإيمان ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾. والثاني يتعلق بالعمل الصالح ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾. وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين الإيمان والعمل الصالح في كثير من الآيات ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ البقرة/ آية٢٥.

٢. إن الله سبحانه بعد أن ذكر الإيمان بالغيب عاد فذكر الإيمان بالآخرة وهي جزء من الغيب، وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام لإبراز أهميته، فالإيمان بالغيب من العقيدة والإيمان بالآخرة أمر مهم فيها، وعلى المسلم أن يتذكر الآخرة على الدوام ويتطلع إليها فوق تطلعه إلى الدنيا أضعافاً مضاعفةً.

٣. إن الله سبحانه عندما ذكر الغيب والآخرة والكتب المنزلة نصّ على الإيمان بها، ولكن عندما ذكر الأعمال كالصلاة والإنفاق نصّ على أدائها أي القيام بها مما يدلّ على أن الإيمان غير الأحكام الشرعية، **فالإيمان** محصور في التصديق الجازم كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره.

والأحكام الشرعية العملية تكون فيما هو مطلوب تنفيذه أي القيام بالعمل. ومما يؤكد أن الإيمان غير العمل أن الله سبحانه ذكر أمورا متتالية في الآيات السابقة: الغيب، الصلاة، الإنفاق، الكتب المنزلة، الآخرة، وعندما بيّن الموقف المطلوب تجاهها ذكر

الإيمان بالغيب والكتب المنزلة والآخرة، أي بالنسبة لما فيه تصديق جازم ولكنه ذكر الأداء بالنسبة لما هو مطلوب عمله كالصلاة والإنفاق على الرغم من وقوع الصلاة والإنفاق في نص الآية بين أنواع الإيمان.

* * *

وهنا لا بدّ من وقفة عند موضوع **الأحكام الشرعية والإيمان** وبيان الفرق بينهما فأقول وبالله التوفيق:

إن **الإيمان** يتعلق بالتصديق الجازم، وأما الأحكام الشرعية فتتعلق بأداء الأعمال والقيام بها. فالإيمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل.

و**التصديق الجازم** يعني القناعة القاطعة التي لا تحتمل ريباً ولا يتطرق إليها شكّ، وهذا هو المعنى اللغوي نفسه للإيمان أي التصديق الجازم. والمطابق للواقع يعني أن الوقائع المحسوسة تصدقه ولا تناقضه، وحتى يكون تصديقا جازما ومطابقا للواقع لا بدّ أن يكون عن دليل مقطوع بصحته سواء أكان هذا الدليل:

عقلياً أي نتيجة البحث العقلي[1] في الوقائع المحسوسة كالبحث في المخلوقات المحسوسة للاستدلال بها على الله سبحانه خالقها، أو بالبحث في كلام الله المنزل ـ القرآن الكريم ـ للاستدلال على أنه كلام الله سبحانه وليس كلام بشر، ومن ثمّ الاستدلال على أن (محمدًا) الذي جاء بكلام الله هو رسول من عند الله،

أم **نقليا** أي عن طريق النقل المقطوع به عن الله سبحانه في كتابه الكريم أو عن رسوله ﷺ في حديثه المتواتر عنه ﷺ وذلك كالإيمان بالمغيبات والملائكة والكتب المنزلة سابقا والأنبياء السابقين واليوم الآخر والقدر خيره وشره. يقول سبحانه في سورة النساء/آية١٣٦: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦** ﴾ ويقول صلوات الله وسلامه عليه جوابا لسؤال جبريل ـ عليه السلام ـ عن الإيمان في الحديث: "**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى**"[2].

هذا هو **الإيمان** وهو بهذا المعنى مقابل للكفر، فغير المؤمن كافر قطعا وليس هناك

---

[1] انظر الآية ٢٣ والآية ٣٠-٣٣ ـ انظر التفسير للآيات المذكورة.

[2] البخاري: ٥٠، مسلم: ٩

نصف مؤمن ونصف كافر.

يقول سبحانه في مقابلة الإيمان بالكفر:

• ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ البقرة/آية٢٦.

• ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾ آل عمران/آية١٧٧.

• ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ البقرة/آية١٢٦.

• ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ البقرة/آية٢٥٧.

• ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ ﴾ البقرة/آية٢٥٣.

• ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ آل عمران/آية١٠٦.

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ الأنفال/آية١٥.

• ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ البقرة/آية١٠٨.

وآيات أخرى غيرها.

هذا بالنسبة للإيمان، فهو متعلق بالتصديق الجازم.

وأما بالنسبة للأحكام الشرعية فهي تتعلق بالأداء، سواء أكان إيجاباً أم سلباً، أي كأداء الصلاة أو الامتناع عن السرقة.

ومخالفة الحكم الشرعي تختلف عن مخالفة الإيمان (العقيدة)، فعدم الإيمان كفر، وأما عدم أداء الحكم الشرعي ففسق وعصيان، ولا يكون كفراً إلا إذا كان جحوداً أو إنكاراً[١] أو متعلقاً بعقيدة كفر، كمن لا يصلي وهو منكر لفرض الصلاة، أو يشرب

---

[١] وهكذا فقد كفر مانعو الزكاة زمن أبي بكر رضي الله عنه لأنهم أنكروها وطلبوا حذفها من التكاليف عليهم، فاعتُبروا مرتدين وقوتلوا عليها.

الخمر وهو منكر لتحريمها، أو من يسجد لصنم، أو يصلي صلاة الكفار، أو نحو ذلك.

وعليه فإن ارتكاب المعصية يختلف عن الكفر. أقول هذا لأننا نسمع هذه الأيام من يكفر أخاه المسلم بالظن، حتى أصبح التكفير سهلاً عند هؤلاء، في حين أنَّ تكفير المسلم دون دليل قطعي أمر عظيم في الإسلام. يقول رسول الله ﷺ: «**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**» أخرجه أحمد.

ولذلك فمن لاحظ من أخيه ارتكاب معصية فلا يسارع إلى تكفيره، بل يسارع إلى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ليصلح حال أخيه، فيدرك ذنبه، ويستغفر ربه سبحانه وتعالى.

وكذلك فإنَّ **الإيمان** متعلق بالتصديق الجازم ومحله القلب ونحن لا نستطيع الاطلاع على داخل القلوب إلاّ أن يظهر على صاحبه ظهورا صريحا واضحا ولذلك قلنا إن تكفير المسلم دون دليل قطعي هو كبير عند الله.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن من يُظهر الإسلام ولكنه ينكره في قلبه فإن إسلامه هذا لا ينفعه عند الله بل يزيده عذابا فوق العذاب لأنه إسلام المنافقين ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾** ﴾ النساء.

ولهذا أنكر الله على الأعراب قولهم آمنا بألسنتهم دون أن تؤمن قلوبهم حتى وإن عوملوا معاملة المسلمين على ظاهرهم ﴿ **۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ** ﴾ الحجرات/آية ١٤.

وفي هذه الآية زيادة بيان خاص بالمعاملة في الدنيا فمن أظهر إسلامه دون أن يعلن كفره بطريقة واضحة، فإنه يعامل معاملة المسلمين على ظاهره حتى وإن كان كافرا في قلبه عند الله.

كل ذلك منعا لتكفير الناس بالظن دون اليقين لأن الإيمان متعلق بالتصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ـ كما بينا سابقا ـ.

وليس معنى عدم تكفير صاحب المعصية أن هذا تهاون أو تخفيف من شأن المعصية، بل إن المعصية أمر كبير في الإسلام وصاحبها له عقوبة في الدنيا والآخرة،

وهكذا كفر إبليس، لعنه الله، عندما امتنع عن السجود إنكاراً لصحة أمر الله حيث كان يرى، لعنة الله عليه، أن الصحيح في ذلك أن يسجد آدم له لأنه خلق من نار وآدم من طين ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

ولكن تكفير المسلم بدون دليل قطعي هو كبير عند الله فلا يصحّ تكفير مسلم بأية معصية من المعاصي ما دام لا ينكر شيئا في الإسلام.

وكلمة أخيرة نقولها، وهي تساؤل بعضهم حول زيادة الإيمان ونقصه:

إن الإيمان بالمعنى الذي ذكرناه (التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل) لا يزيد ولا ينقص لأنه تصديق جازم، والجزم لا يكون إلا كاملا فلا إيمان بنسبة ٩٠% ثم يزيد إلى ٩٥% أو ١٠٠%، ولا يكون هناك إيمان ١٠٠% ثم ينقص إلى ٩٥% أو ٩٠% لأن هذا النقصان يعني عدم جزم أي شكّ وريب وعندها لا يكون إيمانا بل كفرا.

وحتى تكون الصورة واضحة نقول:

إن الزيادة والنقصان من الألفاظ المشتركة في اللغة تأتي بمعنى الزيادة الحدية والنقص الحدي أي في الاتساع والحجم، وتأتي بمعنى القوة والضعف والقرينة هي التي تحدد أي معانيها هو المقصود، فإذا اقترنت الزيادة والنقص بالإيمان فإن الدلالة تكون من حيث القوة والضعف لأن التصديق الجازم لا يصحّ معه الزيادة الحدية أو النقص الحدي، وعلى هذا الوجه تفهم الآيات:

- ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾** ﴾ آل عمران.
- ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾** ﴾ الأنفال.
- ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾** ﴾ الأحزاب.

أي أن المؤمنين قد قَوِيَ إيمانهم واشتدّ بسبب هذه الأمور التي بيّنها الله سبحانه في الآيات السابقة. كلّ ذلك لأن الإيمان بالمعنى الذي بيناه (التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل) لا تصح معه زيادة أو نقصان بالمعنى الحدي، وإلا كان غير جازم وانقلب إلى شكّ وريب وأصبح كفرا.

ومن الجدير ذكره أن (الإيمان) حيث ورد عَرِيّا عن القرائن كان مدلوله هو المذكور آنفا وإن ورد بغير هذا المعنى فالقرينة توضحه، مثلا:

﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ** ﴾ يعني صلاتكم لأن المسلمين بعد أن حولت

القبلة نزلت الآية: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة/آية١٤٣ تطمينا للمسلمين أن صلاتهم السابقة جهة القبلة الأولى مقبولة ولهم أجرها. ومثلا حديث رسول الله ﷺ: "**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**"[١]. ومعلوم أن عدم إماطة الأذى لا يجعل الإنسان كافرا ولذلك فالإيمان هنا يعني الطاعات لله بشكل عام. وكذلك حديث رسول الله ﷺ: "**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**"[٢] فإن الرسول ﷺ لم يكن يعاقب الزاني عقوبة المرتد بل عقوبة حدّ الزنا، ويعتبره مسلما ويصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين. وفعل الرسول ﷺ قرينة على أن لفظ الإيمان في الحديث ليس بالمعنى العَقَدِي للإيمان الذي هو مقابل الكفر، وإنما للدلالة على عظم جريمة الزنا كما لو أن مقترفها فقد الإيمان حين فعلها من باب التعبير المجازي للدلالة على عظم الجريمة.

من كلّ ما سبق يتبين الفرق بين الإيمان والأحكام الشرعية.

نسأله سبحانه أن تكون قلوبنا مطمئنة بالإيمان، وأن نكون في أقوالنا وأفعالنا ملتزمين بأحكام الإسلام، وأن يحشرنا الله سبحانه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة أن الكتاب من عند الله حقا وأنه لا ريب فيه، وبعد أن بيّن سبحانه حال الذين اهتدوا به واتقوا وأنهم من المفلحين، بيّن سبحانه في هاتين الآيتين حال الذين كفروا وأنه لا ينفع معهم إنذار، فالله قد ختم على قلوبهم.

وكأن هذا جواب لسائل في حيرة من أمره، يسأل لماذا لم يهتدِ الذين كفروا،

---

[١] البخاري: ٨، مسلم: ٥٠، أبو داوود: ٤٠٥٦، النسائي: ٤٩١٩، ابن ماجه: ٥٦، أحمد: ٢/٤١٤

[٢] البخاري: ٦٧٨٢، مسلم: ١٠٠، ١٠٥، أبو داوود: ٤٦٨٩، الترمذي: ٢٦٢٥

وذلك لأن العرب إن قالوا "إن عبد الله قائم" كان هذا جوابا لسائل عن قيام عبد الله وهو شاكّ فيه، وحيث إنَّ الله سبحانه بدأ بالآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ ﴾ فهذا يكون على الوجه المذكور حسب اللغة[1] وورود همزة التسوية مع أم[2] يجعلهما مجردتين عن معنى الاستفهام لتحقيق الاستواء بين دخولهما أي أن الذين كفروا سواء أنذروا أم لم يُنذروا لا يؤمنون يستوي الحالان في ذلك. وهنا تظهر المسائل التالية:

١. إن ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ هي من صيغ العموم وبهذا المعنى فإن الله سبحانه يخبرنا أن الذين كفروا لا يؤمنون مهما أنذروا أو بُلِّغوا بالإسلام، فهل هذا الأمر على عمومه أو هناك تخصيص؟

إن من المقطوع به أن هذا الأمر ليس على عمومه، فإن رسول الله ﷺ قد بعث بالإسلام ليبلغه للناس وهم كفار وقد آمن منهم من آمن وبقي على كفره من بقي، ولذلك فهذا النص العام مخصص والتخصيص هنا تمّ بالعقل، والعقل يخصص النصّ الشرعي إن كان في موضوع العقيدة أي في الكفر والإيمان، لأنه أي العقل هو طريق الإيمان بها، ولذلك فإن العقل يخصص قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ غافر/آية٦٢ فـ«كلّ شيء» عامّ ولكنه مخصص عقلا في غير الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا كانت الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مخصصة في أقوام من الكفار أخبر الله رسوله ﷺ أنهم لن يؤمنوا، وصحّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: إن هذه الآية في أحبار يهود الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا. وقال الربيع بن أنس: نزلت في رجال من قريش قتلوا في بدر.

وقال غيرهم: في كفار مخصوصين كأبي لهب وأبي جهل...[3].

٢. إن إسناد الختم إلى الله سبحانه: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ هو من المتشابه،

---

[1] قولك: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، وقولك: إن عبد الله قائم جواب لسائل عن قيامه وهو شاكّ فيه، وقولك: إن عبد الله لقائم جواب لسائل عن قيامه وهو منكر للقيام... قاله المبرد.

[2] سواء إذا دخلت بعدها ألف الاستفهام لزمت "أم" معها، مثل سواء عليّ أقمت أم قعدت. فإذا عطف بعدها أحد اسمين على الآخر عطف بالواو لا غير، مثال: سواء عندي زيد وعمرو، فإذا كان بعدها فعلان بغير استفهام عطف أحدهما على الآخر بـ"أو" "سواء عليّ قمت أو قعدت"، فإن كان بعدها مصدران مثل سواء عليّ قيامك وقعودك فلك العطف بالواو أو بـ"أو".

[3] تفسير الطبري: ١٠٩/١

والراجح أن المعنى هو أن أولئك الكفار المخصوصين بلغوا من الإصرار على كفرهم والإعراض عن الحق وتَمَكُّن ذلك في قلوبهم حتى لكأنهم خلقوا بقلوب مقفلة مغلقة لا تقبل إيمانا ولا هدى، وبالتالي يكون المعنى مجازا عن تمكن الإصرار على الكفر من قلوبهم كما لو خلقهم الله على هذه الصفة.

وقد استعمل الختم والغشاوة للدلالة على تحكم الإصرار على الكفر عندهم فكأنهم صم بكم عمي كما في الآية: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة/آية١٧١ ولكن الله سبحانه ذكر الختم للقلب والسمع وذكر الغشاوة للبصر[١] لمناسبة الختم وهو الإغلاق والطبع للسمع والقلب (العقل[٢]) لأن الإدراك بهذين ليس محصورا في جهة واحدة كالإبصار، فأنت تسمع الأمور من أكثر من جهة وتعقلها من أكثر من جانب، ولكنك ترى بعينيك ما أمامك أي من جهة واحدة، فناسب الختمُ القلبَ والسمعَ للإغلاق من أكثر من جهة، وناسبت الغشاوةُ الأبصارَ للإغلاق من جهة واحدة، لذلك فالختم غير موصوفة به العيون في شيء من كتاب الله ولا في حديث رسول الله ﷺ ولا هو موجود في لغة أحد من العرب كما أعلم.

٣. لقد أعاد الله جلّ شأنه الجارّ "على" ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ للتأكيد على شدة الختم فكأن الختم تمّ في موضعين "القلوب والسمع" وهذا أقوى من الختم في موضع واحد، كمن يحافظ على شيء بوضعه في خزانة مغلقة داخل دار مغلقة، فهو أقوى في الحفظ من وضع الشيء في خزانة مغلقة داخل دار مفتوحة، وهي هنا كذلك، فإعادة الجارّ تقتضي ملاحظة معنى الفعل المعدّى به (خَتَمَ) كأنه ذكر مرتين (أي ختم الله على قلوبهم، وختم على سمعهم)، ولذلك قالوا في "مررت بزيد وعمرو" هو مرور واحد وفي "مررت بزيد وبعمرو" هما مروران، فكأنك عندما كررتَ حرف الجر قلتَ (مررتُ بزيد ومررتُ بعمرو). وهذا أقوى في الدلالة على المرورين من استعمال العطف وحده دون تكرار حرف الجر لِما في العطف

---

[١] ولذلك فالوقوف التام بعد "سمعهم": ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ أرجح من الوقوف مع الوصل لأن الختم على القلوب والسمع، والواو بعدها للاستئناف فتكون "غشاوة" مرفوعة.

[٢] القلب هنا بمعنى العقل مجازا لتشابههما في الأهمية للجسم وفي لغة العرب أُستعمل القلب بمعنى العقل مجازا في أكثر من موضع والقرآن نزل بلغة العرب فكان هذا الاستعمال في أكثر من آية، فالله سبحانه عبّر عن العقول بالقلوب في آيات منها: ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ الحج/آية٤٦.

من احتمال مرور الواحد أو المرورين.

٤. أورد الله سبحانه لفظ "القلوب والأبصار" على الجمع، وأورد الله سبحانه لفظ "السمع" مفردا ولم ترد السمع إلا بالإفراد في كلّ مواضعها بالقرآن الكريم. وقال بعضهم في ذلك: "إن السمع مصدر في أصله، يقال سمعت الشيء سمعا وسماعا، والمصدر لا يجمع لأنه اسم جنس" إلا أن هذا ليس دقيقا لأن "الأسماع" وردت في لغة العرب ولكنها قليلة قلما تقرع السمع[1].

والأرجح أن اختلافَ الناس في تفكيرهم وعقلهم بالنسبة للأمور، وكذلك اختلافهم في إبصار الأمور من حيث البصر والبصيرة، أكثرُ من اختلافهم في سمع هذه الأمور فجمعت القلوب (العقول) و(الأبصار) وأفرد (السمع).

ولهذا لما ذُكر العلم أي اليقين في الآية الأخرى، حيث يدل العلم على عدم وجود اختلاف، أُفردَ السمع والبصر والفؤاد: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾** ﴾ الإسراء/آية٣٦.

* * *

فائدة عن موضوع القلب والسمع والبصر:

١. ورد في القرآن الكريم ذكر القلوب أولا ثم السمع والبصر عندما يتعلق الأمر بالإيمان لأن العقلَ مادتُه ﴿ **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾** ﴾ بعد ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾** ﴾ ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾** ﴾ النحل/آية١٠٧-١٠٨.

٢. فإذا كان الأمر في غير الإيمان وكان في اتّباع الوعظ والإرشاد قُدِّم السمع لأنه الأداة المباشرة للنقل، قال سبحانه ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ الجاثية/آية٢٣ فهو فسوق لعدم المبالاة بالمواعظ ولذا جاءت نهاية الآية ﴿ **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ فكان المناسب هنا تقديم السمع.

---

[1] قول الشاعر: قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلا لقد أبلغت أسماعي

٣. وعندما ذكر الله سبحانه الامتنان على عباده بخلقهم ذكر السمع والأبصار والأفئدة مرتبة، وهذا فيه ما يشير إلى ترتيب خلق هذه الأعضاء، يقول سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل/آية٧٨. وآية أخرى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ المؤمنون/آية٧٨ وكذلك ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الملك/آية٢٣ وآية أخرى ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ السجدة/آية٩.

* * *

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

بعد أن أعلمنا الله سبحانه في أوائل السورة أحوال المؤمنين، ثم بيّن أحوال الكافرين ذكر الله ـ جلّ شأنه ـ في هذه الآيات أحوال المنافقين، فهم يظهرون الإيمان ويخفون الكفر ويخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، كما أن عقائد قلوبهم مريضة مليئة بالشكّ والريب، يدّعون الإصلاح وهم في الحقيقة مفسدون، ويزعمون الإيمان وهم في واقعهم مستهزئون. ثمّ يعلمنا سبحانه أنه يستهزئ بهم وأن تجارتهم خاسرة وأنهم في ضلال مبين.

وتظهر في هذه الآيات المسائل التالية:

١. ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ** ﴾.

المخادعة من المفاعلة في لغة العرب، وهي بين طرفين يخادع كلّ منهما الآخر، فكيف يكون ذلك بين الله سبحانه والمؤمنين من جهة وبين المنافقين من جهة أخرى؟!

أصل الخدع (بفتح الخاء وكسرها) هو الإخفاء والإبهام، وهذا ممكن بين المؤمنين والمنافقين فيُظهر المنافق الإسلام ويخفي الكفر عن المؤمنين، وكذلك يمكن أن يخفي المؤمن أعمالا معينة عن الكفار والمنافقين فيُوَرِّي عليهم لإيهامهم بأمر كما يحدث في الحرب مثلا "الحرب خدعة"[١] ولكن التساؤل حول مخادعة المنافقين لله سبحانه هو الذي يجب الوقوف عنده. وبالنظر في المسألة يتبين أن خديعة الله للمنافقين هو استدراجهم من حيث لا يعلمون ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢** ﴾ الأعراف/آية١٨٢، وإيهامهم بأن الأموال الوفيرة عندهم والصحة والقصور هي خير لهم، في حين أنها في الحقيقة شرّ لهم وطريق لهم إلى جهنم كما جاء في الآية ﴿ **وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨** ﴾ آل عمران/آية١٧٨ فهذا هو خداع الله للمنافقين كما في الآية ﴿ **إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ** ﴾ النساء/آية١٤٢.

وأما عن خداع المنافقين لله ـ سبحانه وتعالى ـ فالله لا يخفى عليه شيء والأمر هنا يحتاج إلى بحث أعمق، وبالتدقيق فيه يتبين أن الله سبحانه لم يقل يخدعون الله والذين آمنوا، إنما قال: ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ** ﴾ والمخادعة مفاعلة وهي لا تعني تحقيق الخديعة بل حدوث المخادعة فقط، فيقول (قاتل زيد عمرا) فهنا حدثت مقاتلة ولكنها لا تعني أن زيدا قتل عمرا بل قد يقتله وقد يقتل نفسه دون أن يقتل خصمه، وهو هنا كذلك فإن المنافقين يخادعون الله، أي يحاولون بزعمهم أن يخفوا عن الله شيئاً، ولكنهم في النتيجة يخدعون أنفسهم لأن الله سبحانه يعلم ما يسرون وما يعلنون فلا يستطيعون إخفاء شيء عنه سبحانه، فيعاقبهم العقاب الذي يستحقون وتكون مخادعتهم قد وقعت عليهم هم أنفسهم.

ونبه هنا إلى نقطة وهي أنّ ﴿ **وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ** ﴾ قد جاءت في الآية

---

[١] البخاري: ٢٨٠٣، مسلم: ١٧٧١

تعقيباً على أمرين: (يخادعون الله) و(يخادعون الذين آمنوا) أما عدم تمكُّن المنافقين من أن يخدعوا الله سبحانه وأنهم يخدعون أنفسهم فهذا مقطوع به، وبالتالي فإن ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ** ﴾ تعقيباً على قوله تعالى: ﴿ **يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ** ﴾ واضحة المعنى. لكن كيف نفهم ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ** ﴾ تعقيباً على (يخادعون المؤمنين)، علماً بأن نجاح المنافقين في خداع المؤمنين ممكن، وهذا في ظاهره خلاف منطوق الخبر الوارد عن الله سبحانه ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ** ﴾؟

والجواب هو أن هناك في لغة العرب دلالةً للكلام تسمى دلالة اقتضاء، وهي تعني أن يُفهم الخبر الوارد في منطوق الكلام، يُفهم في صيغة الطلب إذا اقتضت ذلك ضرورة صدق المتكلم. وهي هنا كذلك فإن الخبر الوارد في الآية ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ** ﴾ تعقيباً على مخادعة المنافقين للمؤمنين هو في معنى الطلب أي لا تمكِّنوا المنافقين من أن يخدعوكم أيها المؤمنون بل كونوا على درجة من الوعي والفطنة بحيث ترتد مخادعتهم على أنفسهم. ودلالة الاقتضاء لضرورة صدق المتكلم معروفة مشهورة في علم الأصول.

٢. ﴿ **فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا** ﴾.

إن المرض الذي في قلوب المنافقين مرض في عقيدتهم أي في العقيدة التي في قلوبهم بحذف المضاف قبل قلوبهم، فهو ليس مرضا في الجسم بل في العقيدة: زيغ وشكّ وريب وضلال، وهم يزدادون مرضا كلما فرض الله فرضا يؤدونه أو بيّن حدا يلتزمونه أو فضحهم الله بكشف حقيقتهم فهم يضطربون لأداء فرض جديد أو استنفار في جهاد أو في حدّ يطبق عليهم، فإن هذا هو زيادة مرضهم كما قال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾** ﴾ التوبة/آية١٢٤ـ١٢٥.

٣. عقّب الله سبحانه على ادّعاء المنافقين الإصلاح ﴿ **أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾** ﴾ وعلى زعمهم الإيمان ﴿ **أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾** ﴾.

فقد ذكر الله سبحانه هنا ﴿ **لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ وفيما تقدم ﴿ **لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ لأنه قد ذكر السفه وهو الجهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له ولأن الإيمان يحتاج إلى نظر واستدلال أي إلى علم، ولذلك كان ﴿ **لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ هو المناسب لهذا الموضع. وأما

الفساد في الأرض فأمر مبني على الحسّ أي الشعور وهو البارز فيه لذلك كان ﴿ لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ هو المناسب له.

٤. ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦ ﴾.

أي يجازيهم على استهزائهم فسمّى جزاء الاستهزاء استهزاء كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ الشورى/آية٤٠ وقوله ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ البقرة/آية١٩٤ فسمى جزاء السيئة سيئة وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء في الحقيقة سيئة أو اعتداء، وإنما هو استعمال مجازي حسب لغة العرب. واستئناف قوله تعالى ﴿ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ من غير عطف في غاية القوة، فهو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، ولما كانت نكالات الله بهم تنزل عليهم ساعة فساعة قيل: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ للاستمرار ولم يقل سبحانه: (الله مستهزئ) كما قالوا: ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ وذلك ليكونَ النكالُ لهم أشد وباستمرار. لذلك جاء التعقيب بالمد في طغيانهم، فهم يعمهون في ضلالتهم أي يتمادون في كفرهم وضلالهم ويترددون حيارى لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً.

ثمّ بيّن سبحانه أن المنافقين قد اشتروا الضلالة بدلا من الهدى[١] فخسروا الدنيا بخسران تجارتهم، وخسروا الآخرة بخسران هدايتهم وذلك هو الخسران المبين.

* * *

﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ ﴾

---

[١] اقتران الباء بالمتقابلين عند الاستبدال يعني أن الذي استبدل وذهب هو الذي دخلت عليه الباء، وأن البديل هو ما كان عَرِيًّا عنها أي أن ﴿ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ تعني أنهم حصلوا على الضلال بدلا من أن يحصلوا على الهدى.

في هذه الآيات الكريمة يضرب الله سبحانه مثلين لأولئك المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فلا ينفعهم الإسلام لأنهم غير صادقين فيه بل يتمادون في الضلال ويتخبطون فيه لأنه الذي يسري في دمائهم وتمتلئ به قلوبهم.

أما المثل الأول فرجل يستوقد نارا شديدة الضياء ﴿ **أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ** ﴾ فهي لم تضئ مكانها فحسب بل ما حولها للدلالة على شدتها، ولكن هذا الضوء الشديد لا ينتفعون به بل يزيله الله كاملاً ﴿ **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ والنور أضعف من الضياء ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾ يونس/آية٥ أي أنها أُطفئت نهائياً حتى جمرها، ليس فقط ضياؤها الذي ذهب بل حتى نورها، وهكذا لَفَّهُمْ ظلام عظيم وتُركوا مضطربين يتخبطون في هذا الظلام بعد شدّة الضياء مما يولّد اضطراباً وحيرة، وهو مثلٌ لعدم انتفاعهم بالإسلام وتخبطهم في الكفر والضلال، فهم صمّ بكم عمي على الرغم من وجود حواسهم لكنهم لا ينتفعون بها حيث قد عطلوها لترك الهدى واختيار الضلال المبين.

ثم ضرب الله سبحانه مثلا آخر ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أي كمطر شديد نازل من السماء ولكنهم بدل أن ينتفعوا به كان عليهم عمى فهو قد جلب معه ظلمات ورعدا وبرقا من الشدة بحيث وضعوا أصابعهم أي أطراف أصابعهم – وهو استعمال مجازي باستعمال الكلّ عن الجزء – في آذانهم خوفا على ذهاب سمعهم من شدة صوت الرعد، وخشية على حياتهم من شدة الصواعق وهم كذلك يخشون على ذهاب أبصارهم لشدة ضوء البرق، وكلّ ذلك لهول هذا المطر النازل الذي هو ظلمات بعضها فوق بعض، يسيرون على ضوء البرق ثم يقفون عند زواله مع كلّ ما يثيره هذا من حيرة واضطراب، وهذا مثلٌ كذلك على عدم انتفاع المنافقين بالإسلام رغم عظمته، وتماديهم بالغيّ والضلال.

* * *

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا**

شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

في هذه الآيات أمر الله ـ جلّ ثناؤه ـ الناس أن يعبدوه وحده لعلهم بهذه العبادة يكونون من المتقين الذين يرضى الله عنهم، (لعلّ) وإن كانت للترجي ولكنها من الله سبحانه تجري مجرى الوعد المحتوم وفاؤه بإذنه سبحانه.

ثمّ بيّن الله سبحانه لعباده أنه الخالق لهم وللذين من قبلهم، وهو سبحانه الذي خلق الأرض والسماء فجعل الأرض مهادا يستقرون عليها، وجعل السماء سقفا، وكلّ شيء كان فوق شيء آخر فهو لما تحته سماء، ولذلك قيل لسقف البيت سماؤه. ثمّ يذكّر الله سبحانه عباده بأنه الرازق لهم فهو الذي ينزل المطر من السماء فيخرج به الزرع والغرس من كلّ الثمرات، فكيف يجعلون مع الرازق عدلاء وأمثالا يعبدونهم من دون الله وهم لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون، في الوقت الذي لو أعملوا فيه فكرهم بذلك لعلموا أن الله هو المعبود وحده سبحانه لا ندّ ولا شريك له؟

موضوع إعجاز القرآن

ثمّ إنّ الله سبحانه لإقامة الحجة عليهم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل سور هذا القرآن ثم أعلمهم زيادة في التحدي أنهم لن يأتوا بمثله مهما دعوا من شهداء يساعدونهم من دون الله.

ومن الجدير ذكره أن الله سبحانه قد كان تحداهم في مكة أن يأتوا بسورة فعجزوا وذلك في سورة يونس ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾** ﴾ يونس/آية٣٨ وهنا في البقرة وبعد الهجرة يؤكد الله سبحانه هذا التحدي مرة أخرى، لذلك جاءت الآية الكريمة في البقرة ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ** ﴾ باستعمال (من) قبل مثله والتي تفيد هنا التوكيد لأن (مِن) زائدة للتوكيد[1]. ولأن آية البقرة تأكيد للتحدي السابق في سورة

[1] لا يوجد في القرآن تكرار أو زيادة لغير معنى، ولذلك فكلّ ما ورد في القرآن وكأنه تكرار أو زيادة هو في الحقيقة لزيادة معنى

"يونس" لذلك جاءت الآية اللاحقة حاسمة في عجزهم الأبدي عن الإتيان بسورة مثله ﴿ **فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ** ﴾ لإقامة الحجة القاطعة على أن هذا القرآن العظيم كلام الله سبحانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد.

بعد ذلك بيّن الله سبحانه في آخر الآيات أنه أعدّ نارا عظيمة للكافرين، وجنات للمؤمنين تجري من تحتها الأنهار، تحوي رزقا من كلّ ما يشتهون من الثمار، متشابه في الجودة والحسن والطيب، ولهم كذلك أزواج مطهرة من كلّ إثم وأذى.

ثم يذكر الله سبحانه تفضله على عباده المؤمنين الصادقين بتخليدهم في الجنات في نعيم مقيم وخير عميم.

* * *

وهنا لا بدّ من وقفة عند إرسال الله للرسل ومعجزاتهم فنقول:

١. إن الله سبحانه قد خلق الخلق لحكمة وهي عبادته ﴿ **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾** ﴾ الذاريات/آية٥٦.

٢. أرسل الله رسلا ليبينوا للناس كيف يعبدونه ـ جلّ ثناؤه ـ واقتضت رحمة الله أن لا يعذِّب حتى يرسل رسولا يبلغ عن الله سبحانه ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾** ﴾ الإسراء/آية١٥ ﴿ **وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ** ﴾ النساء/آية١٦٤.

٣. أرسل الله سبحانه رسله للناس بمعجزات تحداهم بها لتُثْبِت للمرسَل إليهم بالحجة القاطعة أنَّ صاحب المعجزة المرسَل هو رسول من عند الله.

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون المعجزة المتحدَّى بها والمرسلة مع الرسل لأقوامهم هي في أعظم شيء عندهم زيادة في التحدي وقوة في الإعجاز.

٤. كان للسحر في عهد موسى ـ عليه السلام ـ شأن عظيم عند فرعون الطاغية وآله، فكانت معجزة موسى تشبه السحر ﴿ **فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾** ﴾ الأعراف/آية١٠٧ـ١٠٨ فظن فرعون أن الأمر سهل لعظمة السحر عنده، فجمع السحرة لإبطال معجزة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ **قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾**

مثل (مِن) هنا فقد أفادت زيادة معنى وهو التوكيد أي توكيد التحدي السابق.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ الأعراف/آية١١١-١١٤ ولقد التقى موسى - عليه السلام - السحرة في يوم عيد على ملأ من الناس فأبطل الله السحر وأظهر معجزة نبيه ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ الأعراف/آية١١٦-١١٧ عندها أدرك السحرة أن موسى - عليه السلام - رسول من عند الله حقا وأن ما جاء به ليس سحرا، فآمنوا بالله رب العالمين وكان إيمانهم عجبا، فبعد أن اشترطوا على فرعون في البداية أجرا إن كانوا هم الغالبين تراهم الآن ينسون الدنيا ويتحدَّوْن فرعون الطاغية وهو يهددهم بالقتل والصلب دون أن تضعف لهم عزيمة أو تلين لهم قناة ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ الأعراف/آية١٢٤-١٢٦. ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ طه/آية.٧٢

٥. وفي عهد عيسى - عليه السلام - كان للطب شأن عظيم وكان قد استعصى على الأطباء إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فجاءت معجزة عيسى - عليه السلام - قوية واضحة التحدي في أعظم علم عندهم ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ آل عمران/آية٤٩. ولما حاولوا قتله شبه لهم ولم يمكنهم الله من قتله أو صلبه بل رفعه الله إليه ونجاه من شرهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ النساء/آية١٥٧-١٥٨.

ولقد كان إيمان أصحابه - عليه السلام - عجبا كذلك **"قل كونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير وحمّلوا على الخشب فوالذي نفسي بيده لموتة في سبيل الله خير من حياة في معصيته"**[1] الحديث.

[1] المعجم الصغير: ٧٤٩، المعجم الكبير: ٩/٢٠، مسند الشاميين: ٦٥٨

٦. وفي عهد رسول الله ﷺ كانت صناعة العرب هي الفصاحة والبيان يعقدون لها أسواقا يتنافسون فيها في أعذب الكلام وأبلغه، فكانت معجزة محمّد ﷺ أن أنزل الله عليه قرآنا يتلى عليهم من جنس كلامهم، وتحداهم أن يأتوا بمثله فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. تحداهم أولا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾** ﴾ الإسراء/آية٨٨. ثم بعشر سور من مثله ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾** ﴾ هود/آية١٣. ثم بسورة من مثله ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾** ﴾ يونس/آية٣٨.

فلم يأتوا بمثله وهم بأشدّ الحاجة لإبطال دعوة رسول الله ﷺ لو كانوا يستطيعون. وهذا التحدي والإعجاز قد تمّ في وقت كان العرب أقحاحا يدركون معنى التحدي والإعجاز، فعندما لم يستطيعوا علموا أنه من عند الله فكان إيمانهم كذلك عجبا لا يخشون في الله لومة لائم، يستشهدون وهم صابرون كأنهم يرون قصورهم في الجنة رأي العين إيمانا بالله ورسوله "**صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة**"[1]. وذاك لا يجري على لسانه إلا أحد أحد، وهو يعذب بشدة في سبيل الله، وآخر تقطع منه أجزاء من لحمه وهو حي وهو ثابت كالجبال الراسيات يساومونه على تركه مقابل أن يتمنى مجرد أمنية أن يكون رسول الله ﷺ مكانه يعذب وهو سالم في أهله، فيقول ـ رضوان الله عليه ـ: "والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمدا. ثمّ قتلوه فاستشهد يرحمه الله"[2]. فأعزهم الله بدينه ونصرهم بنصره ففازوا في الدارين ونعم أجر العاملين.

٧. كانت تلك المعجزات للرسل دليلا قاطعا على صدق نبوتهم، غير أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مؤقتة، يشاهدها الذين حضروها في وقتها، فلا تستمر بعد انقضاء رسالتهم في قومهم، أما معجزة رسول الله ﷺ فهي باقية خالدة تتحدى الناس

---

[1] المستدرك: ٣/٣٨٣، المطالب العالية: ٤٠٣٤، الحلية: ١/١٤٠

[2] سيرة ابن هشام: ٣/١٨١

أجمعين في كلّ زمان ومكان، فالقرآن العظيم باق خالدٌ يتحدى الناس، حاضراً لا غائباً، دائماً لا مؤقتاً. فرسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات وهي للناس كافة إلى يوم الدين، ورسالات الأنبياء السابقين خاصة لأقوامهم "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من قبلي: كان كلّ نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد من قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورا أو مسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة**"[1] ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧** ﴾ الأنبياء/آية١٠٧ ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا** ﴾ سبأ/آية٢٨. فهذا القرآن العظيم هو معجزة رسول الله ﷺ وهو كلام الله سبحانه ﴿ **هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨** ﴾ آل عمران/آية١٣٨ ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩** ﴾ الإسراء/آية٩.

❁ ❁ ❁

[1] البخاري: ٣٢٣، مسلم: ٨١٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ
﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن
يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ
تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ
إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ
وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ
ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ
غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا
تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا
مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ

﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

التفسير:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. إن قوله سبحانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ ﴾ فيه دلالة – حسب لغة العرب – على أنه جواب لسائل، فقد روي أن الكفار قالوا: أما يستحي رب محمّد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت؟ بعد أن ضرب الله مثلا لمن يعبدونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ الحج/آية٧٣ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ العنكبوت/آية٤١. بعدها قال الكفار ذلك القول، فأنزل الله سبحانه

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فنّ من كلام العرب بديع. وهنا يكون المعنى الراجح ﴿ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ – وهو من المتشابه – أي لا يترك الله ضرب هذه الأمثال خشية قولكم المذكور لأن هذه الأمثال هي الحق فيما ضربت له، وحيث إن التمثيل إنما يصار له لتوضيح المعنى، فإن كان المتمَثَّلُ له عظيما كان المتمَثَّلُ به كذلك، وإن كان المتمثَّل له حقيرا كان المتمثَّل به كذلك. ولأن حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادا لله هي حال حقيرة، لذلك كان المتمَثَّل لها في سورة الحج والعنكبوت كذلك. وهذه الآية بهذا المعنى يتناسب موضعها هنا مع ذكر الله سبحانه في الآيات قبلها ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٢. ﴿ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي فوقها بالمعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة، فيكون المعنى بعوضة فما دونها كما ضرب الرسول ﷺ جناح البعوضة للدنيا: "**لو كانت الدنيا عند الله تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**"[1] تحقيرا لقيمة الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة عند الله.

٣. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ ﴾.

إنَّ ﴿ أَمَّا ﴾ هنا حرف فيه معنى الشرط ولذا كان الجواب بالفاء وفائدته في الكلام التوكيد كما قال سيبويه في معنى "أما زيد فذاهب" أي مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وعلى هذا يكون المعنى هنا أنه مهما كان المثل فإن المؤمنين يصدقون به ويطمئنون إليه، وأما الذين كفروا فإنهم سيسخرون منه من باب المكابرة والمعاندة للحق مهما كان المثل.

والوقوف هنا تامّ بعد ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ ﴾ لأنه لو وُصل لكان ما بعده صفة له وهو ليس كذلك، فليس المثل هو الذي يضلّ ويهدي بذاته بل هذا بيان وتفسير للجملتين المصدَّرتين بأما، أي أن هذا المثل يهتدي به فريق ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ويضل به فريق ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ولهذا فلا محلّ لها من الإعراب لأنها جملة تفسيرية أي ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾.

[1] الترمذي: ٢٢٤٢، وقال: هذا حديث صحيح غريب، ابن ماجه: ٤١٠٠

٤. إن الفاسقين هم الذين يضلون بالأمثال التي يضربها الله سبحانه، والفسق هو الخروج عن الأصل كخروج الطير من البيضة بعد أن يكسرها فالخروج عن أحكام الشرع هو الفسق، وقد بيّن الله صفتين من صفات الفاسقين: نقض عهود الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

أما الأول فالنقض هو الحلّ بعد الإبرام والفسخ بعد الالتزام، وهو عامّ في كلّ عهد من عهود الله. وقد ذكر الله في الكتاب عهودا على خلقه وألزمهم تنفيذها وعدم نقضها ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ الأعراف/آية١٧٢ أخذه على جميع ذرية آدم – عليه السلام – بأن يقروا بربوبيته سبحانه، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ الأحزاب/آية٧ عهد على الأنبياء أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ آل عمران/آية١٨٧ عهد خصّ به العلماء. وأما الثاني فهو كذلك في كلّ قطع لما أمر الله به أن يوصل وهو يشمل طاعة الله ورسوله وصلة الأرحام.

وقد وصف الله هؤلاء الفسقة الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وينقضون عهد الله بأنهم الخاسرون.

* * *

فائدة عن أولي الأرحام:

لقد كان العرب في الجاهلية لا يقيمون وزنا للقرابة من جهة الأم وبخاصة من لم تكن من العصبة أو من بعض الورثة المعترف بهم على عهدهم لأنهم كانوا يهتمون بمن تربطهم بهم علاقة تجمعهم في حالات الغزو التي كانت، وما يترتب عليها من دماء وأموال، أما القرابة من جهة الأم فلم يكونوا يعبؤون بها؛ فقد كانت النساء بشكل عام غير ذات حظ عندهم.

فلما جاء الإسلام ربط الناس معا برباط الإسلام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات/آية١٣ وربط المرء بقرابته كلها ربطا واضحا بإعطاء كلّ ذي حق

حقه، فبين العصبات والديات ثم الورثة وفروضهم، كذلك القرابة غير العصبات وغير الورثة وهم ما يسمون "أولي الأرحام" الذين كانوا في الجاهلية بدون اهتمام:

- ﴿ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ الأنفال/آية٧٥.
- ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾ النساء/آية١.
- **"من سرّه أن يبسط عليه رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه"**[١].
- **"الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله"**[٢].

فحثّ الإسلام على صلتهم وحرّم قطعهم وشدّد في ذلك، وأولو الأرحام هم كما قلنا قرابة الرجل من غير عصبته ومن غير ورثته وهم: الخال والخالة والعمة وبنت العم وولد البنت وبنات الأخ وولد الأخت وابن الأخ لأم والعم لأم والجد لأم وما أدلى بسبب لأي واحد من هؤلاء.

وصلة الرحم المحرم فرض للأدلة السابقة.

وصلة الرحم غير المحرم مندوب وذلك لأن عدم جواز الخلوة بغير المحارم وعدم جواز اجتماع المرأة في حياتها الخاصة إلا مع محارمها يصرف الجزم عن صلة الأرحام غير المحارم في الأدلة السابقة.

* * *

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

هذا استفهام استنكاري مع التعجب، فالأصل أن يُعبد الخالق الذي يحيي ويميت لا أن يكفر به ـ جلّ ثناؤه ـ فإن الله سبحانه هو الذي أحياكم وأنتم نطف في الأرحام فنفخ الروح فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم، ثم بعد أن خرجتم إلى الحياة وانتهت آجالكم توفاكم الله سبحانه ثم بعثكم بعد الموت فرجعتم إليه في الحساب يوم القيامة، فهذا كله موجب للإيمان وليس للكفر، ولذلك جاء الاستفهام للاستنكار والتعجب.

---

[١] البخاري: ١٩٢٥، ٥٥٢٦، مسلم: ٤٦٣٨

[٢] مسلم: ٤٦٣٥، الترمذي: ٣٠١١، أبو داوود: ٢٥٢٠، أحمد: ١٦٣/٢، ابن حبان: ١٨٥/٢

* * *

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

إن الله سبحانه قد خلق جميع الأشياء في الأرض لينتفع الإنسان بها، وهذا من الأدلة على أن الأصل في الأشياء الإباحة، ثم استوى سبحانه إلى السماء أي عمد لخلقها بعد الأرض دون خلقه شيئا بينهما، والعرب تقول استوى إليه أي قصده قصدا مستويا دون أن يلوي على شيء غيره قاله الفراء، وهذا ما أرجحه في معنى (استوى) هنا، وأقول أرجحه لأن (استوى) من المتشابه. وأتم سبحانه خلق السموات فجعلها سبعا والله سبحانه عليم بكلّ شيء من خلقه.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

بعد أن بيّن الله سبحانه أنه المحيي والمميت وأنه الخالق للسموات والأرض وأنه بكلّ شيء عليم، ذكّر الله سبحانه بالمزيد من نعمه على الناس، كلّ ذلك من باب التعجب والتوبيخ لأولئك الذين يكفرون بالله بعد كلّ هذه النعم التي أنعمها الله عليهم، فبدل أن تكون دافعا لهم ليؤمنوا ويستقيموا يكفرون ويضلون، ومن مزيد نعمه هي التي أنعمها الله على آدم ـ عليه السلام ـ بتأهيله للخلافة في الأرض. وقد استفسرت الملائكة من الله سبحانه عن هذا الأمر الذي يؤهل آدم للخلافة بدلا منهم وهم الذين يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار بالتسبيح والتقديس في حين أن بني آدم يفسدون

ويسفكون الدماء كما علموا من حالهم التي أعلمهم الله إياها؟! فأجابهم الله بأنه سبحانه اختصّ آدم بنعمة لم يختصهم بها، وكانت تلك النعمة أن علّم الله آدم الأسماء كلها أي المسميات من حيث خواصّ المخلوقات، ومدلولاتها، ولم يعلِّمها الله للملائكة، حتى يتمكن آدم من استعمال هذه المعلومات لإنشاء أفكار يعمر بها الأرض فتؤهله للخلافة فيها، عندها تَبَيَّن للملائكة أن آدم علم بفضل الله مالا يعلمون، وأن أمر الخلافة لله يضعه سبحانه حيث يشاء فييسر كلّ مخلوق لما خلقه له، فالملائكة مخلوقة لغير ما خلق له آدم ـ عليه السلام ـ والله يعلم الغيب ويعلم ما يبدون وما كانوا يكتمون.

* * *

موضوع العقل

وهنا لا بدّ من وقفة لنتبين كيف تُعقل الأشياء وتُدرك وكيف يفكر الإنسان وينشئ أفكارا جديدة.

إن المتدبر لهذا الأمر يتبين له أن لا بدّ من توافر أمور أربعة حتى يمكن للإنسان إجراء العملية العقلية أو الفكرية في أي شيء من الأشياء:

١. أن يكون لهذا الشيء، المطلوب إدراكه أو عقله أو التفكير فيه، واقع يحس به الإنسان أو يحس بأثره.

٢. أن تكون لهذا الإنسان الحواس السليمة اللازمة للإحساس بالواقع أو بأثره.

٣. دماغ سليم لهذا الإنسان يُنقل إليه الإحساس بالواقع.

٤. معلومات سابقة تفسر هذا الواقع.

وبتخلُّف واحدة منها فإنه لا يمكن إجراء العملية العقلية بشكل صحيح، وبالتالي فلا يكون عقل للشيء أو إدراك أو تفكير، حيث هذه الثلاثة بمعنى واحد، وإنما تخيلات وافتراضات ونحوها.

فلو كان هناك واقع جيد مثل كتاب مسطور بخط عربي جيد وعلى ورق مصقول صقلا جيدا وجميع مكونات هذا الواقع جيدة، ثم قُدّم هذا الواقع لأحد العلماء ممن له دماغ سليم وحواس سليمة، ولكن هذا العالم لا يعرف العربية فإنه لن يستطيع أن يعقل شيئا مما في الكتاب لعدم وجود معلومات سابقة عنده أي عدم معرفته اللغة العربية، وهكذا لو فقد أي عنصر مما ذكرنا، كأن يكون يعرف العربية ثم يفقد بصره وبعد ذلك يقدَّم له الكتاب فلا يستطيع إدراك ما هو مكتوب فيه لعدم وجود الحاسة اللازمة...

إن الله سبحانه قد خلق الإنسان وزوده بخاصية ربط بين هذه الأمور يستطيع بها أن ينتج فكراً أو عقلاً أو إدراكاً للمادة أمامه إذا توفرت عناصر العملية الفكرية السابقة. وينشئ الإنسان أفكاراً متتالية بناءً على ذلك.

والسؤال الذي ينشأ هو كيف كوّن الإنسان أول فكرٍ ما دام يحتاج إلى فكرٍ أو معلوماتٍ سابقةٍ لينتج أيَّ فكرٍ جديدٍ؟!

وهنا يُعلمنا الله بالآية الكريمة أنه ـ جلّ وعلا ـ قد زوّد آدم بهذه المعلومات السابقة وهي التي مكنته من إنشاءِ أفكار ليستعملها في الخلافة والإعمار في الأرض، وهي التي استفسرت الملائكة عنها، والتي جعلت آدم مؤهلاً للخلافة في الأرض دونهم ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾.

وهكذا فإن التفكير لا يتمّ بدون معلوماتٍ سابقةٍ، وهذا ما يتم عملياً عند بني البشر. غير أن الملاحدة يغالطون أنفسهم بتعريف العقل بأنه انعكاس الواقع على الدماغ ولا يذكرون المعلومات السابقة حتى لا يضطروا للإيمان بأن لهذا الكون خالقاً زوّد آدم بمعلوماتٍ سابقةٍ أنتجت الفكر الأول.

وبالتدقيق فيما يقولون يتبين أن تعريفهم للعقل خاطئ نصاً وموضوعاً.

فمن حيث **النصّ** لا يوجد انعكاس بين الواقع والدماغ لأن الانعكاس يعني سقوط ضوء على الواقع ثم ينعكس هذا الضوء على الدماغ، وهذا لا يتم بل الذي تمّ إحساس بالواقع، فإن صححنا لهم النص بأن أصبح الأمر هو إحساس الدماغ بالواقع فإنه كذلك لا يكفي لأن الواقع والحواس والدماغ لا تنتج فكراً عن هذا الواقع إلا إذا أضيف لهذه الثلاثة معلومات سابقة تفسر هذا الواقع.

وهم يعلمون ذلك حقّ العلم لأنهم ينتجون أفكاراً عن وقائع الأشياء باستعمال معلومات سابقة تفسرها، يحصلون عليها بوسائل أخرى. لكنهم يغالطون أنفسهم من باب الكفر والعناد والتمادي في الضلال حتى لا ينقادوا للإيمان بالخالق المدبر ـ سبحانه وتعالى ـ.

وعليه فإن تلك النعمة التي تفضل الله بها على آدم فعلَّمَه مسميات الأشياء هي التي أهلته للخلافة في الأرض دون الملائكة. فسبحان الله على آلائه والحمد لله على جزيل نعمائه.

***

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

بعد أن خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون، ومن هذه الآية يتبين ما يلي:

١. إنَّ الله أمر بالسجود لآدم، وحيث إن السجود عبادة وهي مخصوصة بالله سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات/آية٥٦ لذلك فإن الأمر بالسجود لآدم هنا هو طلب جازم أي فرض لأنه لو لم يكن فرضا لكان السجود لآدم فيه إثم وكفر، وهذه قرينة على الجزم كما في أبحاث الأصول، ولذلك فإن الأمر ﴿ ٱسۡجُدُواْ ﴾ هنا على الوجوب لأجل القرينة المذكورة.

٢. وهكذا كان عدم سجود إبليس ـ لعنه الله ـ عصيانا لأمر الله سبحانه، ولكن هذا العصيان كان إنكارا من إبليس لصحة أمر الله، ولذلك كفر إبليس بذلك لأن من لم ينفذ أمر الله إنكارا يكفر ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾ الأعراف/آية١٢ أي أن إبليس ـ لعنه الله ـ كان يعتبر أن أمر الله غير صحيح، وعليه فإن من لم ينفذ أي فرض قطعي وهو منكر له يكون كافرا لا شبهة في ذلك ولا خلاف.

٣. إن الاستثناء هنا منقطع ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أي سجد الملائكة ولكن إبليس لم يسجد فإبليس ليس من الملائكة، ولذلك فإن ﴿ إِلَّآ ﴾ هنا أداة استثناء منقطع بمعنى لكن، وهذا واضح من الآية الأخرى ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾ الكهف/آية٥٠ فإبليس من الجن وليس من الملائكة.

***

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ

مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. بعد أن كفر إبليس بفعلته أخرجه الله من الجنة ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ص/آية٧٧-٧٨ ... ثم أسكن آدم وزوجه الجنة وأباح لهما أن يأكلا من كلّ خيرات الجنة إلا شجرة عيّنها لهم وأمرهم ألا يأكلوا منها وإلا كانا من الظالمين. والظلم هو وضع الشيء في غير محله وبناء عليه نفهم معنى الآية ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ لقمان/آية١٣ لأن الشرك يعني وضع المخلوق في مرتبة الخالق، أي وضع المخلوق في غير محله وكلّ من وضع شيئا في غير محله فقد ظلم، ومن حكم بغير ما أنزل الله كان ظالما ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المائدة/آية٤٥... فقد وضع قانون البشر في مرتبة قانون رب البشر، أي وضع هذا القانون في غير محله فيكون ظالما. وهنا كذلك فإن الله جعل تلك الشجرة ممنوعة عليهم ولكنهما أزالا هذا المنع وأكلا منها أي جعلوها في غير محلها فكانا من الظالمين.

٢. لكن إبليس وسوس لهما وكان الله قد أخرجه من الجنة، ولكنه سبحانه أبقى لإبليس قدرة الوسوسة وهو خارج الجنة بكيفية يعلمها الله ابتلاء لآدم ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ الأعراف/آية٢٠... فأزلهما أي حملهما الشيطان على الزلة بسبب الأكل منها، ومن ثمّ عاقبهما الله فأخرجهما من الجنة إلى الأرض وأعلمهما أن العداء سيكون بين ذريتهم وأن الأرض ستكون لهم - والجمع هنا خطاب لهم ولذريتهم - مستقرا وتمتعا بالعيش إلى أن يلقوا الله سبحانه بعد انتهاء آجالهم.

٣. بعد ذلك أوحى الله لآدم كلمات يقولها توبة لله سبحانه، فقالها آدم وتاب الله عليه. ودلالة الآية تفيد أن تلقي هذه الكلمات والتوبة عليه كانت متسارعة مع نزول آدم - عليه السلام - على الأرض، والله سبحانه يقول ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ

﴿ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ ﴾ باستعمال الفاء التي تفيد التعقيب المتسارع، والتوبة تشمل حواء كذلك على طريقة العرب في كلامهم من تغليب خطاب الرجال على النساء.

٤. قوله سبحانه ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ ﴾ تأكيد للأمر الأول وبيان لخطاب زائد وهو إعلامهم أنه ـ جلّ ثناؤه ـ سيرسل لهم رسلا يبلغونهم هدى الله. ثم يبشر الله سبحانه وينذر: فالذين يتبعون الهدى يتحقق لهم الأمن من الله سبحانه وقد جاء ذلك في صيغة قوية من البيان فهم لا يخافون من شيء قادم ولا يخافون على شيء ماض ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾، وهذا منتهى الأمن والطمأنينة في الحياة الدنيا والآخرة، والذين يكفرون ويكذّبون رسل الله يكونون أهلاً لجهنم خالدين فيها.

* * *

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ومن هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. هذا خطاب لبني إسرائيل ـ أي نبي الله يعقوب عليه السلام ـ بأن يذكروا نعم الله عليهم، فقد نجاهم من آل فرعون والغرق وبعثهم من بعد أن أخذتهم الصاعقة وأنزل عليهم المن والسلوى وغيرها من النعم التي ذكرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه. وفي هذه الآية ما يدلّ على أنهم كفروا بنعم الله بأن نسوها بالكلية فهم لم يهملوا شكرها فقط وذلك من سياق الآية ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ لأن مفهوم الأمر بالذكر ﴿ ٱذۡكُرُواْ ﴾ دليل على أنهم كانوا قد نسوها بالكلية.

٢. يأمرهم الله أن يفوا بما أخذ عليهم من عهود بالإيمان والطاعة فيفي الله بعهدهم بحسن الثواب، والعهد يضاف إلى المُعاهِد والمُعاهَد، ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ أي خُصُّوني بالرهبة مني، وهي صيغة قوية في إفادة الاختصاص وفيها معنى الشرط

لدخول الفاء كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئا فارهبوني، والآية متضمنة للوعد والوعيد.

٣. يأمرهم الله سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزل مصدقا لحقيقة ما معهم، أي النصوص التي لم تتغير فيه حيث إنَّ الله سبحانه قد أخبرنا بأنهم غيروا وبدلوا ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ المائدة/آية١٣ أي يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التي وضعها الله فيها ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ البقرة/آية٧٥ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ وحدّ الرجم كما جاء في الحديث "... قالت يهود تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: "**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم**"[1] الحديث.

ويأمرهم كذلك أن لا يكونوا أول كافر بهذا القرآن، وهذا تعريض بأنهم كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفة الرسول ﷺ ويحذرهم الله سبحانه أن يغيروا التوراة أو يحرفوها مقابل مصالح دنيوية، وأن يتقوا الله ولا يخشوا أحداً سواه.

وما ذكره الله سبحانه ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ لا مفهوم مخالفة له لأنه خرج مخرج الغالب كما هو معروف في الأصول لأن هذا هو الذي كان، فقد كانوا يحرفون كلام الله مقابل عرض من الدنيا قليل، ولذلك فالتحذير من التغيير والتبديل قائم سواء أكان الثمن قليلاً أم كثيراً.

٤. ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي لا تخلطوا الحق بالباطل، فالباء للإلصاق وبذلك فالآية تنهى عن أمرين: خلط الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون؛ فإن خلط الحق بالباطل تضليل، وكتمان الحق إخفاء له وتضييع له وكلاهما من الكبائر في دين الله.

٥. يأمرهم الله أن يسلموا ويتبعوا الرسول الذي يجدونه في كتبهم ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهذا ما نفهمه من الآيات المذكورة فالله يخاطبهم أن يؤمنوا بما نزل مصدقا لما معهم أي بالقرآن الذي أُنزل على رسول الله ﷺ ثم يخاطبهم بأداء الصلاة والزكاة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي الصلاة والزكاة

[1] أحمد: ٢٨٦/٤

في الإسلام لأن الحقيقة الشرعية مقدمة على غيرها في النص الشرعي فمدلول هذه الآيات يعني أسلموا واعملوا عمل أهل الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران/آية٨٥، ولهذا لا يصح بعد نزول الإسلام أن يشجَّع كافر أو يهودي أو نصراني أو غيره على الثبات على دينه، بل يؤمر بالدخول في الإسلام، ليس فقط لأن الكتب السابقة قد حرِّفت، بل لأن الإسلام نسخ الأديان السابقة حتى لو بقيت صحيحة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ المائدة/آية٤٨ أي ناسخا له، وكذلك ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران/آية١٩.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن
نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ
نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ
فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟
إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا
ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أصل الخطاب إلى بني إسرائيل ولكنه عام يشمل كلّ من يفعل فعلهم، وهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه وهم يعصونه، والاستفهام هنا استنكاري للتقريع وتقبيح فعلتهم؛ فمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه أي يتركها من امتثال هذا الخير، ـ فالنسيان هو الترك على نحو النسيان في قوله تعالى ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ ﴾ التوبة/آية٦٧ أي تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه ـ، أقول: من يفعل ذلك يستحق الذمّ والتوبيخ وبخاصة وهم يتلون الكتاب أي يقرؤونه ويدرسونه ويعلمون الخير الذي فيه. ثم ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ للدلالة على عظم هذه الجريمة فكأن الذي يأمر الناس بطاعة الله وهو يعصيه قد عَطَّلَ عقله فأصبح لا يفقه ولا يدرك سوء المصير والمنقلب، وهذا كما قال ﷺ : "**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقذف في النار فتندلق فيها أقتاب بطنه ويدور فيها كما يدور الحمار في الرحى فيأتيه الناس فيقولون: يا فلان! كنت تأمر الناس بالمعروف وتنهى عن المنكر! قال: نعم، كنت آمر الناس بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**"[١].

* * *

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يأمر الله سبحانه في هذه الآية بالاستعانة بالصبر عند الابتلاء فيبقى المرء ثابتا على الحق لا تضعفه المصائب ولا تحرفه النوائب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ البقرة/آية١٥٣ وكذلك الاستعانة بالصلاة عند وقوع القضاء ففيها طمأنينة للنفس بالقرب من الله سبحانه "**وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة**"[٢] وكان

---

[١] البخاري: ٣٠٩٤، مسلم: ٢٩٨٩، أحمد: ٥/٢٠٥

[٢] مسلم: ٤٩٠٩، أبو داوود: ١١٢٤، أحمد: ٥/٣٨٨، تفسير الطبري: ١/٢٦٠

يقول: "**أرحنا بها يا بلال**"[1].

ثم وصفها الله سبحانه بأنها على غير الخاشعين شاقة ثقيلة من قولك: كبر عليّ هذا الأمر إذا أردت أنه ثقيل عليك، ولكنها خفيفة طيبة على الخاشعين أي الذين يخافون الله ويخشونه فأولئك ينشطون في التقرب إلى الله بالصلاة وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾** ﴾ الرعد/آية٢٨. والخشوع هنا الخوف والخشية من الله كما في قوله سبحانه ﴿ **خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ** ﴾ الشورى/آية٤٥ أي أذلهم الخوف الذي نزل بهم.

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

بيّن الله سبحانه في هذه الآية حال أولئك الخاشعين فهم الذين يعلمون أنهم ميتون[2] وأنهم إلى ربهم راجعون بعد البعث من الموت يوم القيامة، ومن كانت هذه حاله فإنه يحرص على أداء الصلاة والاهتمام بها ليلقى الله وهو عنه راضٍ. أما الذين لا يؤمنون بالرجوع إلى الله ولا بالثواب والعقاب فأولئك تكون الصلاة عليهم ثقيلة لأنهم لا يرجون من ورائها خيراً.

وأصل الظن الشكّ، ولكنها تستعمل بمعنى اليقين بقرينة أي مجازاً على عادة العرب في استعمال كلامهم، والقرينة هنا هي لقاء الله والرجوع إليه مسندة إلى المؤمنين الخاشعين، فتكون بمعنى "اليقين" أي "يعلمون أنهم" لأن الظن في هذه الحالة كفر. ونحو هذا الاستعمال في الآية الكريمة ﴿ **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾** ﴾ الحاقة/آية٢٠ أي

---

[1] مجمع الزوائد: ١٤٥/١، أبو داوود: ٤٩٨٧، أحمد: ٣٦٤/٥، ٣٧١

[2] تم تفسير ملاقاة الله باللقاء بعد الموت أي عند الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، وذلك لأن معنى (لقي) هو أول المقابلة: "كلّ شيء استقبل شيئا أو صادفه فقد لقيه، ويقال: التقى الفارسان إذا تحاذيا أو تقابلا. لسان العرب" وأول لقاء لله سبحانه هو عند الموت لهذا قلت: ﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أي الموت. ولا تنصرف عن (الموت) إلى (يوم القيامة) إلا بقرينة ولذلك فعندما قال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» فهمت عائشة رضي الله عنها من لقاء الله «الموت» إلى أن وضح لها رسول الله المعنى. وتكملة الحديث كما رواه البخاري: «**قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِه إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِه فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِه فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**» أما ﴿ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ فقد وضحتها الآية السابقة ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي الرجوع إلى الله بعد الحياة الثانية وهذا يعني يوم القيامة بعد البعث والنشور، فيكون المعنى كما ذكرنا يوقنون بالموت وبالبعث والنشور يوم القيامة.

علمت، أما الظن بدون قرينة فهو الشك[١].

و﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ تعني يلقون رهم أي مستقبلا، والعرب تجري الإضافة وحذف النون بالنسبة للأسماء المبنية من الفعل التي في معنى الاستقبال، أي ﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ بمعنى يلقون رهم مستقبلاً، ونحو هذا قوله تعالى ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ القمر/آية٢٧ ولما يرسلها بعد[٢].

***

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات يخاطب الله سبحانه اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ،

---

[١] ظنَّ: شك، وتأتي بمعنى اليقين من التدبّر بقرينة، وأما اليقين بالعيان أو المعاينة فلا يأتي إلا (عَلِمَ) قاله ابن منظور في لسان العرب. والظنّ «اليقين» مجازاً قاله الألوسي في تفسير روح المعاني.

[٢] اختلف نحاة البصرة والكوفة حول تفسير الإضافة وحذف النون في مثل هذه الأسماء التي بمعنى الفعل الذي سيحدث مستقبلا، فقال نحويو البصرة إنَّ حذف النون هو بسبب ثقلها والعرب تحذف النون عند الثقل، واستشهد بقول الشاعر:

"هل أنت باعثُ دينار لحاجتنا" فأضاف "باعث" إلى الدينار ولما يَبْعَثْ، فأضاف وحذف التنوين. وكذلك قول الشاعر:

الحافظو عورة العشيرة لا ... يأتيهم من ورائهم نطف

بنصب العورة وخفضها، فالخفض على الإضافة والنصب على حذف النون استثقالا. أما نحويو الكوفة فقالوا: يجوز في هذه الأسماء الإضافة وحذف النون على اعتبار أنها أسماء من حيث اللفظ ويجوز فيها ترك الإضافة وإثبات النون على اعتبار أن لها معنى "يفعل" الذي لم يكن ولم يجب بعد بل حدوثه في المستقبل، فالإضافة فيه لِلَّفظ "اسم" وترك الإضافة للمعنى "يفعل" والأفصح هو ما في القرآن الكريم فلا تجوز القراءة بغيره لأنه هو المتواتر وحده.

يخاطبهم بأن يتذكروا النعم التي أسبغها الله على آبائهم الذين آمنوا مع موسى – عليه السلام – والذين كانوا في وقته وفيها يتبين ما يلي:

١. في الآية الأولى تأكيد للآية التي سبقتها ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فقد كرر الله سبحانه التذكير بالنعم، ومن ثم عدّد أنواعا منها لربط ذلك بالوعيد الشديد والعقوبة التي أصابتهم عندما كفروا بتلك النعم، فقد عاقبهم الله بأن فرض عليهم قتل أنفسهم ومسخ بعضهم قردة وخنازير، هذا فضلا عن الخلود في النار للذين ماتوا على الكفر منهم.

٢. إن النِّعَم التي ذكّرهم الله بها هي تلك التي حدثت للمؤمنين بموسى – عليه السلام – المعاصرين له، بدلالة القرائن في الآيات المذكورة التي تذكر آل فرعون وفرق البحر والنجاة من الغرق واتّخاذ العجل، كذلك ذكر موسى – عليه السلام – والمواعدة له.

٣. أول هذه النعم أنه سبحانه فضّل موسى – عليه السلام – والذين آمنوا معه على عالمي زمانهم بأن اختارهم من بينهم لحمل التوراة والعمل بها وتبليغها في ذلك الزمان.

٤. أعلم الله سبحانه يهود الذين في عصر رسول الله ﷺ أن إيمان آبائهم الأوائل لا ينفعهم ما داموا على كفرهم، بل عليهم أن يؤمنوا هم ليتقوا بذلك عذاب يوم القيامة ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ أي ما في ذلك اليوم من عذاب، «استعمال مجازي» ففي ذلك اليوم لا تجزئ أي لا تغني نفس عن نفس شيئا فلا تنوب مكانها كما قال سبحانه ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ ﴾ المدثر/آية٣٨ كذلك لا يقبل منها شفاعة، والشفيع هو الذي ينضم للفرد فيصير معه شفيعا أي زوجا، وعدم قبول الشفاعة يعني أنه لو حضر معها من يشفع لها فلن يسمح له أن يتحمل شيئا من العذاب عنها، وفي ذلك اليوم كذلك لا يؤخذ منها فدية بدل العذاب، والعدل هو الفدية، وكلّ ذلك لتأكيد عدم إغناء نفس عن نفس شيئا يوم القيامة، بل من أراد اتّقاء عذاب ذلك اليوم عليه أن يؤمن ويعمل صالحا فينفعه بإذن الله وغير ذلك لا ينفعه. وقد ختم الله الآية ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يمنعهم من عذاب الله – عز وجل –. وقد وردت ﴿ يُنصَرُونَ ﴾ بصيغة الجمع لأنها عائدة إلى كلمة ﴿ نَفۡسٌ ﴾ وهي نكرة في سياق النفي ﴿ لَّا تَجۡزِي

﴿ نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ فتفيد العموم (أي في معنى الكثرة) فكان الجمع.

وهنا نقول إن هذه الآية الكريمة واردة في اليهود، غير أنها وردت بصيغة العموم فتشمل كلّ نفس، إلا أن هناك تخصيصا بأن من مات على الإسلام فالشفاعة تنفعه من رسول الله ﷺ وقد ورد تخصيص الآية السابقة في كثير من الأدلة، مثلا من أذن له فتنفعه الشفاعة كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ طه/آية١٠٩. وكذلك بينت السنة أن رسول الله ﷺ يشفع في أمته يوم القيامة "**وأعطيت الشفاعة**"[1]، "كلّ نبي لا يشفع إلا محمّد ﷺ فيشفع"[2].

٥. ثمّ ذكّرهم الله سبحانه بنعمه الأخرى:

أ. فهو الذي نجاهم من آل فرعون الذين كانوا يذيقونهم أشد العذاب وأفظعه ـ سوء العذاب ـ فقد كانوا يذبّحون أبناءهم ويبقون بناقم دون ذبح ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ﴾ ثم ختم الله سبحانه الآية ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ والبلاء في لغة العرب الاختبار والامتحان، ويستعملونه في الخير والشر ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ ﴾ الأنبياء/آية٣٥ وهي من الألفاظ المشتركة، وقد استعملت في الآية الكريمة في المعنيين، فإن عادت ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ على ﴿ نَجَّيْنَـٰكُم ﴾ كان البلاء هنا في الخير أي تلك النعمة عليكم، وإن عادت ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ على العذاب والذبح كانت في الشرّ أي تلك المحنة. وهذا من عظمة كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يستعمل اللفظ المشترك في جميع معانيه كلها في الآية نفسها كما قال سبحانه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ الأحزاب/آية٤٣ يصلي الله عليكم يرحمكم، والملائكة تدعو لكم فذكر سبحانه ﴿ يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ في أكثر من معنى.

ب. ثم إن الله سبحانه قد فرق بهم البحر ففصل بين بعضه وبعضه حتى صار فيها مسالك لهم، وقوله سبحانه ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ أي أن الفرق كان من أجل أسلاف المخاطبين غير الموجودين وقت الخطاب أي موسى وصحبه لأن العرب تقول: غضبت لزيد إذا غضبت من أجله وهو حي، وتقول: غضبت بزيد إذا غضبت من أجله وهو ميت، وهنا نجاهم الله سبحانه من الغرق في حين أغرق فرعون وآله، وقد كنّى الله سبحانه بآل فرعون عن فرعون وآله كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن

[1] البخاري: ٣٢٣، مسلم: ٨١٠

[2] البخاري: ٤٣٤٣، مسلم: ٢٨٧

مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ الإسراء/آية١٠٣ ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾ الذاريات/آية٤٠ وقد تمّ كل ذلك على مرأى من موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه.

ج. ثم يذكّرهم الله سبحانه بنعمة أخرى، فقد وعد الله موسى حين أهلك فرعون وآله أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتا أربعين ليلة فخلف موسى على قومه أخاه هارون وذهب للميقات إلى الطور، وهناك أنزل الله عليه التوراة، وخلال ذلك اتخذ قومه بعد ذهاب موسى لميقات ربه عجلا إلها لهم وكانوا بذلك ظالمين.

قُرِئت ﴿ وَٰعَدۡنَا ﴾ وكذلك ﴿ وَعَدۡنَا ﴾ وكلاهما بمعنى واحد، فالوعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمجيء للميقات من موسى ـ عليه السلام ـ والمجيء للميقات يعتبر قبولا بالوعد أو وعدا مجازاً فلذلك يصح ﴿ وَٰعَدۡنَا ﴾ من باب المفاعلة أو المشاركة، فالوعد من الله على الحقيقة ومن موسى مجازاً، ويصح ﴿ وَعَدۡنَا ﴾ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الواعد حقيقة.

د. ويذكّرهم الله بما منّهُ عليهم من قبول توبتهم والعفو عنهم لعلهم يشكرون.

هـ. كذلك يبين لهم سبحانه نعمته بإنزال التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ ليهتدوا بها ويصفها الله سبحانه بالكتاب والفرقان من باب الجمع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل، وذلك على أسلوب العرب في كلامهم: رأيت الغيث والليث يريدون رؤية الرجل الجامع بين الجود والقوة وليس رؤية رجلين أحدهما الغيث والآخر الليث.

* * *

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ

قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

بيّن الله في هذه الآيات مزيدا من نعمه على موسى وقومه حينذاك:

١. فقد أعلمهم موسى ـ عليه السلام ـ بأمر ربه أن توبتهم إلى الله هي أن يقتلوا أنفسهم جزاء فعلتهم تلك لاتخاذهم العجل إلهاً، وأنَّ هذا إن فعلتموه خير لكم عند بارئكم أي خالقكم، فهو خير لكم لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنبكم، ويكون لكم الثواب منه سبحانه وإن لم تفعلوا فهو شرّ لكم، كلّ ذلك لأنهم قد كفروا باتخاذهم العجل واستوجبوا العذاب العظيم.

والآية تدلّ على أنهم فعلوا ذلك فأوقعوا القتل في أنفسهم حتى تاب الله عليهم، وذلك من دلالة خاتمة الآية ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ بعد أن ذكر الله ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي أن توبتكم هي قتل أنفسكم، وحيث إنَّ الله أخبرنا بعدها بأنه تاب عليهم فهذا يعني أنهم أوقعوا القتل في أنفسهم ومن ثمّ تاب الله عليهم.

٢. ثم ذكّرهم الله سبحانه بنعمة أخرى على أسلافهم من قوم موسى ـ عليه السلام ـ عندما قالوا لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ لن نصدق بما جئتنا من عند الله حتى نرى الله جهرة أي عيانا علانية، فصعقوا حينها وماتوا ثم بعثهم الله سبحانه من بعد موتهم لعلهم يشكرون.

وقوله سبحانه ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ يعني أن الأمر الهائل الذي أهلككم رأيتموه رأي العين وهو نازل بكم. وأصل الصاعقة الأمر الهائل الذي يؤدي بالمراد إلى الهلاك أو نحو الهلاك، غير أن ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ قرينة على أن الصاعقة هنا أهلكتهم هلاكا محتما أي موتا حقيقيا.

٣. كذلك فإن الله سبحانه قد سخّر لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ وأنزل عليهم نوعين من الأكل طيبين ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ ﴾ ليأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ويشكروه على نعمه ولكنهم

بدلا من ذلك كفروا تلك النعم ووضعوا كفر النعم محلّ شكر النعم فظلموا، والظلم يرتب ضررا فهم لو شكروا النعم لأثابهم الله سبحانه ولكنهم كفروا فاستحقوا العقاب، وهذا ضرر واقع عليهم فهم يستحقونه، ولذلك فإن ظلمهم واقع بهم فقد أضروا أنفسهم ولم يضروا الله شيئا بظلمهم، وهذا معنى قول الله سبحانه ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧** ﴾.

٤. ثم هم قد ظلموا أنفسهم مرة أخرى، فبدل أن ينفذوا أمر الله بدخولهم القرية التي بينها الله لهم وأن يأكلوا من طعامها وثمرها أكلاً هنيئاً طيباً واسعاً ﴿ **رَغَدٗا** ﴾، وفي ذلك دلالة إشارة على سكناها كما في الآية الأخرى ﴿ **ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ** ﴾ الأعراف/آية١٦١، وأن يسجدوا لله شكرا عندما يدخلوا باب تلك القرية ويقولوا عند دخولهم ﴿ **حِطَّةٞ** ﴾ أي يضرعون إلى الله أن ييسر لهم دخولها وأن يحط عنهم خطاياهم، ولعل ذلك الباب هو المسمى باب حطّة من أبواب بيت المقدس، غير أنهم بدلا من امتثالهم أمر الله فيدخلوا القرية ويأكلوا رغدا ويدخلوا الباب سجدا ويقولوا حطة غيروا ذلك وحرفوه واستهزأوا بما قيل لهم، فظلموا وفسقوا فأذاقهم الله بذلك عذابا أليما.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا وقالوا حطة حبة في شعيرة**"[1].

❁ ❁ ❁

[1] البخاري: ٣٤٠٣، ٤٤٧٩، ٤٦٤١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ
مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ
وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ
فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا
فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ
ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ
أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ
وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣
ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦ وَإِذۡ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨
قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا
تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ

إن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

التفسير:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

يذكّر الله سبحانه بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها عليهم فكأنه قيل واذكروا إذ استسقى، وهنا يبين الله سبحانه أن قوم موسى ـ عليه السلام ـ قد عطشوا فدعا لهم الله سبحانه أن يسقيهم فأوحى إليه الله سبحانه أن اضرب بعصاك الحجر، فلما فعل ـ عليه السلام ـ انفجرت ـ أي سالت بكثرة ـ من الحجر اثنتا عشرة عينا على عدد أسباط يهود، فكان كلّ سبط له عين منها فكانت نعمة من الله عليهم أن يأكلوا من المنّ والسلوى ويشربوا من ماء العيون فيشكروا الله على رزقه، وأن لا يطغوا ـ يعثوا ـ ولا يسعوا في الأرض مفسدين.

* * *

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

من هذه الآية الكريمة يتبين ما يلي:

١. لقد كره قوم موسى – عليه السلام – استمرارهم على هذا الطعام الذي أنزله الله لهم "المن والسلوى" فسألوا موسى – عليه السلام – أن يسأل الله سبحانه أن يخرج لهم بعض ما – مما – تنبته الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها كما كانوا يأكلون في مصر قبل خروجهم إلى التيه. (فومها) أي الحنطة والخبز كما فسره ابن عباس – رضي الله عنهما – في لغتهم.

وقلنا كرهوا ذلك الطعام لأن ﴿ **لَن نَّصْبِرَ** ﴾ تدل على ذلك حيث إنَّ أصل الصبر حبس النفس على الضيق من الأمر، ولذا أنكر عليهم موسى – عليه السلام – ذلك قائلا لهم أتستبدلون الذي هو شرّ بالذي هو خير منه، وهم قد طلبوا الطعام الأدنى أي الأخس قيمة وقدرا من العيش وتركوا الذي هو خير "المن والسلوى". وفي اللغة تدخل الباء على المتروك عند الاستبدال ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ** ۚ ﴾ ولا شكّ أن هذا طلب للوضيع من العيش وترك للرفيع منه.

٢. دعا لهم موسى – عليه السلام – رب العالمين أن يعطيهم ما سألوه فاستجاب الله له دعاءه فأعطاهم ما طلبوا وقال سبحانه ﴿ **ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ** ۗ ﴾ أي انزلوا مصرا من الأمصار لأن الذي طلبتم لا يكون في التيه والبوادي بل في القرى والأمصار و﴿ **مِصْرًا** ﴾ هنا نكرة فأعربت ونونت أي بلدا من البلاد، وأما (مصر) المعروفة فالراجح فيها المنع من الصرف كما في قوله سبحانه ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ** ﴾ يوسف/آية٢١ ﴿ **ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾** ﴾ يوسف/آية٩٩ ﴿ **أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ** ﴾ الزخرف/آية٥١ ﴿ **أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا** ﴾ يونس/آية٨٧ غير أن كونها ﴿ **مِصْرًا** ﴾ في الآية الكريمة لا يعني أنها ليست مصر المعروفة، فالله سبحانه نَكَّرها أي بلدا من البلاد فقد تكون مصر المعروفة أو غيرها.

وفي ذكر ﴿ **ٱهْبِطُوا۟** ﴾ فهي وإن كانت تعني النزول لكن فيها إشارة إلى أن هذا

النزول هو من مكان أفضل إلى مكان أدنى.

٣. بعد ذلك عاقبهم الله سبحانه بأن ألصق بهم الذلة والمسكنة ﴿ ضُرِبَتْ ﴾ أي أحاطت بهم كإحاطة القبة بمن ضربت عليه أي لاصقة بهم لا تنفك عنهم، فهم في هوان وفقر مهما ظهر عليهم غير ذلك من مظاهر زائفة فلا عزة لهم ذاتية بل كما ذكر الله سبحانه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ آل عمران/آية١١٢ أي أذلاء لا تظهر عليهم عزة إلا إن كانوا مع الله ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ كالمؤمنين مع موسى – عليه السلام – أو إن كانوا بدعم من الأمم الأخرى ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا ما نراه من وقائع ارتباطهم بالدول الأخرى يتكئون عليهم في قوّتهم وطعامهم.

وكذلك ضربت عليهم المسكنة وهي مصدر "مسكين" ودلالتها في الآية مسكنة الفاقة والحاجة، وهذه كذلك ظاهرة عليهم فحاجتهم المستمرة للمنح والمساعدات وظهورهم بمظهر الفقير المحتاج لمال غيره أمر مشهور.

ثم إن الله سبحانه غضب عليهم وباءوا بهذا الغضب أي انصرفوا به فكأن غضب الله عليهم يسير معهم في حلهم وترحالهم، يذهبون ويجيئون وهم مُحمَّلون بغضب الله سبحانه.

وكلّ ذلك مما ضرب عليهم وباءوا به، هو بسبب كفرهم بآيات الله ونعمه سبحانه وبسبب قتلهم الأنبياء كقتلهم زكريا ويحيى – عليهما السلام – ثم بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود الله وامتثال أمره – جلّ ثناؤه – .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ الباء للسببية أي بسبب تلك الأمور.

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

إن المتدبر لهذه الآية الكريمة لا يملك إلا أن يخشع لله سبحانه مدركا كلّ الإدراك أن هذا كلام الله سبحانه، والمعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، فهذه

الآية قد بينت وعدا من الله ـ جلّ ثناؤه ـ لجميع أصناف البشر مع اختلاف أديانهم على وجه الشرط ﴿ فَلَهُمْ ﴾ أي إن فعلوا الشرط تحقق لهم الجواب، وكلّ ذلك في آية قليلة الكلمات في عددها عظيمة في قدرها.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تشمل المعنى العقدي للإيمان في الإسلام، وهو التصديق الجازم بعقيدة الإسلام، وتشمل كلّ من آمن بما جاء به رسل الله في كلّ زمان ومكان منذ آدم ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه إلى نوح ومن آمن معه وإبراهيم... إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ تشمل كلّ من انتسب إلى اليهودية منذ أن وجدت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ ٱلنَّصَرَىٰ ﴾ تشمل كلّ من انتسب إلى النصرانية منذ بدئها إلى منتهاها.

﴿ ٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾[1] وهم الذين لا دين لهم، من "الصبوة" وهي الميل عن سنن الحق أو الذين خرجوا من دين قومهم إلى آخر، من "صبأ" خرج من الشيء الذي كان فيه. صبأت النجوم: طلعت فظهرت بعد أن لم تكن ظاهرة. صبأ علينا فلان موضع كذا، أي طلع علينا في ذاك الموضع بعد أن لم يكن فيه. ولذلك ﴿ ٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ من لا دين لهم أو من خرج من دينه إلى دين آخر أو إلى غير دين، وعليه يكون: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ تشمل كلّ أنواع البشر من حيث أديانهم أو عدمها. وهنا يتبين ما يلي:

١. إن الآية تفيد العموم ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ من صيغ العموم: ﴿ ٱلنَّصَرَىٰ ﴾ ﴿ ٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ محلاة بالألف واللام من صيغ العموم، وعمومها يشمل كلّ البشر كما بينا.

٢. جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن بيّن الله سبحانه الوعيد الشديد في الآية السابقة لليهود بسبب ما اقترفوه من كفر وقتل وعصيان، فكأن الآية الكريمة جواب لسؤال عن هؤلاء اليهود الذين فعلوا وفعلوا، هل يمكن أن يكون منهم خير كأن يسلموا أو يكون لبعضهم أجر لمن سلف أو خلف؟ فبيّن الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أن اليهود وغيرهم ممن ذكروا في الآية الكريمة لهم أجر إن قاموا بالخير الذي بينه الله ـ جلّ

---

[1] هناك روايات عن طائفة أو طوائف سميت الصابئة ولكني لم أرَ فيها نصا صحيحا يُستند إليه فعمدت إلى مدلولها في اللغة كما هو مبين.

ثناؤه ـ على وجه الشرط محصول الأجر.

٣. ﴿ **مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢** ﴾ فالذين آمنوا إن ثبتوا على إيمانهم وعملوا صالحا، والذين هادوا والنصارى والصابئين إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا، كلّ أولئك ﴿ **فَلَهُمْ** ﴾ وهذا جواب الشرط أي إن كانوا كما بينه الله سبحانه ﴿ **فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢** ﴾.

٤. جاء ﴿ **صَٰلِحًا** ﴾ نكرة ﴿ **عَمِلَ صَٰلِحًا** ﴾ أي ليس (عمل الصالحات) والنكرة تفيد التعدد وليس من نوع واحد، أما (الصالحات) فهي عامة في الصالحات التي جاء بها الإسلام[1].

وهذا ليشمل من آمن قبل الإسلام وعمل صالحا كما في دينه آنذاك ومن آمن مع نوح ـ عليه السلام ـ وعمل حسب شرعه، وهكذا الأنبياء اللاحقين فكلّ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ولو كان شرط الأجر عمل الصالحات المبينة في الإسلام لكان شأن المؤمنين مع الأنبياء السابقين خارجا عن الوعد بالأجر. وهكذا فإن المؤمنين السابقين الذين كانوا يعملون الصالحات في شرائع أنبيائهم لهم وعد الله سبحانه بالأجر وعدم الخوف، يقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مخاطباً سلمان الفارسي حول الرهبان الذين صحبهم سلمان قبل إسلامه: "**من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير ومن سمع بي ولم يؤمن فقد هلك**"[2]. أي من كان على الدين الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام ومات قبل الإسلام فهو على خير بإذن الله، أما من عاش بعد الإسلام ولَم يؤمن بالإسلام فهو كافر وله العذاب الأليم.

٥. ﴿ **وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢** ﴾ كما ذكرنا في الآية السابقة ﴿ **فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨** ﴾ أي لا خوف مما يحصل لهم مستقبلا ولا حزن على ما فاتهم في ماضيهم وعليه يكون المعنى: لا خوف عليهم فيما يقدمون عليه من

---

[1] قرأ رسول الله ﷺ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦ ﴾ الشرح/آية٥ ـ ٦، فقال: عسر واحد لن يغلب يسرين على اعتبار أن ﴿ يُسْرًا ﴾ نكرة فهي ليست ﴿ يُسْرًا ﴾ الأخرى لأن النكرة تتعدد باختلاف، أما (العسر) فقد تكرر وهو معرفة فيكون تكراره هو هو، فقولك جاء الرجل جاء الرجل يعني أنَّ الرجل نفسه هو الذي جاء، وأما قولك جاء رجل جاء رجل، فهما رجلان.

[2] تفسير الطبري: ١/٣٢٣، الدر المنثور: ١/٧٤

أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده.

* * *

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. يذكّر الله يهود بما أخذه عليهم من ميثاق ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾ البقرة/آية٨٣ـ٨٥.

٢. فلما لم يلتزموا بتنفيذ ما أخذ الله عليهم، رفع الله سبحانه الطور ـ الجبل ـ فوقهم كالسحابة تخويفا لهم حتى يؤمنوا ويأخذوا ما آتاهم الله من التوراة وما فيها من أوامر ونواهٍ بجد واجتهاد كي يتقوا الله أو ليوقعنّه الله عليهم فأقروا بذلك وآمنوا.

وقد كان رفع الطور فوقهم بعد ما نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم بدلالة قوله سبحانه في آية أخرى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ النساء/أية١٥٤ أي بسبب نقضهم ميثاقهم.

٣. لكنهم عادوا وأعرضوا عن الالتزام بما واثقوا الله عليه، وهنا يذكّرهم الله سبحانه بمزيد نعمه على من فعلوا ذلك من أسلاف المخاطبين وأنه سبحانه ذو فضل عليهم ورحمة بقبول توبتهم بعد نقضهم الميثاق ورفع الطور فوقهم، ولولا رحمة الله وقبول توبتهم لكانوا من الخاسرين.

٤. ثم يذكّرهم سبحانه باعتدائهم في السبت أي بتجاوزهم حدود الله، فقد حرّم الله عليهم الصيد يوم السبت ثم ابتلاهم بكثرة الصيد (الحيتان) في ذلك اليوم فكانوا يتحايلون على صيده يوم السبت بفتح حفرة من الماء أو بأية وسيلة أخرى ويبقى الحوت فيها إلى الأحد ويذهبون ويأخذونه ﴿ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ** ﴾ الأعراف/آية١٦٣ وعلى إثر ذلك عاقبهم الله بأن مسخهم قردة وجعلهم ﴿ **خَاسِئِينَ** ﴾ أي مبعدين من الخير أذلة صاغرين.

٥. وكان ذلك المسخ عقوبة ﴿ **نَكَالًا** ﴾ لهم على ما اقترفوه من تجاوز لحدود الله فيما سبق ﴿ **لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا** ﴾ وكذلك عقوبة لما يأتي من بعد ﴿ **وَمَا خَلْفَهَا** ﴾ والعقوبة هنا لما بعدها تعني عظة وعبرة لما بعدها فلا يفعلوا مثلها حتى لا يصيبهم مثل عقوبتهم - أي المسخ - وهذا نحو قوله سبحانه ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ البقرة/آية١٧٩ أي أن عقوبة القصاص تحيي الآخرين لأنهم سيمتنعون عن القتل حتى لا يُقتلوا، وهنا كذلك فهذا المسخ كأنه عقوبة لمن سيأتي من بعد لو فعل نفس الفعلة، ولذلك فهو يعتبر ويتعظ ولا يتجاوز الحدود فلا يُمسخ، فالعقوبة لما خلفها هي استعمال مجازي أي عظة وعبرة لما خلفها، والعلاقة هنا (السببية) لأن العظة والعبرة مسبَّبة عن عقوبة المسخ المذكورة.

ثم يبين الله سبحانه أن في هذه العقوبة موعظة لكلّ متقٍ لله سبحانه وليس فقط لليهود الذين جاءوا بعد زمن تلك الفعلة.

* * *

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ**

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. هناك تقديم وتأخير، فالآيات تفيد أن هناك قتيلا قتل ولم يعرف قاتله، فأمرهم الله أن يذبحوا البقرة ويضربوا المقتول بشيء منها بعد ذبحها فيحيا القتيل ويخبر عن قاتله، ولكن موضوع ذبح البقرة هو الذي بدأت به الآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ ﴾ ثم بعد إكمال الموضوع ذكر الله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ ﴾ والتقديم والتأخير في كتاب الله لغرض وليس لمجرد التقديم، فالقرآن نزل بلغة العرب وفصحاء العرب لا يقدّمون ولا يؤخّرون إلا لغرض، والمتدبر في هذا الأمر يجد أن هناك غرضين لذلك:

أ. بُدئ بقصة ذبح البقرة لإبراز ضرر التلكؤ في تنفيذ أمر الله وتعمد البحث عن التبريرات لعدم التنفيذ كالإكثار من الاستفسار والتساؤلات غير الضرورية حول الموضوع المطلوب تنفيذه. ثم لبيان أن الله سبحانه يزيد المشقة على الذين يبحثون عن التبريرات ويكثرون التساؤلات غير الضرورية على نحو ما قال سبحانه في الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ المائدة/آية١٠١، وفي هذا بيان عام لكلّ من يدين لله سبحانه في كلّ زمان ومكان أن ينفِّذ أمر الله على وجهه دون محاولة إيجاد التبريرات بعدم التنفيذ وقد يكون لأهمية هذا الأمر علاقة بتسمية هذه

السورة بالبقرة.

ب. أما الغرض الثاني فإن في هذا التقديم والتأخير إظهارا للموضوع الواحد كأنه موضوعان في كلّ منهما بيان، فلو كانت آيات قتل النفس في البداية ثم الأمر بذبح البقرة للدلالة على القاتل لكانت القصة على هذا النحو واحدة ولارتبطت في الذهن بعبرة واحدة هي:

(ذبح البقرة لبيان القاتل).

أما بيانها كما جاء في كتاب الله فكأنهما قِصَّتان بموعظتين:

الأولى: حول تنفيذ الأمر بدون تلكؤ ولا تبريرات.

والثانية قدرة الله سبحانه على إحياء الموتى بشكل عام ومن ضمنها بيان القاتل ﴿ **فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾** ﴾ فكان ذكر هذا الموضوع في آخر آيات ذبح البقرة كأنه موضوع جديد.

٢. إن موسى ـ عليه السلام ـ طلب منهم بأمر من ربه سبحانه أن يذبحوا البقرة، فلو أنهم عمدوا لأي بقرة فذبحوها لكانوا قد نفذوا أمر الله بسهولة ويسر: "لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم"[١] ولكنهم بدلا من ذلك بدءوا في التلكؤ والتبريرات والتساؤلات حول البقرة لإطالة أمد التنفيذ فشقّ الله عليهم في نوع البقرة المطلوبة فكانوا كلما استفسروا عن شيء منها شقّ الله عليهم في الجواب حتى سُدَّت عليهم منافذ التساؤلات فكانت البقرة المطلوبة بالمواصفات الجديدة مكلفة عليهم في الجهد والثمن؛ فقد قال لهم موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً** ﴾ أية بقرة، فلما استفسروا عنها أعلمهم سبحانه ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ** ﴾ أي لا هرمة ولا مُسِنَّة، والفارض التي فرضت سنها فقطعتها وبلغت آخرها، ولا هي بكر أي صغيرة، بل عوان أي النصف بين الكبيرة والصغيرة التي ولدت بطنا أو بطنين. وهكذا شَقّوا على أنفسهم بسؤالهم فبدل أن تكون بقرة على الإطلاق أصبح المطلوب بقرة مقيَّدة بسن معينة. ولكنهم مع ذلك لم يبحثوا عن هذه فيذبحوها بل زادوا في الاستفسار فشقّ الله عليهم ﴿ **إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا** ﴾ أي أشدّ ما يكون من الصفرة وأنصعه، ويقال في التوكيد أصفر فاقع.[٢] ولكنهم كذلك لم يفعلوا بل عادوا

---

[١] [تفسير الطبري: ١/٣٧٤]

[٢] فاقع توكيد لصفراء وليس خبراً عن اللون، أي (لونها) ليس مرفوعاً على الابتداء، بل (لونها) مرفوع على أنه فاعل (فاقع).

بالسؤال والاستفسار فشقّ الله عليهم في الجواب ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي هي بقرة مدللة عند صاحبها لا هي ﴿ ذَلُولٌ ﴾ أي لم تذلل للركوب أو حرث الأرض ولا هي ﴿ تَسْقِى ﴾ فليست من النواضح التي ينقل عليها الماء لسقي الحرث أي الزرع، ثم هي ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي خالية من العيوب و﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ولا شيء فيها غير الصفرة فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. و﴿ شِيَةَ ﴾ في الأصل مصدر من: وشاه وشيا وشية أي أصاب لونه الغالب لون آخر.

وهكذا سدت عليهم منافذ السؤال فاضطروا للبحث عن بقرة بهذه الأوصاف فحصلوا عليها بعد جهد جهيد في مدة البحث وغلاء الثمن. ولولا أنهم أُلجئوا لذلك بعد استنفاذ أسئلتهم ما فعلوه فكأنهم كانوا لا يريدون أن يُعرف القاتل لمنزلة له أو نحوها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

٣. ثم يعود الله سبحانه بعد ذلك لذكر ما طلب ذبح البقرة لأجله وهو القتيل الذي وجدوه مقتولا ولم يعترف أحد منهم بقتله، وقوله سبحانه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ يدلّ على أن القاتل من بينهم وليس غريبا عنهم. وقوله سبحانه ﴿ فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ﴾ أي تدافعتم فكل منكم قائل: لم أقتل بل قتله غيري فيدفع كلّ واحد القتل عن نفسه إلى غيره.

فأمرهم الله سبحانه أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة، فلما فعلوا أحياه الله سبحانه وأعلمهم قاتله وأظهره الله بعد أن كانوا يكتمونه ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وكان في ذلك – إحياء الموتى – آية لهم على قدرة الله على بعثهم أحياء يوم القيامة، وبخاصة الذين ينكرون البعث منهم في ذلك الوقت، ففي هذا الإحياء دلالة على ثبوت الحجة عليكم أيها المنكرون للبعث لتعقلوا وتعلموا أن الله هو المحيي والمميت.

٤. يخبرنا الله – سبحانه وتعالى – أنه على الرغم من هذه الآيات – إحياء الموتى وغيره – إلا أن كفار بني إسرائيل الذين شاهدوا تلك الآيات لم يؤمنوا لقساوة قلوبهم أي لغلظتها وجفوتها فهي معاندة للحق، وذلك من قسا إذا جفا وغلظ وصلب.

وقد شبه الله سبحانه قلوبهم لقسوتها بالحجارة أو أشد قسوة ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ وحرف العطف (أو) في العربية يأتي لعدة معانٍ: التخيير بين المعطوفين، أو

الإباحة، أو بمعنى حرف العطف (و)، أو للإبهام على السامع، أو بمعنى (بل) وغيرها والقرينة تدلّ على المعنى المراد. ومن تكملة الآية الكريمة فإنها تدلّ بمفهومها أن الحجارة فيها نفع وخير أكثر من قلوبهم، وهذا يعني أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة وليس مثلها، وهنا تكون (أو) بمعنى (بل) أي أن الآية ﴿ **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ تعني "فهي كالحجارة بل أشد قسوة"، فقلوبهم أقسى من الحجارة لأن في الحجارة نفعا وخيرا وقلوبهم ليس فيها شيء من ذلك. فبعض الحجارة يتفجر منه الماء بغزارة وبعضها يخرج الماء من شقوقه ينابيع، ومنها ما يهبط من خشية الله كما أعلمنا الله سبحانه عن الجبل الذي صار دكا إذ تجلى له ربه ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا** ﴾ الأعراف/آية١٤٣.

ثم يختم الله سبحانه الآيات الكريمة بأن الله سبحانه ليس غافلا عن أعمالهم فهو سبحانه لهم بالمرصاد حافظ لأعمالهم لا يسهو عنها ولا ينساها بل يجزيهم عليها في الآخرة أو يعاقبهم عليها في الدنيا.

وأصل الغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو عنه والنسيان له، فأخبرهم سبحانه وتعالى أنه غير غافل عن الأفعال الخبيثة لأولئك القاسية قلوبهم، بل هو سبحانه لها محصٍ ولها حافظ.

وبعد، فإن المتدبر لهذه الآيات العظيمة، يتبين له طبع من طبائع اليهود المتأصلة فيهم وهو التلكؤ في تنفيذ ما يطلب منهم والبحث عن التبرير وراء التبرير لإطالة أمد التنفيذ إن لم يتمكنوا من إلغائه، هذه حالهم مع الله خالقهم ومع رسله إليهم وأنبيائه والناس أجمعين.

فالحقوق لا تؤخذ منهم بالحجج والإقناع، ولا في معاهد الدراسات والمفاوضات بل تنتزع انتزاعاً بضربات تنسيهم وساوس الشيطان، وهو العلاج الذي عالجهم به رسول الله ﷺ في المدينة نتيجة خيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق. وهذا هو علاجهم الوحيد في فلسطين وإن غداً لناظره قريب.

❋ ❋ ❋

انتهى بحمده سبحانه الحزب الأول من الجزء الأول من سورة البقرة

ويتلوه الحزب الثاني بإذن الله ويبدأ من

﴿ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾

الثلاثاء ٥ من ذي الحجة ١٤١٦هـ. ـ ٢٣ نيسان ١٩٩٦م.

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير في أصول التفسير

الحزب الثاني/ الجزء الأول

مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

البدء به يوم الثلاثاء

الخامس من ذي الحجة ١٤١٦هـ

الموافق الثالث والعشرين من نيسان ١٩٩٦م

من الآية ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا ﴾ (٧٥)

إلى الآية ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ (١٤١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ
لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ
هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ
عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم
مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ
ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ
مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ
وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ
أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ
وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ
ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

بعد أن بين الله سبحانه حال أسلاف اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بأنهم كفروا بالله وبأنعمه وقتلوا الأنبياء وعصوا الله وتجاوزوا حدوده وقست قلوبهم من بعد

ما رأوا الآيات، بعد ذلك يُعلم الله سبحانه رسوله ﷺ والمؤمنين أمرا آخر عن أولئك اليهود، فقد كان فريق منهم، علماؤهم أو غيرهم، يسمعون كلام الله من موسى – عليه السلام – مباشرة ومع ذلك ينقلونه للآخرين محرفا متعمدين تحريفه على علم منهم، وعليه فليس غريبا أن يحرفه هؤلاء الخلف وهم لم يسمعوه – أي التوراة – مباشرة كما سمعه السلف من موسى – عليه السلام –. ومن كان هذا أمرهم فلا أمل يرجى منهم أن يصدقوا برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله سبحانه ﴿ **۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ** ﴾.

أي لا أمل يرجى منهم أن يصدقوا بما جاء. وأصل الطمع تعلق النفس بشيء تعلقا قويا وهو أشدّ من الرجاء، والاستفهام استنكاري.

ثم بيّن الله سبحانه حالا جديدة من أحوال اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ التي تؤكد أن إيمانهم بعيد الحدوث، فهم يبتدعون أساليب عدة للكيد للإسلام، ففريق منهم يظهر إيمانه نفاقا أمام رسول الله ﷺ والمؤمنين ويقرّ بأن هذا هو الرسول المذكورة صفته في التوراة، ويرون أن ذكر هذه الحقيقة وإن كانت خطيرة عليهم إلا أنها تحقق لهم الأمان من جانب المسلمين فلا يحذرون منهم على اعتبار أنهم أظهروا الإيمان أمامهم، وبذلك يتمكن هؤلاء اليهود المنافقون من النفاذ إلى داخل المسلمين والكيد للإسلام بسهولة ويسر.

وفريق آخر منهم لا يرى أن هذا كافٍ لتبرير ذكر الحقيقة أمام المسلمين، فهذا الفريق يرى أن التحدث في حقيقة كون محمّد ﷺ هو النبي المبشر به في التوراة بصفته ونعته، يرى أن هذا الأمر جدّ خَطِر لأنه سيمكن المسلمين من استعماله حجة عليهم إذ كيف لا يؤمنون برسول الله ﷺ وهو موصوف في توراتهم؟ وعليه فعندما يختلي بعضهم إلى بعض يتلاومون على ما حدث ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ** ﴾ أي بما أنزل الله عليكم في كتابه من نعت محمّد ﷺ وصفته وأنه المبشَّر به والمبعوث للعالمين، وكلّ ذلك من باب صرف الناس عن الإسلام.

وعلى نحوه ما كان يصنعه يهود في محاولاتهم لردّ المسلمين عن دينهم بأن يؤمنوا أول النهار ثم يكفروا آخره لإيجاد الاضطراب عند المؤمنين ليرجعوا عن دينهم كما كانوا يأملون ﴿ **وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢** ﴾ آل عمران/آية٧٢. وهكذا هم يفعلون،

يظهرون الإيمان نفاقا أمام المؤمنين ثم يتلاومون على ذلك فيما بينهم، وكلّ منهم حريص على اتّباع أنجع السبل في الكيد للإسلام والمسلمين، وكلّ ذلك وهم على علم تام بأن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية فهو يعلم حقيقة ما يعلنونه نفاقا أمام الرسول ﷺ والمؤمنين، وكذلك ما يسرونه في مجالسهم الخاصة عندما يختلي بعضهم إلى بعض ﴿ **أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧** ﴾ والاستفهام للتقريع.

* * *

﴿ **وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩** ﴾.

بعد أن ذكر الله سبحانه حال علماء يهود الذين كانوا يسمعون كلام الله ويتلون التوراة ومع ذلك يحرفونها ويبدلونها كما في قوله تعالى ﴿ **وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥** ﴾ أي يعلمون أن الذي كان قبل التحريف هو الحق وأن المحرَّف هو الباطل بمعنى أنهم يحرفونه على علم. بعد ذلك أعلمنا الله عن فريق آخر منهم وهم الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون، وهؤلاء لا يعلمون من الكتاب إلا ما يتمنون حدوثه لهم من عفو الله عنهم أو عدم عذابهم في النار إلا أياما معدودات، وغير ذلك مما كان علماؤهم يمنونهم إياه، فهؤلاء الأميون لا يعلمون من علم الكتاب إلا ما منّاهم به علماؤهم فهم يظنون والظن شكّ دون علم لأنهم مقلدون لعلمائهم ﴿ **وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨** ﴾ .

ثم يتوعد الله سبحانه علماء يهود وكتبتهم الذين يغيرون التوراة المنزلة ويحرفونها ويكتبون غيرها ثم يبيعونها للعامة على اعتبار أنها من عند الله، فيتوعدهم الله سبحانه بالويل وهو "وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ إلى قعره"[١] فهو عذاب أليم شديد لأولئك المفترين على الله المحرفين لكلامه سبحانه. وكأن الله سبحانه بهاتين الآيتين والآيات الثلاث التي قبلها يعلمنا أن لا نطمع في إيمان يهود على الحال التي

[١] الترمذي: ٣٠٨٨، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة، تفسير الطبري: ٣٧٩/١

ذكروا فيها، فهم إما علماء ضالون مضلون يحرفون الكلم عن مواضعه على علم منهم أو أميون مقلدون لعلمائهم تابعون لهم في ما افتروا من كذب على الله، وكلاهما إيمانه بعيد بعيد.

وقوله سبحانه: ﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۖ ﴾ خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، أي أن الويل لأولئك المحرِّفين لكتاب الله سواء باعوا ما كتبوه بثمن قليل أو كثير، فويل لهم على ما كتبت أيديهم من افتراء على الله ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وكذلك ويل لهم على ما اكتسبوه من مال حرام ببيع ما كتبوه ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه أن اليهود قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات أي قليلات، فالعرب تعبر عن القليل بالمعدود ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ يوسف/آية٢٠ أي قليلة ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ البقرة/آية٢٠٣ أي قليلة ـ أيام التشريق ـ وهي هنا كذلك، أي أن النار لن تمسهم إلا أياما قليلة، هكذا زعموا، ومن ثم يقيم الله الحجة على كذبهم هذا بأن يأتوا ببرهان على عهد الله لهم بذلك، فإن لم يكن لهم عهد ـ وهو لم يكن ـ يكونوا مفترين على الله كذبا ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ونحو هذا ما قاله الله في آية أخرى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ آل عمران/آية٢٤ أي أصابهم الغرور بما كان يشيعه أحبارهم من أنهم لن يعذبوا إلا أياما قليلة كما يزعمون كذبا وافتراء على الله.

ثم بيّن الله سبحانه أن اليهود كاذبون في قولهم المذكور، وأن الحق هو أن الذي

يكفر بالله ويشرك به ويموت على ذلك فإنه خالد مخلّد في النار، وأن الذين يؤمنون بالله ورسوله وبكلّ ما جاء من الحق ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ويطيعون الله ورسوله ﷺ ويقيمون حدود الله ويؤدون فرائضه ويجتنبون محارمه ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فهؤلاء خالدون مخلدون في جنات النعيم.

وفي هذا بيان لليهود أنهم إن بقوا على كفرهم وماتوا عليه فإنهم خالدون في النار، وإن آمنوا وعملوا الصالحات يدخلوا الجنة خالدين فيها، وهو يعمّ كذلك في كلّ من كان هذا شأنه لأن اللفظ عام.

﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف جواب مثل نعم إلا أنها لا تقع جوابا إلا لنفي متقدم سواء دخله استفهام أم لا، وهي تثبت ما بعد النفي، فهم قالوا ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ فأجابهم الله سبحانه ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي بلى تمسّكم أبدا ـ دون انقطاع ـ بدليل قوله تعالى ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ السيئة هنا الكفر والشرك، ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ أي اجتمعت عليه فمات عليها بدون توبة، من الحائط الذي تحاط به الدار كلّ ذلك بقرينة الخلود في النار، فإن السيئة التي توجب الخلود في النار هي الشرك والكفر والثبوت عليه، أما من تاب وأناب ودخل الإسلام بعد شركه وكفره فلا يخلد في النار إن مات على ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ النساء/آية٤٨.

* * *

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ

وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

١. يخبرنا الله سبحانه في هذه الآيات بأنه قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل أن لا يعبدوا إلا الله ﴿ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ خبر في معنى النهي أي لا تعبدوا إلا الله، وأن يحسنوا للوالدين ويصلوا القرابة ويحسنوا لليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس قولا حسنا ـ وحُسْنا وحَسنا قراءتان متواترتان ـ وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، لكنهم لم يلتزموا بالميثاق بل أعرضوا عنه ورفضوه باستثناء القليل الذي أسلم وآمن سواء ممن كان في زمن موسى ـ عليه السلام ـ أي في الوقت الذي أخذ فيه الميثاق على بني إسرائيل أو من بعدهم، ويشمل كذلك يهود الذين في عصر الرسول ﷺ فالميثاق الذي أخذ على السلف يصدق على الخلف وعدم الالتزام بالميثاق ممن أخذ عليهم في حينه ينطبق على واقع اليهود الذين في زمن رسول الله ﷺ فهم يُحَرِّفون ويغيرون صفة الرسول ﷺ وهم يعلمون الحق في ذلك.

﴿ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي وأنتم قوم عادتكم الإعراض والتولية عن المواثيق.

٢. ثم يخبرنا الله سبحانه أنه أخذ عليهم في الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرجوا بعضهم من ديارهم ﴿ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ﴾ أي سفك دماء الفريق الآخر وإخراج أنفس الفريق الآخر من ديارهم، فكونهم من ملة واحدة عُبِّر عنهم بالدم الواحد والنفس الواحدة.

وعلى الرغم من إقرارهم بما أخذ عليهم في الميثاق وموافقتهم شاهدين على ذلك، إلا أنهم نقضوا عهد الله فهم يقتتلون فيما بينهم ويظاهرون أقواما آخرين على بعضهم ويخرجون فريقا من ديارهم، وكلّ ذلك محرم عليهم.

٣. من منطوق الآيات يتبين أن الذي أخذ عليهم في الميثاق ترك القتل لبعضهم وترك الإخراج لبعضهم ﴿ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ﴾. ومن

مفهوم الآيات يتبين أنه سبحانه أخذ عليهم كذلك عدم مظاهرة الآخرين عليهم ومفاداة الأسرى ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ ﴾.

﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ ﴾ معطوف على ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ وبيان للحكم فيها، وفي اللغة إذا فصل العربي الفصيح (من أهل اللغة) المعطوف عن معطوفه أو النعت عن منعوته، أو اختلف نسق الكلام بتقديم وتأخير، أو غير ذلك من نسق الكلام فإنه يكون مقصوداً منه إبراز ما خالف نسق الكلام.

وهنا المعطوف عليه (المحكوم عليه): ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾

والمعطوف، (الحكم) ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ ﴾

وفصل بينهما ﴿ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ ﴾

أي أن هناك أمراً مقصوداً إبرازه في موضوع الإخراج والحكم عليه.

وبتدبر الآية يتبين أن المطلوب إبرازه هو تبكيتهم بأنهم يخرجون إخوانهم حرباً لا سلماً، وهو زيادة في التشنيع عليهم. فلو كانت (وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وهو محرم عليكم إخراجهم) لما فهم كيفية الإخراج، ولكان الأمرُ إخراجَهم بوسائل عادية قد تكون سلماً أو اتفاقاً أو بيعاً وشراءً...الخ لكن هذا الفصل بـ(تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) بين أنهم يخرجونهم حرباً ثم جاء الحكم بعد ذلك لإبراز التشنيع عليهم بأن إخراجهم لإخوانهم كان حرباً، وهو أشد من التفاهم معهم بوسيلة ما ليخرجوا أي يخرجون بالسلم لا بالحرب. لذلك فإن الفصل بين المتلازمين ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾، ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ مقصود منه إبراز شدة التبكيت والتشنيع عليهم بأنهم يخرجون إخوانهم حرباً لا سلماً.

ومنه يتبين أنهم نقضوا الثلاثة الأولى مما اخذ عليهم في الميثاق (ترك القتل وترك الإخراج وعدم المظاهرة أي عدم نصرة غيرهم عليهم) وأعرضوا عنها وأثبتوا في ميثاقهم الرابعة فقط (مفاداة الأسرى) فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾ فهو استفهام استنكاري مع التقريع لهم على سوء ما فعلوه.

٤. يختم الله سبحانه الآية مبينا أن مصير من يفعل ذلك ﴿ خِزْيٌ ﴾ ذل وهوان وصغار في الدنيا وعذاب شديد لا أشد منه في الآخرة، وأن الله سبحانه ليس ساهيا عن

أعمالهم الخبيثة بل محصٍ لها وحافظها عليهم ليجزيهم عليها بما يستحقون من خزي وعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

٥. وهذه الآية وصف لواقع يهود في المدينة عندما جاءهم الإسلام، فقد كانت بنو قينقاع حلفاء للخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء للأوس، فيشعل اليهود الحرب بين الأوس والخزرج وكلّ فريق من اليهود يناصر حلفاءه ومن ثم يقتتلون فيما بينهم كلّ مع حليفه، ويخرجون بعضهم من ديارهم حسب نتيجة الحرب، ولكن اليهود في النهاية يجتمعون معا لمفاداة أسراهم سواء كانوا من بني قينقاع أو من بني النضير أو من بني قريظة ﴿ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ ﴾ وإن يكن عند حلفائكم أسرى يهود من الفريق الآخر تفدوهم وتفكوا أسرهم ﴿ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ ﴾ أي أن يصبحوا أسرى عند حلفائكم فكأنهم أتوكم أسرى.

فإذا قيل لهم كيف تقتتلون فيما بينكم ثم تجتمعون معا لمفاداة أسراكم الذين يقعون عند الأوس أو الخزرج؟ قالوا إن مفاداة أسرانا فرض علينا في الميثاق الذي أخذه الله علينا ويخفون أن الميثاق أخذ عليهم كذلك في ترك القتل وترك الإخراج وعدم المظاهرة على بعض، يفعلون هذا الإذكاء لنار الحرب بين الأوس والخزرج ويخالفون الميثاق الذي أخذ عليهم لأجل مصلحة دنيوية بأن يبقى الشأن لهم في المدينة وإضعاف الأوس والخزرج نتيجة الحرب المستمرة التي يذكونها بينهم.

٦. لذلك يصفهم الله في الآية التالية بأنهم باعوا آخرتهم مقابل مصالح دنيوية زائفة وزائلة، ويتوعدهم الله سبحانه نتيجة ذلك بالعذاب الشديد الذي لا يخفف أبدا والذي لا يمكن دفعه عنهم بحال ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا

جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. يذكّر الله سبحانه بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها عليهم وكفرهم بها، فقد أنـزل الله التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ ثم تابع الرسل إليهم على شريعة موسى ـ عليه السلام ـ كلما هلك نبي خلفه نبي إلى زمان عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ. ومعنى ﴿ وَقَفَّيۡنَا ﴾ أي أردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفو الرجل الرجل إذا سار في إثره من ورائه، وأصله من القفا أي الخلف، وهي هنا للدلالة على تتابع الأنبياء إليهم من بعد موسى إلى زمن عيسى ـ عليهما السلام ـ.

٢. ويذكّرهم الله سبحانه بإرسال عيسى ـ عليه السلام ـ إليهم مؤيدا ببينات واضحات معجزات تدلّ على أنه رسول من عند الله، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بما يدخرون ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ آل عمران/آية٤٩. وقد أيد الله سبحانه عيسى ـ عليه السلام ـ بروح القدس وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿ أَيَّدۡنَٰهُ ﴾ نصرناه وقويناه، ومنه أيدك الله أي قواك.

﴿ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾ لفظ مشترك وهي تتردد هنا بمعنى جبريل ـ عليه السلام ـ أو الكتـاب المنزل على عيسى (الإنجيل) أو الاسـم الذي كان عيسى يحيي بـه الموتى ﴿ ٱلۡقُدُسِ ﴾ المطهرة و﴿ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ هنا جبريل ـ عليه السلام ـ وذلك بدلالة الآية الأخرى ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ

﴿ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ ﴾ المائدة/آية١١٠ فالآية الكريمة ذكرت روح القدس وذكرت الإنجيل، وعليه فروح القدس غير الإنجيل، وكذلك ذكر روح القدس في الآية قبل ذكر الخلق من طين وإحياء الموتى فهو ليس الاسم الذي يحيي عيسى به الموتى وبالتالي يكون روح القدس هو جبريل ـ عليه السلام ـ .

٣. ثم بين الله سبحانه لؤمهم وقساوة قلوبهم حيث إنَّهم كانوا كلما أرسل إليهم نبي بغير ما يشتهون فلا يحقق لهم مصالحهم الدنيوية، كانوا يستكبرون عن اتّباعه ومن ثم يقتلون بعض هؤلاء الأنبياء ويكذبون بعضهم أو يقولون استهزاء إن قلوبهم قد خلقت مغطاة مقفلة ﴿ غُلۡفٌۢ ﴾ فلا تنفتح لقول هؤلاء الأنبياء، وكلّ ذلك: التكذيب والقتل والقلوب الغلف بسبب استكبارهم.

ويبين الله في آخر الآية أنهم كاذبون بزعمهم أن قلوبهم خلقت هكذا، ولكنهم استحقوا لعنة الله والطرد من رحمته لأنهم كفروا بالله باختيارهم، وكفروا برسله على علم، فهم لا يؤمنون إلا بالقليل الذي يوافق أهواءهم أي يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كما وصفهم الله، فقد أنكروا بعض ما في كتابهم من صفة الرسول ﷺ وغيره مما لا تهوى أنفسهم.

﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ (الفاء) سببية لبيان سبب لعنهم وكفرهم فهم لا يؤمنون إلا بالقليل مما أنزل عليهم. (ما) زائدة لتوكيد معنى القلة، وقد قال الله عن الإيمان بالقليل إنه كفر وهذا يعني أن من لم يؤمن بكلّ ما أنزل إلى وقته يكون كافرا لأن الله سبحانه يقول ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ أي أنهم اعتبروا كفارا لإيمانهم بالقليل وليس بكلّ ما أنزل عليهم.

وإدخال ﴿ بَل ﴾ على الكلام ينقض ما قبلها، وعليه فإن ﴿ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ تعني تكذيبا من الله سبحانه للقائلين من اليهود ﴿ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ ﴾.

٤. ومن أمثلة فسادهم وخبثهم يخبر الله سبحانه كيف كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ يستنصرون ﴿ يَسۡتَفۡتِحُونَ ﴾ على المشركين إذا قاتلوهم بالنبي الذي يجدون صفته في كتبهم ويتوعدونهم بأنهم سيفعلون بهم ويفعلون عند بعثته حين سيكونون من أتباعه. إلا أنهم كفروا به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما بعث بالقرآن الكريم المصدِّق لما في كتابهم من صفته ونعته وهم يعلمون علم اليقين أنه هو النبي الموعود الذي كانوا

يستفتحون به ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ البقرة/آية١٤٦ وبذلك استحقوا لعنة الله بكفرهم ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

٥. ولأنهم كفروا بالرسول الذي يعلمون صدقه ظلما وحسدا ﴿ بَغْيًا ﴾ أن يكون من غيرهم فقد كانوا يريدونه منهم من نسل إسحاق، فلما وجدوه من نسل إسماعيل – عليهما السلام – أنكروا ما في التوراة عنه إذ كفروا على علم وهذا غاية السوء والعناد، وبذلك عرضوا أنفسهم لعقوبة من الله شديدة لا تغادرهم أبدا ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي عذاب يورث صاحبه ذلة وهوانا لا يفارقه أبدا فهو خالد فيه، وهو الذي خصّ به أهل الكفر.

وبناء عليه يكون اليهود قد عرّضوا أنفسهم لعقاب الله وبذلوها مقابل الكفر بما أنزل الله – أي القرآن – على رسوله ﷺ لأنه لم يبعث منهم. فهم قد باعوا أنفسهم مقابل الكفر والعذاب المهين ولبئس هذا البيع أن يضحي المرء بنفسه ويبذلها بثمن فيه عقوبة له في نار جهنم خالداً مخلداً، فالبيع الرابح هو الذي تبذل النفس فيه مقابل رضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم، أما بيعهم فهو بيع خاسر مهين ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾.

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي باعوا أنفسهم، شرى واشترى تأتي بمعنى البيع والابتياع والقرينة هي التي تعين المعنى، فإذا أسندت هذه الأفعال إلى النفس كأن يقال: "شرى نفسه أو اشترى نفسه" أي باعها لأنه هو المالك لنفسه، فلا يصحّ معها ابتياعها، وأما إذا أسندت هذه الأفعال إلى غير مالكها كأن يقال: "اشترى زيد من عمرو نفسه" أي نفس عمرو فهي تعني ابتاعها منه، وعلى نحو هذا قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة/آية٢٠٧ أي يبيع نفسه في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ التوبة/آية١١١ أي ابتاعها منهم مقابل ثمن عظيم وهو إدخالهم الجنة.

﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ أي رجعوا وانصرفوا نتيجة فعلتهم تلك بغضب على غضب، أي بغضب شديد شديد: غضب على كفرهم بآيات الله في زمن موسى – عليه السلام – وكفرهم بعيسى – عليه السلام – وكذلك كفرهم برسول الله محمّد ﷺ على علم منهم بصدقه، فصحبهم الغضب الشديد في ذهابهم وإيابهم.

٦. ثم يبين الله سبحانه كذبهم وتناقضهم فيما يقولون، فإنهم إن سئلوا لماذا لم

تؤمنوا بما أنزل الله ـ أي بالقرآن الكريم ـ قالوا إننا لا نؤمن إلا بما أنزل علينا من التوراة ولا يؤمنون بكتاب بعده، علما بأن هذا القرآن مصدق للمذكور في كتابهم حول صفة الرسول ﷺ وهم على علم بذلك إلا أنهم يعاندون ويكفرون. ويقيم الله الحجة عليهم ويظهر كذبهم فيما يقولون ﴿ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ فهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم حيث قتلوا أنبياء الله وهو محرم قتلهم في التوراة التي أنزلت عليهم والتي زعموا أنهم يؤمنون بها ﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

وفي هذا بيان من الله سبحانه أن اليهود الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ على خطى سلفهم سائرون، فهم غير مؤمنين لا بالذي أنزل عليهم كما زعموا ولا بالكتب وراءه المنزلة من عند الله (الإنجيل والقرآن الكريم).

❁ ❁ ❁

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ
ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ
ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ
بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن
كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ
لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا
يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ
وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ
عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ
وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ
عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا
نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا
هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ

عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

التفسير:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. لقد أرسل الله – جلّ ثناؤه – موسى – عليه السلام – إلى بني إسرائيل بالدلائل القاطعة والمعجزات المؤيدة لنبوته وهي تسع آيات مذكورة في موضع آخر ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ ﴾ الإسراء/آية١٠١ كالعصا التي تحولت ثعبانا، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، وفلق البحر ومصيره طريقا يبسا، والجراد، والقمل،

والضفادع، والدم وغيرها والتي فيها ما يقطع بنبوة موسى ـ عليه السلام ـ ولكنهم اتخذوا العجل إلها بعدما ذهب موسى إلى الطور لمناجاة ربه، وكانوا بذلك ظالمين لأنهم وضعوا الأمر في غير محله باتخاذهم العجل إلها وهو ليس كذلك. وقد قال الله سبحانه ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ و﴿ ثُمَّ ﴾ تفيد التراخي أي أنهم اتخذوا العجل إلها بعد فترة من تدبر الآيات، فجاءتهم الآيات وتدبروها وتحققوا من دلالتها القاطعة على صدق موسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك اتخذوا العجل إلها وفي هذا من التبكيت والتوبيخ لهم ما فيه.

٢. ثم يعود فيذكرهم الله سبحانه بأخذ ميثاقهم ورفع الطور فوقهم وأن يأخذوا ما آتاهم الله بجد واجتهاد على نحو ما بينا في الآية السابقة ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾. وتكرار الآية لزيادة معنى وهو أن سماع الأمر من الله سبحانه لا قيمة له إن لم يكن سماع امتثال للأمر على وجهه، أي سماع طاعة وقبول، ففي الآية الكريمة يقول الله سبحانه ﴿ وَٱسۡمَعُواْ ﴾ ولكنهم أجابوا ﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ فالجواب يدلّ على أن ﴿ ٱسۡمَعُواْ ﴾ تتضمن السمع والطاعة والقبول كذلك حتى لو لم يذكر، وكثيرا ما يراد من السماع القبول كقولنا في الصلاة: سمع الله لمن حمده.

﴿ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ ﴾ (الواو) للحال أي أنهم قالوا عصينا في حال قد أُشرِبوا فيها حبّ العجل، أي داخَلَ قلوبهم حب العجل وقالوا ﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ ﴿ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ أي بسبب كفرهم.

ثم يختم الله سبحانه الآية ببيان أنهم كاذبون في ادّعائهم الإيمان، لأن الإيمان نقيض الكفر فلا يأمر باتخاذ العجل إلها ولا أن يداخل القلوب حبّ العجل كإله وتمتنع لأجله عن السمع والطاعة لله الخالق المعبود.

وإسناد الأمر للإيمان وإضافته إلى ضمير (هم) في قوله تعالى ﴿ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ ﴾ هو للتهكم على نحو قوله سبحانه ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ ﴾ هود/آية٨٧.

﴿ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين باتخاذ العجل إلها أو بسكنى حبه في قلوبكم وأمثال ذلك، فإن إيمانكم هذا إيمان بئيس أي ليس الإيمان الذي يريده رب العالمين بل هو الكفر بعينه.

٣. ثم يبين الله سبحانه كذبهم في ادّعائهم أن الجنة خاصة لهم ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ البقرة/آية١١١ ويقيم الحجة عليهم بأنهم

إن كانوا صادقين فليتمنوا الموت أي لقاء الله، فإن كانوا أحباء الله كما يزعمون ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ** ﴾ المائدة/آية١٨ فإنهم سيسارعون إلى تمني الموت لإثبات صدقهم، فإن لم يفعلوا كانوا كاذبين، وهذا ما حدث فعلا فهم لم يتمنوا الموت لأنهم يعلمون ما قدمت أيديهم من كفر وشرّ يخشون معه لقاء الله ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾** ﴾.

وهذه من الأدلة الحسية القاطعة التي أقامها الله سبحانه على اليهود والنصارى الذين كانوا في عهده – صلوات الله وسلامه عليه – لأنهم إن كانوا على حقّ في أن الجنة مخصوصة لهم فليتمنوا الموت، هذا بالنسبة لليهود، وإن كان النصارى على حق كما يزعمون عن عيسى – عليه السلام – من كونه ليس عبدا لله بل هو معه إله، فليقبلوا المباهلة ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾** ﴾ آل عمران/آية٦١ ولكن الفريقين كليهما على عهد رسول الله ﷺ لم يفعلا، فلم يتمنَ اليهود الموت ولم يقبل نصارى نجران المباهلة وهي حجة قاطعة عليهم لو كانوا يعقلون "لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا"[1].

٤. ونتيجة لواقع فساد اليهود وإفسادهم فهم يخشون الموت لظلام مصيرهم هناك، بذلك فهم أشدّ الناس حرصا على طول الحياة، بل من الذين أشركوا الذين لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا، فهم يحرصون عليها كلّ الحرص لعدم إيمانهم بحياة أخرى ومع ذلك فاليهود أشدّ حرصا على الحياة حتى من هؤلاء المشركين.

﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ** ﴾ أي حياة مطلقة، أية حياة، ولكنها قُيِّدت بمفهوم تكملة الآية ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ أي حياة متطاولة.

﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ** ﴾ ﴿ **أَحَدُهُمْ** ﴾ قد تعود للذين أشركوا أي أن اليهود أحرص من المشركين الذين يتمنى أحدهم لو يعمَّر ألف سنة لأنه لا يعرف إلا الحياة الدنيا فيتمنى أن يعيش فيها أكثر مدة ممكنة. وقد يعود ﴿ **أَحَدُهُمْ** ﴾ إلى اليهود أي أن الواحد منهم يتمنى التعمير الطويل وهذا هو الأرجح بقرينة ﴿ **وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ** ﴾

---

[1] أحمد: ١/١٤٨، تفسير الطبري: ١/٤٢٤

فالمشركون لا يؤمنون بأن هناك آخرة فلا يؤمنون بعذاب، أما اليهود فهم يؤمنون بآخرة وعذاب لأنهم يعلمون ما قدمت أيديهم من شر فلا يحبون أن يأتيهم الموت لإبعاد العذاب عنهم ما أمكن، فالله سبحانه يعلم أنهم مهما طالت أعمارهم ـ ألفا أو أكثر والألف هنا للكثرة ـ فإن العذاب لا بدّ آتيهم لأنهم في النهاية ميتون وإلى ربهم يرجعون.

ويختم الله سبحانه الآية بأنه بصير بأعمالهم وسيجزيهم عليها ما يستحقون ﴿ **وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾** ﴾

* * *

﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾** ﴾.

يبين الله في هذه الآيات:

١. سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الْمَلَك الذي يأتيه فقال: جبريل ـ عليه السلام ـ. فقالوا: هذا عدونا وهو لا ينزل بالكتاب على الأنبياء بل ينزل بالعذاب، ولو كان الذي يأتيك ميكائيل لآمنا بك. فأنزل الله هذه الآية قائلا لرسوله ﷺ: من كان عدوا لجبريل فقل له: إن جبريل هو الذي نزل بالقرآن على قلبي بإذن الله مصدقا ـ أي القرآن ـ لما سبقه من كتاب مرسل، وهو هدى وبشرى للمؤمنين، وإنه لم ينزل بالعذاب كما تزعمون[١].

وقد سُمِّي القرآن ﴿ **هُدًى** ﴾ لاتخاذ المؤمن إياه هاديا يتبعه وقائدا ينقاد لأمره ونهيه، والهادي من كلّ شيء هو ما تقدمه أمامه ثم تتبعه البقية ولذلك قيل لأوائل الخيل هواديها.

وسُمِّي ﴿ **وَبُشْرَىٰ** ﴾ لأنه يبشر المؤمنين بما أعدّ لهم من جنات ورضوان يوم

---

[١] تفسير الطبري: ٤٣١/١

القيامة.

﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي أمامه وقدامه، وهذا يعني الذي سبقه.

﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ جواب الشرط أي من كان عدوا... فقل له إنه نزله..

٢. بعد ذلك يبين الله ليهود أن ميكائيل وجبريل كليهما من الملائكة ومن عادى أحدهما عادى الآخر وبالتالي عادى جميع الملائكة، ومن عادى الله ورسله وملائكته يكون كافراً ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ مَن ﴾ شرطية والجواب ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي من كان عدوا لله... فقل له إن الله عدو للكافرين.

وذكر الله جبريل وميكائيل بعد أن ذكر الملائكة وهما من الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته.

٣. ثم يبين الله سبحانه أنه أنزل إلى رسول الله ﷺ آياتٍ بيناتٍ أي واضحات قاطعات بصدق رسول الله ﷺ ولا يكفر بها إلا من فسق عن أمر ربه وخرج عن شرعه وجاوز حدوده.

٤. ويصف الله سبحانه يهود بنقضهم العهود على الدوام فلا يعاهدون عهداً إلا نقضوه.

واستعمال ﴿ كُلَّمَا ﴾ وهي ظرف يفيد تكرار الشرط وجوابه أي إن عاهدوا عهداً فإنهم لا بدّ ناقضوه.

﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ ﴾ أي نقضه قسم منهم.

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ للدلالة على أن الفريق الناقض هم الأكثرية وليس القلة منهم كما قد يُتوهم من لفظ فريق.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟

يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. كان اليهود يعارضون رسول الله ﷺ ويحاجونه بالتوراة فيسألونه منها كما سألوه عن الروح وأهل الكهف وذي القرنين، وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بما يوحيه الله إليه من القرآن، وزيادة على ذلك كان يكشف بعض ما حرفوه وغيروه كما في تغييرهم رجم الزاني وتغيير صفته ﷺ التي جاءت في التوراة والتي كان مجيء رسول الله ﷺ مصدقا لما بشرت به التوراة، ولما وجدوا أن المحاجة بالتوراة على غير ما يشتهون أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ أي نبذهم للتوراة كأنه تمّ من قبل قوم لا يؤمنون بها ولا يعلمون صدق ما جاء فيها من صفة رسول الله ﷺ، وهذا زيادة مبالغة في إعراضهم عما جاء في التوراة من دلائل نبوة رسول الله ﷺ فهو إعراض على علم منهم.

فلما تبين لهم فشل معارضتهم لرسول الله ﷺ بالتوراة بدءوا يبحثون عن مسائل أخرى في مصادر غير التوراة يحاجون الرسول ﷺ بها.

٢. ولما أنزل الله على رسوله أن سليمان نبي ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ النساء/آية١٦٣ قالت يهود: إن سليمان كان ساحراً وليس نبياً، ثم جمعوا الكتب التي اكتتبها السحرة بالاستعانة بالشياطين على عهد ملك سليمان، والتي كانت منتشرة بين أيديهم في مدينة الرسول ﷺ، وقالوا هذه هي الكتب التي كان يحكم بها سليمان، واتبعوها وجعلوها

مادة للمجادلة مع رسول الله ﷺ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ ﴾.

﴿ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ أي ما تقرأه أو توحيه الشياطين أو توسوس به للسحرة ليكتبوه في كتبهم ﴿ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾ الأنعام/آية١١٢. وقد كانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع من السماء وتخلط معه أنواعاً عدة من الكذب وتوحيه إلى أوليائها "فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويُرْمَوْن به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفُون فيه ويزيدون"[1]. وقد مُنعت الجن من استراق السمع بعد الإسلام ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ ﴾ الجن/آية٩.

﴿ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ ﴾ أي على عهد ملك سليمان.

٣. إن كتب السحر تلك قد اكتتبها السحرة من طريقين:

- **الأول**: ما كانت توسوس لهم الشياطين به من السحر.
- **الثاني**: ما عَلَّمه الملكان هاروت وماروت للناس، فقد أنزلهما الله ببابل يعلِّمان الناس السحر ويحذِّراهم من العمل به ويخبراهم أنهما فتنةٌ للناس وابتلاءٌ لهم ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ ﴾، والله أنزل في هذه الأرض الخير والشرّ ليبتلي عباده بالشرّ والخير ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ ﴾ الأنبياء/آية٣٥.

وتعليم السحر للناس هو ابتلاء لهم، فمن آمن بالسحر وعمل به فقد كفر، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به فقد نجا ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ ﴾ النمل/آية٤٠.

٤. يبرئ الله سبحانه نبيه سليمان ـ عليه السلام ـ من كذب يهود وافترائهم، فسليمان ـ عليه السلام ـ لم يكفر وهي هنا للدلالة على أنه لم يكن ساحراً ولا مؤمناً بالسحر وبالتالي ليس كافراً فهو نبي الله ـ عليه السلام ـ ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ ﴾ أي لم يكن ساحراً ولا مؤمناً بالسحر فيكفر[2]، وهذه الدلالة تعينت لأن اليهود اتهموا سليمان ـ عليه السلام ـ بالسحر: ـ "أخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: قال اليهود: انظروا إلى محمّد خلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً

[1] أخرجه مسلم، ومعنى يقرفون: يخلطون فيه الكذب.

[2] فهو استعمال مجازي لعلاقة المسببية، فالسحر هو سبب الكفر.

يركب الريح"[1] ـ وليس بالكفر، فأجاهم الله سبحانه ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ أي وما سحر ولكن الاستعمال المجازي لـ﴿ كَفَرَ ﴾ في هذه الآية يدل على أن من آمن بالسحر وسحر يكفر طبقا لهذه العلاقة (المسببية) حسب لغة العرب كما ذكرنا.

وهكذا فلم يكفر سليمان وإنما الذين كفروا هم الشياطين ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.

٥. السحر هو إظهار الشيء على غير حقيقته توهماً وهذا المعنى آتٍ من قوله تعالى ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الأعراف/آية١١٦ ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ طه/آية٦٦ أي أن العصا تبقى عصاً على الحقيقة ولكنها تبدو للرائي رأي العين أنها حية تسعى.

وفي اللغة قال الجوهري: السحر الأخذ وكلّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر، ويقال سحرت الصبي إذا خدعته، وورد السحر في بعض دواوين العرب بمعنى العضة والعضة عند العرب شدة البهت وتمويه الكذب، قال الشاعر:

أعوذ بربي من النافثات   من عضة العاضة المُعضة

واستعمله العرب كذلك ـ أي السحر ـ في معنى الخفاء، فإن الساحر يفعله في خفية. أما ما هو السحر فهو علم يتمكن صاحبه من سحر أعين الناس فترى الشيء على غير حقيقته أي لا تتغير الحقيقة بحقيقة أخرى جديدة بمعنى أنها لا تلغي الحقيقة الأولى، وتتكون بدلها حقيقة جديدة، وعليه فلو أمسك إنسان بالحية التي ظهرت من العصا سيجدها عصاً ولو حللها مخبرياً سيجدها نفس مكونات العصا التي ألقيت وخيل لنا أنها حيةً تسعى، ولذلك فإن السحرة لما ألقوا عصيهم كانوا هم يرونها عصاً ولكنهم سحروا أعين الناس فرأوها حية، فلما ألقى موسى ـ عليه السلام ـ عصاه رأوها ـ أي السحرة ـ حية حقيقية وليست عصاً ثم ابتلعت عصيهم فألغت حقيقتها نهائياً، فأدركوا أن هذا ليس سحراً لأن السحر لا يلغي حقيقة الأشياء فعلموا أن ما تمّ ليس سحراً، وأنه حق من رب العالمين كما قال موسى ـ عليه السلام ـ فآمنوا وكان إيمانهم عجباً.

٦. وقوله سبحانه ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ وقوله ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ

---

[1] تفسير الطبري: ٤٥١/١

﴿كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ يدلّ على أن السحر يتم بتلاوة كلام كفر، وهذا يعني أن السحر الذي هو علم يتم تنفيذه باستعمال ألفاظ كفر في عزائمه أو إجراءاته. أما غير ذلك فليس هو الذي يطلق عليه سحر بالمعنى المعروف في هذه الآية مثل إظهار الأمور على غير حقيقتها بوسائل فنية ـ كخفة اليد أو ما شابهها ـ أو استعمال بعض الكلام بألفاظ غير كفر لإدخال الوهم على الناس بإظهار أمور على غير حقيقتها ـ مثل بعض الدجالين ممن عليهم مسحة الشيوخ ـ فليس هذا وأمثاله هو السحر بالمعنى المذكور.

٧. عقوبة الساحر ـ كما بينا ـ عقوبة المرتد فهو كافر على المعنى المذكور سابقا، ولقد عاقب الصحابة الساحر بالقتل، فقد أمرت حفصة أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ بقتل ساحرة اعترفت أنها قامت بالسحر.

وأما ما روي عن إنكار عثمان ـ رضي الله عنه ـ على حفصة فعلتها فهو إنكار عليها لقيامها بالأمر دون إذنه وهو خليفة المسلمين، ولم ينكر حكم القتل. وقد تمّ مثل هذا الفعل أي قتل الساحر في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ، فهو إجماع من الصحابة لأنه حكم ذو شأن تمّ على ملأٍ منهم دون إنكارٍ. أخرج أحمد عن سفيان من طريق جَزْء بن معاوية عم الأحنف بن قيس قال (أتانا كتاب عمر قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وربما قال سفيان وساحرة).

وأما ما ذكرناه من بعض الأعمال الفنية الخفية التي يُغَرَّر بها الناس إن لَم توضَّح لهم، ودجل المشايخ وشعوذتهم فيعاقب صاحبها العقوبة التعزيرية حسب الضرر الذي ألحقه بمن غرّر بهم ممن تعاملوا معه. ومعلوم أن العقوبة التعزيرية في الإسلام تصل القتل حسب نوع الجريمة التي يقترفها.

ولكن الفرق بين القتل حداً والقتل تعزيراً أن الأول مرتد لا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين، والثاني مسلم فاسق أو فاجر حسب نوع جريمته يُصلى عليه ويُدفن في مقابر المسلمين.

٨. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

يبين الله سبحانه أن الذين يتعلمون السحر ويعملون به يستطيعون بما يفعلونه من أفاعيل للذين يتعاملون معهم من الناس أن يوجدوا مشاكل بينهم وبين أزواجهم فتؤول إلى طلاق أو افتراق، ثم يبين الله سبحانه أمرا عَقَدِياً مهما لإزالة ما يمكن أن يدخل إلى

أفهام الناس من أن الساحر له قدرة الله سبحانه أو أنه يستطيع أن يحدثَ أموراً رغماً عن الله سبحانه، فيبين الله في هذه الآية أنه لا يتم شيء في ملك الله سبحانه إلا بإذنه، أي ليس رغماً عنه وهذا المعنى هو معنى مشيئة الله أو ما أطلق عليه إرادة الله، فلا يحدث شيء في ملكوت الله رغماً عنه سبحانه أي كلّ ما يحدث بإذنه أو بمشيئته أو بإرادته سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير/آية٢٩ وليس يعني ذلك برضاه فالله لا يرضى الكفر والمعاصي ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾ الزمر/آية٧ وإنما هذا اصطلاح له هذا المعنى من استقراء النصوص، ولا يفسر إذنه أو مشيئته أو إرادته من الحقيقة اللغوية من أذن أو شاء أو أراد لغة والتي تعني السماح بفعل الشيء أو طلب الشيء أو الرضا، بل تفسر بدلالة اصطلاحية كأي حقيقة عرفية لأهل اللغة وأهل الفقه أو أهل الأصول أو أي علم من العلوم.

و﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ دلالته عظيمة في هذا الموضع، فإن ما يظهر من أعمال السحرة أمام الناس من حيث سحر أعين الناس ومشاهدة بعض الأمور على غير حقيقتها قد يُتوهم أنهم يخلقون مثل الله سبحانه أو يفعلون أموراً لا يستطيع الله إبطالها، فأكّد الله سبحانه أن ذلك لا يتمّ إلا بإذنه أي ليس رغماً عنه بل بإرادته ومشيئته بهذا المعنى، وأن الله سبحانه يستطيع إبطال سحرهم فلا يحدث شيء في ملك الله سبحانه رغماً عنه.

وهنا قد يقول قائل: إذن لماذا لا يبطل الله سحرهم؟!

إن الله سبحانه بيّن الخير من الشرّ، وبيّن لنا أن الخير يجزى المرء عليه بخيرٍ والشرّ يجزى عليه بشرٍّ، ثم أعلمنا كذلك أن الله يستطيع أن يجعلنا أمةً واحدةً بخيرٍ أو بشرٍّ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ هود/آية١١٨، ولكن الله سبحانه لحكمة يعلمها تركنا نختار ما نريد من شرٍّ أو خيرٍ ونجزى بهما، فيدخل الجنة قسمٌ والنار قسمٌ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة/آية١٣ ولذلك فلا محلّ للتساؤل لماذا لم يبطل الله فعل السحرة الشرير ذلك؟، أو لماذا لم يدفعنا الله سبحانه إلى الخير في كلّ ما أمرنا؟، أو لماذا لم يمنعنا الله سبحانه من فعل الشرّ فلا نفعل إلا خيراً؟ ... فالله بيّن لنا الخير من الشر وتركنا نختار وهي حكمة الله سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنبياء/آية٢٣ ولكننا في جميع الحالات يجب أن نعتقد أنه في ملك الله لا يتمّ شيء رغماً عنه سبحانه بل بإذنه وبإرادته وبمشيئته سبحانه.

٩. ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾.

وهذا يعني أن كلّ ما في السحر شرٌّ، فهذا وصفٌ لما يتعلمونه وهو السحر ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ وهذا الوصف دلالته واضحةٌ أنَّ الذي يتعلمونه يضرهم ولا ينفعهم، فالسحر كله شرٌّ وضررٌ ولا نفع فيه.

ثم يبين الله سبحانه أن الذي يعمل بالسحر على وجهه الذي بيناه سابقاً لا نصيبَ له في الآخرة لأنه كافرٌ بالله وآياته.

﴿ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ ابتاعه، وهي هنا استعمال مجازي أي جعله مهنة له، فابتاع الشيء يكون طلباً للانتفاع به باستهلاك العين أو أخذ العوض عنها، وهو هنا اتخاذ السحر مهنة تدرّ عليه دخلاً (انتفاع بزعمه) وكأنما هو اشترى السحر.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ خبر في معنى طلب الترك، أي في معنى النهي الجازم عن تعاطي السحر.

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي ولبئس ما باعوا به أنفسهم فإنهم عرّضوا أنفسهم لعقاب الله وبذلوها مقابل نار جهنم ﴿ **مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ** ﴾ فالعوض الذي أعد لهم مقابل بيع أنفسهم وبذلها في السحر، هذا العوض هو غضب الله وعذابه ونار جهنم، وهو بحقّ بيع بئيس خاسر.

﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي لو كانوا ينتفعون بما علموا فإن الذي يعلم علماً ولا ينتفع به ولا يلتزم بدلالة ما علم فكأنه لا يعلم، فمن علم أن السحر عاقبته وخيمة ثم يتعاطاه فكأنه لم يعلم، وهذا من القوة في دلالته على موضوعه، فسبحان الله سبحانه!

ولقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع "**أعوذ بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع**"[1] وهذا الاستعمال من القوة بمكان كما قلنا، وهو في كتاب الله في غير هذا الموضع، كما أنه مستعمل في دلالات أخرى، ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** ﴾ الحج/آية٤٦ ﴿ **صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾** ﴾ البقرة/آية١٧١.

[1] مسلم: ٤٨٩٩، الترمذي: ٣٤٠٤، أبو داوود: ١٣٢٤، النسائي: ٥٣٤٧، ابن ماجه: ٣٨٢٧، أحمد: ٦٧٢٠

فالذي لا ينتفع بسمعه فكأنه لا يسمع.
والذي لا ينتفع ببصره فكأنه لا يبصر.
والذي لا ينتفع بنطقه فكأنه لا ينطق.
والذي لا ينتفع بعقله فكأنه لا يعقل.
ومن لا ينتفع بعلمه فكأنه لا يعلم.
ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي لو أنهم آمنوا وأطاعوا وتركوا السحر لكان خيراً لهم ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي لو كانوا ينتفعون بما علموه عن عاقبة السحر الوخيمة من حيث الضرر الذي يلحقونه بالناس في الدنيا، ومن حيث العقوبة في نار جهنم في الآخرة.

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

يبين الله في هاتين الآيتين ما يلي:

١. أن الكلمة إذا أصبح لها مدلول اصطلاحي أي حقيقة عرفية خاصة، وصار لاستعمالها واقع فحينها يسلط الحكم الشرعي على المعنى الاصطلاحي وليس على المعنى اللغوي، فإن كلمة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ كلمة عربية بمعنى انتظرنا وأمهلنا وهي نفس معنى كلمة ﴿ ٱنظُرْنَا ﴾ ولكن اليهود يستعملون ﴿ رَٰعِنَا ﴾ في معنى السبّ والشتم ويستغلون استعمال المسلمين لها في نداء الرسول ﷺ فيستعملونها هم في نداء الرسول كذلك بقصد السبّ والشتم، فنزلت الآية بأن لا يستعمل المسلمون هذه الكلمة لأنها أصبحت اصطلاحاً ـ حقيقة عرفية خاصة ـ بمدلول جديد، وأصبح الحكم الشرعي لمثل هذه الكلمات يسلط على المعنى الاصطلاحي وليس على المعنى اللغوي.

٢. ثم يقول سبحانه في الآية ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ أي اسمعوا جيداً من رسول الله ﷺ واقتربوا منه ﷺ حتى لا تضطروا إلى إعادة الاستفسار حول ما يقوله الرسول ﷺ، واسمعوا سماع طاعة وقبول لما يقوله رسول الله ﷺ.

ويختم الله الآية ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ و﴿ أل ﴾ التعريف للعهد أي ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ الذين كانوا يقولون تلك الكلمة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ لسبّ رسول الله ﷺ وهم اليهود، لهم عذاب أليم.

٣. إن الله سبحانه يخبرنا أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لا يحبون أن ينزل الله الوحي على غيرهم ويرون أنهم أحقّ بأن يوحى إليهم، فسيحسدونكم ويعادونكم لأن الله اختصّكم برحمته ووحيه، وهذا إشارة إلى أنهم كانوا يرون أن يكون النبي المنتظر منهم ـ أي اليهود ـ فلما كان من غيرهم حسدوه وأنكروه وناصبوه العداء.

ويختم الله سبحانه الآية بأن الله يختص بالنبوة من يشاء، وأن إيتاء النبوة هو من الفضل العظيم.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾:

﴿ مِنْ ﴾ هنا للبيان، فأهل الكتاب والمشركين هم الكفار.

﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾: ﴿ مِنْ ﴾ زائدة للدلالة على استغراق الخير أي خير عظيم.

﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: ﴿ مِنْ ﴾ هنا لابتداء الغاية، أي يبدأ الله سبحانه بإنزال الوحي فيكم.

فائدة عن المعنى الاصطلاحي:

فمثلا لو سئلنا الحكم الشرعي في الاشتراكية، فلا نبحث معنى الاشتراكية اللغوي من اشترك أو شركاء أو شركة حسب معانيها اللغوية ونسلط الحكم عليها، بل نسلط الحكم الشرعي على المعنى الاصطلاحي لكلمة (اشتراكية) فنجد أن أهلها سموها بهذا الاسم للدلالة على مبدأ معين ينكر أن هناك خالقا للمادة ويعتبرها أزلية ثم يطبق أحكاما منبثقة من عقيدته هذه، فيقول بتطور المادة وإلغاء الملكيات وأنواع المساواة المبينة في ذلك النظام، وبهذا المعنى نقول إن الاشتراكية نظام كفر للنصوص الواردة حول مدلولها الاصطلاحي.

* * *

وهنا لا بدّ من وقفة نتدبر فيها ما أورد الله سبحانه في سورة البقرة حول طبائع اليهود الخبيثة وأعمالهم السياسية الحاقدة الماكرة ومحاولاتهم العقيمة ومناوراتهم السقيمة لتدرك الحكم الشرعي المتعلق بالوعي على الواقع المحلي والدولي بالنسبة للإسلام وحملته.

وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً لا بدّ من تدبر هذا الأمر في مكة والرسول ﷺ وصحبه يصارعون فكرياً وسياسياً مجتمع مكة الجاهلي الكافر، ثمّ من بعد نتدبر الصراع السياسي والفكري وكذلك الصراع المادي مع الكفار بعامة ويهود بخاصة في المدينة عندما كانت للمسلمين دولة تطبق الإسلام وتقيم الحدود وتسيّر الجيوش وتنشر الإسلام بالدعوة والجهاد.

وبناءً عليه نبدأ باستعراض واقع الصراع السياسي والفكري مع الكفر وأهله في فترة حمل الدعوة الإسلامية في مكة قبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة.

وباستقراء الأدلة الشرعية الواردة والوقائع التي كانت جارية يتبين ما يلي:

أولاً: لقد كانت الآيات تنزل في مكة على رسول الله ﷺ تبين العقيدة الإسلامية لتنقذ ذلك المجتمع الجاهلي الكافر من الظلمات إلى النور، وكذلك تنزل مبينة فساد عقائد الكفر وتسفيه أحلامهم وأصنامهم وتقيم الحجة عليهم فكرياً، فكان الصراع بين الدعوة الإسلامية والكفر وأهله صراعاً عَقَدِياً وفكرياً، - وسنبينه إن شاء الله في موضع آخر - وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الصراع السياسي لبيان فساد رؤوس الكفر وكشف مؤامراتهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين فضلا عن قيامهم بالصدّ عن سبيل الله وتعذيب حملة الإسلام وإلحاق الأذى بهم، ثم وقوف رؤوس الكفر أولئك في وجه الدعوة إلى الله بكلّ ما أوتوا من ظلمٍ وظلامٍ وشرٍّ.

وسنرجئ البحث في الصراع العَقَدِي والفكري بين الدعوة الإسلامية والكفر وأهله إلى موضع آخر - إن شاء الله - ولكننا سنتناول هنا الوعي السياسي على رؤوس الكفر كما وصفهم القرآن وصفاً حياً بآيات تنطق بفساد علانيتهم وخبث سرائرهم وتكشف مؤامراتهم وصدهم وكيدهم للإسلام والمسلمين:

١. فهذا أبو لهب يبين الله هلاكه على الكفر دون أن تنفعه أمواله في تأخير العذاب عنه، بل هو في نار جهنم خالداً فيها وصاحبته معه بسوء صنيعها من إحضارها

الشوك في طريق رسول الله ﷺ لإلحاق الأذى به صلوات الله وسلامه عليه ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾ سورة المسد.

٢. وذاك الوليد بن المغيرة وكان قد جاء رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، قل في محمّدٍ قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ وكارهٌ له، قال: ماذا أقول؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنَّ لقوله لحلاوةٌ وإنَّ عليه لطلاوةٌ، وإنه لمنيرٌ أعلاه ومشرقٌ أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليَحْطِمُ ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحرٌ يؤثر يأثره عن غيره، فأنزل الله فيه ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ ﴾ المدثر/آية ١١ ـ ٢٥.

٣. ثم يتوعد أبو جهل ويتهدد المسلمين ويقول: هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأنَّ على رقبته ولأعفرنَّ وجهه في التراب. فأنزل الله فيه ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝ ﴾العلق/آية١٥ ـ ١٨. وكان أبو جهل يستهزئ بآيات الله فيأتي بالتمر والزبد فيقول: ترقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمّد، فأنزل الله فيه ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝ ﴾ الدخان/آية٤٣ ـ ٤٩.

٤. وكان الأخنس بن شريق يسعى بالفساد والإفساد، كذاب حقير الرأي، فأنزل الله فيه قولاً بليغاً مبيناً فساد طبعه ونسبه ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝ ﴾ القلم/آية١٠ ـ ١٣.

٥. وكان عقبة بن أبي معيط يحضر مجلس النبي ﷺ فيزجره أبي بن خلف، فأنزل الله فيه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ

لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ الفرقان/آية٢٧-٢٩.

هذه الآيات وآيات غيرها تبين أهمية الوعي السياسي على القوى المؤثرة التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية والكشف عن مؤامراتها وحقدها وطباعها اللئيمة المليئة بالغدر والمكر، وارتباطاتها برؤوس الكفر عدوة الإسلام والمسلمين، وذلك لتكون الطريق مضاءةً أمام حملة دعوة الإسلام، يتفادون الغدر من الظهر، ويضعون أقدامهم حيث لا أشواك ولا ظلام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وفي الوقت نفسه يخلخلون قلاع الأعداء ويكشفون ثغراتهم بل مناطق الضعف فيهم وكيف يُؤتون ومن أين يُؤتون.

ثانياً: لقد ازداد هذا الوعي السياسي على أعداء الإسلام بعد أن كانت الهجرة وأقيمت الدولة وأصبح للإسلام سيادة وسلطان في المدينة المنورة.

فاستمرت الآيات تنزل في العقيدة الإسلامية وفي بيان عقائد الكفر، وهنا أضيف للمشركين في مكة العرب، عقائد أهل الكتاب اليهود والنصارى، واستمرت كذلك تنزل في بيان فساد الأفكار المضللة وتنزل في الصراع السياسي مع القوى المحلية والدولية المؤثرة، وأصبحت هذه أوسع من ذي قبل فضُمّ لها - أي لكفار مكة ومشركي العرب - المنافقون واليهود والنصارى وفارس والروم وغيرهم، ثم أضيف إلى ذلك كله الصراع المادي بالجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام بالدعوة والجهاد.

غير أنني هنا - كما ذكرت من قبل - سأركز فقط على الصراع السياسي مع يهود لأنهم كانوا الأقرب إلى دولة الإسلام في ضواحي المدينة وحولها، ولأنهم كذلك الأكثر خبثاً ولؤماً في المؤامرات والكيد للإسلام والمسلمين.

أما عن باقي أوجه الصراع فلعلي أتمكن من ذلك في وقتٍ آخرٍ وفي موضعٍ آخرٍ إنْ شاء الله.

وأما عن يهود فقد كشف الله طباعهم للملأ وبيّن حقدهم وكيدهم بياناً شافياً وافياً كدرسٍ عظيمٍ للتعامل معهم وبخاصة أنّ كيانات كانت لهم، أي أنهم كانوا دولاً في جوار دولة الإسلام في المدينة:

١. فعلاقتهم مع الله علاقة كفر به سبحانه وبنعمه، فلم يلبث أن ذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه حتى اتخذوا العجل من بعده إلهاً لهم فكفروا علانيةً، فلما رجع موسى - عليه السلام - وتقبل الله توبتهم عادوا يرفضون الإيمان حتى يروا الله جهرةً

فأخذهم الصاعقة، ثم تاب الله عليهم وأنزل عليهم المن والسلوى ومع ذلك كفروا بهذه النعم وظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله وشديد عذابه ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ البقرة/آية ٥١ـ٥٢ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ البقرة/آية ٥٥ـ٥٧.

٢. وعلاقتهم مع دينهم التحريف والنفاق:

فهم يحرفون التوراة على علم، يعلمون صفة الرسول ﷺ ومع ذلك يغيرونها، ويعلمون ما فُرِضَ عليهم من أحكام ثم يبدلونها ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ البقرة/آية٧٥ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ البقرة/آية١٤٦.

ثم إنهم في النفاق لأولو باعٍ طويلٍ لا يضرهم أن يعلنوا الإيمان ثم يخفون التآمر والكفر ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ البقرة/آية.٧٦

٣. وعلاقتهم مع الأنبياء الغدر والقتل والحسد:

فكان النبي إذا جاءهم على غير ما يشتهون قتلوه واستكبروا عنه ولم يتبعوه ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ البقرة/آية٨٧ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ البقرة/آية٩١ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ البقرة/آية ٦١.

حتى إنهم وقد كانوا على يقين بأن محمّداً ﷺ هو النبي المنتظر والموعود في كتبهم بصفته ونعته، وأنهم كانوا يعرفون رسول الله كما يعرفون أبناءهم وكانوا يستنصرون به على الأوس والخزرج ويتوعدونهم بأنّ نبياً سيبعث ويكونون من أتباعه، ومع ذلك فلما جاءهم هذا الرسول ﷺ امتلأت قلوبهم غيظاً وحسداً كيف يكون

من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وليس من ولد إسحاق عليه السلام جدهم كما يقولون!، فلم يؤمنوا بالرسول ﷺ وهم يعلمون صدقه ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ البقرة/آية٨٩ـ٩٠.

٤. وعلاقتهم مع العهود والمواثيق نقضٌ وإعراضٌ، وكلما أخذ الله منهم ميثاقاً نقضوه، فأخذ الله عليهم ميثاق تنفيذ التوراة فرفضوا فهددهم الله بعقاب أليم أن يرفع الجبل ويوقعه عليهم فوافقوا ثم عادوا فأعرضوا لأن النقض والإعراض عن تنفيذ المواثيق هو ديدهم ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ البقرة/آية٦٣ـ٦٤.

٥. وعلاقتهم مع تنفيذ أمر الله التلكؤ والتبريرات والحيل والتأويلات: فقد مُنعوا الصيد يوم السبت لكنهم كانوا ينصبون الشباك ويحفرون قنوات ليدخل السمك فيها يوم السبت، ثم يذهبون لإحضارها يوم الأحد فيكون الصيد قد حصل عملياً يوم السبت وهم يعلمون ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ البقرة/آية٦٥ **"لعن الله اليهود، حرَّمَ الله عليهم الشحوم فجَمَلوها وباعوها وأكلوا ثمنها"**[1] فهم قد حرمت عليهم الشحوم فتحايلوا على التحريم بأن استعملوها في غير الأكل للاستصباح بها وطلاء السفن.

ثم إنهم قتلوا نفساً وأنكر كلٌّ منهم أنه القاتل، أمرهم الله سبحانه أن يذبحوا بقرة فيضربوا القتيل ببعضها ليحيي ويخبر بقاتله ولكنهم تلكأوا بالتساؤلات والاستفسارات ليعطلوا تنفيذ الأمر أكبر قدر ممكن حتى لم يجدوا سبيلاً لمزيد استفسار فأدوا الأمر بتثاقل سقيم ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا

[1] البخاري: ٢٠٧١، ٢٠٧٢، مسلم: ٢٩٦١

لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ البقرة/آية٦٧ـ ٧١.

٦. وعلاقتهم مع غيرهم من الناس فسادٌ وإفسادٌ دون أن يراعوا في غيرهم حلالاً أو حراماً، بل يجيزوا السوء معهم وهم يعلمون ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ آل عمران/آية٧٥. والأميون عندهم غير اليهود فليس عليهم سبيل في إساءة التعامل معهم ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ المائدة/آية٦٤ ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ المائدة/آية٦٢ والسحت هو المال الذي يكسبونه بالحرام.

٧. ثم إنهم يجيزون مخالفة دينهم إن كان في ذلك مصلحة من جاهٍ أو سلطانٍ أو أمرٍ من الدنيا، بل إذا لزم الأمر يغيِّرون آيات الله بثمنٍ بخسٍ يتقاضونه مقابل ذلك من مالٍ أو أية مصلحةٍ دنيويةٍ لهم، فلا قيمة ثابتة لديهم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ البقرة/آية٧٩.

وأمر آخر، فإذا لزم أن يقتلوا بعضهم ليؤججوا حرباً بين أقوام عدو لهم فلا يجدون ضيراً في ذلك فالغاية عندهم تبرر الوسيلة أنى كانت، وقد صنعوا هذا فيما مضى بتأجيج الحرب بين الأوس والخزرج بوقوف كلّ فريق منهم مع قبيلة منهما الأوس والخزرج ثم يثيرون الفتنة كلّ فريق منهم مع قبيلة لتبقى الحرب مستعرة لإضعاف القبيلتين وقد يقتل من يهود أثناء ذلك، ولكن لا بأس عندهم في ذلك ما دام فيه مصلحة من هيمنةٍ أو سلطانٍ، يخالفون دينهم بقتل أنفسهم إن كان ذلك يحقق لهم هدفاً ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ البقرة/آية٨٥.

٨. ثم إنهم يغمزون ويلمزون ويسيئون الأحاديث وينشرون الأباطيل ويحيكون المؤامرات لإبعاد المسلمين عن دينهم؛ فهم يبحثون عن كلمات بدلالات سيئة لنشرها ضدّ الإسلام ورسوله ﷺ كما صنعوا باستغلال كلمة (راعنا) ذات دلالة السب والشتم في لغتهم، واستغلال موافقة حروفها لكلمة (راعنا) العربية التي كان يستعملها المسلمون في مخاطبة الرسول ﷺ بمعنى أنظرنا وأمهلنا، فاستغلوا ذلك وأكثروا من استعمال كلمتهم بدلالتها السيئة، ويوجهون ذلك إلى رسول الله ﷺ، إلى أن أنزل الله في ذلك قرآناً منع استعمالها وردّ كيدهم في نحرهم ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ النساء/آية٤٦.

٩. ثم إنهم كانوا يؤمنون تارةً ويكفرون بعدها محاولين التأثير على المؤمنين، ويودون بذلك أن يرجعوهم عن الإسلام حسداً من عند أنفسهم وكيداً للإسلام والمسلمين ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ آل عمران/آية٧٢ ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المائدة/آية٦١ ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ البقرة/آية١٠٩.

١٠. تطفلهم على الآخرين فلا قوة لهم ولا عزة ولا طمأنينة في غنىً أو أمنٍ إلا في حالتين:

أ. الذين آمنوا مع أنبيائهم – حبل من الله – وتلك قد انتهت.

ب. في حال تطفل وتبعية على الدول الأخرى – حبل من الناس – وهذه حالتهم منذ أن كفروا وحرّفوا دينهم، هي حالة واضحة عليهم لا تفارقهم فقبل الإسلام كانت قوتهم تارة تأتي بالتبعية للروم أو للفرس ثم بشقّ الصف بين الأوس والخزرج لإضعافهم، فلما قضى الإسلام عليهم ككيان عاش من بقي منهم في ذلةٍ ومسكنةٍ وغضبٍ من الله ولم تقم لهم قائمة حتى استطاعوا أن يلتصقوا بالدول الكافرة المستعمرة خلال هذا

القرن بعد زوال دولة الإسلام ـ دولة الخلافة ـ فهم على الدوام في خضوعٍ وخنوعٍ لدولةٍ أو أكثر من دول الأرض، يتطفلون عليهم في القوة والمال. وحال دولتهم الحالية المغتصبة لفلسطين ماثلة للعيان لا يحتاج إلى برهانٍ، وإنَّ أضعف الأعداء من كان خالياً من القوة الذاتية والقوة المستندة إليه والمؤونة المالية المغطاة من إمكانياته، وهذا ما يفتقده يهود والوقائع تثبت ذلك، والقضاء عليهم قريب بإذن الله بقرب عودة الخلافة للوجود، وقرب استئناف الجهاد عبر الحدود ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢** ﴾ آل عمران/آية١١١ـ ١١٢.

وجملة القول إن من تدبر هذه الآيات العظيمة التي ذكرناها سواء ما نزل منها في مكة بالنسبة لرؤوس الكفر هناك قبل قيام الدولة الإسلامية أو ما نزل منها في المدينة بالنسبة ليهود بعد قيام الدولة الإسلامية، فإن المتدبر لها يرى أن الله سبحانه قد وصف واقعهم وبيّن طبائعهم بياناً لا يقف عند الإجمال بل يدخل في التفاصيل في أمورٍ كثيرةٍ منها، وكلّ ذلك ليتبين المسلمون، وبخاصة حملة الإسلام منهم العاملون لاستئناف الحياة الإسلامية في الأرض، ليتبينوا أن معرفة الواقع السياسي للقوى المؤثرة أفراداً كانوا أو جماعاتٍ أو دولاً أمر مهم ومهم للتعامل معهم بما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما أرشدا إليه ليكون المسلم واعياً على ما يجري حوله كيّساً فطناً وليس خباً ولا الخبّ يخدعه، ولا تكسره المصائب ولا تهزه النوائب، لا يُؤخَذ على حين غرةٍ، ولا يطعن في الظهر وهو غافلٌ لا يدري من أي اتجاه تأتيه السهام أو تصيبه السيوف، بل يهتم بأمر المسلمين، ويقف على ثغرةٍ أو فوقها من ثغر الإسلام، لا يؤتى من محذره ولا من مأمنه، ثابتٌ على الحقّ كالطود بإذن الله ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ** ﴾ إبراهيم/آية٢٧.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ
مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ وَدَّ
كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ
أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ
لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن
يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ
رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ
شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ
يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي
خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ
وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ

كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ مَا نَنسَخۡ ﴾ النسخ لغةً الإزالة والنقل، ويقال نسخت الريح الأثر أي أزالته، ونسخت الكتاب أي نقلت ما فيه.

وشرعاً رفع الحكم المستفاد من نصٍّ سابقٍ ووضع حكمٍ آخر بدلاً منه مستفادٍ من نصٍ لاحق.

﴿ أَوۡ نُنسِهَا ﴾ لها معنيان فهي من المتشابه، إما من النسيان أي ينسها الله رسوله ﷺ فتُنسى وتُرفع، أو من الترك بدون تبديلٍ أي لا ننسخها على نحو قوله سبحانه: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾ التوبة/آية٦٧ يعني تركوا الله فتركهم.

وهذه ﴿ نُنسِهَا ﴾ لها قراءة متواترة أخرى ﴿ ننسأها ﴾ وقد قرأ بها الإمامان (أبو عمرو وابن كثير) من القراء السبعة، وقرأ الخمسة الباقون ﴿ نُنسِهَا ﴾ بضم النون. و(ننسأها) هي من قولك نسأت هذا الأمر أنسؤه نسأً ونَساءً إذا أخرته.

فيكون المعنى ﴿ أو ننسأها ﴾ أي نؤخرها فلم ننسخها بل نتركها بدون نسخ، وهذه القراءة محكمةٌ لأنَّ لها معنىً واحداً، وكما هو معلوم في الأصول فإن المحكم يقضي على المتشابه وبذلك يستبعد معنى النسيان ويبقى المعنى واحداً، سواء أُقرِئت ﴿ نُنسِهَا ﴾ أم ﴿ ننسأها ﴾، وهو نؤخرها فلا ننسخها ونتركها بدون نسخٍ، لأن القراءتين متواترتان ومعناهما واحد أي ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا ﴾ تعني ما ننسخ من آية أو نتركها دون نسخ.

﴿ نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾ أي عند النسخ يأتي الله سبحانه بآيةٍ خيرٍ من الآية المنسوخة أو مثلها. فجواب الشرط ﴿ نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ ﴾ هو لفعل الشرط ﴿ نَنسَخۡ ﴾، أي (ما ننسخ من آية نأت بخير منها أو مثلها). أما ذكْر ﴿ أَوۡ نُنسِهَا ﴾ أي «نتركها دون نسخ» ما دام جواب الشرط لا يشملها، فما أرجحه بعون الله هو أنها لزيادة علم بأن الله سبحانه ينسخ آياتٍ ويبقي آياتٍ دون نسخ، ولو ذكِرتْ (ما ننسخ من آية نأت بخير منها أو مثلها) دون ذكر (أو ننسها)، لكان هناك احتمال أن يُفهم منها أن الآيات كلها تتعرض للنسخ، وأما بذكر (أو ننسها) أي أو نتركها دون نسخ فقد زال الاحتمال وتأكد لنا أن هناك آياتٍ يقع فيها النسخ، وآياتٍ أخرى لا يقع في النسخ بل تترك دون نسخ.

وقول الله سبحانه ﴿ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾ على الحقيقة، أي نأتي بآية مثل الآية المنسوخة. وأما ﴿ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ ﴾ فتتعذر الحقيقة هنا لعدم وجود آيةٍ خيرٍ من آيةٍ، فكله كلام الله سبحانه. وهنا لا بدّ لنا من الانتقال إلى المعنى المجازي بإضمار (حكم) أي نأتي بآيةٍ الحكم المستفاد منها خير من الحكم المستفاد من الآية المنسوخة، وهذا يعني أن نسخ الآية يتم بآية مثلها أو بآية فيها حكم خير من الحكم في الآية المنسوخة.

وهو على نحو إضمار ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ يوسف/آية٨٢ أي أهل القرية لتعذر سؤال القرية على الحقيقة، وعلى نحو ﴿ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ ﴾ البقرة/آية٩٣ أي حب العجل لتعذر إشراب العجل في قلوبهم، وهكذا ﴿ نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ ﴾ أي بخير من حكمها لعدم وجود آيةٍ خيرٍ من آيةٍ.

وأما الخيرية في الأحكام فهي تقع على النحو التالي:

١. إما خيرية عاجلة كأن ينسخ الحكم ويوضع بدلاً منه حكم أخف أو لا يوضع حكم جديد، فتكون الخيرية عاجلة حسية في سهولة الأداء وتيسيره.

٢. وإما خيرية آجلة بالأجر والثواب في الآخرة كأن ينسخ الحكم ويوضع بدلاً منه حكم أكثر مشقة فتكون الخيرية في زيادة الأجر والثواب يوم القيامة لكون الأداء الجديد أكثر مشقةً من أداء الحكم المنسوخ، وهنا تكون الخيرية آجلة في الآخرة.

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة:

أن الله سبحانه يترك بعض الآيات بدون نسخٍ، وينسخ آياتٍ أخرى وهو سبحانه حين ينسخ آيةً يأتي بآيةٍ أخرى تكون بآية مثلها أو بآيةٍ أخرى الحكم الجديد فيها خير من الحكم في الآية المنسوخة. والخيرية في الحكم كما بينا إما حسية عاجلة لسهولة الأداء في الدنيا أو آجلة بزيادة أجر وثواب في الآخرة.

وأما قوله سبحانه ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧** ﴾ فهو استفهام للتقرير، أي أن الهمزة هنا للتقرير وهو خطاب لرسول الله ﷺ (إنك تعلم أن الله على كلّ شيء قدير، وهو يملك كلّ الأمور ويديرها ويعلم ما يصلح عباده فينسخ أحكاماً ويثبت أخرى، ولا رادّ لأمره سبحانه، وما لكم أجمعين ولي ولا نصير من دون الله جلّ ثناؤه).

فالاستفهام هنا للتقرير على نحو قوله سبحانه: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١** ﴾ الشرح/آية١ أي أننا شرحنا صدرك، وعلى هذا النحو قوله سبحانه: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾ الزمر/آية٣٦ أي أنّ الله كافٍ عبده.

فائدة عن النسخ:

إن النسخ كما قلنا هو رفع حكمٍ شرعيٍ مستفادٍ من نصٍّ سابقٍ ووضع حكمٍ شرعيٍ آخرٍ بدلاً منه مستفادٍ من نصٍّ لاحقٍ، وحتى يكون هناك نسخٌ لا بدّ من الأمور التالية:

١. أن يأتي نصٌ صريحٌ لاحقٌ لنصٍ سابقٍ في نفس موضوع الحكم.

٢. أن يكون هناك قرينةٌ في النصين تفيد صراحةً نسخ الحكم في النص السابق فلا يكفي شبهة التعارض لحدوث النسخ.

٣. النسخ يقع في الحكم ولا يقع في الخبر، فالخبر عن الله سبحانه لا يحتمل إلا الصدق الجازم فلا نسخ فيه مطلقاً. وجميع ما ورد من نسخ ـ باستقراء النصوص ـ هو

في الأحكام الشرعية لا غير.

٤. ليس هناك نسخُ تلاوةٍ، فلم يقع في تلاوةِ أيَّةِ آيةٍ نسخٌ فكلّ ما نزل من قرآن ـ وهو الذي بين دفتي المصحف ـ لم تنسخ تلاوة أيَّة آية فيه، أما ما نقل بآحاد الأحاديث على أنه قرآن فهو ليس قرآناً، لأن القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ والحجة القاطعة على الناس، وهذا يعني أن يصل للناس مقطوعاً به ـ أي نقلاً متواتراً ـ لأنه كان ينزل على رسول الله ﷺ فيتلوه على الناس في جماعةٍ، ويُكتب من كتبة الوحي وهذا لا يتأتى معه أن ينقل آحاداً دون تواترٍ لأنه لم يتل على آحادٍ بل على جماعاتٍ، ولأن الله سبحانه قد حفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾ الحجر/آية٩ وهذا يعني أن يصلنا مقطوعاً به غير مظنون، كلّ ذلك يثبت أن ما نقل آحاداً ليس قرآناً، وعليه لا يوجد قرآن غير ما بين الدفتين وحيث أنه مَتْلُوٌّ كله ولم تنسخ أيَّة آيةٍ تلاوة فيه فهذا دليلٌ قاطعٌ على عدم وقوع النسخ في التلاوة بل في الحكم دون التلاوة.

٥. الآية لا تُنسخ إلا بآية، وذلك لأن الله سبانه يقول ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ النحل/آية١٠١ أي أن الله سبحانه ينسخ آيةً بآية. وكذلك ما جاء في الآية السابقة ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ فالله هو سبحانه الذي يأتي بما ينسخ الآية، أي أن الدليل الناسخ هو آية لأن هذا هو الذي يأتي به الله، فالقرآن هو كلام الله سبحانه. والسنة وإن كانت وحياً من الله سبحانه لرسوله ﷺ لكنها وحي بالمعنى أما لفظه فينسب إلى رسول الله ﷺ، وبذلك فهي لا تنسخ القرآن، سواء أكانت السنة متواترةً أم ظنيةً لأن الآيتين السابقتين تدلان على أن الآية لا تنسخ إلا بآية.

وأما السنة فتنسخ بالقرآن، وينسخ حديث الآحاد بالحديث المتواتر وبحديث الآحاد على الوجه المبين في بابه في علم الأصول.

٦. يختلف النسخ عن التخصيص للعام، فالنسخ رفع الحكم السابق كله فلا يُعمَل به بعد ذلك، وأما التخصيص فيرفع الحكم بالنسبة لجزءٍ من العام وليس إلى عمومه كله، فنسخ الصلاة إلى المسجد الأقصى (القبلة الأولى) ووضع الكعبة قبلةً بدلاً منها ومن ثَمَّ الصلاة إلى القبلة الجديدة ـ الكعبة ـ يعني رفع الحكم الأول ـ الصلاة إلى المسجد الأقصى ـ نهائياً فهذا نسخٌ.

أما تخصيص الزكاة في الأنعام السائمة بناءً على الحديث "**في الإبل السائمة زكاة**"[1] المخصص لحديث الزكاة في عموم الأنعام ـ السائمة وغيرها ـ "**فإذا بلغت الإبل إحدى وعشرين ومائة ففي كلّ أربعين بنت لبون وفي كلّ خمسين حقة**"[2] فلم ترفع الزكاة عن الإبل بعامة بل رفعت عن غير السائمة وعن العاملة وأبقيت في السائمة غير العاملة، أي يرفع الحكم عن جزءٍ من العام، وهذا تخصيصٌ للعام وليس نسخاً له.

٧. وباستقراء النصوص الواردة في النسخ يتبين أن نوع الحكم الجديد بالنسبة للحكم المنسوخ يقع ضمن ثلاث حالات:

أ. الحكم الجديد أخف من الحكم المنسوخ

سواء بتخفيف الأداء ﴿ **ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفًاۚ** ﴾ الأنفال/آية٦٦ أو إلغاء الحكم كلية بدون حكمٍ جديدٍ ﴿ **ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٍۚ** ﴾ المجادلة/آية١٣.

ب. الحكم الجديد مثل الحكم المنسوخ

نسخ القبلة الأولى ـ المسجد الأقصى ـ بالقبلة الثانية ـ الكعبة المشرفة ـ "صليت مع النبي ﷺ إلى بيت المقدس ستةَ عشرَ شهراً حتى نزلت الآية التي في البقرة ﴿ **وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ** ﴾ فنزلت بعدما صلى النبي ﷺ فانطلق رجل من القوم، فمرّ بناس من الأنصار وهم يُصَلّون، فحدثهم بالحديث فولّواْ وجوههم قبل البيت"[3] ﴿ **قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ** ﴾ البقرة/آية١٤٤ فهذه الآية تدل على نسخ القبلة الأولى وهي مثل الحكم الجديد القبلة الثانية الكعبة المشرفة.

ج. الحكم الجديد أشق من الحكم المنسوخ

نسخ وجوب صوم يوم عاشوراء (إن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان فقال رسول الله ﷺ: "**من شاء فليصم ومن شاء فليفطر**"[4] بصوم رمضان ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ**

---

[1] البيهقي: ٤/١٠٥، المستدرك: ١/٥٥٢

[2] البخاري: ١٣٨٦، ٢٣٤٩، أبو داوود: ٢٠٨٨، الترمذي: ١٠٦٤، أحمد: ١/١١

[3] مسلم: ٨١٨

[4] البخاري: ١٨٦٤، مسلم: ١٩٠٩

عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ البقرة/آية١٨٣ــ١٨٥ فقد نسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان وهو أثقل.

* * *

﴿ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ ﴾.

يبين الله في هذه الآيات ما يلي:

١. يخاطب الله المؤمنين بالله ورسوله ﷺ: هل تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ كما سألت يهود موسى ـ عليه السلام ـ باشتراط تحقيق أمور لهم حتى يؤمنوا أو يستمروا في إيمانهم كما سألوه أن يروا الله جهرةً أو يجعل لهم آلهةً كما رأوا للكفار آلهةً أو ما شاكل ذلك؟ ... ثم يخبرهم الله سبحانه أنَّ اشتراط تحقيق أمورٍ حتى يؤمن المرء أو يستمر في إيمانه هو كفر، وهو يقلب الإيمان كفراً ومن يفعل ذلك فقد حاد عن الطريق المستقيم طريق الهداية وسلك طريق الكفر والضلال.

﴿ أَمۡ ﴾ منقطعة، فالخطاب بعدها بالجمع (تريدون)، وقبلها بالمفرد (أَلَم تعلم)، وما دامت منقطعةً فتكون بمعنى (بل والهمزة) ويكون معنى ﴿ **أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ** ﴾ أي: بل أتريدون أن تسألوا رسولكم؟

﴿ **يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ** ﴾ أي يترك الإيمان ويعتقد الكفر، والباء تدخل على المتروك.

﴿ ضَلَّ ﴾ أي حاد وانحرف.

﴿ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨ ﴾ السواء القصد والمنهج وأصله الوسط والسبيل بمعنى المسبول أي الطريق المسلوك. وعليه ﴿ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٠٨ ﴾ أي وسط الطريق دون انحرافٍ وهو على نحو ما ورد في الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ الفاتحة/آية.٧

٢. إن ارتدادكم عن دينكم واستبدالكم الكفر بالإيمان هو ما يريده كثيرٌ من أهل الكتاب، فهم يعملون جاهدين لعلهم يردونكم عن دينكم من بعد أن تبين لهم أن دينكم الإسلام هو الحق، وأنّ رسول الله محمداً ﷺ هو الرسول الموعود في كتبهم، وكلّ ذلك حسداً لكم أن يُبعث فيكم رسول الله وليس فيهم، وهذا الحسد هو، من عند أنفسهم فهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم بل على عكسه أمروا بتصديقه ﷺ ولكنهم يَوَدّون ذلك من قِبَل أنفسهم وشهواتهم وليس امتثالاً لأمر الله إليهم.

ثم يطلب الله من المؤمنين أن يصفحوا عنهم إلى أن يأتي أمر الله، وهذا الأمر هو الذي بيَّنَه الله سبحانه فيما بعد، من قوله جلّ ثناؤه ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩ ﴾ التوبة/آية٢٩ ومن ثم لا صفح عنهم إلا أن يسلموا أو يدفعوا الجزية خاضعين لأحكام الإسلام أو يُقاتَلوا بالسيف.

ويؤكد الله سبحانه قدرته على كلّ شيء وأنه سبحانه القاهر فوق عباده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩ ﴾.

﴿ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ بمعنى أن يردوكم فهي بمنزلة أن الناصبة ولذلك لا جواب لها.

٣. ثم يبين الله سبحانه للمؤمنين وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويعلمهم سبحانه أنّ ما من خيرٍ يقدمه المؤمن إلا ويجده يوم القيامة أمامه، أي يجد ثوابه عند الله لا يضيع منه شيء فالله مطلع على كلّ عملٍ سواء أتمّ سراً أم علناً، وهو سبحانه يجزي به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٠ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ

هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. إنَّ اليهود قالوا لن يدخل الجنة غيرهم، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا هم، والله يخبرنا أنَّ أقوالهم تلك ما هي إلا مجرد أمانيّ باطلة كتلك التي تمنّوها عندما وَدّوا أن لا يكون الرسول من غيرهم، وعندما ودوا أن يردوا المؤمنين كافرين بغياً وحسداً، ثم يعلمهم الله سبحانه أنهم كاذبون في أمانيّهم تلك وإلا فلو كانوا صادقين فليأتوا ببرهانٍ على ذلك.

وهذا وإن كان في صيغة السؤال ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ إلا أنه بمعنى التكذيب من الله لهم في قيلهم ذاك، فهم لن يستطيعوا أن يأتوا ببرهانٍ وهذا واضحٌ من الآيات التالية التي تبدأ ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ ﴾ كما سنبينه إن شاء الله.

٢. يبين الله سبحانه في هذه الآية بطلان قولهم ويرده عليهم فليست الجنة لليهود أو النصارى بل هي لمن آمن بالله مخلصاً وانقاد وخضع لله سبحانه مصدقاً لما جاء به رسول الله ﷺ فهؤلاء لهم الجنة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ أَسۡلَمَ ﴾ أصل الإسلام لغةً الخضوع والانقياد لله سبحانه، وشرعاً الدين الذي أنزل على محمّدٍ ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران/آية١٩ ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران/آية٨٥.

﴿ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أي أسلم كله، واستعمال الوجه هنا مجاز من باب إطلاق الجزء للدلالة على الكلّ لأهمية ذلك الجزء، وهو هنا الوجه وأريد به كلّ الجسم.

﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف إيجاب لا يستعمل إلا بعد نفي لإثباته وهو هنا لإثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

إفراد ﴿ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ وجمع ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ ﴾ لأن ﴿ مَنۡ ﴾ من صيغ العموم ـ فيها معنى الكثرة ـ وأسندت إلى مفرد من حيث اللفظ ﴿ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ فتكون من حيث اللفظ للمفرد، ومن حيث المعنى للجمع وعلى هذا النحو استعملت في الآية الكريمة ﴿ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ من أجل اللفظ (المفرد) ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢ ﴾ من أجل المعنى (الجمع).

٣. في الآية الأخيرة يبين الله سبحانه كيف كان يقول اليهود عن النصارى إنهم ليسوا على شيء أي لا دين لهم، وكذلك يقول النصارى إن اليهود ليسوا على شيء فلا دين لهم ـ لما حدث عندما جاء نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ والتقوا اليهود في المدينة ـ يقولون ذلك وهم أهل كتاب يعلمون من كتبهم أن اليهود جاءهم رسول من عند الله ـ موسى عليه السلام ـ وأن النصارى جاءهم رسول من عند الله ـ عيسى عليه السلام ـ ومع ذلك فقد كان كلّ فريق يطعن في الآخر واضعين أنفسهم بهذا القول مع الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كالمشركين عبدة الأصنام، الذين كانوا يقولون لأهل كلّ دين ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم لهم.

ثم يختم الله الآية بأنه سبحانه سيحاسبهم على قولهم ذلك يوم القيامة حيث الحكم لله وحده فيجازي كلا بقوله: ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ ﴾.

* * *

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ
ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ

﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾.

هذه الآيات متصلة بمن ذكرهم الله سبحانه في الآيات السابقة الذين كانوا يقولون لكل صاحب دين لستم على شيء أي اليهود والنصارى والمشركون، فكان كلّ فريق منهم إذا استولوا على مساجد الطرف الآخر منع ذكر الله فيها وسعى في خرابها، وواقعهم في عهد رسول الله ﷺ وما قبله ينطق بذلك، فكان اليهود إذا استولوا على مساجد الفرق الأخرى أو كانت في حوزتهم منعوا أولئك الفرقاء من ذكر الله فيها وسعوا في خرابها، هكذا صنع اليهود مع النصارى والنصارى مع اليهود عندما كانوا يتغلبون على مساجد بعضهم، وهكذا صنع المشركون مع رسول الله ﷺ عندما كان البيت الحرام بحوزتهم فمنعوا الرسول ﷺ وصحبه من العمرة والطواف بالبيت.

وهذا الأمر مشاهد محسوس في عصرنا الحاضر، فالحروب التي يشنها اليهود والنصارى والصرب والهندوس والروس على المسلمين في فلسطين ولبنان والبوسنة والهند وكشمير والشيشان تُري كيف يتقصد الكفار المآذن والقباب والمساجد كلها بالقذائف وأسلحة التدمير حاقدين عامدين متعمدين.

والله سبحانه يبين في هذه الآيات ما يلي:

١. إنه لا أحد أظلم ممن منع كلمة الحق أن تذكر في بيوت الله وقام بتخريب المساجد سواء التخريب المادي ـ أي الهدم وعدم العناية بها ـ أو التخريب المجازي بأن جعلها بيوتاً معطلةً من دعوة الخير ونشر فيها دعوة الشرّ.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ استفهام استنكاري أي إنكار أن يكون أحدٌ أظلم من أولئك.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي أظلم المانعين هم المانعون لمساجد الله، وهذا على نحو قوله سبحانه ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ الصف/آية٧ أي أظلم المفترين هم أولئك الذين يفترون على الله الكذب ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ البقرة/آية١٤٠ أي أظلم الكاتمين هم أولئك الذين يكتمون شهادة عندهم من الله.

(فالأظلم) في هذه الآيات هو في نفس الموضوع المذكور من الآية.

٢. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ أي أولئك لا ينبغي لهم

أن يدخلوها آمنين وهذا نهي أن يُمَكَّنوا من دخولها آمنين، ودخولهم آمنين يعني أن يكونوا أصحاب سلطانٍ عليها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين في الآية السابقة، الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ويسعون في خرابها، غير أن النص عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تشمل كل مانع لمساجد الله وساعٍ في خرابها.

وعلى هذا النحو يكون المعنى أنه يحرم عليكم أيها المؤمنون أن تمكنوا المانعين لمساجد الله والساعين في خرابها أن يكون لهم سلطانٌ عليها.

والنهي هنا جازم بقرينة ﴿ **لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ** ١١٤ ﴾ وهذا النهي ﴿ **مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ** ﴾ على نحو قوله سبحانه ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ** ﴾ الأحزاب/آية٥٣ أي يحرم عليكم أن تؤذوا رسول الله، وعلى هذا النحو قوله سبحانه ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ** ﴾ الأحزاب/آية٣٦ أي يحرم على كلّ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ أن يعصي أمراً أبرمه وجزمه الله ورسوله ﷺ.

٣. ﴿ **لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ** ١١٤ ﴾ هذا بيان من الله سبحانه لعقوبة أولئك المانعين مساجد الله مما أقيمت لأجله، فعقوبتهم خزيٌ في الدنيا أي ذلةٌ وهوانٌ وكشفٌ لسيئاتهم وإظهار مرض قلوبهم إلى العيان ﴿ **أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ** ٢٩ ﴾ محمّد/آية٢٩ وفي الآخرة عقوبةٌ شديدةٌ عظيمةٌ.

٤. إن الله سبحانه قد جعل الأرض مسجداً وطهوراً "**فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ حيث كان**"[١] فإذا خربت بيوت الله وعطلت الصلاة فيها من قبل الموصوفين في الآيات السابقة، فليصل المرء حيث وجد وليولِ وجهه شطر المسجد الحرام مهما كانت تلك الجهة، فالجهات كلها لله سبحانه هو مالكها وهو خالقها.

فإن كانت جهة المسجد الحرام شرقاً فليصل شرقاً وإن كانت غرباً فليصل غرباً وإن كانت جهة أخرى فليصل إليها وسيكون في جميعها متجهاً إلى الله سبحانه.

﴿ **وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ** ﴾ أي إنَّ الله مالك الاتجاهات كلها وخالقٌ لها، وقد ذكر

[١] البخاري: ٣٢٣، مسلم: ٨١٠

هنا المشرق والمغرب للدلالة على جميع الجهة التي تشرق منها الشمس عند الأفق وهي تُرى رأي العين فتشرق من نقاط متعددة حسب فصول السنة، وتلك الجهة من أول نقطةٍ إلى آخرها في الأفق الشرقي هي المشرق وهكذا المغرب.

وقد ذكر في موضع آخر ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ الرحمن/آية١٧ فالمشرقين أي أول نقطة تشرق الشمس منها وآخر نقطة تشرق منها حسب فصول السنة (المشرقين) أي بداية منطقة الشروق ونهايتها خلال السنة، وهكذا (المغربين).

وقد ذكرت كذلك ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ المعارج/آية٤٠ فالمشارق نقاط شروق الشمس من جهة المشرق حسب فصول السنة وهكذا المغارب.

وذكر (المشرق والمغرب) أو (المشرقين والمغربين) أو (المشارق والمغارب) كناية عن أن الله سبحانه مالكٌ لكلّ الجهات وخالقٌ لها وهو سبحانه واسع الرحمة عالمٌ بما يصلح عباده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

٥. ثم يخبرنا الله سبحانه أن أولئك المذكورين في الآية السابقة ـ اليهود والنصارى والمشركين ـ قالوا اتخذ الله ولداً، فاليهود قالوا ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ التوبة/آية٣٠ والنصارى قالوا ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ التوبة/آية٣٠ والمشركون قالوا الملائكة بنات الله ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ الصافات/آية١٤٩ـ١٥٥.

ويعلمنا الله سبحانه أنه منزهٌ عن افتراءاتهم وأنه سبحانه مالك السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن والجميع له سبحانه منقادون طائعون.

﴿ بَل ﴾ للإضراب، أي إبطالٌ لما زعموا من أن لله ولداً.

إن استعمال ﴿ مَا ﴾ التي لغير العاقل في قوله تعالى: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ تعقيباً على قولهم ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ ﴾ هو للدلالة على أن منزلة كل المخلوقات في السموات والأرض، وبخاصة الذين زعموا أنهم أبناء لله، هي منزلة جمادات بل دون ذلك بالنسبة لعظمة الله، فبون شاسع بين مخلوقات الله وبين الله سبحانه. وهم يدركون أن الولد عادة من جنس والده، والأمر هنا ليس كذلك، بل هو خالق ومخلوق، وهذا كناية عن تسفيه أحلام أولئك القائلين عن المخلوقات أنها أبناء للخالق الذي خلقها

وخلق السموات والأرض وما فيهن.

﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ التنوين في ﴿ كُلٌّ ﴾ عوض عن المضاف إليه أي كل ما في السموات والأرض وكل من جعلوه لله ولداً كلهم طائعون خاضعون لله سبحانه، أما المؤمن فمسألة طاعته وخضوعه ظاهرة، وأما الكافر فقد وردت في كيفية خضوعه أقوال أرجحها ما نقل عن مجاهد وهو أن خضوعه هو سجودُ ظِلِّه وهو كاره، على نحو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ الرعد/آية١٥.

٦. إن الله سبحانه هو مبدع السموات والأرض، والإبداع الإيجاد على غير مثالٍ سابقٍ أي خالقها، وهو سبحانه لا يعجزه شيء فإذا أراد شيئاً حدث كما أراد سبحانه.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مبدعها من تصريف (مُفعِل) إلى (فعيل) على نحو مؤلم إلى أليم.

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي إذا أراد شيئاً على نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يس/آية٨٢.

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ كناية عن حدوث ما يريده الله سبحانه على الفور كما يريد.

٧. يخبرنا الله سبحانه أن ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم المذكورون في الآية السابقة ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ أي مشركو العرب قد طلبوا مثل آيات الأولين ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الإسراء/آية٩٠ ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الأنبياء/آية٥ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ الفرقان/آية٢١ هكذا قالوا لرسول الله ﷺ وقولهم هذا، مثل قول الذين من قبلهم من الأمم الكافرة الماضية، فقد سألت تلك الأمم أنبياءها الآيات لتؤمن: فقد سألت ثمودُ صالحاً عليه السلام آيةً ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ الشعراء/١٥٣-١٥٤. وسأل فرعون وآلُه موسى عليه السلام آياتٍ ليؤمنوا فطلبوا منه عليه السلام رفع ما أصابهم من عذاب ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ الأعراف/آية١٣٤. فقال المشركون كما قال الذين من قبلهم حيث تشابهت قلوبهم باشتراط رؤية الآيات لكي

يؤمنوا ويصدّقوا، فإذا جاءتهم الآيات لم يؤمنوا ولم يصدقوا ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الأنعام/١٠٩.

ثم يختم الله سبحانه الآية ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ أي الذين يطلبون الآيات لأجل التثبت واليقين والإيمان، فإن الله سبحانه قد بينها لهم. وهذا ردّ على مشركي العرب في مكة الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصنع لهم ويصنع من المعجزات، فإن الله يبين لهم إن كنتم تريدون الآيات لتؤمنوا فقد أنزلها الله وبيَّنها، وهي كتاب الله المعجز الذي جاء به رسول الله ﷺ ، كما تؤكد ذلك الآية اللاحقة.

٨. يخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بأنه أرسله بالقرآن الكريم المعجز المتحدي للعرب بأن يأتوا بسورة مثله، وفي هذا ردٌّ على قولهم ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ ﴾ فلو كانوا حقاً يريدون آيةً ليؤمنوا فها هي ـ هذا الكتاب المعجز ـ فليتدبروا آياته، وعندها يتبين لهم أنه ليس كلام بشرٍ بل كلام الله سبحانه فيؤمنوا إن كانوا صادقين في طلبهم الآيات لأجل الإيمان.

ثم يخبر الله سبحانه رسوله ﷺ أنه بُعث بالقرآن الكريم بشيراً للمؤمنين برضوان الله والجنة، ونذيراً للكافرين بسخط الله والنار، فمن كفر بعد ذلك فلن يضرَ اللّـهَ ورسولَهُ شيئاً ولن يكون الرسول ﷺ مسؤولاً عن كفره، حيث إنَّ على الرسول البلاغ والإنذار ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالقرآن على نحو ما قاله سبحانه ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ ق/آية٥.

* * *

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا

﴿... تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. إن اليهود والنصارى لن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم، وحيث إن هذا لا يكون لأن ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ آل عمران/آية٨٥ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ آل عمران/آية١٩ فعليهم أن يعلموا أن الهدى هو الذي جاء به رسول الله ﷺ وليس ما يزعمونه من هدىً باتباع ملتهم الحاضرة، فملتهم محرفةٌ مبدلةٌ وهي ملة كفرٍ بعد أنْ حُرِّفتْ. ثم يخبر الله سبحانه رسوله ﷺ على سبيل القسم لأن اللام في (لئن) هي لام القسم، أنه إن اتبع أهواءهم - وفي هذا دلالة على أن ملتهم وما يزعمونه من هدىً هو هوىً أي انحراف عن الحق - فلن يكون له وليٌ ولا نصيرٌ يمنعه من عذاب الله.

وكلّ ذلك استبعادٌ من الله سبحانه أن يرضى اليهود والنصارى عن رسول الله ﷺ لاستحالة اتّباع الرسول ﷺ لملّتهم.

٢. ثم إن الله سبحانه يبين أن اليهود والنصارى الذين يتبعون كتبهم بحق دون تحريف يؤمنون برسول الله ﷺ لأنه مذكورٌ في كتبهم بصفته ﷺ ومن يكفر به منهم يكن من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يتبعونه حق إتباعه على نحو قوله تعالى ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ الشمس/آية٢ يعني الشمس إذا تلاها القمر، وكذلك من قول القائل "ما زلت أتلو أثره" أي أتبع أثره.

٣. ثم يختم الله سبحانه قصة بني إسرائيل على نحو ما بدأها به بسبب تكرار معاصيهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ وهذه الآية وما بعدها ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ سبق أن ذكرنا دلالتها في أوائل آيات بني إسرائيل فنكتفي بما أوردناه هناك.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ
لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ
مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن
ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ
بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا
كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُواْ كُونُواْ
هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ

(١٣٥) قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا
نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (١٣٦) فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ
فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ (١٣٧) صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ (١٣٨)
قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ
لَهُۥ مُخۡلِصُونَ (١٣٩) أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن
كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (١٤٠) تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ
خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٤١)
﴾.

التفسير:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) ﴾.

١. يخبرنا الله سبحانه أنه ابتلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلماتٍ أوحاها إليه فأمره ونهاه اختباراً له ـ عليه السلام ـ فأتمها إبراهيم على أكمل وجهٍ وشهد الله له بذلك ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ (٣٧) ﴾ النجم/آية٣٧.

٢. على أثر ذلك تفضل الله سبحانه على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمثوبة جزاء إتمامه ما ابتلاه الله به أن جعله إماماً للناس.

والإمام يعني القدوة ولذلك قيل لخيط البناء إمام وللطريق إمام، وكذلك يطلق على كلّ من يؤتم به في الخير والشرّ، أما في الخير فكما في الآية ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ وأما في الشرّ كما في الآية ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ ﴾

القصص/آية. ٤١

٣. إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان نبياً عندما ابتلاه الله سبحانه بقرينة ﴿ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ وهذه تعني أن إبراهيم كان يوحى إليه عند الابتلاء أي أنه ـ عليه السلام ـ كان نبياً وكان الابتلاء بعد نبوته ـ عليه السلام ـ.

٤. وحيث إن ﴿ إِمَامٗا ﴾ تعني القدوة في الخير كما بينا في الدين والدنيا فإن هذا يدلّ على أن الله سبحانه بعد أن ابتلى النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يبقه نبياً فحسب بل أضاف إليه الرسالة ليكون رسولاً إماماً للناس ـ أي لقومه ـ يأتمون ويقتدون بهديه في دينهم ودنياهم.

٥. بعد أن آتى الله إبراهيم الرسالة بعد الابتلاء استفسر إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن ذريته، هل سيؤتيها ما آتاه الله سبحانه ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ ﴾ فأعلمه الله أن عهده هذا ـ إتيان الرسالة ـ لا يشمل الظالمين، وفي هذا إشارة إلى أنه سيكون من ذرية إبراهيم ظلمة لا يشملهم عهد الله ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣ ﴾ الصافات/آية١١٣ والظلم وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فهو ظالم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾ لقمان/آية١٣ فهو ظلمٌ في العقيدة ﴿ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ البقرة/آية٢٣١ وهذا ظلمٌ في الحكم الشرعي، أي أن الظلم يقع في العقيدة ويقع في الأحكام الشرعية. وعهد الله بالرسالة لا يكون في الظلمة من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾.

* * *

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ ﴾.

١. إن الله سبحانه قد جعل البيت الحرام موصوفاً بصفتين متلازمتين له: **الأولى** ﴿ مَثَابَةٗ ﴾ أي مرجعاً للناس يأتونه كلّ عامٍ يرجعون إليه فلا يقضون منه وطراً، فمن جاءه مرةً لا تكون له نهاية المطاف، بل تحدثه نفسه أن يرجع إليه ثانية ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ

أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إبراهيم/آية٣٧. والثانية ﴿ وَأَمۡنٗا ﴾ وهو مصدر من أَمِنَ يأمَنُ أمناً، وقد وقع المصدر هنا موقع اسم الفاعل للمبالغة في الأمن أي جعلنا البيت آمناً، نحو قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ ﴾ العنكبوت/آية٦٧ وقد كان في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن، وكان الرجل منهم يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له حتى يخرج منه.

وفي الآية الكريمة يبين الله سبحانه أنه قد جعل البيت مثابةً للناس وأمناً (كذلك للناس). ولفظ (الناس) لفظ عام، لذلك فالأمن لكل إنسانٍ والتخصيص بحالةٍ معينةٍ يحتاج إلى نصّ "**كإهداره ﷺ دم بضعة نفر ولو تعلقوا بأستار الكعبة**"[1] وذلك عند الفتح، وهكذا فالأمن فيه لعموم الناس إلا بتخصيصٍ بنصٍ صحيحٍ.

٢. يأمر الله سبحانه أن يُتخذ مقام إبراهيم مصلىً ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ ﴾ كما جاء في حديث ابن عمر "أن النبي ﷺ أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: **يا عمر، هذا مقام إبراهيم**. فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: **لم أؤمر بذلك**. فلمّا تغرب الشمس حتى أنزل الله سبحانه ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ ﴾"[2].

ومقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو المكان المعروف اليوم في الحرم فهو الحجر الذي تعرفه الحجيج والذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم وذلك لحديث عمر السابق، ولما أخرجه مسلم عن جابر "**أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية**"[3].

﴿ مَّقَامِ﴾ لغة موضع القدمين أي المكان الذي يضع قدميه عليه وهو واقف من قام يقوم والمصدر مقام.

(والحجر) هو الذي به أثر قدمه ـ عليه السلام ـ في المكان المعروف في الحرم. أما ما هو هذا الحجر ففيه روايات لعل أرجحها أنه الذي كان يقف عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما ارتفع بناء البيت وأصبح لا يتمكن من البناء إلا أن يضع تحت قدميه حجراً، فكأنه هو الحجر المعروف اليوم.

---

[1] سيرة ابن هشام: ٥١/٤ وما بعدها

[2] البخاري: ٤١٢٣، مسلم: ٤٤١٢، تفسير الطبري: ٥٣٤/١

[3] مسلم: ٢١٣٧، ابن ماجه: ٩٩٨، ٢٩٥١، تفسير الطبري: ٥٣٥/١

٣. ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ أي أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن يقيما البيت ويُخلِصاه للذين ذكرهم الله سبحانه ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فلا يغشاه غيرهم.

﴿ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ﴾ أوصينا لأن العهد إذا تعدى بـ(إلى) يكون بمعنى التوصية.

﴿ أَن طَهِّرَا ﴾ ﴿ أَن ﴾ بمعنى (أي) المفسرة فالجملة لا محلّ لها من الإعراب.

﴿ طَهِّرَا ﴾ أي ابنياه طاهراً أي خالصاً نقياً للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإنما قلنا (طاهراً) بهذا المعنى المجازي أي خالصاً نقياً لأن المكان الذي بني فيه البيت لم يكن يسكنه أحد فلا أصنام ولا أرجاس يطهَّر منها ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ إبراهيم/آية٣٧.

﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾: الذين يطوفون بالبيت.

﴿ ٱلْعَـٰكِفِينَ ﴾: المقيمين فيه للعبادة (المعتكفين).

﴿ ٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾: المصلين.

معنى الآية كاملاً: أوصينا إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت نقياً خالصاً للطواف حوله والاعتكاف فيه والصلاة.

ولا تناقض هذه الآية ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ ﴾ ما ذكره الله سبحانه في سورة الحج ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ الحج/آية٢٦، ففي سورة الحج ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ وحده فالله أعلمه المكان الذي أمره بإقامة البيت فيه بدلالة ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ أي هيأنا مكان البيت كناية عن إعلام الله سبحانه لإبراهيم مكان البيت، أما في هذه الآية فالأمر متعلق بإقامة البيت، فعهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه، وهذه غير تلك فلا تعارض بين ذكر (إبراهيم وإسماعيل) في هذه الآية وبين ذكر (إبراهيم) وحده في آية الحج لاختلاف الأمرين.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

١. دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يكون البلد الذي ترك أهله فيه بلداً آمناً وأن يرزق أهله، ولكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ جعل دعاءه لمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، أي أن ﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ بدل بعض من كلّ فهو بدل من ﴿ أَهْلَهُۥ ﴾.

٢. استجاب الله دعاء إبراهيم وأضاف عليه أنه سبحانه سيرزق كذلك ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فيمتعه قليلاً أي عيشه في الدنيا، وهو قليل مهما كانت النسبة إلى عيش الآخرة، وبعد متعة العيش هذه سيكون مصير ذلك الكافر إلى النار.

فقد تفضل الله سبحانه على الناس بأن رزقهم مؤمنين وكافرين في الدنيا ثم الجزاء الأوفى في جنان الخلد للمؤمنين، وبئس المصير في نار جهنم للكافرين على نحو قوله سبحانه ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الإسراء/آية١٨ـ٢٠.

أي أن الرزق في الدنيا يصيب المؤمنين والكافرين، وأما الآخرة فالأمر فيها مختلف فرضوان الله والجنة للمؤمنين، وسخط الله والنار للكافرين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. يُذكّرنا الله سبحانه أن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ قد رفعا قواعد البيت الحرام (الكعبة) بأمر الله سبحانه، وكانا وهما يبنيان البيت يسألان الله سبحانه أن يتقبل عملهما خالصاً لوجهه الكريم.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ أي واذكروا إذ يرفع.

﴿ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ جمع قاعدة وهي الأساس، ونحو ذلك قولهم "قعّدك الله تعالى ـ في الدعاء ـ بمعنى أدامك الله تعالى وثبتك" ولذلك يقال لكلّ ما هو ثابت في الأرض وأصل

لما فوقه يقال له قاعدة وجمعه قواعد[1] ﴿ يرفع القواعد ﴾ مجاز عن البناء على القواعد، وذلك لأن ﴿ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ على الحقيقة يبقى على حاله فلا يرتفع، ولكن لأن هيئة القواعد قبل البناء عليها منخفضة فلما بني عليها ما فوقها أصبحت هيأتها مع ما فوقها هي الارتفاع فكان الرفع للبناء وليس للقواعد، أي أن العلاقة المجازية هي السببية.

﴿ تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ قرينة على أن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ كانا يبنيان بيتاً لله وليس مسكناً لهما بل بيتاً للعبادة لأن ﴿ تَقَبَّلْ ﴾ مرتبط بالعمل الذي هو قربى إلى الله ولا يستعمل في غيرها.

٢. أما هل كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أول من بنى البيت من البشر أم سبقه إلى ذلك غيره فإن في ذلك روايات عدة لعل أرجحها أن آدم ـ عليه السلام ـ هو أول من بناه كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص "**إن رسول الله ﷺ قال: بعث الله ـ عز وجل ـ إلى آدم عليه السلام فقال له ولحواء: ابنيا لي بيتاً. فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودي من تحته حسبُك آدم، فلما بنياه أوحى إليه أن يطوف به، فقيل له: أنت أول إنسان وهذا أول بيت**"[2] ثم أعاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بناءه بعد أن أخذه الطوفان فيما أخذ، حتى جاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأعلمه الله مكانه في وادٍ غير ذي زرعٍ وقام ببنائه هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

وكذلك دلالة ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ التي ترجح أن مكان القواعد كان موجوداً وبنى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوقها.

ثم قوله سبحانه ﴿ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ الحج/آية٢٦ والذي يفيد كما قلنا سابقاً أنَّ الله أعلم إبراهيم مكان البيت، وفي هذا ترجيح كذلك أن موقعه كان دارساً غير معروف فأعلمه الله سبحانه إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وبذلك فالأرجح أن البيت قد بُني قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأن آدم ـ عليه السلام ـ هو الذي بناه، وبعد الطوفان جُهِلَ مكانه، إلى أن جاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأعلمه الله مكانه وأمره ببنائه ورفعه إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ.

---

[1] أما (القواعد) بمعنى عجائز النساء فهي جمع (قاعد) أي التي قعدت عن الحيض، فلا تلحق بها تاء التأنيث لأن هذا الوصف لا يستعمل إلا للإناث فلا تلحق به تاء التأنيث لأن استعماله لا يلتبس بين الذكور والإناث، أما لو قصد به القعود الذي هو خلاف القيام لقيل (قاعدة) ولم يجز حينها أن تسقط تاء التأنيث للتمييز فيقال قاعد صفة مذكرة وقاعدة صفة مؤنثة.

[2] تفسير الطبري: ١/٥٤٧

٣. يخبرنا الله سبحانه أن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ كانا وهما يرفعان القواعد في البيت يسألان الله سبحانه:

أ. أن يتقبل عملهما خالصاً لوجهه الكريم فهو سبحانه سميع الدعاء العليم بإخلاص النية فيه.

ب. أن يجعلهما مسلمَيْن لله خاضعَيْن لأمره سبحانه وأن يجعل من ذريتهما أمةً مسلمةً كذلك.

ج. أن يعلمهما مناسك الحج التي قاما ببناء البيت لأجلها ليكونا أول من يطوف بهذا البيت ويتم المناسك.

د. وأن يتوب عليهما إنه سبحانه التواب الرحيم.

هـ. وأن يبعث سبحانه في الأمة المسلمة من ذريتهما رسولاً منهم يعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك فإنه سبحانه العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء، والحكيم الذي يُحكم تدبيره ويفعل ما يريد.

﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ** ﴾ ﴿ **مِن** ﴾ هنا للتبعيض فلم يدعُ إبراهيم لكل ذريته لأنه علم من الله سبحانه أنه سيكون من ذريته ظالمون ﴿ **قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾** ﴾.

﴿ **مَنَاسِكَنَا** ﴾ معالم الحج فأراهما الله المناسك: الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والإفاضة من عرفات إلى المزدلفة فمنى ورمي الجمار وطواف الإفاضة وجميع المناسك.

وأصل (النسَك) بفتحتين غاية العبادة وشاع في الحج، وواحد (المناسك) منسَك بفتح السين وكسرها وهو المتعبَّد، ولذا قيل للعابد ناسك.

﴿ **وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ** ﴾ أي محمّداً ﷺ ويقول رسول الله ﷺ: "**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى** ـ عليه السلام ـ"[1] يشير بذلك رسول الله ﷺ إلى هذه الآية الكريمة وإلى قوله سبحانه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾** ﴾ الصف/آية٦.

[1] تفسير الطبري: ١/٥٥٦، المستدرك: ٢/٦٠٠

* * *

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. إن الذي يكره ويكفر بملة إبراهيم يكون قد أوقع نفسه في الجهل والسفه لأن الله سبحانه قد اختار إبراهيم – عليه السلام – بالنبوة والرسالة في الدنيا وهو عليه السلام في الآخرة من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ استفهام استنكاري أيكون من العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم.

(والملة) في الأصل هي السُّنَّة والطريقة كما قال الزجّاج وصارت تطلق على الدين، عقيدتِه وشرعِه، وهي هنا العقيدة أي الإيمان الذي كان عليه إبراهيم، وذلك لأن شرع الأنبياء السابقين قد نسخ برسالة الإسلام منذ أن بعث رسول الله ﷺ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ المائدة/آية٤٨.

﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ أي ناسخاً لشرع الأنبياء السابقين، أما عقيدة الأنبياء السابقين فغير منسوخة لأن النسخ يقع في الأحكام الشرعية للأنبياء السابقين إلا ما أقره الإسلام من شرائعهم فيصبح حكماً شرعياً في الإسلام لأن الإسلام أقره.

وعليه فالذي يكفر بملة إبراهيم من حيث العقيدة التي كان عليها أي توحيد الله ونبذ الشرك وكلّ ما طلب من إبراهيم ـ عليه السلام ـ الإيمان به فإن الذي يكره ذلك ويكفر به يكون قد أوقع نفسه في السفه والجهل والكفر بالله ورسوله.

﴿ **مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ** ﴾ أي أوقع نفسه في السفه والجهل والكفر.

﴿ **سَفِهَ** ﴾ بكسر الفاء، يتعدى وبضم الفاء لازم.

٢. إن جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا مسلمين لله بمعناها اللغوي أي منقادين خاضعين لله مؤمنين بكلّ ما طلبه الله منهم، وبهذا المعنى كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ حنيفاً مسلماً أي غير مائلٍ عن الحق بل خاضعاً لله منقاداً مخلصاً.

ولذلك فقد ردّ الله على اليهود قولهم إنَّ إبراهيم كان يهودياً، وردّ الله أيضا على النصارى قولهم إنَّ إبراهيم كان نصرانياً ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾** ﴾ آل عمران/آية٦٧.

وكذلك ردّ الله عليهم بالآية السابقة ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ** ﴾ فاليهود والنصارى كانوا يكرهون أن تكون ملة إبراهيم ـ حنيفاً مسلماً ـ ويقولون إنه كان يهودياً أو نصرانياً.

وقد ردّ الله عليهم كذلك ادّعاءهم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾** ﴾ آل عمران/آية٦٥.

فائدة عن ملة إبراهيم:

إن الأنبياء ومن اتبعوهم هم مسلمون بهذا المعنى من حيث اللغة، أي خاضعون منقادون لله سبحانه، ولكن الإسلام بالمعنى الشرعي هو الذي أنزله الله على رسوله محمّد ﷺ بعقيدته الكاملة ـ ومن ضمنها عقيدة الأنبياء السابقين ـ وبشريعته الكاملة الناسخة لشرائع الأنبياء السابقين.

وبعد بعثة رسول الله ﷺ أصبحت الدعوة مقصورة على الإسلام والإسلام وحده ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ** ﴾ آل عمران/آية١٩ ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ آل عمران/آية٨٥.

فلا يصح إفراد الدعوة لملة أيٍّ من الأنبياء السابقين، بل لا بدّ من الدعوة

إلى العقيدة الإسلامية ـ وعقيدة الأنبياء السابقين جزءٌ منها ـ وكذلك لا بدّ من الدعوة إلى الأحكام الشرعية الإسلامية التي نسخت شرع الأنبياء السابقين إلا ما أقرته منها وأصبح جزءاً من الأحكام الشرعية.

وخلاصة القول:

أ. إن ملة الأنبياء السابقين من حيث العقيدة نؤمن بها وهي جزء من العقيدة الإسلامية.

ب. إن ملة الأنبياء السابقين من حيث الشرع هي منسوخة بالإسلام وما أقره الإسلام منها يصبح جزء من الإسلام ويُعمل به لأن الإسلام جاء به وليس لأنه شرع من قبلنا.

ج. لا يصح إفراد الدعوة بعد الإسلام لأيِّ ملةٍ من ملل الأنبياء السابقين بل يدعى للإسلام وحده وما أقره الإسلام من ملل الأنبياء السابقين يصبح جزءاً من الإسلام.

* * *

٣. إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد امتثل لأمر الله وأسلم منقاداً مخلصاً لله وبهذا وصّى بنيه، وكذلك وصّى به يعقوب ـ عليه السلام ـ بنيه أن يحرصوا على التمسك بدينهم الذي اختاره الله لهم وأن يستمروا على ذلك حتى يتوفاهم الله بالموت وهم مسلمون لله طائعون له، ولا تفتر همتهم عن طاعة الله والخضوع والإسلام إليه لأنهم لا يعلمون متى الوفاة.

﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴿١٣٢﴾ ﴾ أي استمروا ثابتين على الإسلام حتى يتوفاكم الموت، أي لا يأتيكم الموت إلا وأنتم مسلمون، فالنهي في الحقيقة هو على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، وليس النهي عن أن يموتوا، كقولك لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع وهي هنا كذلك، فالنهي ليس عن موتهم بل النهي عن ترك الإسلام.

٤. إن اليهود والنصارى كانوا يفترون على الله الكذب فيدعي كلّ فريق منهم أن الأنبياء كانوا على ملتهم، قالوا ذلك عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ فبيّن الله بطلان قولهم كما ذكرنا سابقاً، وقالوا عن يعقوب فأبطل الله دعواهم لأنهم لم يحضروا يعقوب ـ عليه السلام ـ عندما حضرته الوفاة ولو أنهم كانوا حاضرين لعلموا أنَّ يعقوب ـ عليه

السلام ـ كان مسلماً لله خاضعاً طائعاً وأن أبناءه من بعده وعدوه في مرض موته أن يستمروا على دينه ودين آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق يعبدون الله الواحد الأحد وينقادون له سبحانه خاضعين طائعين، وليس كما يدّعي اليهود والنصارى أنهم كانوا على ملتهم المبدَّلة المحرفة والتي نزلت بعدهم ثم حرِّفت وبدّلت.

﴿ أَمْ كُنتُمْ ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى (بل) وهمزة الإنكار أي (بل أكنتم) ومعنى (بل) الإضراب عن الكلام الأول ـ في الآية السابقة ـ وهي بيان التوصية، ثم الانتقال إلى موضوع جديد مستأنف وهو توبيخ اليهود والنصارى على ادّعائهم ملتهم على يعقوب وبنيه.

والعرب تستفهم بـ(أم) في كلّ استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه على نحو قوله سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ السجدة/آية ١ ـ ٣.

﴿ شُهَدَآءَ ﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين حين احتضار يعقوب ـ عليه السلام ـ وسؤاله بنيه عن الدين فَلِمَ تدَّعون ما تدَّعون؟!

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ أي أيّ شيء تعبدونه بعد موتي. واستعمال ﴿ مَا ﴾ في السؤال للدلالة على أن جواب أبناء يعقوب بعبادة الله وحده لم تكن بناءاً على تقليدٍ أو توجيهٍ من أبيهم بل بناءً على قناعةٍ عقليةٍ وإيمانٍ صادقٍ بذلك فكأنَّهم سئلوا عما يعبدون ابتداءً دون أن تكون عندهم معرفةً مسبقةً من أحدٍ، فأجابوا عن اعتقادٍ دون تقليدٍ. والعرب تسأل بـ(ما) عن كلّ شيءٍ مجهولٍ فإذا عُرِّف خُصَّ العقلاء بـ(مَن) إذا سئل عن شيءٍ بعينه، وإن سئل عن وصفه قيل ما زيد أفقيه أم طبيب؟ فالسؤال ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ هو سؤال لهم عن معبودهم ابتداءً أي كما لو لم يكونوا يعلمون شيئاً عن المسئول عنه حتى لا يكون جوابهم تقليداً أو بناءاً على معلوماتٍ لا دليل عليها، بل يكون جواباً عن علمٍ قطعيٍ وهكذا كان.

﴿ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ أما إبراهيم وإسحاق فهما الجد والأب ليعقوب وهو واضح في تسميتهم بالآباء، وإسماعيل ـ عليه السلام ـ هو عم يعقوب، والعرب تجعل الأعمام بمعنى الآباء، ورسول الله ﷺ يقول: **"عم الرجل صنو أبيه"**[1]

---

[1] مسلم: ٩٨٣، الترمذي: ٣٧٥٨، أبو داوود: ١٦٢٣، أحمد: ١/ ٩٤

ويقول ﷺ في العباس: "هذا بقية آبائي"[1].

٥. في الآية الأخيرة خطاب لليهود والنصارى أن يتركوا الافتراء على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه بأنهم كانوا يهوداً أو نصارى، فلا تلصقوهم بكم أو تلصقوا أنفسكم بهم ظناً منكم أنكم ترفعون من شأنكم بهم، فإن الأمر على غير ذلك، فهم أمة قد ذهبوا بأعمال الخير الذي كسبوه، وأنتم سيحبط بكم عمل الشر الذي اقترفتموه ولن تنتفعوا بحسنات تلك الأمة الصالحة، فأنتم لن تحاسبوا بأعمالهم بل بأعمالكم، والذي سيوضع في ميزانكم يوم الحساب هي أعمالكم أنتم فاحرصوا أن تكون أعمالكم في طاعة الله فتنفعكم يوم الحساب، وأما أن تعصوا الله وتعمدوا إلى إلصاق الأنبياء بكم ظناً منكم أن حسناتهم ستنفعكم وتخفف عنكم فإن هذا لا يكون.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

﴿ **أُمَّةٌ** ﴾ لفظ مشترك تطلق على الواحد إذا كان يقتدى به في الخير وله شأن ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ** ﴾ النحل/آية١٢٠ وتطلق على الدين والملة ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ** ﴾ الزخرف/آية٢٣، وكذلك تطلق على المدة الزمنية ﴿ **وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ يوسف/آية٤٥ والقرينة هي التي تبين المعنى، وهي هنا بمعنى جماعة من الناس لأنها تتكلم عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه وعمن آمنوا بهم واتبعوهم على نحو قوله سبحانه ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ** ﴾ آل عمران/آية١٠٤ وقوله سبحانه: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ** ﴾ الأعراف/آية١٥٩.

﴿ **خَلَتْ** ﴾ أي مضت بالموت، وإنما قيل للذي مات فذهب: قد خلا لتَخلِّيه عن الدنيا ومفارقته لأهله وموضع أُلْفِه، وأصله من قولهم خلا الرجل إذا سار بالمكان الذي لا أنيس له فيه وانفرد من الناس.

* * *

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

[1] تفسير البيضاوي: ١٩١/١

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

١. بعد أن ردّ الله سبحانه ادّعاءهم حول إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ وبيّن بطلان قولهم إنهما يهود أو نصارى ـ وذلك في الآيات السابقة ـ فإن الله سبحانه بعد ذلك قد ردّ دعوهم إلى دينهم، فهو محرَّف باطل وذلك أنهم كانوا يقولون: اليهود تقول اتّبعوا ديننا فهو الأفضل، والنصارى تقول اتّبعوا ديننا فهو الأفضل، فردّ الله عليهم دعواهم تلك بأنها باطلةٌ وأوحى إلى نبيه محمّد ﷺ أن يقول لهم بل الحق أن نتبع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي كان تاركاً لكلّ دينٍ باطلٍ ومائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق والذي لم يكن عليه السلام من المشركين.

وفي هذا تعريض باليهود والنصارى بأن دينهم باطلٌ، وأنهم مشركون حيث قد حرفوا دينهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ المائدة/آية١٣. وكذلك نسبوا لله ولداً سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ التوبة/آية٣٠.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن صوريا الأعور قال للنبي ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمّد تهتدِ. وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ فهو ردّ على قولهم ذاك وبيان بطلانه، وفيه كذلك دلالة الإشارة أن إبراهيم ليس يهودياً ولا نصرانياً فملته غير ملتهم.

﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وسمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ حَنِيفًا ﴾ لأنه حنفَ إلى دين الله الحق فأسلم وجهه لله سبحانه.

وأصل (الحَنَف) الميل، ومنه (رِجل حنفاء) و(رَجُل أحنف) وهو الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها بأصابعها.

٢. ثم يخاطب الله المؤمنين بأن يؤمنوا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ويعقوب والأسباط وبما أنزل على موسى وعيسى وعلى كلّ نبي بدون تفريق بينهم في النبوة، فلا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما يفعل اليهود والنصارى، بل نؤمن هم جميعاً ونسلم لله خاضعين طائعين له سبحانه.

فإن آمن اليهود والنصارى مثل هذا الإيمان أي بالله وجميع رسله وبما أنزله على رسله فإنهم يكونون بذلك من المهتدين، وأما إن أعرضوا عن ذلك وآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وآمنوا ببعض ما أنزل الله وبدلوا وغيروا بعضه الآخر كما هم يفعلون، فإنهم لن يضروك شيئاً - وهو خطاب للرسول ﷺ - وسيمكنك الله من رقابهم فالله سميعٌ لما يقولونه من افتراء عليه سبحانه، وعليمٌ بما يخفونه من كيدٍ للإسلام والمسلمين.

وقد أنجز الله وعده لرسوله ﷺ فمكّنه من أعدائه وبخاصة يهود، وكان ذلك في عقاب بني قينقاع وقتل قريظة وإجلاء بني النضير والقضاء على كيان يهود خيبر وغيرهم من أعدائه صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ **وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا** ﴾ ﴿ **أُنزِلَ** ﴾ يُعَدَّى بحرفي الجر (إلى) و(على) فهو هنا ﴿ **أُنزِلَ إِلَيۡنَا** ﴾ وهو في الآية الأخرى ﴿ **وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا** ﴾ آل عمران/آية٨٤ ﴿ **قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ** ﴾ آل عمران/آية٨٤.

﴿ **ٱلۡأَسۡبَاطِ** ﴾ جمع (سِبط) و(السِّبْط) هو الحفيد والمراد هم أبناء يعقوب وذراريهم، فأبناء يعقوب هم حفدة لإبراهيم وإسحاق، والذراري حفدة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولذلك قيل عن الحسن والحسين - عليهما رضوان الله - أنهما سبطا رسول الله ﷺ.

﴿ **فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ** ﴾ (الفاء) للتعقيب أي ترتيب ما بعدها على ما قبلها، و(الباء) زائدة على نحو قوله سبحانه ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا** ﴾ يونس/آية٢٧ أي مثلها. وعليه يكون المعنى (فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا)، أي فإن آمنوا بكل ما آمنتم به بالله ورسله وما أنزل على رسله، وليس أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، بل بكلّ ما آمنتم به.

﴿ **وَّإِن تَوَلَّوۡاْ** ﴾ أي وإن أعرضوا فلم يؤمنوا بكلّ ما آمنتم به.

﴿ **فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ** ﴾ أي فما هم إلا في خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق في شيء.

﴿ **فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ** ﴾ أي سيكفيك شقاقهم فإن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل

بأفعال الأعيان، أي سيكفيك عداوتهم بأن يمكنك من رقابهم، فقد أنجز الله وعده وقضى على كيان يهود ونصر الله رسوله والحمد لله رب العالمين.

٣. ثم يبين الله سبحانه أن هذا الإيمان الذي ذكره في الآية السابقة هو صبغة الله التي تطهر المؤمنين من رجس الكفر وأدرانه، وأن لا صبغة أحسن منها فهي حلية المؤمن وزينته والتي تدفعه لعبادة الله وحده طاعة لله سبحانه وشكراً على نعمه.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ الصبغة من صبغ على وزن جِلْسَة من جلس على وزن فِعْلَة وهي الهيئة التي يقع عليها الصبغ كما في جِلْسة للهيئة التي يقع عليها الجلوس، واستعملت (الصِّبغة) هنا استعمالاً مجازياً لعلاقة المشابهة للدلالة على الإيمان، فهو يطهر صاحبه من أدران الكفر ويعطيه وصفاً جديداً طيباً بسبب الإيمان كالثوب يغسل وينظف من الأوساخ ويصبغ فيعطيه نقاءً وصفاءً وجمالاً بسبب الصبغ.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ استفهام استنكاري أي لا صبغة أحسن من صبغة الله تعالى.

* * *

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

١. لقد بين الله في آيات سابقة بطلان ما زعمه اليهود والنصارى من كون إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ على ملتهم، ومن كون دينهم هو الحق وأن الهدى في اتّباعه، وبعد أن بين الله سبحانه أن الحق هو الإيمان بالله والأنبياء السابقين وما أنزل إليهم دون تفريق بينهم، وأنهم إن أرادوا الهداية فعليهم أن يتبعوا هذا الحق ويسلموا لك وإلا فإنهم في شقاق وسيكفي الله رسوله شقاقهم.

بعد بيان كلّ ذلك فإنهم لا زالوا يُحاجُّون المسلمين ويجادلون في أنهم على الحق، فيخاطب الله رسوله ﷺ أن يقول لهم كيف تحاجوننا في أنّ الله لكم وحدكم، وأنكم

على صواب فيما تعملون وغيركم على خطأٍ، إنَّ مجادلتكم هذه باطلةٌ فالله سبحانه ربنا أجمعين والتقرب إليه يكون بالأعمال وليس بالأماني، فميزان أعمالنا وأعمالكم هو الفيصل في ذلك وبخاصة ونحن المخلصون لله الصادقون مع الله في إيماننا.

﴿ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتجادلوننا بعد كلّ ما تبين لكم.

﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ فيها تعريض لعدم إخلاص اليهود والنصارى، فهم قد أشْركوا بالله بنسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عما يصفون، وغير ذلك من سوء صنيعهم. و(الإخلاص) أن يكون العمل لله وحده، نقياً من كل شركٍ أو مصلحةٍ بل الصدق كلّ الصدق في حصر العمل ابتغاء مرضاة الله جلّ ثناؤه.

يقول ﷺ : "**إن الله تعالى يقول: من أشرك معي شريكاً فهو لشريكه. يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خَلُص له**"[١].

٢. ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ في هذه القراءة المتواترة:

أ. قد تكون ﴿ أَمْ ﴾ إما متصلة بما قبلها أي أن ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا ﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ كلاهما داخل في كلامٍ واحدٍ بمعنى أي الأمرين تأتون: أنْ تحاجوا في الله وأنْ تقولوا إنَّ إبراهيم وإسماعيل... فهو منكر والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما.

ب. وقد تكون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة بـ(بل) و(الهمزة) وهي تدل في هذه الحالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ عن الافتراء على الأنبياء – عليهم السلام – .

وفي هذه الحالة يكون الكلام الجديد ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ يكون استئنافا غير داخل في الأمر الأول في الآية السابقة.

والمعنى يكون: أنهم ليس فقط يحاجون دون دليلٍ بل يقولون غير ذلك أيضاً، إنهم يفترون على الأنبياء أنهم كانوا هوداً أو نصارى وهو انتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء.

---

[١] أحمد: ١٢٥/٤

وهناك قراءةٌ متواترةٌ أخرى للآية ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ وعلى هذه القراءة تكون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة لا غير لأن صيغة الآية الأولى ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا ﴾ خطاب مباشر في حين أن صيغة الآية الثانية ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهذه فيها إضراب من المخاطب إلى الغيبة ولا يحسن في المتصلة أن يختلف الخطاب من مخاطبٍ إلى غيره كما يحسن في المنقطعة، ولذلك فهي منقطعة فحسب.

وحيث إن القراءة الأولى ﴿ أَمْ ﴾ لها معنيان فهي من المتشابه، والقراءة الثانية ﴿ أَمْ ﴾ لها معنى واحد فهي من المحكم، والقراءتان متواترتان والمحكم يقضي على المتشابه ولذلك تكون ﴿ أَمْ ﴾ في الآية الكريمة منقطعة، ويكون معنى الآية الكريمة: أن اليهود والنصارى ليس فقط يُحاجُّون دون دليل بل يقولون غير ذلك إنهم يفترون على الأنبياء - إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط - بأنهم كانوا يهوداً أو نصارى ويوبخهم الله سبحانه على ذلك.

أ. إن الله سبحانه هو الأعلم بإبراهيم - عليه السلام - والأنبياء من بعده فهم حنفاء لله مسلمين له وليسوا يهوداً أو نصارى ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾.

ب. إنهم يعلمون من كتبهم أنَّ هؤلاء الأنبياء ليسوا يهوداً أو نصارى وإنما يكتمون ذلك عامدين، وإن أظلم الكاتمين هم الذين يكتمون شهادة ثابتة عندهم من خلال ما أنزل الله سبحانه في كتبهم، فإنهم يكونون بذلك أظلم الكاتمين ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

ويختم الله الآية بأنه سبحانه لا يغفل عن شيءٍ فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون من كتمان الشهادة والافتراء على أنبياء الله وغير ذلك من أعمال، وسيعاقبهم الله عليها العقاب الشديد الذي يستحقون.

﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٤١) ﴾ كررت هذه الآية الكريمة للتأكيد، وقد ذكرنا تفسيرها في الآية السابقة فنكتفي به.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين

تمّ الانتهاء من تفسير الحزب الثاني/ الجزء الأول

الذي يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ ﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾.

من سورة البقرة من

التيسير في أصول التفسير

قد فُرغ من كتابته قبيل آذان المغرب من يوم الأربعاء

الواقع في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٤١٦هـ.

الموافق الخامس عشر من شهر أيار سنة ١٩٩٦م

ويليه الجزء الثاني الحزب الثالث من تفسير سورة البقرة

يبدأ من قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ ﴾.

بُدئ بالتفسير يوم:

السبت غرة محرم سنة ١٤١٧هـ.

الموافق الثامن عشر من أيار سنة ١٩٩٦م.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التيسير في أصول التفسير

الحزب الثالث/ الجزء الثاني

مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

البدء به يوم السبت

غرة محرم سنة ١٤١٧هـ

الموافق الثامن عشر من أيار ١٩٩٦م

من الآية ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (١٤٢)

إلى الآية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ (٢٠٢)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ
ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ
أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا
جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ
عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ
إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي
ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ
مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ
بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ
فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ
يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ
فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ
وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ

تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

يتبين من هذه الآيات البينات ما يلي:

١. يبدو أن في هذه الآيات تقديماً وتأخيراً في النزول فإن الآية ﴿ **۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ** ﴾ هي بعد الآية ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ فقد ولّى الله رسوله شطر المسجد الحرام، ثم بعد ذلك قال: ﴿ **۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا** ﴾ .

ولقد كانت الآيات تنزل على رسول الله ﷺ فيأمر كتبة الوحي أن يكتبوها، ويبين للمسلمين موضعها من حيث ترتيبها مع غيرها من الآيات في سورها، فيقول ﷺ : "**ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا**"[١] وقد يكون ترتيبها في السورة بحسب ترتيبها في النزول أو مغايراً له لحكمة يريدها الله سبحانه.

وهذا واضح في بعض الآيات من القرآن الكريم، فإن الآية ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم** ﴾ البقرة/آية٢٤٠ هي من حيث النزول قبل الآية ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ﴾ البقرة/آية٢٣٤ والآية الأولى منسوخة بالآية الثانية علماً بأن ترتيب الثانية في المصحف قبل الأولى أي أن ترتيبها في المصحف عكس ترتيبها في النزول.

وهكذا بالنسبة للآية الكريمة ﴿ **۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا** ﴾ ومعنى الآية يقتضي أن يكون هذا القول بعد أن ولاهم الله سبحانه عن قبلتهم التي كانوا عليها أي بعد الآية ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا** ﴾ .

ولأن التقديم والتأخير لا يخلو من غرض حكيم مناسب حسب لغة العرب، فإننا بالتدقيق في ذلك نرجح أن التقديم كان لإبراز واقع أولئك السفهاء الذين يعترضون على حكم الله، فإن المؤمنين الصادقين المخلصين يتلقون أوامر الله بالقبول دون أدنى اعتراض ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ الأحزاب/آية٣٦.

ولذلك فإن الله سبحانه يبين في هذه الآيات مدى السفه الذي يقع فيه أولئك

[١] الترمذي: ٣٠١١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، أحمد: ٣٧٦، ٤٦٨

الناس الذين يعترضون على أمر الله في تحويل القبلة من جهةٍ إلى جهةٍ، وأن القضية التي يجب الوقوف عندها ليست هي أنْ ينسخ الله أمراً أو يأتي بأمرٍ آخر، بل القضية التي يوقف عندها هي الاعتراض على أمر الله سبحانه، أما التحويل من وجهةٍ إلى وجهةٍ فهو واقع في ملكوت الله، والله سبحانه هو المالك للمشرق والمغرب يضع في ملكه ما يشاء، فإذا جعل القبلة إلى هذه الجهة أو تلك فالأمر في كلّ ذلك له سبحانه ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ الأنبياء/آية٢٣.

فأمر الله سبحانه هو الحق وهو الهدى ومن تبعه فقد اهتدى ﴿ **يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾** ﴾. ومن اعترض على أمر الله وتقوّل عليه الأقاويل فهو السفيه الذي خفّ عقله وطار لبه وكان من الهالكين.

﴿ **ٱلسُّفَهَآءُ** ﴾ جمع سفيه وهو الجهول خفيف العقل المعرض عن التدبر، وأصل (السفه) الخفة من قولهم ثوب سفيه أي خفيف النسج، والسفهاء هنا محلّى بالألف واللام فهو عام في كلّ من قال ذلك القول ﴿ **مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ** ﴾. والقائلون، السفهاء، هنا هم اليهود والمنافقون والمشركون ومن دخل في عدادهم.

﴿ **مَا وَلَّىٰهُمْ** ﴾ أي ما صرفهم؟

﴿ **عَن قِبْلَتِهِمُ** ﴾ القبلة فِعْلَة من المقابلة كالوجهة من المواجهة، وقد أصبح لها معنًى شرعي وهو الجهة التي يستقبلها المسلم في الصلاة.

٢. ثم يخبرنا الله سبحانه أن الأمر له من قبل ومن بعد لا رادّ لحكمه وأنه سبحانه صاحب الفضل والمنة، فكما منّ على المسلمين بأن استجاب لرسوله ﷺ وجعل قبلتهم (البيت الحرام) كذلك فإنه سبحانه تفضل على أمة محمّد ﷺ بأن جعلها أمةً وسطاً بين الأمم، لتكون شاهدةً على الناس، فجعلها الله سبحانه بهذا الوصف (الأمة الوسط) أي الأمة العدل لتكون مؤهلة للشهادة على الناس حيث أن العدالة هي الشرط الأساس للشهادة.

(الوسط) في كلام العرب الخيار والخيار من الناس عدولهم.

جاء في لسان العرب: إن أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه ومنه الحديث "**خيار الأمور أوسطها**"[1].

---

[1] البيهقي: ٣/٢٧٣، القرطبي: ٢/١٥٤

وجاء فيه كذلك في معنى قوله سبحانه ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا** ﴾ أي عدلاً، ويضيف صاحب اللسان قائلاً: فهذا تفسير الوسط وحقيقة معناه.

وعليه يكون معنى الآية أن الأمة الإسلامية ستكون شاهدَ عدلٍ على الأمم الأخرى على أنها بَلَّغَتْهُم الإسلام، والآية وإن جاءت بصيغة الإخبار إلاّ إنها في معنى الطلب من الله سبحانه للأمة الإسلامية أن تُبَلِّغَ الإسلام لغيرها من الأمم وإن لم تفعل أثمت فهي حجة على الأمم الأخرى ﴿ **لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾ كما أن الرسول الله ﷺ حجة على الأمة الإسلامية بسبب تبليغه إياها الإسلام ﴿ **وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ** ﴾.

هذا من وجه أن الأمة الإسلامية شاهدُ عدلٍ على الأمم الأخرى بعد الإسلام من حيث تبليغها الإسلام لتلك الأمم. ومن وجه آخرٍ فهي شاهدُ عدلٍ على الأمم الأخرى قبل الإسلام من حيث تبليغ الرسل السابقين رسالات ربهم لأقوامهم كما جاء في الحديث: "**يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي معه الرجلان وأكثر من ذلك فيُدعَى قومه فيقال لهم هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلَّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: ومن يشهد لك؟ فيقول: محمّدٌ وأمته. فيُدعى محمّد وأمته فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيُقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا محمّد ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾**".

فالأمة الإسلامية شاهدُ عدلٍ: على الأمم الأخرى بعد الإسلام، وقبل الإسلام، على النحو الذي بيناه.

كذلك يخبرنا الله سبحانه أن الحكمة من فرض القبلة الأولى على المسلمين - وهي التوجه إلى المسجد الأقصى - هي أن يتميز الطائعون لله ورسوله والذين استسلموا لأمره وانقادوا له سبحانه فيتجهوا في قبلتهم حيث أمرهم الله، يتميز هؤلاء من أولئك الذين يثقل عليهم اتباع أمر الله وأمر رسوله وإنْ خالف عادةً أَلِفوها أو هوىً في أنفسهم صاحبوه. فإنَّ الله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يتوجه في صلاته وهو في مكة إلى المسجد الأقصى فكان هذا ثقيلاً - إلا على الذين هدى الله - أن يتوجهوا إلى الأقصى وينصرفوا عن الكعبة التي بين ظهرانيهم فقد كانوا يُعَظِّمونها ويحجون إليها ويعتبرونها على دين إبراهيم - عليه السلام - وكان التوجه إلى الأقصى في الصلاة بدلاً

منها كبيراً عليهم، ولكن الذين هدى الله وانقادوا لله سبحانه توجهوا إلى الأقصى طائعين مستسلمين لأمر ربهم رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ثم إن الله سبحانه، رأفة منه ورحمة بالمؤمنين، قد تقبل منهم صلاتهم إلى الأقصى قبل أن تتحول القبلة إلى مكة، فقد كان المسلمون يخشون أن تكون صلاتهم إلى القبلة الأولى غير مقبولة كصلاتهم إلى قبلتهم الثانية ـ الكعبة ـ فأكرمهم الله بقبولها وتفضل عليهم بعدم ضياعها ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣** ﴾.

﴿ **إِلَّا لِنَعۡلَمَ** ﴾ إلا لينكشف ما نعلم، أي يظهر ما نعلمه في الغيب إلى الواقع المحسوس لديكم وهذه بقرينة أن الله سبحانه ﴿ **عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ** ﴾ الحشر/آية٢٢، فلا يتوقف علم الله سبحانه لشيء ما على ظهور هذا الشيء للناس، لأن الله يعلمه قبل وقوعه وظهوره للناس، على نحو قوله سبحانه ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢** ﴾ آل عمران/آية١٤٢ أي حتى ينكشف لكم ما يعلمه الله من حالكم في الجهاد وفي الصبر.

وبالتالي يكون معنى ﴿ **لِنَعۡلَمَ** ﴾ أي (لنظهر ما نعلم) من باب المجاز (الإضمار) وهي دلالة اقتضاء لصحة وقوع الملفوظ به عقلاً بقرينة علم الله للغيب.

﴿ **مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ** ﴾ أي يرتد عن الإسلام إلْفاً لِقِبْلَة آبائه و﴿ مِنْ ﴾ هذه للفصل، وهي الداخلة على ثاني المتضادين، على نحو قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ** ﴾ البقرة/آية٢٢٠، فالمصلح ضد المفسد. وهي هنا كذلك، فالآية ﴿ **إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ** ﴾ فقد دخلت على (من ينقلب على عقبيه) وهذه ضد (من يتبع الرسول).

﴿ **لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ** ﴾ أي لا يقبل صلاتكم بالقبلة الأولى قبل نسخها، وهو استدلال مجازي لأنَّ الإيمان سبب في قبول الصلاة فإنَّ لم يوجد إيمان لا تقبل الصلاة حتى لو أديت حركاتها كاملة، فالإيمان يسبق العمل ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧** ﴾ البقرة/آية٢٧٧.

ففي الحديث "أنه لما وجّه رسول الله ﷺ إلى القبلة ـ الكعبة ـ قالوا: يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يُصَلون إلى بيت المقدس؟ فنزلت ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ**

إِيمَـٰنَكُمۡۚ ﴾"[١]. أي أن صلاتهم تلك مقبولة فضلاً من الله ورحمة.

٣. يبين الله سبحانه أنه استجاب لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن يوجهه إلى قبلة أخرى غير المسجد الأقصى، فقد كان اليهود يقولون: يخالفنا محمّد ويتبع قبلتنا! فكان يحب ﷺ أن يوجهه الله إلى الكعبة البيت الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث إنه أدعى للعرب للإيمان. فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن البراء قال: "**صلينا مع رسول الله ﷺ بعد قدومه المدينة ستةَ عشرَ شهراً نحو بيت المقدس، ثم علم الله هوى نبيه ﷺ فنزلت ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ ﴾**"[٢] فحوِّلت القبلة إلى البيت الحرام، وبعد نزول هذه الآية ترك المسلمون الصلاة باتجاه بيت المقدس وأصبحت الصلاة باتجاه البيت الحرام. ولقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه: "**أنه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ مرّ رجل ببني سلمة فناداهم وهم ركوعٌ في صلاة الفجر نحو بيت المقدس: ألا إن القبلة قد حوِّلت إلى الكعبة فمالوا كلهم ركوعا إلى الكعبة**"[٣].

يستنبط من ذلك دلالة خبر الواحد في الأحكام الشرعية ولا يقال إن هذا نسخ بخبر الواحد للقبلة الأولى، فإن القبلة الأولى نسخت بالآية الكريمة ﴿ **قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ** ﴾ وإنما الذي حدث أن تبليغ الحكم الشرعي لأولئك المصلـين تمّ بخبر الواحد وهو واجب الاتباع على وجهه كما هو مبين في بابه في الأصول.

﴿ **شَطۡرَهُۥ** ﴾ أي نحوه كما قال ابن عباس، وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين. ولأن المسجد الحرام يشمل الكعبة، وكذلك فهو يطلق على مكة، على نحو قوله سبحانه: ﴿ **سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا** ﴾ والرسول B أسري به من مكة وليس من داخل المسجد[٤]. ويستفاد منه أن البيت الحرام ـ الكعبة ـ قبلة لمن يشاهدونها ويعرفون

---

[١] البخاري: ٤٠، أبو داوود: ٤٨٦٠، الترمذي: ٢٩٦٤، أحمد: ١/٢٩٥، ٣٠٤، تفسير الطبري: ١٢/٢

[٢] البخاري: ٣٨٤، ٦٧١١، مسلم: ٨٢١، تفسير الطبري: ٣/٢

[٣] أبو داوود في ناسخه، أحمد: ١/٢٩٥، ٣٠٤، الدر المنثور: ١/٣٤٦

[٤] قال البيضاوي: وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأنه عليه السلام كان في المدينة والبعيد يكفيه مراعاة الجهة فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب.

جهة عينها. وجهة المسجد الحرام تكفي قبلةً لساكني منطقة الحرم، الذين لا يشاهدون الكعبة، ولكنهم يعرفون جهة المسجد الحرام، وهكذا لكل من يعرف جهته كالرسول B بالوحي، حتى وإن لم يكن ساكناً منطقة الحرم. وجهة البلد الحرام ـ مكة ـ تكفي قبلةً لباقي الأمصار.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ ﴾ أي رأينا فإن «قد» عندما تدخل على المضارع تقلبه ماضياً ما دام متعلقاً بحدث ماضٍ أو شبه ماضٍ، وبالتالي يفيد التحقيق كما لو جاء بعده فعل ماضٍ على نحو قوله سبحانه ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ النور/آية٦٤ أي علم، وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ ﴾ الحجر/آية٩٧ أي علمت.

٤. إن الله سبحانه يخبرنا أن أحبار اليهود والنصارى يعلمون أن هذا التحول من القبلة الأولى إلى القبلة الثانية هو الحق وذلك لأنهم متيقنون أن محمدا ﷺ هو النبي المذكور في كتبهم وأنه يصلي إلى قبلتين، وبذلك فهم يدركون أن ما يتلوه عن ربه هو الحق الذي لا شكّ فيه.

ثم يختم الله سبحانه الآية بأنه يعلم ما يعملون لا يغفل عنه بل يحصيه عليهم، وأنَّ ما ينكرونه على رسول الله ﷺ سواء أكان التحويل إلى القبلة الجديدة أم غيرها سيحاسبهم الله عليه ويعاقبهم العقاب الذي يستحقونه فلا يغفل الله عن شيءٍ من أعمالهم ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ هم علماء أهل الكتاب ـ الأحبار والرهبان ـ بقرينة ﴿ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ ﴾ والذين يعلمون ـ أي بدون تقليد ـ هم علماء أهل الكتاب الذين يقرءونه ويعلمون ما فيه.

٥. يبين الله سبحانه في الآية الأخيرة أن الأحبار والرهبان المشار إليهم في الآية السابقة لن يتبعوا قبلة المسلمين مهما كانت الحجة التي تقام عليهم لأنهم لم يخالفوا قبلة المسلمين لشبهةٍ تدفع بحجةٍ أو برهانٍ ـ فهم يعلمون هذا في كتبهم ـ ولكنهم لم يتبعوها لمحض العناد والمكابرة، ومثل هؤلاء لا تنفع معهم حجة. وهنا لا يرد السؤال: كيف آمن بعضهم؟ لأن الآية عن علماء أهل الكتاب في زمن الرسول ﷺ الذين أنكروا عناداً ومكابرةً ولم يؤمنوا رغم علمهم بأنه الحق، وهي لا تشمل غيرهم من عامة اليهود والنصارى ولم تنفِ عنهم احتمال إيمان بعضهم.

ثم إن الله سبحانه يخبر رسوله ﷺ بأنه لن يتبع قبلتهم حيث إنه

ﷺ على الحق، والحق الذي أنزل عليه لا يتبع أهواءهم، وفي الوقت نفسه فإن كلا منهم لن يتبع قبلة الآخر ويتمسك كلّ منهم بقبلته دون أدلةٍ واضحةٍ قاطعةٍ على ذلك فهو لن يغيرها مهما جيء له بدليلٍ.

وكذلك فإن الله يخاطب رسوله ﷺ أنّه إنْ اتبع أهواءهم باتّباع ملتهم بعد الحق الذي جاءه فإنه ﷺ سيكون من الظالمين الذين يضعون الحق في غير موضعه.

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ اللام هي الموطئة للقسم.

﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴾ جواب للقسم السادّ مسدّ جواب الشرط، وذلك لأن القسم (لام القسم) مقدم على الشرط (إن) فيكون الجواب للقسم لا للشرط كما في اللغة وبخاصة وأن (فاء) الجزاء غير موجودة في الجواب.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾ ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ ﴾ النفي في هاتين أبلغ من النفي في ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴾ لأنها فعلية والاسمية أبلغ في النفي، وفي ذلك دلالة إشارة على إسلام نسبة من اليهود والنصارى منذ بعثته ﷺ أكثر بكثير من ارتداد المسلمين إلى النصرانية واليهودية أو تنصر يهود أو تهود نصارى.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ ﴿ إِن ﴾ هنا هي إن الفرضية بقرينة انتفاء الاتباع فيما سبق في الآية ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾ لأن ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ هنا ما قالوه للرسول ﷺ: عد إلى قبلتنا نؤمن بك ونتبعك مخادعة منهم – لعنهم الله تعالى –.

﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ فـ(إنَّ) هنا فَرَضِيّة لبيان مدى الظلم الكبير الذي يقع فيه المؤمن إن اتبع قبلة اليهود أو النصارى، فالمعنى: أنك يا محمّد – عليه الصلاة والسلام – ستقع في ظلم عظيم إذا فُرِض واتبعتَ قبلتهم بعد ما جاءكم من العلم، وذلك لبيان شدة الظلم في اتّباع قبلة اليهود والنصارى حيث إنَّ الحق هو في اتّباع القبلة التي بينها الله لرسوله ﷺ وهي شطر المسجد الحرام.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾ إفراد (القبلة) هنا مع أنها مثناة، فلليهود قبلة وللنصارى قبلة، ومع ذلك ترد (بتابع قبلتيهم) وذلك لأن قبلتيهم اشتركتا في كونهما باطلتين فصارت الاثنتان واحدةً وبخاصةٍ وأنه في هذا حُسْن مقابلة مع إفراد (قبلتك) في قوله سبحانه: ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴾ التي سبقت ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾.

❋ ❋ ❋

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ ﴾.

يُبيِّن الله في هذه الآيات ما يلي:

١. أن أحبار اليهود والنصارى ورهبانهم يعلمون أن محمداً ﷺ هو النبي الموعود في كتبهم، وهم على يقين كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك فإنَّ فريقاً منهم يكتمون هذا الحق ولا يظهرونه عناداً ومكابرةً.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ المراد به أحبارهم ورهبانهم أي علماؤهم بقرينة ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ ﴾ فالمعرفة استدلال بما في كتبهم وهي قرينة على أن المراد بـ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ الذين يعلمونه وهم علماؤهم، فهؤلاء معرفتهم حقيقية أما عوامهم فالمعرفة تقليدية لأحبارهم ورهبانهم.

٢. وهنا يذكر الله سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ أن ما يكتمونه هو الحق من ربك، أي معرفتهم بك كما يعرفون أبناءهم ـ وهو الذي يكتمونه ـ هو الحق من ربك، فاستمرَّ موقنا بهذا الحق في كونهم يكفرون بك عنادا أو مكابرة وليس لأنهم لا يعرفونك فهذا مسطور في كتبهم.

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ ﴾ أي استمِرَّ على كونك من غير الممترين وذلك لأن النهي في اللغة عن أمر ليس عند صاحبه يعني الاستمرار على الحالة التي هو عليها لإفادة التأكيد. فإذا قيل للمتعلم (لا تكن أمياً) فإن هذا يعني تأكيدك عليه أن يستمر

على كونه متعلماً، ولا يعني أنه أمي وأنت تدعوه للتعلم.

فالحالة التي عليها رسول الله ﷺ عند النهي هي (أنه ليس من الممترين) وعليه فالنهي يفيد أن يستمر الرسول ﷺ على الحالة التي هو عليها وهي كونه ﷺ ليس من الممترين أي ليس من الشاكّين.

وهذا على نحو قوله سبحانه مخاطبا رسوله ﴿ ﷺ **فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ القصص/آية٨٦ وكذلك ﴿ **وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ القصص/آية٨٧ أي استمر على كونك غير ظهير للكافرين واستمر على كونك لست من المشركين لأن الحالة التي كان عليها رسول الله ﷺ عند النهي هي كونه ليس ظهيراً للكافرين وكونه ليس من المشركين.

٣. ثم يخبرنا الله سبحانه أن كلاً من اليهود والنصارى والمسلمين له قبلة يتوجه إليها. ويدعونا سبحانه للتنافس في الخيرات. وتبين الآية كذلك أن لا أحد خارج قدرة الله سبحانه، فالجميع، أينما يكونوا، يجمعهم الله يوم القيامة فيجزيهم بما صبروا، فالله سبحانه لا يعجزه شيء فهو على كل شيء قدير.

﴿ **أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ** ﴾ ﴿ **أَيْنَ** ﴾ ظرف مكان تضمن معنى الشرط، ﴿ **تَكُونُواْ يَأْتِ** ﴾ فعل وجواب الشرط والمعنى أن الله سبحانه يأتي بكم من أي موضع تكونون فيه لا يعجزه شيء.

٤. ثم يؤكد الله سبحانه في الآيتين الأخيرتين التوجه إلى القبلة الجديدة ـ البيت الحرام ـ في الإقامة والسفر.

﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ** ﴾ ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ** ﴾ وهذا التأكيد المتكرر هو لإزالة ما يمكن أن يكون في النفس من أثر بسبب نسخ القبلة الأولى بعد الصلاة نحوها مدة، وبذلك تطمئن النفس وتتوجه حيث أمر الله سبحانه، وتعلم أنه الحق وأن الله سبحانه يجازيها على كلّ فعل، فهو سبحانه لا يغفل عن شيء بل يحصيه كله ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ** ﴾ آل عمران/آية٣٠ فلا يغفل الله سبحانه عن شيء ﴿ **وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾** ﴾ البقرة/آية.٧٤

٥. كما بينا في الآية السابقة ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ** ﴾ فإن الرسول ﷺ كان يدعو الله سبحانه أن يوجهه إلى الكعبة بدل بيت المقدس

ليقطع ما يثيره العرب المشركون، وبخاصة أهل مكة، واليهود من حجج، فقد كان العرب يقولون إن هذا النبي يخالف قبلة أبيه إبراهيم وقومه، وكان اليهود يقولون إن النبي الموعود قبلته الكعبة لا بيت المقدس، وقد استجاب الله سبحانه لرسوله ﷺ وجعل القبلة هي الكعبة ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾.

لقد فرض الله سبحانه القبلة الأولى نحو بيت المقدس، ثم بعد سنين جعلها إلى الكعبة لحكمة يعلمها الله سبحانه، ويمكن أن نلحظ شيئاً منها بتدبر هذه الآيات العظيمة وبخاصة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾، وكذلك الآية ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾. فنلحظ بتدبرهما أمرين من هذه الحكمة.

الأمر الأول، وهو: من جانب، ينكشف حال ضعاف الإيمان الذين يجد الشيطان طريقاً إليهم بالإيحاء لهم بأن هذا التغيير في القبلة دليل على عدم صدق هذا النبي فيضطرب إيمان هؤلاء وينكشف حالهم. ومن جانب آخر، يتميز المؤمنون الصادقون، فيطيعون أمر الله مطمئنين بصدق رسول الله ﷺ، وأن الله سبحانه هو صاحب الأمر، وأمره الحق، فتوجههم إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة هو بأمر الله سبحانه، وأمره الحق بلا شك ولا ريب.

هذا أول أمر من الحكمة نلحظه.

وأما الأمر الثاني فهو إظهار حقيقة قول أولئك الكفار من مشركين ويهود، بأنهم لَم يقولوه إلا جدلاً ومكابرةً وليس طلباً للحق، بدليل استمرارهم في التقولات حتى بعد التحويل إلى الكعبة. وهذا ما ذكِر في الآية الكريمة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ فهؤلاء الظالمون من اليهود والعرب المشركون الذين قالوا الحجج الأولى عادوا يبحثون عن حجج واهية أخرى للعناد المحض، فعاد اليهود بعد تحويل القبلة للقول (ما تحول للكعبة إلا ميلاً لدين قومه وحباً لبلده وليس طاعةً لربه)، وعاد العرب يقولون (إنه علم أن قبلته الأولى خطأ وها هو عاد إلى قبلة آبائه).

هذه جوانب من الحكمة نلحظها بتدبر آيات تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وجوانب أخرى عظيمة علمها عند الله سبحانه.

و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هم الذين يضعون الأمور في غير محلها، ولذلك فهم يحتجون بما لا تقوم به حجة لأجل المحاجة فقط. ويسمى (حجة) كلّ ما ساقه الخصم على طريق الاحتجاج سواء أكان صحيحا أو باطلا على نحو قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ﴾ الشورى/آية١٦ ونحو قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ ﴾ آل عمران/آية٦٥، ولذلك أدخلت أقوالهم الواهية تلك في مسمى الحجج لأنهم ساقوها على طريق الاحتجاج.

ثم يختم الله سبحانه الآية بأن لا نخشى أولئك الذين يبحثون عن حجج واهية يسوقونها لمجرد المعاندة، بل نخشى الله سبحانه فهو صاحب الفضل والنعمة، فقد جعَلنا على الحق المبين في قبلتنا وشريعتنا، وقطَع ألسنة المتقولين على الإسلام وقبلته فأتم نعمته علينا وهدانا إلى الصراط المستقيم ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ ﴾.

* * *

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾.

١. إن الله سبحانه قد تفضل على هذه الأمة بما بينه لها من توجه نحو البيت الحرام لقطع الحجة من الكفار المعاندين، وجعل ذلك من تمام النعمة عليها مثلما أنعم عليها بإرسال رسول لها منها – محمّد رسول الله ﷺ – يتلو آيات الله على أمته ويطهرهم من الشرك ويعلمهم القرآن والسنة مبينا لهم كل ما لا يمكنهم معرفته إلا بوحي من الله سبحانه.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا ﴾ متصل بما قبله والكاف للتشبيه أي أنعمنا عليكم بالقبلة وقطع محاجة الكفار المعاندين، كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم.

﴿ يُزَكِّيكُمۡ ﴾ يطهركم من الشرك.

٢. وفي الآية الأخيرة يأمر الله عباده أن يذكروه سبحانه بكلّ أنواع الذكر باللسان والقلب والجوارح، وهو يعني الدعوة إلى الإسلام بكلّ ما يرضي الله سبحانه فيجازيهم بالثواب العظيم، وفي الصحيحين "**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه**"[1] وأن يشكروه سبحانه على نعمه ولا يجحدوها لتدوم عليهم ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم/آية٧.

﴿ **أَذْكُرْكُمْ** ﴾ أي أجازيكم بالثواب على ذكركم لي فهو استعمال مجازي من باب الكناية، فذكر الله لنا كناية عن مثوبته سبحانه لنا. فضلاً عما فيه من حسن مقابلة مع ما قبلها ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾.

* * *

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٣﴾ **وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴿١٥٤﴾ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٥﴾ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴿١٥٦﴾ **أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴿١٥٧﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. بعد أن أعلمنا الله سبحانه أنه أرسل منا رسولا يتلو علينا آيات الله جلّ ثناؤه، ويطهرنا من الشرك والأوثان، ويعلّمنا كلّ ما يلزمنا من عقائد وأحكام لنلتزمها، ونذكر الله سبحانه، وندعو إلى الإسلام، بعد ذلك أمرنا الله سبحانه أن نستعين بالصبر والصلاة.

ومنطوق هذه الآية له دلالة إشارة أن الدعوة إلى الإسلام والالتزام بشرع الله ثقيل وفيه مشقة وعلى المؤمن أن يثبت على ما يصيبه جراء ذلك ثباتا راسخا متزودا بأمرين

[1] البخاري: ٦٨٥٨، ٦٩٨٢، مسلم: ٤٨٣٢

بينهما الله سبحانه: الصبر والصلاة.

٢. ثم ذكر الله سبحانه صنوفا من الابتلاء تصيب الإنسان أثناء حمله للإسلام والدعوة إليه، وبيّن سبحانه ما أعدّ للصابرين على ذلك، الثابتين على الحق، الذين يسترجعون عند المصيبة قائلين: ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦** ﴾. ومن صنوف الابتلاء التي ذكرها الله وما أعده لأهلها من خير:

أ. القتل في سبيل الله وهو أن يقتل المرء وهو يقاتل أعداء الله لإعلاء كلمته سبحانه مقبلا غير مدبر ثابتا في ساحة المعركة، فهو حي عند الله لا يشعر بها الناس لأنها مغيبة عنهم ولكنها حياة طيبة زكية "**من قاتل لإعلاء كلمة الله مقبلا غير مدبر فهو في سبيل الله**"[١] "**إن أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت**"[٢].

ب. الابتلاء بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وهو ابتلاء بشتى أنواعه، فأي منها أصاب المؤمن فهو ابتلاء: الخوف وعدم الأمن، والفقر والجوع، وأن تنتقص الأموال بخسارة فيها، أو تنتقص الأنفس بالأمراض والوفاة، وانتقاص الثمرات بآفة تصيبها. وذكر الله سبحانه ﴿ **بِشَيْءٍ** ﴾ أي أيا كان هذا الابتلاء صغيرا أو كبيرا فهو ابتلاء والصبر عليه أجره عظيم "وقد استرجع النبي ﷺ عند انطفاء المصباح فقيل له في ذلك فقال ﷺ : **كلّ ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة وله أجر**"[٣]. وفي الحديث المتفق عليه يقول ﷺ : «**ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا رفعه الله بها درجةً وحط عنه بها خطيئةً**».

ج. بيّن الله سبحانه أن المؤمن عندما يصبر على الابتلاء ويسترجع بقوله ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦** ﴾ فإن له بذلك أجرا عظيما ﴿ **صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧** ﴾ ونعم هذا من أجر عظيم: رضوان من الله ورحمة وهدى، ليس هذا فحسب بل لهم في الدنيا خير كثير.

---

[١] النسائي: ٣١٠٤، أحمد: ٤/٤١٧، ٣٩٢، الدارمي: ٢٣٠٥

[٢] مسلم: ٣٥٠٠، الترمذي: ٢٩٣٧، ابن ماجه: ٣٧٩١، الدارمي: ٢٣٠٣، أحمد: ٦/٣٨٦

[٣] الدر المنثور: ٢/٣٨٠، تفسير البيضاوي: ١/١٢٥

أخرج مسلم عن أم سلمة "قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها، إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيرا منها.** قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله تعالى لي خيرا منه رسول الله ﷺ"[1].

٣. إن الله سبحانه يأمرنا أن نستعين بالصبر والصلاة في حمل الإسلام والدعوة إليه والثبات على الحق في ذلك، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أهمه أمر فزع إلى الصلاة، فهي قرة عين المؤمن يلتقي بها بربه سبحانه ويمتلئ قلبه طمأنينة بأدائها "**حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**"[2].

فهي تعطي المؤمن طاقة قوية في مقاومة الظلم وأهله، وعزيمة صادقة في الثبات على الحق، مؤمنا صادقا دون أن تلين له قناة أو تضعف له عزيمة. ثم إن الصبر قد ذكره الله قبل الصلاة إبرازا لأهمية الصبر، فالصلاة علاقة بين العبد وربه والصبر علاقة بين العبد وربه ومع نفسه ومع الناس فهو المحك وهو مقياس الثبات عند الشدة والمصائب والخطوب.

فائدة عن الصبر:

وهنا لا بدّ لنا من وقفة نتدبر فيها الصبر لإزالة الالتباس عند بعض المسلمين حول واقعه ومدلوله.

إن بعض الناس يظنون أن المرء إذا انطوى على نفسه وانعزل عن الناس وترك المنكر وأهله ورأى المحرمات تنتهك وحدود الله تعطل والجهاد يلغى، وهو لا يتخذ موقفا تجاه ذلك بل هو مبتعد عنه وتارك للنهي عن المنكر، بعض الناس يظن أنه بذلك يكون صابراً.

أو يفهم الصبر أن يدفع الأذى عن نفسه ويتفادى التعرض أن يناله شيء من ملاحقة أعداء الله فلا يجرؤ على قول كلمة الحق أو العمل بما يرضي الله، بل يبقى صامتا قابعا في إحدى الزوايا ويقول عن نفسه إنه صابر.

إن هذا ليس هو الصبر الذي أعد الله لأهله جنات النعيم ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ**

[1] البخاري: ٥٣٢٤، مسلم: ١٥٢٥، الترمذي: ٣٤٣٣، أبو داوود: ٢٧١٢

[2] النسائي: ٣٨٧٨، أحمد: ١٢٨/٣، ٢٨٥

أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ الزمر/آية١٠ بل هذا هو العجز بعينه الذي كان رسول الله ﷺ يستعيذ منه: "**أعوذ بالله من العجز والكسل والجبن والبخل والهم والحزن وغلبة الدين وقهر الرجال**"[1].

إن الصبر هو أن تقول الحق وتفعل الحق وتتحمل الأذى في سبيل الله الناتج عن ذلك دون أن تنحرف أو تضعف أو تلين.

إن الصبر هو الذي رتبه الله على التقوى بقوله سبحانه ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾** ﴾ يوسف/آية٩٠.

إن الصبر هو الذي قرنه سبحانه بالمجاهدين ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾** ﴾ آل عمران/آية١٤٦.

إنه الصبر على الابتلاء والصبر على القضاء الذي يقود إلى ثبات لا إلى اهتزاز، ويقود إلى تمسك بالكتاب لا إلى نبذه بحجة فداحة المصاب، والذي يزيد المرء التصاقا بربه لا ابتعادا عنه ﴿ **فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ الأنبياء/آية٨٧.

إنه الصبر الذي يشحذ الهمة ويقرب الطريق إلى الجنة، صبر بلال وخباب وآل ياسر "**صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة**"[2].

صبر خبيب وزيد (والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي)[3].

صبر الذين يأخذون على يد الظالم دون أن يخافوا في الله لومة لائم "**كلا والله لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض وليلعنكم كما لعن بني إسرائيل**"[4].

صبر الألى الغر الميامين أصحاب رسول الله ﷺ الصادق الأمين... صبر أصحاب الصحيفة ومقاطعي الشّعب ومهجري الحبشة والملاحقين لقولهم ربنا الله.

---

[1] البخاري: ٥٨٩٤، مسلم: ٤٩٠٨

[2] المستدرك: ٣/٣٨٣، المطالب العالية: ٤٠٣٤، الحلية: ١/١٤٠

[3] سيرة ابن هشام: ٣/١٨١

[4] الترمذي: ٢٩٧٤، أبو داوود: ٣٧٧٤، ابن ماجه: ٣٩٩٦

صبر المهاجرين والأنصار في جهادهم أهل الشرك والفرس والروم... صبر الأسرى رهط عبد الله بن أبي حذافة... صبر المجاهدين المؤمنين الصادقين.

الصبر أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ولا تضعف أمام الأذى في سبيل الله.

الصبر أن تكون جنديا في جيش المسلمين الزاحف لقتال أعداء الله.

الصبر أن تكون مصداق قوله تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ آل عمران/آية١٨٦... وقوله سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ محمّد/آية٣١... ثم قوله سبحانه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

❊ ❊ ❊

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ۙ
أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ
وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ
ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ
وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ
لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ
وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا
طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

١. لما ذكر الله سبحانه وتعالى (البيت الحرام) وأنه سبحانه قد جعله قبلة للمسلمين ذكر ما وضع البيت من أجله وهو الحج والعمرة، وذكر السعي بين الصفا والمروة حيث تحرج المسلمون من فعله وكيف أن الله سبحانه رفع عنهم الحرج وأن طاعتهم لأمر الله في ذلك يترتب عليها أجر عظيم.

وهذا كله في سياق ما سبق من آيات حول التوجه للقبلة الجديدة والدعوة للإسلام وذكر الله على الدوام، ثم تنفيذ أوامر الله سبحانه وإن كان فيها مشقة أو أذى في سبيل الله، والصبر على الأذى في سبيله سبحانه وبيان الأجر العظيم الذي أعده الله سبحانه لأهل طاعته الذين يلتزمون شرعه ويتقيدون به مهما كان ثقيلا أو شاقا أو

محرجا وأن العاقبة للمتقين.

وفي هذا السياق وردت هذه الآية الكريمة، فقد تحرج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة وتخوفوا أن يكون عليهم إثم لو سعوا وذلك لأن صنمين كانا في الجاهلية عليهما: على الصفا صنم على صورة رجل يقال له (إساف) وعلى المروة صنم على صورة امرأة يقال لها (نائلة) فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون السعي بينهما لأجل الصنمين فنزلت تلك الآية كما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أي أن المسلمين تخوفوا من وقوع إثم إن سعوا بينهما بسبب الصنمين اللذين كانا عليهما في الجاهلية، فنزلت الآية لبيان أن لا إثم في ذلك.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾:

أصل ﴿ ٱلصَّفَا ﴾ لغة: الحجر الأملس، وأصل ﴿ ٱلْمَرْوَةَ ﴾ لغة: الحجر الأبيض. وبالحقيقة العرفية أصبحا علمين للجبلين الصغيرين المعروفين في مكة قرب البيت الحرام ﴿ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ وجاء الشرع واستعملهما بهذه الحقيقة العرفية.

﴿ شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أي من معالم الحج لله سبحانه وهي جمع شعيرة، والشعائر المتعبَّدات في الحج ـ أي مناسك الحج ـ التي أشعرها الله تعالى أي جعلها أعلاما للناس من الطواف بالبيت والسعي والموقف وغيرها من مناسك الحج.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ أي لا إثم ولا حرج على الحاج أو المعتمر أن يسعى بينهما؛ فقد كانوا يتحرجون من السعي بينهما كما بيّنا فرفع الله الحرج عن السعي بينهما.

وليس معنى ﴿ فَلَا جُنَاحَ ﴾ أن لا إثم على الطواف أو عدمه لأنها واردة عن رفع الحرج عن الطواف، وليس عن رفع الحرج عن عدم الطواف، بل هي: أدوا أمر الله بالطواف بهما ولا حرج عليكم في ذلك. عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "قلت لعائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما. فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كلا، لو كانت كما تقول لكانت (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما)".

﴿ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ أي يتطوف فأدغمت التاء في الطاء، وأصل الطواف

المشي حول الشيء، والمراد هنا السعي بينهما.

وبذلك يكون معنى الآية خطابا من الله سبحانه للمسلمين أي من حجّ البيت أو اعتمر منكم فليسع بين الصفا والمروة فقد أصبحتا من شعائر الله ولم تعودا من علامات الجاهلية، ولا تتحرجوا أو تتخوفوا من وقوع إثم في السعي بينهما بسبب الصنمين اللذين كانا عليهما فيما مضى في الجاهلية، فقد انتهى ذلك الأمر ورفع الله عنكم الإثم والحرج فاسعوا بينهما وامتثلوا أمر الله.

أما الحكم الشرعي في السعي بين الصفا والمروة فهو فرض وهو ركن في الحج والعمرة للأدلة التالية:

أ. فقد نصت الآية على أن السعي بين الصفا والمروة هو من مناسك الحج ﴿ **مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ** ﴾.

ب. في الحديث الذي رواه جابر ﷺ عن وصف حجة الرسول ﷺ ـ حجة الوداع ـ: "أن رسول الله ﷺ كان يقول: **لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**"[1]. وفي هذا القول بيان من رسول الله ﷺ للحج وهو يأخذ حكمه، أي الفرض، فيكون السعي بين الصفا والمروة فرضا فالبيان يأخذ حكم المبين.

وبذلك يكون السعي في الحج والعمرة فرضا ولا يقال هنا إن الاستدلال السابق كان عن السعي الذي في الحج وليس الذي في العمرة، لا يقال ذلك لأن الآية تقول ﴿ **فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ** ﴾ والتي تدلّ على أن الحكم الشرعي في السعي لمن حجّ أو اعتمر واحد.

وما دام السعي فرضا والسعي جزء من الحج أو العمرة، ووجوب جزء من حكم يعني أن هذا الجزء هو ركن في ذلك الحكم كالركوع في الصلاة أو السجود، وعليه يكون السعي ركنا في الحج أو العمرة.

٢. يختم الله الآية بقوله سبحانه ﴿ **وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨** ﴾ و﴿ **خَيْرًا** ﴾ هنا نكرة مثبتة فهي مطلقة، أي أن الله سبحانه شاكر عليم لكلّ من تقرب إلى الله بأي خير كان سواء في العمرة أو في الحج كما هو في سياق الآية أو أي خير كان كما يستفاد من إطلاق الخير بدون تقييد.

[1] مسلم: ٢٢٨٦، النسائي: ٣٠١٢، أبو داوود: ١٦٨٠، أحمد: ٣/٣١٨، ٣٣٧

﴿ وَمَن تَطَوَّعَ ﴾ أي تقرب بنافلة وهو لحثّ المسلمين على عدم الاكتفاء بالفروض فقط بل يتبعها بالنوافل كذلك لما في ذلك من قربى إلى الله سبحانه كما في الحديث: **"أحب ما تقرب به إليّ عبدي ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى..."**[1].

﴿ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي مجازٍ لهم على طاعتهم لي، وعليم بما يعملون صغيرا كان أو كبيرا فيجزيهم عليه مهما كان مقدار ما يتطوعون به، فالله لا يضيع عنده مثقال ذرة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨** ﴾ الزلزلة.

* * *

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝١٦٢ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣** ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. بعد أن بيّن الله سبحانه فيما سبق أن الذين أوتوا الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم فهو الموصوف عندهم بصفته ونعته وأنه يصلي للقبلتين، ومع ذلك كتموا ما علموه ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦** ﴾ البقرة/آية١٤٦ بعد ذلك بيّن الله سبحانه في هذه الآيات عاقبة الذين يكتمون ما أنزل الله من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمّد ﷺ والآيات الهادية إلى وجوب اتّباعه ﷺ وكلّ ذلك مسطور عند أهل الكتاب في كتبهم، أولئك الكاتمون يستحقون اللعنة من الله ومن الذين يَتأَتّى منهم اللعن على الكاتمين وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

[1] البخاري: ٦٠٢١

وهذا وإن ورد في سياق موضوع الكاتمين من أهل الكتاب، إلا أن اللفظ عام، وبالتالي فهو عامّ في كلّ من يكتم علما عنده من الله فهو آثم إثما عظيما، وكتم العلم حرام حرمة شديدة بقرينة ﴿ **أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾** ﴾ وكما ورد في الحديث: "**من كتم علما ألجمه الله بلجام من النار**"[1] للدلالة على العاقبة الوخيمة لأولئك والتي هي نار جهنم.

ثم إن الله سبحانه لم يستثنِ من ذلك إلا الذين قاموا بأمور ثلاثة: تابوا إلى الله توبة صادقة عن الكتمان، وأصلحوا ما ترتب على كتمانهم للحق من حقوق للناس أو تضليل في أحكام الشرع، ثم بينوا ما كتموه في موضعه بإظهاره على الملأ، ومن ثمّ يتوب الله عليهم فهو سبحانه التواب الرحيم.

٢. وفي الآية التالية يبين الله سبحانه مصير الكفار الذين يموتون على الكفر فهم في لعنة أبدية من الله والملائكة والناس أجمعين.

وموضوع اللعن في هذه الآية ليس هو نفسه في الآية السابقة، فتلك في الدنيا ولذلك يلعنهم الله والملائكة والمؤمنون «الذين يُعْتَدُّ بلعنهم من الناس». وأما هذه الآية فإن اللعن لهم في الآخرة حيث يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، أي ليس المؤمنون فحسب يلعنوهم بل كلّ الناس حتى الكفار يلعن بعضهم بعضا ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾ الأعراف/آية٣٨ وهكذا فالآية الأولى تفيد لَعْنَهم أحياء وهذه تفيد لَعْنَهم أمواتا.

ويبين الله سبحانه أن أولئك الميتين على الكفر خالدون في جهنم ملعونون أبدا، لا يخفف عنهم العذاب ولا يؤجلون ليعتذروا بل لا تقبل منهم حجة ولا هم يُمهلون.

٣. بعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة كتمان أهل الكتاب لنبوة محمّد ﷺ على الرغم من أنها مسطورة في الكتب المنزلة عليهم وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأقام الحجة عليهم بثبوت نبوته ﷺ، بيّن سبحانه في الآية الأخيرة أنه الإله الواحد الأحد المستحق للعبودية والألوهية.

﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾** ﴾ الواو للعطف والجملة معطوفة على ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ** ﴾ عطف القصة على القصة والجامع في العطف أن

---

[1] أخرج أبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال رسول الله ﷺ: "**من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار**". ولفظ الحديث في المتن أخرجه ابن ماجه: ٢٦١، أحمد: ٢/٤٩٩، ٥٠٨

الأولى مسوقة لإثبات نبوته ﷺ وهذه لإثبات وحدانيته تعالى.

والمعنى أن إلهكم الحق أي الذي يستحق عبادتكم هو واحد في ألوهيته، فتكرار ﴿ إِلَٰهٌ ﴾ لإفادة وصف الله سبحانه بوصفين في هذه الآية:

- استحقاق العبادة من إضافة إله إلى ضمير المخاطبين ﴿ إِلَٰهُكُمْ ﴾.
- ووحدة الألوهية من ذكر ﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تأكيد وتقرير لوحدانية الله ـ جلّ ثناؤه ـ وذكرها، أي ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ بعد ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لإزالة ما يتوهم من أن هناك إلها غير إلهكم، فأفادت الآية الكريمة أنَّ إلهكم الذي يستحق عبادتكم هو واحد في ألوهيته، وهو الله الذي لا إله في الوجود غيره وهو ربكم ورب العالمين وهو سبحانه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الذي يعم برحمته في الدنيا المؤمن والكافر، ويخص برحمته في الآخرة المؤمنين.

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ فَعْلان من رحم، وهو الذي وسعت رحمته كلّ شيء أي الممتلئ رحمة مثل غضبان من غضب الممتلئ غضباً.

﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ كثير الرحمة ولكن في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم لأن في الرحيم زيادة واحدة (من رحم) أي الياء، وفي الرحمن زيادتان أي الألف والنون، والزيادة في المبنى (اللفظ) تدلّ على الزيادة في المعنى.

* * *

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

لما أنزل الله سبحانه ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أنكر المشركون ذلك متسائلين كيف تكون الآلهة إلها واحدا؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية تدعوهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه ليستدلوا بها ويؤمنوا من خلالها بالخالق الواحد الأحد الذي خلق هذا الكون وربط أجزاءه معا ربطا محكما بنظام متقن دقيق يدلّ على وحدانية خالقه وعظمته:

١. فهذه السموات والأرض بما فيها من نجوم وكواكب كلّ في فلك يسبحون

بنظام دقيق عجيب لا يخرج واحد منها عن مساره ولا يصطدم بغيره.

٢. وهذا الليل والنهار وتعاقبه واختلاف أطواله وأحواله وظلمته وضوئه ونوره واستعماله سباتاً ومعاشاً.

٣. وتلك السفن التي تجري في البحر يحملها الماء وتحركها الرياح وتحيط بها الأمواج تتلاطم بها وتتصادم، ومع ذلك فهي تجري في خضم الأمواج وعباب البحر وتحمل ما ينتفع الناس به سفرا أو تجارة.

٤. ثم هذا الماء النازل من السماء إلى الأرض فيصيب الله به ما يشاء، فيحيي به الأرض بعد موتها وتكسوها الخضرة بعد أن كانت مصفرة.

٥. وتلك الدواب التي تنتشر على الأرض تتكاثر وتتوالد وتعيش على ما تنبت الأرض وما يجري فيها من ماء.

٦. ثم هذه الرياح المسيرة بأمر الله وذلك السحاب المسخر بقدرة الله بين السماء والأرض يحركه الله كيف يشاء، فيسوقه ليمطر هنا أو هناك.

كلّ ذلك في نسق عجيب دقيق لا يخرج واحد منها عن نظامه: لا السماء تقع على الأرض ولا الليل سابق النهار ولا البحر أو الفلك بغير صفاته وخواصه، ولا المطر أو الرياح أو السحاب يخالف أمر الله، ولا الذي يدبّ على الأرض يخالف الفطرة التي فُطر عليها.

لا فوضى أو اضطراب ولا خروج على المسار أو المدار، ولا الخضرة بدون ماء، ولا البحار في غير مكانها أو الرياح في غير أوانها.

بل السموات والأرض وما فيهن من مخلوقات كلّ ميسر لما خلق له ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ الملك/آية٣.

هذا النظام العجيب الدقيق في مخلوقات الله على الأرض وفي السماء وبين الأرض والسماء لآيات لقوم يعقلون.

فمن تدبرها وتفكر فيها تبين له وحدانية خالقها؛ فانتظام الكون وانضباطه، وعلاقات مكوناته مع بعضها في نظام محكم متقن، كل ذلك ينطق بأن الخالق واحد، هو الله رب العالمين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

إن التفكر في مخلوقات الله سبحانه يؤدي بالقطع إلى أن لها خالقا عظيما واحدا أحدا لا معبود سواه ولا إله غيره.

إن الله سبحانه الحكيم الخبير قد جعل في مخلوقاته آيات بينات على عظمته ووحدانيته ورحمته، والعاقل من تفكر وتدبر ولم يمرّ على مخلوقات الله مرا عابرا، بل يقف عندها وقوف المتدبر المتفكر.

تقول عائشة أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: "**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**"[1].

* * *

﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾** ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. إن من الناس من يجعل مع الله شركاء وأمثالا له سبحانه، يسوون بينهم وبين الله، ويحبونهم كحب الله، ولكنه الحب المبني على غير هدى، فلا يسمو إلى حبّ المؤمنين لله لأن أساسه على تقوى من الله وإيمان، فحب المؤمنين لله هو الأشد الأشد الذي تطمئن به القلوب وتدخل به الجنة ورضوان من الله أكبر.

ولكن أولئك المتخذين من دون الله أندادا والمسوينهم بالله فإن مصيرهم عذاب أليم يوم القيامة، وعندها يتبينون أن الله هو القوي والقوي وحده فلا قوة لغيره، وأن عذابه للظالمين شديد أليم، وأن الذين زعموهم أندادا لله هم مخلوقات لا حول لهم ولا قوة ﴿ **وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾** ﴾ يس/آية٧٤ـ٧٥.

﴿ **وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ** ﴾ ﴿لو. . .إذ﴾ تختصان بالماضي وهنا وردتا مع المضارع وذلك لتحقيق أمرين معا:

---

[1] أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ الدر المنثور: ٢/١١١

- المضارع لإفادة المستقبل لأن الموضوع يتعلق برؤيتهم يوم القيامة.
- والماضي للدلالة على قطعية تحققه في علم الله فكأنه حدث في الماضي وانتهى أمره.

وجواب ﴿ لَوۡ ﴾ محذوف للدلالة على أنه أمر عظيم يكاد لا يوصف، أي لو رأوا ما أُعِدَّ لهم من عذاب يوم القيامة وأهوالها لوقعوا في الحسرة والندامة بما لا يكاد يوصف من حال ومآل.

واستعمال ﴿ لَوۡ ﴾ و﴿ إِذۡ ﴾ و(حذف الجواب) في السياق المذكور قوة في البلاغة والبيان ﴿ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت/آية٤٢.

﴿ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ﴿ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ يدخل فيها ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ وإنما في إعادة ذكرها وعطفها مبالغة في تهويل الخطب وأن لا عفو عليهم يوم القيامة، حيث إنَّ ﴿ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا من الله سبحانه مع القدرة عليه، فَذَكَر الله سبحانه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ معطوفا عليه لإزالة أي أمل عندهم في عفو الله عنهم.

٢. في ذلك الموقف العظيم ومشاهدة العذاب الأليم وأن القوة لله جميعا تنكشف حقائق الأمور:

أ. تبلغ الحسرة والندم مبلغا عظيما عند أولئك الذين اتخذوا من دون الله أمثالا آلهة ـ أصناما وغير أصنام ـ عندما يرون أن أولئك الأنداد لا حول لهم ولا قوة وأن العذاب يحيط بهم من كلّ مكان.

ب. وتزيد حسرتهم وندمهم وألمهم عندما يرون رؤساءهم الذين اتبعوهم وقادوهم إلى تلك المهالك، يتبرءون منهم فالموقف عظيم والعذاب أليم لا يترك مجالا للرؤساء أن يعترفوا بالأتباع فالكلّ مشغول بنفسه وكلّ روابط الاتصال بين الأتباع والمتبوعين تنقطع وكأنها لم تكن.

ج. ثم تزيد الحسرة والألم عند هؤلاء الأتباع عندما يتبين لهم أنهم لا يستطيعون الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لينتقموا من المتبوعين فيتبرءوا منهم كما تبرأ أولئك منهم في الآخرة، وعندها يرون عظم سوء صنيعهم باتباعهم أولئك الرؤساء الذين قادوهم إلى المهالك ويتبين لهم أن أعمالهم السيئة تلك التي اقترفوها انقياداً لرؤسائهم قد

انقلبت حسرات عليهم يتبوءون من خلالها مقاعدهم في جهنم وبئس المصير.

٣. منطوق هذه الآيات متعلق بأولئك الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ووصفهم الله سبحانه بالظالمين لأنهم جعلوا مخلوقات الله في مرتبة الخالق ووضعوا الأمر في غير محله وكانوا بذلك من الظالمين.

وبَيَّنَتْ هذه الآيات عاقبتهم وكيف يتبرأ رؤساؤهم منهم عندما يرون العذاب وأن القوة لله جميعا، ولكن منطوق هذه الآيات لم يتطرق لمدى العذاب والخزي الذي يصيب أولئك الرؤساء الذين زينوا السوء لأتباعهم.

غير أن هذا المنطوق له مفهوم موافقة من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى فإن تلك العاقبة الوخيمة التي أعدها الله للأتباع تدلّ على عظم المصير المظلم للذين قادوا الأتباع إلى الجحيم، فعذابهم أشد ومصيرهم أدهى وأمر، وهكذا شأن القادة الطغاة يقودون أتباعهم إلى الهلاك ولكنهم يسبقونهم إليه يوم القيامة كفرعون يقود قومه إلى النار ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ هود/آية٩٧ـ ٩٨.

إلا أن التركيز في هذه الآيات على الاتباع هو لحكمة عظيمة فهو لإزالة ما قد يتوهمه بعض الأتباع أن لا إثم عليهم بل على رؤسائهم وقادتهم، فبينت الآيات أن الإثم واقع على الأتباع كذلك، وأنهم في زمرتهم في نار جهنم وبئس المصير.

والآيات بيان من الله لأولئك التابعين في الدنيا لرؤوس الكفر بأن هؤلاء الرؤوس سيقودونهم إلى الهاوية وسيتبرءون منهم يوم القيامة ولن يحملوا من أوزارهم شيئا بل يوردونهم النار وبئس القرار.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا

يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

١. بعد أن بيّن الله سبحانه في الآيات السابقة دلائل الإيمان ووحدانيته ثمّ حبّ الله عند المؤمنين وحبّ الأنداد عند الكافرين وما أعدّ الله لهم من عذاب أليم لاتخاذهم من دون الله أندادا، بيّن في هذه الآيات إنعام الله ورزقه الذي يشمل الناس أجمعين حتى الكافرين فيهم.

وفي الآيات خطاب للناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا، والأمر ﴿ كُلُواْ ﴾ للإباحة.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ ﴾ للتحريم أي لا تتبعوا طرقه ولا تقتدوا به.

﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان. وفي هذا دلالة على أن الشيطان مهما أحكم خططه وفكّر ودبر، فإنه يبقى ظاهراً مكشوفاً لا ينخدع به أصحاب العقول السليمة والفطرة المستقيمة، وذلك لسوء ما يدعو إليه.

ثم بَيَّن الله سبحانه أن الشيطان لا يأمر بخير قطّ بل يأمر بكلّ أنواع الشرّ سواء ما لم تصل عقوبته إلى الحدّ - وهو السوء - أو ما كان الحدّ عقوبته - وهو الفحشاء - كما قال ابن عباس رضي الله عنه. أو ما وصل إلى الكفر كالافتراء على الله بالتحليل والتحريم كما كان يصنع المشركون ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ وفي هذا دلالة على ضرورة التقيد بأوامر الله ونواهيه وعدم الافتراء عليه سبحانه، وإلا كان إفكاً كبيراً وبهتاناً عظيماً.

٢. ثم يبين الله سبحانه حال الذين يتبعون خطوات الشيطان من أنهم إذا قيل لهم التزموا شرع الله أجابوا بأنهم لا يتبعون إلا ما وجدوا عليه آباءهم، وهنا يستنكر الله أمرهم ويستقبح جوابهم موبخا إياهم على اتّباعهم آباءهم تقليدا دون نظر أو تدبُّر، علما بأن آباءهم على ملة باطلة لم يدينوا بها وهم يعقلون أو يهتدون.

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠ ﴾ الهمزة لاستنكار الحال التي هم عليها واستقباحه والتعجب منه، و(الواو) للحال، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم في دينهم وحال الآباء أنهم يدينون بدون عقل ولا هدى.

٣. ثم يضرب الله مثلا لهؤلاء الكفار الذين يتبعون آباءهم على ضلالتهم دونما تدبر أو تفكر، فَمَثَلُهم، في الانتفاع بما يُدعَون إليه من خير واتباع لما أنزل الله، كَمَثَل البهائم التي لا تفهم من نعيق راعيها سوى مجرد أصوات بلا معنى فهي لا تسمع منهم إلا دعاء ونداء، مجرد أصوات تصل من قريب أو بعيد. وهذا كناية عن عدم التدبر والإدراك والفهم السليم الذي يشترك فيه الذين كفروا والبهائم!

﴿ يَنْعِقُ ﴾ من النعيق وهو التتابع في التصويت على البهائم للزجر.

﴿ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أي بالبهائم التي لا تسمع إلا مجرد أصوات دون فهم لمعناها، وقد ذكرت ﴿ مَا ﴾ التي لغير العاقل للدلالة على ذلك.

﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (الدعاء) للقريب، و(النداء) للبعيد، أي البهائم التي لا تسمع إلا أصواتا تأتيها من بعيد أو قريب.

ويكون المعنى كاملا أن مثل الكافرين الذين إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع الدين الذي عليه آباؤنا مهما كان بطلانه، فنتبعه تقليدا دون نظر أو تدبر.

مثل هؤلاء في فهمهم وإدراكهم بما يوعظون به كمثل البهائم التي يزجرها راعيها فهي لا تسمع إلا أصواتا، فتدور مع الأصوات حيث دارت دون أن تدري مدلولات الأصوات أهي أصوات شر للبهائم أم أصوات خير؟ فيها لعنات عليها أو مدح لها دون أن تميز صالح الأصوات من باطلها، غثها من سمينها وهي أصوات عليها وحسب.

فكما تدور البهائم مع الأصوات التي تصلها جيئة وذهابا دون أن تفهم معناها، فكذلك هم المقلدون يدورون مع دين آبائهم في الذهاب والإياب دون فهم لهذا الدين أو تدبر له ليقفوا على الصواب منه، بل يغرقون في باطله وضلاله كأنهم بلا آذان يسمعون بها، وبلا ألسنة ينطقون بها، وبلا أعين يبصرون بها فهم والحالة هذه لا يعقلون

كأنما عطلت عقولهم ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

٤. ثم يخصّ الله عباده المؤمنين بخطاب خاص بعد الخطاب العام للناس أجمعين، وهو رحمة مخصوصة ورضوان على المؤمنين، فيرزقهم من الطيبات ويشكرونه سبحانه على نعمه لإيمانهم به وعبادتهم إياه – جلّ ثناؤه –. وهذا الخطاب المخصوص لهم بعد الخطاب العام للناس دلالة على ما أعده الله لهم من نعيم ورضوان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

٥. ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾

أي حرم أكل هذه المذكورة. والعرب إذا أطلقوا التحريم على ما يؤكل كان المعنى: تحريم أكله حتى وإن لم يذكر تحريم الأكل. فمثلاً ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾ المائدة/آية٣ أي أكلها. وإذا أطلقوا التحريم على ما يشرب كان المعنى: تحريم الشرب، فمثلاً "**كلّ مسكر خمر وكلّ خمر حرام**"[1] أي شربه. وإذا أطلق التحريم على النساء كان المقصود النكاح ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ ﴾ النساء/آية٢٣ أي نكاحهن.

وذلك لأن العرب إذا أطلقوا اللفظ دخل فيه لازمه دلالة حسب لغتهم دون الحاجة إلى ذكره.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ ﴾ والميتة لفظ عام يقع في كلّ ما لم يُذكَّ الذكاة الشرعية وهو الذبح والنحر المبين في الأحكام الشرعية، وذلك فيما فيه ذكاة كالأنعام وكلّ ما أُحِلّ أكله، والميتة تقع كذلك في كلّ ما حرّم أكله من حيوانات أخرى مهما كانت صورة القتل أو الموت الواقعة بها كصورة الذكاة وغيرها. أي أن كلَّ ما يحل أكله لا يقال عنه ميتة إلا إذا مات بغير الذكاة الشرعية، أما ما يحرم أكل لحمه فيشمله لفظ ﴿ ٱلۡمَيۡتَةَ ﴾ سواء أمات على صورة الذكاة الشرعية أم على غير صورها.

ويدخل في الميتة كلّ عضو قطع من حي أو فصل عنه وذلك لحديث رسول الله ﷺ: "**ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة**"[2].

والميتة لفظ عام فينطبق على كلّ ميتة إلا إذا ورد دليل تخصيص كما ورد في

---

[1] مسلم: ٣٧٣٣، ٣٧٣٥، الترمذي: ١٧٨٤، النسائي: ٥٤٨٨، ابن ماجه: ٣٣٨١، أحمد: ٢/٢٩، ٣١

[2] الترمذي: ١٤٠٠، أبو داوود: ٢٤٧٥، ابن ماجه: ٣٢٠٧

حديث رسول الله ﷺ : "**أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال**"[1].

﴿ **وَٱلدَّمَ** ﴾ وهو كذلك لفظ عام فهو ينطبق على كل دم إلا إذا ورد دليل تخصيص كما في الحديث السابق حيث خُصص التحريم في غير الموجود في الكبد والطحال وكذلك كما ورد في الآية الأنعام ﴿ **أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا** ﴾ الأنعام/آية١٤٥ فقد ورد الدم فيها مقيدا بالمسفوح أي السائل المتدفق من الذبيحة فيكون الدم المحرم هو المسفوح فقط وفي غير الكبد والطحال.

﴿ **وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ** ﴾ وهو الحيوان المعروف.

﴿ **وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ** ﴾ كأن ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله، ﴿ **مَآ** ﴾ من صيغ العموم فاللفظ عامّ يشمل كلّ ما أهل لغير الله به سواء أذبح للأصنام أو لغيرها. والإهلال رفع الصوت فمن ذبح مسميا باسم غير الله فذبيحته محرمة.

٦. ﴿ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ يبين الله سبحانه أن الذي يضطر لأكل ما حرمه الله في الآية فإن الله غفور رحيم فلا يكون هناك إثم عليه في الأكل من تلك التي حرمها الله.

غير أن رفع الإثم على الأكل مشروط بأن يكون حال اضطرار محققا لأمرين إن تحققا رفع الإثم وإلا فلا عذر له وعليه عقوبة، وهذان الأمران هما المذكوران في الآية مضافان للحال ﴿ **غَيْرَ** ﴾:

أ. ﴿ **غَيْرَ بَاغٍ** ﴾ أي غير ظالم، والظلم وضع الشيء في غير محله ومعنى ذلك أن يكون هذا الأكل بدافع الاضطرار للحفاظ على الحياة، فإن أكلها لغير ذلك يكون قد ظلم نفسه بهذا الأكل لأنه استعمله في غير محله، فالله تعالى قد حرم أكل الميتة فمحلها أن لا تؤكل إلا اضطراراً للحفاظ على الحياة، فلو أكلها في هذه الحالة يكون قد استعمله في محله أما إن أكل مما حرمه الله ليس اضطراراً للحفاظ على الحياة فيكون قد استعمله في غير محله ويكون بذلك باغياً أي ظالماً.

وقلنا إن (باغيا) بهذا المعنى أي استعمال أكل الميتة في غير موضعه وهو الاضطرار للحفاظ على الحياة، قلنا ذلك لأن الله سبحانه قد ذكر هذا الأمر في آية أخرى ﴿ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ** ﴾ المائدة/آية٣ وهذه الآية ﴿ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ**

[1] ابن ماجه: ٣٣٠٥، أحمد: ٢/٩٧

﴿ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ ﴾، والاثنتان في الموضوع نفسه، وتعقيبٌ على المحرمات نفسها، وهذا يعني أن المعنى واحد على النحو التالي:

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ المائدة/آية٣ أي مجاعة حفاظا على الحياة، وهي نفسها ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير ظالم، وبذلك يستعمل الأكل في محله للحفاظ على الحياة.

ب. ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي غير متجاوز ما يلزمه للحفاظ على حياته عند حصوله المجاعة المؤدية إلى الهلاك فيأكل بقدر حاجته ولا يتجاوز ذلك إلى شهواته ولذاته من أكل تلك المحرمات، أو يعمد إليها وهو يجد حلالا غيرها يسد حاجته، فإن تجاوز الحاجة أو لجأ إلى أكل ما حرمه الله وهو واجد غيره حلالا طيبا، عندها يكون قد تعمد الإثم ومال إليه وهو المعنى نفسه في الآية الأخرى ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ ﴾ المائدة/آية٣ أي غير متعمد لإثم وغير مائل إليه.

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

١. في هذه الآيات تأكيد لما سبق بيانه في الآيات السابقة حول عاقبة كتمان العلم وكتمان الذين أوتوا الكتاب معرفتهم الأكيدة لرسول الله ﷺ المسطورة في كتبهم، غير أن في هذه الآيات معنى جديدا: فالآية السابقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ هذه الآية فيها بيان حال الذين يكتمون ما أنزل الله على العموم سواء أكان ذلك لتحقيق مصلحة دنيوية لهم أم لغيرهم كأن يكتموا عقوبة منزَّلة في كتبهم حتى لا تُطبَّق عليهم، أو ينكروا حقا يعرفونه حتى لا يتبعوه، هذا من وجه، ومن وجه آخر أن يكون الكاتمون في حالة تصح التوبة فيها كأن تكون قبل الوفاة مثلا أو ما

هو في حكمها. أي أن يكون احتمال توبتهم وارداً ولذلك قال سبحانه بعدها ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾.

وأما الآية التي نحن بصددها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ فهي بيان لحال الذين يكتمون ما أنزل الله لمصلحة غيرهم مقابل عوض يأخذونه ولذلك قال سبحانه بعدها ﴿ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ هذا من وجه، ومن وجه آخر أن يكون الكاتمون في حالة لا تصح التوبة فيها أي أن يكون احتمال توبتهم غير وارد كأن يموتوا على كفرهم وهم يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ولذلك قال سبحانه بعدها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

٢. ﴿ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ هذا المنطوق لا مفهوم مخالفة له لأنه خرج مخرج الغالب، فإن الذين كانوا يكتمون الحق كانوا في العادة لا يتقاضون من رؤسائهم الذين يكتمون لأجلهم إلا قليلا من العوض بالنسبة لفداحة الجريمة التي يقترفون.

وهكذا فلا مفهوم مخالفة له أي لا يقال لو انهم كتموا ما أنزل الله مقابل ثمن كبير فإنه لا يكون عليهم إثم، بل كتم ما أنزل الله جريمة كبرى سواء أكان مقابل ذلك ثمن كثير أم قليل.

﴿ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي ما يأكلون في بطونهم نتيجة كتمانهم ما أنزل الله إلا المال الحرام الذي سيكون سببا في دخولهم النار يوم القيامة، فالنار هنا استعمال مجازي بدلا من المال الحرام لأنها مسببة عنه.

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أي كلاما يسرهم، وإلا فإن الله سبحانه قد ذكر في آية أخرى أنه يكلمهم بما يسوؤهم ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ المؤمنون/آية١٠٨.

﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ لا يطهرهم بغفران ذنوبهم أو الثناء عليهم بل يعذبهم بما كتموا عذاباً أليماً.

٣. يبيّن الله سبحانه حالهم ومآلهم بعد أن كتموا ما أنزل الله، بأنهم باعوا الهدى وأخذوا الضلالة بدلا منه وباعوا المغفرة وأخذوا العذاب بدلا منها، ومن كان هذا شأنهم فالنار أولى لهم وأولى بهم.

كلّ ذلك بسبب اختلافهم في كتاب الله الذي يعلمون أنه منزل بالحق يؤمنون ببعضه ويكتمون بعضه في الكتاب الواحد، وكذلك يؤمنون ببعض كتب الله ويكفرون ببعضها الآخر، وهذا شقاق منهم للكتاب بعيد بعيد أي تمرد منهم على كتاب الله وعدم إيمان وتسليم.

﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ وهو استفهام للتوبيخ، أي ما الذي جعلهم يبذلون الجهد ويتحملون المشاق في القيام بأعمال سيئة مثل الكتمان وغيره ومن ثم يقادون بسببها إلى النار.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِى ٱلۡكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

الكتاب هنا جنس الكتاب فـ(أل) للعموم، فالعقوبة تنطبق على كلّ من يختلف في أي كتاب من كتب الله المنزلة سواء أكان يؤمن بجزء من كتاب ويكفر بجزئه الآخر، أم كان يؤمن بكتاب من الكتب المنزلة ويكفر بكتاب آخر وهو يعلم أنها كتب الله المنزلة بالحق، فمن يفعل ذلك الاختلاف يكن في شقاق بعيد.

﴿ ٱخۡتَلَفُواْ فِى ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي فرقوا بين بعض الكتاب وبعضه الآخر أو فرقوا بين كتب الله أي بين كتاب وكتاب فيؤمنون بهذا الجزء ويكفرون ويكتمون الجزء الآخر، أو يؤمنون بهذا الكتاب ويكفرون بالكتاب الآخر.

﴿ لَفِى شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾ أي في مشاقة كبيرة لكتاب الله يستوجبون بها أشدّ العذاب.

❁ ❁ ❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ
ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ
فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ
بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ
ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ
خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ
بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ
ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله سبحانه في الآية السابقة اختلاف أهل الكتاب من حيث إيمانهم ببعض الكتاب والكفر ببعضه، والإيمان ببعض كتب الله المنزلة والكفر ببعضها، كلٌّ يقرر

ما يريد تبعا لهواه، ذكر الله سبحانه اختلافا آخر من اختلافاتهم وهو تنازعهم في أفضلية القبلة التي يتوجهون إليها، فالنصارى تقول قبلتهم واليهود تقول قبلتهم، فبين الله في هذه الآية الكريمة أن البر – وهو اسم جامع لأنواع الخير والطاعات – ليس في الجهة – القبلة – التي تولون إليها وجوهكم بل البر هو في الإيمان والعمل الصالح والطاعة الخالصة لله.

فالبر أن تؤمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين إيمانا ثابتا راسخا دون شكّ أو ريب، والبر أن تَتَصَدَّق على ذوي الحاجة وتصل الرحم، والبر أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتفي بما عاهدت الله عليه في كلّ أنواع الخير، والبر أن تكون من الصابرين الصادقين في كلّ الظروف والأحوال: في الفقر والشدة (البأساء) والمرض والآلام (الضراء) وفي الجهاد وملاقاة الأعداء (وحين البأس).

هذا هو البر الذي وصف أهله بالصدق والتقوى ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧** ﴾، **ومما سبق يتبين ما يلي:**

١. الإسلام أمران:

أ. إيمان وهو كلّ ما طلب التصديق الجازم به أي بالعقيدة الإسلامية – الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما جاء في حديث عمر عن سؤال جبريل لرسول الله ﷺ – كما بينا في أوائل آيات سورة البقرة.

ب. الأحكام الشرعية وهي المتعلقة بأداء الأعمال والتصرفات الفعلية والقولية طبقا لأحكام الشرع.

ولا يستقيم أمر المسلم إلا بالاثنين معا – بالإيمان والعمل الصالح – كما ورد في آيات كثيرة ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ** ﴾ أي الإيمان بالعقيدة الإسلامية والالتزام بالأحكام الشرعية.

٢. ذكر الله سبحانه ﴿ **وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ** ﴾ أي يخرج المال ويتصدق به وهو محبّ له راغب فيه وهو القمة في الصدقة كما جاء في حديث "**أفضل الصدقة أن تَصَدَّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر**"[١].

وقدّم الله سبحانه ﴿ **ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ لما في الصدقة عليهم من فضل "**الصدقة على**

[١] البخاري: ١٣٣٠، مسلم: ١٧١٣

المسكين صدقة وعلى ذوي الرحم اثنتان"[1] كما جاء في الحديث الشريف.

ثم ذكر الله سبحانه صنوفا من ذوي الحاجة:

- ﴿ **وَٱلْيَتَـٰمَىٰ** ﴾ واليتيم هو من توفي أبوه في صغره أي قبل بلوغه.
- ﴿ **وَٱلْمَسَـٰكِينَ** ﴾ الذين لا مال لهم أو لا مال عندهم يكفي حاجتهم الأساسية ـ المطعم والملبس والمسكن ـ .
- ﴿ **وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ أي المسافر المنقطع الذي لا مال لديه يكفي حاجاته الأساسية في سفره، وسمي ﴿ **ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ مجازا فكأنه ابن للطريق لملازمته لها في حله وترحاله بسبب سفره.
- ﴿ **وَٱلسَّآئِلِينَ** ﴾ الذين يسألون الناس لحاجتهم.
- ﴿ **وَفِى ٱلرِّقَابِ** ﴾ أي في تحريرهم من الرق، واستعملتْ ﴿ **فِى** ﴾ المفيدة للظرفية للدلالة على استغراق ما يُعطى لهم في رقاهم أي لتحرير رقاهم، فلا يُنفق هنا وهناك، بل هو لتحريرهم كأنه (داخل) في رقاهم، وليس كالأصناف السابقة فما يعطى لهم يمكنهم إنفاقه لحاجاهم المتعددة.

٣. ذكر الله سبحانه الصدقة قبل أن يذكر الزكاة في حين أن الفرض ـ الزكاة ـ يأتي في المرتبة الأولى من حيث الأداء، إلا أن هذا التقديم للصدقة هو لإبراز فضلها فلا ينساها المسلمون ويكتفون بالفرض (الزكاة)، فبعض المسلمين يكون همه أن لا يترك ما يجب عليه خشية العقوبة، ولا يهتم بما فيه قربى إلى الله سبحانه غير واجبة عليه، فكان هذا التقديم هو للفت نظر المؤمنين إلى عدم الاكتفاء بالمفروض بل يضيفون له ما شاء الله لهم من النوافل، فيضيف المسلم للزكاة صدقةً، وفي هذا أجر كبير وبخاصة للمسلم الذي يؤدي الصدقة من ماله وهو يحبه ويخشى الفقر في الإنفاق أي أنه يتصدق بالنافلة وهو بحاجة إليها حيث إنه بإنفاقها يكون على حدود الفقر فليس لديه الكثير بحيث لو أنفق منه يبقى بعده في حدود الغنى، ومع ذلك يتصدق وهو غير واجب عليه، فإن مثل هذا يكون على درجة عظيمة من البر والتقوى.

ولا يُفهم من هذا التقديم في الآية أن الصدقة خير من الزكاة بل إن الآية هي نص في أداء الزكاة والصدقة، لكن الله سبحانه قدم الصدقة للحث عليها، وللدلالة على

---

[1] النسائي: ٢٥٣٥، ابن ماجه: ١٨٣٤، أحمد: ١٧/٤، ٢١٨

نفسية مسلمة تنفق زيادة على الواجب من مالها الذي تحب وهي في حالة تخشى الفقر معها.

٤. ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴾ إن هذه موقعها في (خبر لكن) أي أن تكون مرفوعة مثل الذي سبقها ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ ﴾ ولكنها هنا منصوبة على الاختصاص ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهي تعني اختصاص الصابرين في مواضع الشدة المذكورة بدرجة عظيمة من المدح من قبل الله سبحانه ومن المنزلة الرفيعة التي أعدها الله للصابرين ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ الزمر/آية١٠.

وفي لغة العرب إذا عُدِل عن الرفع إلى النصب في مثل هذه المواضع يكون نصبا على الاختصاص وهي هنا اختصاص بالمدح وعلو المنزلة.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِى ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِىَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَىۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِى ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾.

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة موضوع الإيمان والكفر والنفاق ثم موضوع جحود يهود لما أنعم الله عليهم، وكذلك اختلاف أهل الكتاب فيما جاء في كتبهم من صفة رسول الله ﷺ وتنازعهم في أفضلية دينهم وقبلتهم على بعضهم الآخر، وغير ذلك من أصول الدين وقواعده، شرع الله سبحانه بعد ذلك في ذكر بعض الأحكام الشرعية التي تنظم العلاقات بين الناس.

يبين الله سبحانه في هاتين الآيتين ما يلي:

١. المساواة في القصاص في القتلى بلا تفاضل في ذلك، فالقاتل يُقتل، فإذا قتل عبد عبدا فإنه يقتل به ولا يقال عبد هؤلاء أفضل، فيُقْتَل به حرٌّ من أولئك، ولا يُكتفى بقاتله العبد. وكذلك إذا قتل حرٌّ حراً فإنه يُقتَل به، ولا يقال: حُرُّكم أدنى مرتبةً من حرنا، فيُكتفى بقتل عبدٍ بدلاً من حرِّكم المقتول. وكذلك إذا قتلت امرأةٌ امرأةً فإنها

تُقتَل بها، ولا يقال إن المرأة من هذه القبيلة تساوي رَجُلاً من قبيلة أخرى وبالتالي لا يُكتفى بقتل المرأة القاتلة بل يُقتَل رَجُلٌ بدلها.

وقد نزلت هذه الآية لبيان مثل هذه الوقائع، فقد روي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية وكان لأحدهم طَوْلٌ على الآخَر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

هذا هو منطوق الآية وهذا هو موضوعها والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكن في الموضوع نفسه وهو قتل القاتل بقتيله مهما كان القتيل ومهما كان القاتل، فالحر يقتل بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. لكن هل يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى؟ أي إن قَتَل حر عبدا أو أن قَتَل ذكر أنثى هل يقتل القاتل في هذه الحالة بقتيله؟

والجواب على ذلك نعم فالقاتل يقتل بقتيله مهما كان للدلالة التالية:

أ. إن الآية عامة في القصاص بالنسبة للقتلى ﴿**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ**﴾ أي فرض عليكم، فالقصاص قرينة على أن (كُتِبَ) تفيد الطلب الجازم، وبالتالي فالقصاص فرض في القتلى، والقتلى لفظ عام يَصْدُق على كلّ نفس مقتولة بأن يُقْتَصَّ من قاتلها أي يُفعَل به مثل ما فعل. وهذا يبقى عاما إلا إذا خُصِّصَ بنصٍّ مثل قوله ﷺ : "**لا يُقتَل والد بولده**"[1] فإذا قتل الوالدُ ولدَه لا يُقتَل به. ومثل قوله ﷺ : "**لا يُقتَل مسلم بكافر**"[2] فلو قتل مسلمٌ كافرا حربيا فإنه لا يقتل به. وقلنا كافر حربي لأن الرسول ﷺ أخرج الكافر الذمي والمعاهد من ذلك، فنَصَّ على القصاص بهما في القتل كما جاء في رواية أخرى "**لا يُقتَل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده**"[3] فقد عطف "ذو عهد" على "مسلم" فهما مرفوعان، أي لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده بكافر. فالكافر المذكور في الحديث هو غير الكافر ذي العهد ومن باب أولى غير الكافر ذي الذمة فيكون "الكافر" الذي في الحديث هو الكافر الحربي فهو الذي لا يُقتل المسلم به إن قتله.

ب. إن المنطوق هنا هو قتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، وأما المفهوم فلا يُعمل به هنا أي لا يقال الحرُّ لا يُقتَل بالعبد لو قتله الحرُّ، ولا يقال كذلك الذكر لا

---

[1] الترمذي: ١٣٢١، أحمد: ٤٩/١

[2] البخاري: ٦٣٩٤، الترمذي: ١٣٣٢

[3] النسائي: ٤٦٥٣، ٤٦٥٤

يُقتَل بالأنثى لو قتلها الذكرُ، لأن المفهوم هنا معطل بقوله ﷺ: "**المسلمون تتكافأ دماؤهم**"[1] وهو يشمل الرجل والمرأة والعبد والحر. وكذلك بقوله ﷺ: "**من قتل عبده قتلناه**"[2] وكذلك ما صنعه عمر على ملأ من الصحابة وهو أن يقتل الجماعة بالواحد إذا قتلوه. وقال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم. وهو يعني أن القاتل يقتل بقتيله مهما كان نوعه وعدده.

٢. ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ** ﴾ في هذه الآية أمران:

أ. إطلاق لفظ ﴿ **أَخِيهِ** ﴾ على أولياء القتيل فيه تشجيع على العفو فكأن أولياء القتيل أخوة القاتل، وفي هذا بعث للولي على العطف والعفو.

ب. ﴿ **شَيْءٌ** ﴾ فيه دلالة على أن حدوث شيء من العفو يُسقط القصاص أي بعض العفو يسقط القصاص، وهذا يعني أن أيا من أولياء المقتول لو عفا فإن القصاص يسقط فلو عفا بعض الورثة ولم يعفُ الآخرون أخذ بهذا العفو ـ وهو شيء من العفو فإن العفو لم يتم من جميع الورثة أولياء المقتول ـ وسقط القصاص، وفي هذا رحمة من الله وفضل وتخفيف ﴿ **ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾.

٣. إنه إن تمّ العفو أو شيء من العفو فإن لأولياء القتيل مطالبة القاتل بما يترتب عليه ـ الدية ـ بالمعروف، وعلى القاتل أن يؤدي ما ترتب عليه بإحسان فتطيب النفوس وتهدأ القلوب.

وإذا عفا أولياء القتيل فإن لهم الدية إن أرادوها أو أن يعفوا بدون دية. وفي جميع الحالات فإنهم لا يُجبَرون على شيء مما لهم سواءٌ أكان القود أم الدية أو العفو، ولا يزيدون عليها كما جاء عن رسول الله ﷺ "**من أصيب بقتل أو خبَل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص أو أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها**"[3].

وعليه فمن قتل غير القاتل بعد ذلك أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية، فإن له عذابا أليما، إما الاقتصاص منه بما قتله في الدنيا، أو نار جهنم في الآخرة.

[1] أبو داوود: ٣٧٥٨، النسائي: ٦٩٥٢، أحمد: ١/١١٩، ١٢٢، ١٩٢

[2] الترمذي: ١٣٣٤، النسائي: ٤٦٥٥، أبو داوود: ٣٩١٤، ابن ماجه: ٢٦٥٣، أحمد: ٥/١٠، ١١، ١٢

[3] أبو داوود: ٣٨٩٨، ابن ماجه: ٢٦١٣، الدارمي: ٢٢٤٥، أحمد: ٤/٣١

٤. ثم يبين الله سبحانه في الآية الأخيرة أن لنا في القصاص حياة ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ وهي تعني إما:

أ. إن في مشروعية القصاص حياة للقاتل والقتيل لأن القاتل إذا عَلم أنه سيُقتل لو قَتل فإن هذا سيدفعه إلى الامتناع عن القتل حتى لا يُقتَل، فكأن حياة تحققت للقاتل وللقتيل الذي كان سيقتله، وفي هذه الحالة يكون هناك إضمار (مشروعية) قبل القصاص أي أن تشريع القصاص فيه حياة للقاتل ومن كان سيقتل.

ب: إن في القصاص ـ أي قتل القاتل ـ حياة لجزء من الناس كانوا سيقتلون لو بقي القاتل طليقا دون قصاص لأن شره سيصيب أعدادا منهم وفي هذا تخصيص (للقصاص) وهو لفظ عام ليصبح خاصا في قتل القاتل دون غيره فيكون في قتله حياة لجزء من الناس كان يمكن أن يقتلهم القاتل لو بقي طليقا دون أن يقتص منه فيقتل، ويكون عموم (القصاص) في هذه الحالة مخصَّصاً في القاتل، أي معنى القصاص هنا يكون (حقيقة) في القتل، وليس إضماراً بمعنى التشريع بل هو قتل على الحقيقة، ولكنها حقيقة مخصَّصة في قتل القاتل.

ولأن الحقيقة المخصصة مقدمة على الإضمار وهو نوع من المجاز، ولأن القصاص المخصص في القاتل على الحقيقة بمعنى قتله يقدَّم على القصاص بالمعنى المجازي بإضمار (تشريع أو مشروعية) قبل كلمة قصاص كما هو معروف في أصول الفقه في باب ترجيح دلالات الألفاظ في الدليل الواحد، فإن المعنى الثاني هو الأَوْلى والأرجح للآية الكريمة أي أن قتل القاتل فيه حياة لجزء من الناس كانوا سيقتلون لو بقي القاتل حراً طليقاً.

ج. إن الذي يدرك عظمة الحياة التي تترتب على القصاص هم أولو الألباب أصحاب العقول المفكرة المتدبرة لآيات الله، فخصهم الله سبحانه بالخطاب فهم أهله الذين يدركون معناه لعلهم بذلك يتقون الوقوع فيما يوجب القصاص بخاصة أو ما يوجب غضب الله بعامة.

* * *

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ

لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

من هذه الآيات يتبين ما يلي:

١. لقد كان مفروضا في أول الإسلام أن يوصي الذي تحضره الوفاة وصية للوالدين والأقربين إن ترك خيرا أي مالا كثيرا، فإن في لفظ ﴿ **خَيْرًا** ﴾ وصفا مفهما فيه معنى الكثرة، فلا يقال للمال ﴿ **خَيْرًا** ﴾ إلا إذا كان كثيرا، كما لا يقال: فلان ذو مال إلا إذا كان له مال كثير.

وانضباط هذه الكثرة يكون بأن يبقى بعد الوصية ما يكفي لسدّ حاجات أهل الميت الاعتيادية، ولذلك فتعيين الكثرة يحتاج إلى تحقيق مناط.

وقد قال بذلك عدد من الصحابة، فقد دخل علي ﷺ على مولى له في مرض الموت وله سبعمائة درهم أو ستمائة فقال: ألا أوصي؟ قال: لا إنما قال الله ﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا** ﴾ وليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك. وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلا قال لها: أريد أن أوصي. قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: قال الله تعالى ﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا** ﴾ هذا شيء يسير تتركه لعيالك فهو أفضل.

ولذلك فإن الكثرة لا تقدر بمقدار محدد وإنما تختلف باختلاف حال الرجل.

٢. الآية تفيد أن الله سبحانه يطلب أن يوصي من تحضره الوفاة، وذلك من دلالة ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ** ﴾ فهي خبر بكتابة الوصية عليكم، ولكنه خبر في معنى الطلب حسب أساليب العرب في كلامهم أي ليوصِ الذي يحضره الموت.

لكن هذا الطلب طلب جازم بقرينة ﴿ **حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾** ﴾ فهذا وصف مفهم يفيد الجزم على نحو قوله تعالى ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾** ﴾ البقرة/آية٢٤١ والتي بينت وجوب المتاع للمطلقات قبل الدخول باللاتي لم يفرض لهن مهرٌ معين، ولذلك فالوصية فرض على النحو الذي بيناه، وقد ذكر الله سبحانه ﴿ **بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ أي بالعدل والرفق والإحسان.

٣. نسخ وجوب الوصية الواردة في هذه الآية بآيات المواريث، فقد نزلت بعدها بالاتفاق قول الله سبحانه ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ ﴾ النساء/آية١١ ثم بينها الله مفصلة.

فقد كانت الوصية فرضا للورثة والأقارب، يوصي بها الرجل عندما تحضره الوفاة، ثم نسخها الله سبحانه ورفع ذلك الحكم وجعل بدلا منه فرض المواريث وندب الوصية لغير الورثة وذلك في آية المواريث ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ النساء/آية١١-١٢ فكان الله سبحانه قد فرض الوصية وجعل تقسيمها للمسلمين يوصون كما شاءوا للورثة والأقارب ثم نزعها الله منهم وحصر قسمتها به سبحانه للورثة وندب لهم الوصية لغير الورثة.

أما لماذا كانت المواريث فرضا اختصّ الله سبحانه بقسمته، فهذا بيّن من آيات المواريث في تعيين الفروض للورثة، وفي خاتمة الآية ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾. وأما ترك الوصية لهم لغير الورثة وأنها مندوبة فلأن الله سبحانه ذكر الوصية مسندة لهم في آيات المواريث ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ النساء/آية١٢.

والوصية هنا مطلقة إلا أن السنة قيدتها في غير الورثة "**إن الله قد قسم لكلّ إنسان نصيبه في الميراث فلا تجوز لوارث وصية**"[١].

[١] الترمذي: ٢٠٤٦، النسائي: ٣٥٨١، أبو داوود: ٢٤٨٦، ابن ماجه: ٢٧٠٣

هذا من حيث تقييد الوصية في الآية لغير الورثة، وأما أنها مندوبة فلأن فيها معنى القربة دون قرينة تفيد الطلب الجازم فتكون مندوبة.

٤. يبين الله سبحانه أن الذين يبدلون الوصية سواء الكتبة أو الشهود أو الذين لم يوصَ لهم فيها، فإن إثمهم عظيم لأن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية فهو سميع لما أوصى الموصي عليم بكلّ تبديل يتم سرا أو علانية يحصيه عليهم ويجازيهم به.

٥. ﴿ **فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢** ﴾.

﴿ **فَمَنۡ خَافَ** ﴾ أي توقع وعلم من قولهم "أخاف أن تمطر السماء" أي أتوقع أن تمطر السماء.

في هذه الآية يبين الله سبحانه أن أحداً لو علم أو توقع أن الموصي سينحرف في وصيته بما يؤدي إلى إثارة الشقاق بين الموصى لهم - الوالدين والأقربين - سواء أكان ذلك الانحراف خطأ أي دون عمد ﴿ **جَنَفًا** ﴾ كأن تحركه الشفقة على أحد ضعاف أبنائه فيزيد له في الوصية عن اخوته ظنا منه أن هذا سيصلح حال ذلك الضعيف فيكون هذا الانحراف في الوصية قد وقع خطأ أي بحسن نية فيه في غير موقعها، أم كان ذلك الانحراف عمدا ﴿ **إِثۡمٗا** ﴾ كأن يتعمد الموصي مضايقة أحد ولده أو أقاربه فلا يوصي لهم بشيء لأمر في نفسه تجاههم.

فمن توقع هذا الانحراف في الوصية من الموصي للموصى لهم فتدخل للإصلاح حتى لا يقع الموصي في الإثم بوصيته ولا يتسبب ذلك في شقاق بين أهل الموصي، فإن هذا التدخل ومحاولة الإصلاح لا إثم فيه ولا يدخل في باب تبديل وصية الموصي لأن التبديل هنا هو عن طريق الإصلاح بين الموصي والموصى لهم فيوجد تفاهم بينهم على تعديل الوصية برضى الموصي والموصى لهم.

وليس هذا كالتبديل في الآية السابقة، فذاك تبديل بالتزوير في الوصية دون علم الموصي أو الموصى لهم ولذلك هناك وقوع في الإثم، وأما ما هو مذكور في هذه الآية حيث الإصلاح وتعديل الوصية برضى الموصي والموصى لهم في حالة العلم أو توقع وجود انحراف في الوصية ومحاولة الإصلاح في هذه الحالة لتعديلها فهذا لا إثم فيه، والله

غفور لانحراف الموصي في وصيته قبل تعديلها ما دام قد تمّ الإصلاح والتعديل، كما أن الله سبحانه رحيم بالموصي والموصى لهم والذي تدخل بالإصلاح بينهم فقد أحسنوا بقبول الإصلاح وتعديل الوصية طبقا لأحكام الشرع ورحمة الله قريب من المحسنين.

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾.

يبين الله في هذه الآيات ما يلي:

١. أن الله سبحانه فرض الصيام على الذين آمنوا – الأمة الإسلامية – كما فرضه على الأمم السابقة، والمماثلة هنا في فرض الصيام وليس في عدد أيامه وتحديد شهره، فليس النص على هذا بل على فرض الصيام كما في الآية **﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾**.

٢. أما لماذا الصيام (فرضٌ) في هذه الآيات فلما يلي:

أ. **﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾** هذا خبر في صيغة الطلب أي (صوموا).

ب. ترتيب قضاء للصيام عند عدم صيام المريض والمسافر قرينة على الجزم في الطلب فهو لو لم يكن طلباً جازماً لما ترتب عليه قضاء **﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾** ولذلك فطلبُ الصيام طلبٌ جازم فيكون فرضاً.

ج. كذلك فإن **﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾** طلب بالصيام لمن شهد الشهر أي الحاضر المقيم، وقوله تعالى بعدها **﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ**

﴿ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ قرينة على الجزم لأنها ترتب قضاء على المريض والمسافر إن لم يصوموا وهذا يدلّ أن الطلب جازم أي أن الصوم فرض.

د. هذا من حيث الكتاب، وأما السنة فأحاديث كثيرة منها حديث عمر الذي يروي فيه جواب رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإسلام فقال ﷺ : **"شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة المكتوبة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً"**[1] فموضوع السؤال هو الإسلام وهو فرض على الناس كافة ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران/آية١٩ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران/آية٨٥ وذكر الصوم في جواب الرسول ﷺ عن الإسلام يدل على أن الصوم فرض وفرض عظيم.

وكذلك هناك رواية **"بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً"**[2]، وما يقوم عليه البناء هو وصفٌ مفهم يفيد الجزم في الطلب فهذه الخمسة وردت في النص بأن الإسلام يبنى عليها أي هي من أركان الإسلام وبالتالي فالصوم فرض.

٣. جعل الله سبحانه حكمة للصيام وهي (التقوى) فقال سبحانه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ والتقوى خشية الله وطاعته والاستعداد للقائه سبحانه كما عرفها بعض الصحابة: "الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل".

ولذلك فعلى الصائم أن يحرص على تحقيق هذه الحكمة من صيامه لأن الله سبحانه قد جعل التقوى حكمة الصيام عندما فرضه سبحانه.

فلينظر المرء في صيامه هل زاده خشيةً لله سبحانه وطاعةً لله ورسوله ﷺ واستعداداً للقائه بالإكثار من فعل الخيرات؟ فيكون صياماً صادقاً يحقق به أجراً عظيماً خالصاً من ربِّ العالمين، وبشرى زكيةً طيبةً من رسول الله ﷺ : **"كلّ عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا اجزي به"**[3] **"للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وأخرى عند لقائه ربه"**[1].

---

[1] مسلم: ٩، الترمذي: ٢٥٣٥

[2] البخاري: ٧، مسلم: ٢٠

[3] البخاري: ٥٤٧٢، مسلم: ١٩٤٥

أما إن لم يحقق حكمة الصيام فليعالج هذا الأمر قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

٤. ﴿ **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ أي قليلات فالعرب تطلق على القليل (معدوداً) فكأن الكثير غير معدود على نحو قوله سبحانه ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ البقرة/آية٨٠ بحسب زعم يهود إنها قليلة، وقوله سبحانه ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ** ﴾ يوسف/آية٢٠ أي بثمن قليل.

ولهذا فإن ﴿ **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ أي قليلة وهي شهر رمضان تسعة وعشرون أو ثلاثون يوماً "**الشهر تسعة وعشرون أو ثلاثون يوماً**"[٢] كما قال ﷺ.

٥. بعد أن بيّن سبحانه فرض الصيام رخّص للمرضى والمسافرين الفطر أو الصوم فإن أفطروا قضوه في أيام أخر، وهذا للمريض الذي يُرجى شفاؤه وهو الذي يستطيع أن يصوم ويستطيع أن يفطر، وللمسافر الذي يستطيع أن يصوم ويستطيع أن يفطر فقد رخص لهما الله سبحانه بالفطر إن شاءوا ثم القضاء فيما بعد عند انتهاء السفر أو المرض.

أما المرض فمعروف، وأما السفر فهو السفر الشرعي الذي تقصر فيه الصلاة وهو الذي نقل عن الصحابة تقديره كما سُئل ابن عباس عن السفر الذي تقصر فيه الصلاة "فقال من عسفان للطائف أو جدة للطائف"[٣] والذي ورد بنصوص أخرى "ثلاثة فراسخ والفرسخ أربعة برد"[٤] وتقديرها بالمسافات هذه الأيام نحو تسعين كيلو متراً.

٦. ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ﴾ بعد أن بين الله سبحانه فرض الصيام على المسلمين وأنه ﴿ **أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ - شهر رمضان - ذكر الله غير القادرين على الصيام بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة:

أ. ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ لغير القادرين بصفة مؤقتة.

---

[١] البخاري: ١٧٧١، ٦٩٣٨، مسلم: ١٩٤٤

[٢] البخاري: ١٧٨٠، مسلم: ١٨٠٥

[٣] عن مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عباس كان يقصر الصلاة في مثل ما بين مكة والطائف. وفي مثل ما بين مكة وعسفان، وفي مثل ما بين مكة وجدة. قال مالك: وذلك أربعة برد، الموطأ: صفحة١١٠

[٤] مسلم: ١١١٦، أبو داوود: ١٠١٥

ب. ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ لغير القادرين بصفة دائمة.

ويطيقونه لها معنيان: يصومونه مع الوسع، ويصومونه مع إفراغ الجهد والطاقة.

فإن كانت بالمعنى الأول كان معنى الآية: خطاب للمسلمين أن يصوموا شهر رمضان، فإن كانوا مرضى أو مسافرين فلهم أن يصوموا أو يفطروا ويقضوا في أيام أخر، وإن كانوا يستطيعون صيامه فليفطروا ويخرجوا فدية عن كلّ يوم يفطرونه، وهذا المعنى لا يستقيم الخطاب فهو في البداية أمر بالصيام وفي هذه الآية أمر بالإفطار وإخراج الفدية وكل ذلك لمستطيع الصيام. وواضح هنا أن الخطاب لا يستقيم، هذا إذا اعتبرنا معنى ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ يصومونه مع الوسع أي يستطيعونه لأن الوسع والاستطاعة ذات دلالة واحدة ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ سورة البقرة/آية٢٨٦ والحديث **"ما أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"**[1].

وأما على المعنى الثاني ـ يطيقونه ـ يصومونه مع إفراغ الجهد والطاقة أي مع الهلاك، فإن الخطاب يستقيم لأن المعنى عندها يكون: أيها المؤمنون صوموا شهر رمضان إن استطعتم فإن كنتم مرضى أو على سفر فعدة من أيام أخر، وإن كنتم لا تستطيعون صيامه إلا مع الهلاك ـ كالشيخ الكبير الهرم والعجوز الكبيرة الهرمة أو المريض الذي لا يُرجى شفاؤه ـ فليفطروا وليخرجوا فدية.

وهكذا يستقيم الخطاب: فيكون الأمر بالصيام للمستطيع، ورخصة للمسافر والمريض بالإفطار والقضاء، وللكبير الهرم والمريض الذي لا يُرجى شفاؤه الفطر والفدية.

ولذلك فإن الذين يقولون بأنه في أول الإسلام كان الصوم للمستطيع على الخيار إن شاء صام وإن شاء أفطر ويخرج فدية ثم نسخت بالآية التالية ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ قول أولئك والروايات التي استندوا إليها كلها مرجوحة، لأنه لا يعمد للقول بأن نصاً ينسخ آخر إلا إذا تحققت شروط النسخ ومنها تعذر الجمع بين النصين وهنا لا يتعذر فيكون الراجح ما ذكرناه من أن فرض الصوم لم ينسخ وإنه منذ البداية نصّ محكم، فرض على المقيمين المستطيعين الصيام ورخصة للمرضى والمسافرين بالفطر مع القضاء وللشيخ الكبير والمرضى الذين لا يرجى شفاؤهم بالفطر والفدية، هذا ما تدلّ عليه الآية الكريمة.

---

[1] البخاري: ٦٧٤٤، مسلم: ٢٣٨٠، ٤٣٤٨

ويؤكد ذلك ما رُوي عن ابن عباس بهذا المعنى وعدم النسخ كما رواه البخاري وأبو داود وغيرهما "قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كلّ يوم مسكيناً".

٧. ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ ﴾ فيها دلالة على أن من أخرج أكثر من الفدية المطلوبة عن كلّ يوم من فطره فهو خير له وقربى إلى الله سبحانه.

أما مقدار الفدية عن كلّ يوم من فطره فهي ما يكفي لإطعام مسكين لأن ﴿ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ بدل من ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ فهي طعام مسكين يوماً عن كلّ يوم فطر، ويقدّر الطعام بقدره في وقته ما يكفيه بالمعتاد في اليوم.

٨. ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ فهي تعني أن من رخص له الفطر كالمسافر والمريض والذي له أن يصوم أو يفطر، خير له أن يصوم إن كان مرضه أو سفره لا مشقة فيه ويستطيع القيام بدون مشقة، فإن كان صومه مُرهِقاً له في مرضه أو سفره ففطره أفضل كما في الحديث: "**أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم. قال: ليس من البر الصيام في السفر**"[1]. وفي رواية «**ليس من البر الصيام في السفر، عليكم برخصة الله عز وجل فاقبلوها**» أخرجه النسائي. والتذكير بقبول الرخصة في هذا المقام يعني أنها هنا أفضل.

٩. إن الله سبحانه قد اختص شهر رمضان ببدء نزول القرآن فيه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ القدر/آية١ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ ﴾ الدخان/آية٣. وكلّ ذلك يدل على أن القرآن بدأ نزوله إلى رسول الله ﷺ في ليلة من ليالي رمضان، ليلة مباركة، ليلة القدر، ثم أكمل الله سبحانه تنزيله على فترات لحكمة بيّنها الله سبحانه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الفرقان/آية٣٢.

ثم بيّن الله سبحانه أن القرآن العظيم:

أ. ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ «حال منصوب»: يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

---

[1] البخاري: ١٨١٠، مسلم: ١٨٧٩، الترمذي: ٦٤٤، النسائي: ٢٢٢٣

ب. ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ «حال معطوف»: دلائل قاطعة معجزة على أنه من الهدى الذي أنزله الله.

ج. ﴿ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ أي الذي يفرق بين الحق والباطل وبين الخير والشر وبين الأعمال الصالحة والأعمال السيئة.

١٠. في الآيتين الأولى والثانية ذكر الله سبحانه ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ فكانت الآية مؤكدة فرض الصوم علينا كما فرض على الأمم السابقة مع اختلاف عدة أيام الصيام فنكرت ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ لأن المقصود في تلك الآية تأكيد فرضية الصيام علينا كفرضه على السابقين وليس المقصود منها بيان مدة الصيام.

وأما الآية التي بعدها ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ فإن فيها تعيين لشهر الصيام على الأمة الإسلامية فهو شهر رمضان المخصوص بنزول القرآن ومن ثم فريضة الصيام.

وعندما ذكر الله سبحانه الصوم في شهر رمضان عاد فأكّد أحكامه لمناسبة إعادة ذكر شهر الصوم ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ فقال الله سبحانه ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فأكّد حكم الصيام لمن شهد الشهر وحضره أي المقيم، وكذلك الرخصة للمسافر والمريض في تتابع محكم من لدن حكيم خبير.

١١. ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

يبيِّن الله سبحانه الحكمة من ذلك بأنه سبحانه يريد لنا اليسر في تنفيذ فريضة الصيام وليس العسر – المشقة والهلاك – وبذلك نتمكن من إكمال عدة الصيام بسهولة: فإن كنا غير قادرين بصفة مؤقتة أديناها قضاءً في أيام أخر، وإن كنا غير قادرين بصفة دائمة أخرجنا فديةً، وإن كنا قادرين أديناها في مدتها – شهر رمضان – فنكمل العدة ونكبر الله بعد إكمال الصيام أي يوم العيد، ونكون من الشاكرين على نعمة الله أن مكننا من إكمال هذه الفريضة العظيمة.

وورود حروف التعليل ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ﴾، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ﴾، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ ﴾، لبيان

الحكمة من هذا اليسر في الصيام، أن تكملوا عدة الصيام، وتكبروا الله على ما هداكم لتنفيذ فريضة الصيام، وتكونوا من الشاكرين لله سبحانه.

أما لماذا قلنا إن ما ذكرناه في آيات الصيام السابقة (حكمة) وليس علة فلأن ما ذكره الله سبحانه مرتباً على الصيام: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، كلّ ذلك يتحقق جملةً، أي عند عدد من المسلمين ولكنه يتخلف في أفراد منهم وهذا ما اصطلح عليه بالحكمة، فهي التي تتحقق جملةً من مقصود الشارع مثل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات/آية٥٦ فنقول الحكمة من الخلق عبادة الله سبحانه وليس العلة، لأن العبادة من المخلوقات تتحقق في جملتهم أي من أعداد منهم ولكنها تتخلف في أفراد منهم.

أما العلة فهي التي تدور مع المعلول وجودا وعدما، فلا تتخلف لا في الجملة ولا في الأفراد ما دامت العلة والمعلول موجودتين لأن العلة هي التي من أجلها شرّع الحكم أي الباعث على تشريع الحكم، فمثلا: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ النساء/آية١٦٥ فإن الباعث على إرسال الرسل هو أن لا يحتج الناس أمام الله على عدم طاعتهم له سبحانه بقولهم: إننا لم نكن نعلم ما تريده منا لعدم إرسالك إلينا رسلاً.

فهنا تكون الآية ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ النساء/آية١٦٥ علة لإرسال الرسل، فإذا أرسلت الرسل لا تكون للناس حجة في جميع الأحوال.

وقوله ﷺ : "**القاتل لا يرث**"[١] يدل أن العلة لعدم الإرث هو القتل العمد، فلو قتل أحد الورثة مورّثه عمدا فإن هذا القاتل لا يرث فحيث كان القتل العمد من الوارث فإن توريث القاتل لا يصح بحال، فالعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً.

أما ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت/آية٤٥ فإن الحكمة من الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر لأن المنكر قد يقع من بعض المصلين مع وجود الصلاة فتسمى اصطلاحا حكمة لتخلفها في بعض الأفراد.

أي: أن الحكمة من الحكم تتحقق جملة وقد تتخلف عند بعض الأفراد.

والعلة لا تتخلف عن الحكم فهي تدور معه وجوداً وعدماً.

ولذلك قلنا إن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾،

---

[١] الترمذي: ٢٠٣٥، ابن ماجه: ٢٦٣٥، ٢٧٢٥، الدارمي: ٢٩٥٤

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، هي حكمة من الصيام وليست علة كما هو في اصطلاح الأصوليين.

* * *

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

أخرج ابن أبي حاتم أن أعرابيا سأل رسول الله ﷺ: **"أقريب ربنا فنناجيه أو بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ ﴾ الآية"**[1].

فالله سبحانه في هذه الآية يخبرنا أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فالله يسمع دعوة عبده ولا يخفى عليه شيء وهو سبحانه يجيبه ولا يرده خائبا، فالله قريب من عباده يسمع ويرى على نحو قوله سبحانه لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ طه/آية٤٦ أو كما قال ﷺ: **"قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه"**[2].

ثم يطلب الله جلّ ثناؤه من عباده أن يستجيبوا لله ويؤمنوا به فيطيعوه ويلتزموا شرعه ولا يدعوه وهم يعصونه فاستجابتهم لله تقربهم إلى الله فلعلهم بذلك يهتدون للأخذ بالأسباب التي تجعل دعوتهم مستجابة ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

فائدة عن الدعاء:

وهنا لا بدّ من وقفة لنذكر بعض الأمور المتعلقة بالدعاء ليكون الأمر واضحا للعبد عند دعائه ربه سبحانه:

١. الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة لقوله سبحانه ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر/آية٦٠ فالله جعل الدعاء عبادة فقال سبحانه في الآية ﴿ عِبَادَتِي ﴾ بعد ذكر

---

[1] الدر المنثور: ٢/٤٦٩، تفسير الطبري: ٢/١٥٨

[2] ابن ماجه: ٣٧٨٢، أحمد: ٢/٥٤٠

﴿ ٱدۡعُونِيٓ ﴾ وهذا على نحو قوله ﷺ : "**الدعاء مخ العبادة**"[1].

فالدعاء عبادة والله يحب عبده الذي يدعوه ويلح في الدعاء «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»[2] فمن لم يدع الله يكنْ قد ترك خيرا كثيرا، فإن كان عدم دعاء الله سبحانه استكبارا كان صاحبها من جملة من قال الله فيهم ﴿ **سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠** ﴾ أذلاء صاغرين مهانين.

٢. إن الله سبحانه بين لنا أن ندعوه ونحن مستجيبون له سبحانه نلتزم شرعه ونقتدي برسوله ﷺ ﴿ **فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦** ﴾. وكما قال ﷺ : "**يدعو الله ومأكله من حرام ومشربه من حرام فأنى يستجاب له**"[3].

٣. إن الدعاء – وهو عبادة – لا يعني أن نترك الأخذ بالأسباب وهذا بيّن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فالله يقول ﴿ **فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦** ﴾ أي لعلهم يهتدون للأخذ بالأسباب ويوفقون فيها لتكون دعوتهم مستجابة.

والرسول ﷺ يجهز الجيش في بدر ويرتب الجند كلا في موقعه ويُعِدُّهم الإعداد الجيد للقتال ثم يدخل رسول الله ﷺ العريش يدعو الله النصر ويكثر في الدعاء حتى يقول له أبو بكر رضي الله عنه : "بعض هذا يكفيك يا رسول الله"[4].

ثم إن الرسول ﷺ لما أذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة اتخذ كلّ ما يمكن أن يتخذه بشر من الأسباب التي تؤدي به إلى النجاة في الوقت نفسه الذي يدعو الله فيه على كفار قريش أن يصرفهم الله عنه وينجيه من مكرهم ويوصله المدينة سالماً.

فبدل أن يتجه صلوات الله وسلامه عليه إلى الشمال حيث المدينة اتجه إلى الجنوب واختفى في غار ثور هو وأبو بكر رضي الله عنه، ثم كان يستقبل الأخبار عن قريش وما تخطط وتدبر له من قِبل عبدالرحمن بن أبي بكر، ثم عندما يعود إلى مكة يجعل غلام أبي بكر يرجع بالغنم إلى مكة خلفه ليطمس أثر الغنم أثر ابن أبي بكر لتضليل كفار قريش، وبقي

---

[1] الترمذي: ٣٢٩٣، أحمد: ٢٧١/٤

[2] أخرجه الطبراني في الدعاء بسند رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة (بقية) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (فتح الباري: ٩٥/١١)

[3] الترمذي: ٢٩١٥، أحمد: ٣٢٨/٢، مسلم: ١٠١٥، الدارمي: ٣٠٠/٢

[4] سيرة ابن هشام: ٦٢٦/٢

ثلاثة أيام إلى أن خفّ الطلب عليه ﷺ فواصل السير إلى المدينة المنورة، وكلّ ذلك ورسول الله ﷺ كان واثقا من وصوله إلى المدينة سالما فهو يجيب أبا بكر وقد خشي وصول كفار قريش إليهما عندما رآهم أمام الغار، فيقول للرسول ﷺ: إن أحدهم لو نظر إلى موطن قدميه لرآنا، فيقول له الرسول ﷺ: **"ما ظنك باثنين الله ثالثهما"**[1] ﴿ **فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ﴾ التوبة/آية٤٠.

ثم إنه ﷺ يقول لسراقة وقد أوشك على اللحاق بالرسول وأبي بكر في هجرتهما ليدل عليهما ويمسك بهما نظير الجائزة التي وضعتها قريش لذلك، يقول له رسول الله ﷺ: **"بأن يرجع وله سوارا كسرى"**[2].

فرسول الله ﷺ يأخذ بالأسباب لنقتدي به صلوات الله وسلامه عليه، فهو ﷺ في الوقت الذي يدعو الله أن ينجيه من طلب كفار قريش له وأن يرد كيدهم في نحرهم، يخرج من بيته ليلا ويجد الكفار يحيطون بالدار فيقذف في وجوههم التراب[3].

وهو مطمئن إلى استجابة الله له وصرفهم عنه، وهكذا تمّ فقد ضرب عليهم النوم وخرج الرسول ﷺ.

فالدعاء لا يعني تعطيل الأخذ بالأسباب بل هو ملازم لها.

فمن أحب أن تقام الخلافة من جديد فعليه أن لا يكتفي بدعاء ربه لتحقيق ذلك بل يعمل مع العاملين لإيجادها ويدعو الله العون في ذلك والتعجيل بتحقيقها ويلح في الدعاء خالصا لله وهو يأخذ بالأسباب.

وهكذا في جميع الأعمال، يخلص المرء العمل لله والصدق مع رسول الله ﷺ ويدعو ويلح في الدعاء والله سميع مجيب.

٤. إن الله سبحانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويجيب المضطر إذا دعاه ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ غافر/آية٦٠ ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ** ﴾ النمل/آية٦٢.

---

[1] البخاري: ٣٣٨٠، ٤٢٩٥، مسلم: ٤٣٨٩، الترمذي: ٣٠٢١، أحمد: ٤/١

[2] الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام للسهيلي: ٢٣٣/٢

[3] سيرة ابن هشام: صفحة ٤٨٣

غير أن الإجابة لها حقيقة شرعية بينها رسول الله ﷺ: **"ما من مسلم يدعو الله – عز وجل – بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يعجل الله له دعوته، وإمّا أن يدخرها له في الآخرة، وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذن نكثر. قال: الله أكثر"**[1].

"لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل. قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أرَ يستجاب لي فيتحسر عن ذلك ويدع الدعاء"[2].

وهذا يعني أن إجابة الدعاء ليست بالضرورة تحقيقها في الدنيا، بل قد تكون كذلك أو يدخرها له في الآخرة وهناك الأجر العظيم والثواب الكبير، أو يصرف عنه من السوء مثلها.

فنحن ندعو الله سبحانه فإن كنا صادقين مخلصين طائعين نكون موقنين عندها بالإجابة بالمعنى الذي بينه رسول الله ﷺ.

٥. ليس معنى استجابة الدعاء تغيير في القدر أو الكتابة في اللوح المحفوظ أو في علم الله، أي لا تعني الإجابة أن الله لم يكن يعلم بدعوة عبده وإجابته لها، وبالتالي لا تكون مسجلة في اللوح المحفوظ.

وعليه فلا يقال كيف يستجيب الله لدعوة عبد وقدر الله قد تمّ منذ الأزل والكتابة في اللوح المحفوظ قد قضيت؟!

لا يقال ذلك لأن الدعاء وإجابته ليس إنشاءً جديداً لم يكن الله يعلمه، بل الأمر كما يلي:

إن القدر هو علم الله أي الكتابة في اللوح المحفوظ وكلّ ما هو كائن مكتوب فيه منذ الأزل، فالله يعلم أن فلاناً سيدعوه فإن كان الله قد قدّر إجابتها تكتب أن فلاناً سيدعو بكذا وكذا، وإن هذا سيتحقق بكذا وكذا فالدعاء ليس إنشاءً جديداً لم يكن في علم الله أو لم يكن مكتوباً في اللوح المحفوظ، وكذلك الاستجابة بل كلّ ما هو كائن مسجل في اللوح المحفوظ فالله يعلم الغيب ويعلم ما يفعله العبد قولاً أو عملاً، وكلّ

---

[1] أحمد: ٣/١٨، الأدب المفرد للبخاري: ٧١٣

[2] مسلم: ٤٩١٨، الترمذي: ٣٣٠٣

شيءٍ مكتوبٌ مسبقاً منذ الأزل، فالدعاء الذي يدعوه العبد يعلمه الله ومسجل كما هو، وكذلك إجابته كما يريدها الله سبحانه مسجلة منذ الأزل.

فالدعاء والإجابة ليستا فوق علم الله بل هما مسجلان في اللوح المحفوظ على وجههما كما سيحدثان، فالله عالم الغيب والشهادة ﴿ **لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾ سبأ/آية.٣

٦. إن الله سبحانه ذكر آيات الصيام ولكنه فصل بينها بالدعاء، والفصل بين المتلازمين يعني أن هناك أمراً يراد إبرازه، والحكمة من ذكر الدعاء بين آيات الصيام أن الدعاء في شهر رمضان له شأن عظيم فهو أقرب للاستجابة، فشهر الصوم شهر عبادة خالصة لله والصائم قريب من ربه مستجاب الدعوة كما في الحديث الشريف: "**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**"[١].

فذكر الدعاء بين آيات الصيام دلالة على الحث عليه في شهر الصوم وبيان لفضله وبشرى بالإجابة فالله قريب مجيب.

* * *

﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧**﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات:

١. إن الله سبحانه قد أحلّ مباشرة الزوج لزوجه في ليلة الصيام، فقد جعل الله كلا منهما سترا لصاحبه ينكشف عليها وتنكشف عليه فكأن كلا منهما لباس لصاحبه.

---

[١] الترمذي: ٣٥٢٢، وقال حديث حسن، أحمد: ٢/٣٠٥

﴿ ٱلرَّفَثُ ﴾ أصله من رفث في كلامه وترفث أي أفحش وأفصح بما يكنى به والمراد به هنا الجماع.

٢. إن الله سبحانه قد علم أنكم تخونون أنفسكم وتوقعوها في الظلم بمباشرة النساء في ليالي رمضان، وأن الله سبحانه قد تاب عليكم وعفا عنكم فلم يؤاخذكم بما فعلتم ويعاقبكم عليه بل تجاوز عما فعلتموه والآن جعله حلالا لكم فلا إثم في مباشرة النساء في ليل الصوم.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: "كان المسلمون إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء وأن صرمة بن قيس غلبته عينه بعد صلاة المغرب فنام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ الآية"[1].

﴿ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ الإختيان من الخيانة كالاكتساب من الكسب أي تخونون أنفسكم وتظلموها بالجماع في ليل الصيام.

﴿ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ أي جامعوهنّ في ليالي الصيام وهو أمر إباحة والمباشرة كناية عن المجامعة لالتصاق بشرتيهما، وقرينة الإباحة هي ورود الأمر بعد حظر فيعود الفعل إلى أصله أي الإباحة كما هو مفصل في أبحاث القرائن في كتب الأصول.

﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ اطلبوا ما قسم الله لكم من الولد فالمباشرة لا تكون لقضاء الشهوة وحدها بل لابتغاء ما وضع النكاح لأجله وهو التناسل "**تناكحوا تناسلوا فإني مفاخر بكم الأمم يوم القيامة**"[2] وهو هنا للندب، وقرينة الندب مدح الرسول ﷺ لطلب الولد (التناسل) على النحو المبين في الحديث.

٣. يبين الله سبحانه متى يجب أن نمسك عن الطعام والشراب ومباشرة النساء بقوله سبحانه ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي إلى طلوع الفجر الصادق وهو البياض عند الأفق على شكل خيط أفقي فيفرق بين الليل والنهار، وقبل ظهور هذا البياض على شكل خط أفقي يكون قد ظهر بياض على شكل

---

[1] الدر المنثور: ٤٥٧/٢، تفسير الطبري: ١٩٤/٢

[2] أبو داوود: ٢٢٠/٢ رقم: ٢٠٥٠، النسائي: ٣٢٢٧، ابن ماجه: ١٨٤٦، أحمد: ١٥٨/٣، ٢٥٤، ابن حبان: ٣٣٨/٩

خط عمودي عند الأفق وهو ما يسمى بالفجر الكاذب والطعام والشراب والمباشرة لا تنتهي بهذا الفجر الكاذب بل بطلوع الفجر الصادق الذي بيناه.

"عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ **وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ** ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، قال فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال: **إن وسادك إذن لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**"[1].

"ثم إن الله سبحانه أنزل بعد ذلك ﴿ **مِنَ ٱلْفَجْرِ** ﴾ كما روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد"[2]. فكانت بيانا للمجمل ﴿ **ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ** ﴾.

٤. ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ** ﴾ يطلب الله سبحانه أن نتم الصيام إلى الليل وهو يعني أن يدخل جزء من الليل ولو يسير لأن النهار متصل بالليل فحتى يكمل صيام النهار لا بدّ من تلامس بين النهار والليل، وهذا يعني بدء الليل حتى يصح الفطر "**إذا أدبر النهار من هنا وأقبل الليل من هنا فقد أفطر الصائم**"[3].

ومن هنا كانت القاعدة (**ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**) فلا يمكن أن يكتمل النهار دون دخول جزء ولو يسير من الليل لملامسته له، ولذلك **قالوا "الغاية تدخل في المغيّا"** وعلى نحو هذا قوله تعالى ﴿ **فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ** ﴾ المائدة/آية٦ فلا يمكن أن تغسل اليد إلى المرفق إلا بدخول جزء من المرفق في الغسل ولو كان يسيراً.

٥. ثم يبين الله سبحانه حكما آخر وهو استثناء المباشرة في ليل الصوم للمعتكف، فبعد أن ذكر الله إباحة مباشرة النساء في ليل الصيام بيّن أن هذا لا يشمل المعتكف فيحرم عليه الجماع ما دام معتكفا إلى أن يقضي اعتكافه. وقد كان بعض

---

[1] البخاري: ٤١٤٩، ٤١٥٠، مسلم: ١٨٢٤، أبو داوود: ٢٠٠٢، الدارمي: ١٦٣٢

وسادك عريض: كناية عن كثرة النوم، لأن من عَرُضَ وساده طاب نومه. أو كناية عن عِرَضِ قفاه وعِظَمِ رأسه، وذلك دليل الغباوة (القاموس المحيط)

[2] البخاري: ١٨٧٤

[3] البخاري: ١٨١٨، مسلم: ١٨٤١

المسلمين وهم معتكفون في المسجد يخرجون إلى بيوتهم فيباشر الواحد منهم امرأته ثم يغتسل ويرجع إلى المسجد لإكمال اعتكافه، فنزلت الآية تحرم عليهم ذلك ما دام لم يقضِ مدة اعتكافه.

﴿ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ أي وأنتم معتكفون فيها، والاعتكاف في اللغة الاحتباس ولزوم المكان، وهي في الشرع لزوم المسجد لأعمال مخصوصة.

وتقييد الاعتكاف في المسجد كما في الآية يدل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، لكن هذا الشرط في الاعتكاف لا يشمل النساء فالخطاب للرجال، ولا يشمل النساء بالتغليب لأن القرينة خصته بالرجال وهي ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ ﴾ وهذا يعني أن ﴿ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ خطاب للرجال على الحقيقة لا يشمل النساء، وعليه لا يشترط المسجد لاعتكاف المرأة بل تعتكف في بيتها.

وقد كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله - عز وجل - ثم اعتكف أزواجه من بعده، فالاعتكاف في شهر رمضان من السنة فيه أجر عظيم.

٦. ثم يختم الله سبحانه الآية ببيان أن أحكام الصيام التي ذكرت هي حدود الله، أي كأنها حواجز بين الحق والباطل فمن تجاوزها دخل في دائرة الباطل.

وقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ دليل على شدة المنع من الوقوع فيما حرمه الله، فإن النهي عن الاقتراب منها نهي شديد عن مواقعتها.

وكما بيّن الله سبحانه أحكام الصيام وحددها بحدود لا يصح تجاوزها، كذلك بيّن الله جميع الأحكام المتعلقة بشؤون الناس وجعل في اتباعها وقاية من غضب الله وعذابه طريقا إلى رضوان الله ونعيمه ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

لقد جاءت هذه الآية الكريمة عطفا على آيات الصيام علما بأن موضوعها في غير

العبادات بل في المعاملات، وهذا لبيان أمرين مهمين:

١. إن آيات الله وأحكامه آخذ بعضها برقاب بعض فلا فرق بين حكم وحكم ولا بين واجب وواجب، فالذي بيّن العبادات هو سبحانه الذي بيّن المعاملات والعقوبات والسياسة والجهاد، وبيّن الأخلاق والمطعومات والملبوسات وغيرها، وهي على وجهها في القوة نفسها من حيث التنفيذ والالتزام، فالفرض في العبادات كالفرض في المعاملات مثل الفرض في العقوبات ومثل الفرض في بيعة الخليفة والجهاد وسائر الأحكام، لا يصحّ الفصل بينها بحال فالإسلام كلّ لا يتجزأ والدعوة إليه واحدة لتطبيقه في الدولة والحياة والمجتمع.

٢. إن الصائم يجب أن يكون أحرص الناس على نقاء مطعمه ومشربه فيحرص على المال الحلال الطيب، والبعد كلّ البعد عن الأسباب غير المشروعة للتملك كالرشوة والتزوير والنفاق واغتصاب حقوق الناس بطاعة الحكام في معصية الخالق وتزيين السوء لهم ليصلوا عن طريقهم إلى غير ما أحلّ الله لهم.

كلّ ذلك ليكون الصائم محققا للتقوى التي جعلها الله الحكمة من الصيام، ولذلك جاء قوله سبحانه في آخر آيات الصيام ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧** ﴾ ثم جاء العطف بعدها بعدم أكل الأموال بالباطل كنتيجة للتقوى التي يجب أن تمنع صاحبها عن كلّ مال حرام وعن كلّ سبب غير مشروع لحيازة المال.

ولا يعني ذلك أن الابتعاد عن الحرام مقصور على الصائم بل هو أمر الله لكلّ العباد، غير أنه للصائمين أشد أمرا وأعظم أجرا فهو دلالة إخلاصهم في صيامهم وأمارة صدقهم في تقواهم.

﴿ **وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ** ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حقّ، وهذا على نحو ﴿ **وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ** ﴾ الحجرات/آية١١ أي لا يلمز بعضكم بعضا، وليس من باب تقسيم الجمع على الجمع مثل (ركبوا دوابهم) أي ركب كلّ منهم دابته، ليس من هذا الباب وإلا لكان المعنى لا يأكل كلّ واحد منكم مال نفسه وواضح أن هذا ليس هو المقصود بدلالة ﴿ **بَيۡنَكُم** ﴾.

﴿ **وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ** ﴾ (الإدلاء) في الأصل إرسال الحبل في البئر واستعمل هنا مجازا بمعنى الإلقاء بها للتوصل إلى شيء.

وهنا يكون المعنى لا تلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة.

﴿ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ أي لتستولوا على أموال الآخرين بغير وجه حق فيقضى لكم بسبب الرشوة التي قدمتموها وأنتم على علم بأنكم لستم على حق.

ومن علم أن الحق ليس له ثم قضي له فلا يحق له أخذه بل هو قطعة من نار كما في الحديث: "**إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من نار**"[1].

ويستدل من الآية والحديث على أن حكم القاضي لا ينفذ باطنا فلا يحل به الأخذ إن كان يعلم الآخذ أن الحق ليس له.

❀ ❀ ❀

---

[1] البخاري: ٢٤٨٣، ٦٤٥٢، مسلم: ١٢٥٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن
تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا
تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ
كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ
حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا
ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ
مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ
فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن
لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا
فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ

خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

من هذه الآية الكريمة نتبين ما يلي:

١. لقد ذكر الله سبحانه الصيام وأحكامه، وفي الآيات اللاحقة ذكر الجهاد والشهر الحرام والحج والأشهر المعلومات وبين آيات الصيام والشهر الحرام والحج، ذكر الله سبحانه هنا الحكمة من خلق القمر منازل يبدو هلالا ثم بدرا ثم يعود كما بدأ، ثم بين سبحانه هذه الحكمة وأنها مواقيت للناس فمنها مواعيد الصيام **"صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"**[١] ومنها مواعيد للحج ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ ﴾ البقرة/آية١٩٧ وبيان لأشهر السنة **"السنة اثنا عشر شهرا منذ خلق السموات والأرض منها أربعة حرم: ثلاثة سرد:**

[١] البخاري: ١٧٧٦، مسلم: ١٨٠٩

ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد: رجب"[1] ثم مواقيت لأحكام شرعية أخرى كالحول للزكاة والعدة للنساء وغيرها.

قال رسول الله ﷺ: **"جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمّ عليكم فعدوا ثلاثين يوما"**[2].

فالله سبحانه قد أجاب تساؤل السائلين عن الأهلة بأنها مواقيت للناس أي بيان لمواعيد الأحكام الشرعية المتعلقة بهم.

﴿ **ٱلۡأَهِلَّةِ** ﴾ جمع هلال من الإهلال أي رفع الصوت، فقد كانوا عند رؤيتهم الهلال يرفعون الصوت بالتكبير أو بغيره احتفاء بقدوم الشهر وبخاصة الذي هو من مواقيت العبادات كالصوم والحج، ومنه أهلّ القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وكذلك استهلّ الصبي إذا بكى وصاح. فالإهلال رفع الصوت عند رؤيته ولذلك يقال أَهَلَّ الهلالُ واسْتَهَلَّ ولا يقال هَلَّ لأن الصوت يُرفع لرؤية الهلال وليس الصوت من الهلال نفسه.

٢. لما ذكر الله الأهلة كمواقيت للأحكام بعامة وللحج بخاصة ﴿ ۞ **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ** ﴾ ذكر الله سبحانه أمرا من أمور الحج كان منتشرا في الجاهلية ويظنونه من علامات البِرّ، وذاك الأمر هو أنهم كانوا إذا أحرموا بالحج لا يدخلون بيت مدر أو وبر أو بستانا أو ما شابه ذلك، لا يدخلونه من بابه بل يتسورونه من قبل ظهره ويظنون أن ذلك من البر، فأعلمهم الله سبحانه أن ليس من البر ما زعموه من تغيير ما أباحه الله من دخول البيوت من أبوابها إلى ظهورها دون دليل وبرهان، بل البِرّ هو في تقوى الله وخشيته والتزام شرعه، فدعوا ما أنتم عليه من دخول البيوت من ظهورها وادخلوها من أبوابها وافعلوا ما يأمركم الله به واتقوا ما حرم الله فبذلك تفلحون.

ولأن موضوع الآية هو ما ذكرناه كما روى البخاري عن البراء "كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿ **وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا** ﴾"[3] ولذلك فإن الأولى استعمال اللفظ في معناه الصريح الموضوع له أي أبواب

---

[1] البخاري: ٢٩٥٨، مسلم: ٣١٧٩، أبو داوود: ١٦٦٣

[2] أحمد: ٤/٢٣

[3] البخاري: ٤١٥٢

البيوت وظهورها حقيقةً.

غير أن اعتبار الكناية في المعنى لا يُمنع هنا، فيستفاد من دلالة الآية الكريمة في إتيان البيوت من أبوابها، وليس من ظهورها، يستفاد مباشرة الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشَر عليها ولا تُعكس فتُصرف المباشرة عن وجهها إلى غير وجهها من باب اللف والدوران.

والعرب تجيز استعمال الصريح والكناية فيما كان يحتمله مدلول اللفظ، فهم يقولون (نؤوم الضحى) ويصرفونه إلى الصريح من أن ذلك الشخص مدلل ينام إلى الضحى لأنه مخدوم فلا يطلب منه عمل يزاوله، وكذلك يصرفونه إلى الكناية عن الكسل وقلة الحيلة في تنفيذ الأعمال.

ولذلك يفهم من الآية ﴿ **وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ** ﴾ معناها الصريح بأن يأتوا البيوت من أبوابها وليس من ظهورها كما هو موضوع نزولها، ولا يُمنع أن يضاف للمعنى السابق معنى الكناية عن مباشرة الأمور على وجهها وليس صرفها عن غير وجهها من باب اللف والدوران.

﴿ **وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا** ﴾ قرئت هنا ﴿ **ٱلْبِرُّ** ﴾ بالرفع اسم (ليس) وجميع القراءات المتواترة كذلك. والخبر هنا متعين بالمصدر المؤول (أن تأتوا)، لأن الباء (حرف الجر الزائد) لا تدخل على اسم ليس بل على خبر ليس.

أما في الآية السابقة ﴿ **۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ** ﴾ قرئت ﴿ **ٱلْبِرَّ** ﴾ بالنصب وبالرفع في القراءات المتواترة عن رسول الله ﷺ. ففي قراءة الرفع يكون (البرُّ) اسمَ (ليس) مرفوعاً، والمصدر المؤول (تولية) من (أن تولوا) في محل نصب خبر (ليس). وفي قراءة النصب (البرَّ) يكون موقعها خبراً مقدَّماً منصوباً لـِ(ليس)، والمصدر المؤول في محل رفع اسم (ليس).

* * *

﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ**

يُقَـٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

يبين الله في هذه الآيات ما يلي:

١. بعد أن ذكر الله سبحانه أمور الحج في الآية السابقة ذكر في هذه الآيات بعض أمور القتال، ثم أعاد الله سبحانه ذكر الحج بقوله ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ ﴾ إلى آخر آيات الحج بعدها.

وقد قرن الله سبحانه في كثير من الآيات ذكر الحج وذكر الجهاد، فبعد ذكره سبحانه ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَـٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة/آية١٥٤-١٥٧ ذكر سبحانه الحج والعمرة ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ ﴾ البقرة/آية١٥٨.

وبعد أن ذكر الله سبحانه آيات الحج في سورة الحج ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ

وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٌۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الحج/آية٢٦–٣٧. بعد ذلك ذكر الله سبحانه آيات في القتال ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج/آية٣٨–٤١.

وكأن المشقة الحاصلة في أداء مناسك الحج وبخاصة كلما ابتعد الحاج في مسكنه ببلده عن أماكن الحج، كأن هذه المشقة مع المشقة الواقعة في الجهاد تبين الحكمة من ذكر الحج والجهاد متتابعين في معظم الآيات التي ذكرت الحج.

وكأن تكفير السيئات بالحج المبرور والشهادة في سبيل الله تبين العلاقة المهمة بين الحج والجهاد.

حتى إن رسول الله ﷺ حين سألته عائشة رضي الله عنها عن عدم فرض الجهاد على النساء بل على الرجال، وفي هذا مَزِيَّة للرجال قال ﷺ: "**إن عليكن جهادا لا قتال فيه: حج إلى بيت الله الحرام**"[1].

ولما حج رسول الله ﷺ السنة العاشرة للهجرة(حجة الوداع) وبعد أن أكمل ﷺ وبيّن للمسلمين مناسك الحج ورجع ﷺ كان من أوائل الأعمال التي قام بها في المدينة أن جهز جيش أسامة لقتال الروم أي كان الجهاد من أوائل أعماله ﷺ لـمّا رجع من الحج إلى المدينة.

وقد حج أبو بكر رضي الله عنه السنة الثانية عشرة للهجرة، ولما أكمل حجه ورجع إلى المدينة كان من أوائل أعماله أن سيّر الجيوش لقتال الفرس والروم ثم كانت معركة

---

[1] البخاري: ١٤٢٣، ١٧٢٨، أحمد: ٦/١٦٥، ابن ماجه: ٢٨٩٢

اليرموك التي توفي أبو بكر رضي الله عنه خلالها.

ثم حج خالد رضي الله عنه خلال معاركه في العراق، وبعد أن أكمل نسكه عاد فأكمل جهاده.

وحج عمر السنة الرابعة عشرة للهجرة وخلال حجه استنفر المسلمين لقتال الفرس في القادسية.

وهكذا كان يصنع بعض الخلفاء الأتقياء بعد الخلفاء الراشدين، فكان بعضهم يغزو عاما ويحج عاما وكأن الحج والجهاد فيهما تقابل وتواصل.

هذا هو الحج في كتاب الله والجهاد في كتاب الله وفي سنة رسول الله وفي سيرة الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الخلفاء الصالحين، كانت زحوفهم إلى حجهم تتواصل مع زحف جيوشهم إلى قتال عدوهم، ثم ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ مريم/آية٥٩ ففصلوا أحكام الإسلام عن بعضها فسمحوا، بقدرٍ ما، بالدعوة إلى العبادات ولكنهم اشترطوا الصمت المطبق عن الدعوة للخلافة والجهاد، ففصلوا الصلاة عن الخلافة، والذهاب للحج عن زحف الجيوش للقتال، بل بلغت بهم الجرأة على دين الله فقالوا بتعطيل الجهاد، وبالجهاد السلمي، وأخيرا لم يستحيوا فألغوه في مؤتمراتهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

إنّ الإسلام كلٌ لا يتجزأ، أحكامه آخذ بعضها برقاب بعض، لا تُفصل العبادات عن المعاملات، ولا الأخلاق والمطعومات والملبوسات عن الخلافة وبيعة الخليفة وتحريك جيوش المسلمين للقتال، ولا ينفصل حسن المعاملة مع الجار وبِرّ الوالدين عن السياسة الحربية والعلاقات الدولية.

هكذا في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وهكذا صنع وعمل الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون بإحسان، حشرنا الله معهم في جنات النعيم في الفردوس الأعلى ورضوان من الله أكبر ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ النساء/آية٦٩.

٢. يأمر الله سبحانه أن نقاتل في سبيل الله الذين يقاتلوننا، وهم الذين عندهم القدرة على قتالنا من الكفار المحاربين دون الذين لا قدرة لهم على قتالنا كالنساء والأطفال والشيوخ وأحبارهم ورهبانهم، فإن قاتل هؤلاء قاتلناهم. أما في الحكم العام فنحن مأمورون بقتال الأعداء القادرين على القتال كما ذكرنا.

وينهانا الله سبحانه أن نعتدي في قتالنا فلا نقتل طفلا أو شيخا أو امرأة، أو نتجاوز أوامر الله في القتال كالغدر والغلول والمثلة أو قطع الشجر إلا ما اقتضته السياسة الحربية بنص شرعي.

فقد كان يقول رسول الله ﷺ للجيش الذي يرسله للقتال: "**اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع**"[1].

٣. ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ** ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله المقاتلين من الكفار وليس فقط الذين يبدءونكم بالقتال، بل الذين عندهم المقدرة على قتالكم لأن الجهاد هو مبادأة الكفار بالقتال وليس حربا دفاعية، بمعنى أن لا نقاتلهم إلا إذا قاتلونا.

فإن آيات الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ تبين أن الجهاد هو مبادأة الكفار بالقتال لنشر الإسلام وفتح البلاد وإعلاء كلمة الله.

- ﴿ **قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ** ﴾ التوبة/آية١٢٣.
- ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ** ﴾ البقرة/آية١٩٣.
- ﴿ **قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩** ﴾ التوبة/آية٢٩.

وغيرها كثير... وكلّها تدلّ على مبادأة الكفار بالقتال لنشر الإسلام.

وكذلك سنة رسول الله ﷺ :

- "**اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر** ..."[2].
- والحديث "**ادعهم إلى ثلاث خصال فأيهن أجابوك فاقبل منهم**..."[3].

والفتح الذي تمّ في عهد رسول الله وعهد الخلفاء الراشدين شاهد على ذلك، وكله مبادأة للكفار بالقتال لإعلاء كلمة الله.

ويكون معنى الآية ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ** ﴾:

---

[1] أحمد: ٢٤٠/٤، ٣٥٢/٥

[2] أحمد: ٢٤٠/٤، ٣٥٢/٥

[3] مسلم: ٣٢٦١

قاتلوا في سبيل الله مُقاتِلةَ الكفار أي المقاتلين منهم ولا تعتدوا فلا تقتلوا الذين لا يقاتلونكم من النساء والولدان والشيوخ والأحبار والرهبان الذين في صوامعهم فإن قاتلوا فعندها يُقتَلون، فقد مرّ رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة فقال ﷺ: **"ما كانت هذه لتقاتل"**[1] وأنكر قتلها، ومفهوم هذا الحديث أنها لو قاتلتْ تقتل.

ومعنى ﴿ **وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ** ﴾ أي لا تتجاوزوا أحكام الشرع في قتال العدو، فلا تفعلوا ما حرّم فعله في القتال، وليس معناه أن لا تبدءوا عدوكم بالقتال بحال من الأحوال.

ولذلك فإن قول الذين قالوا إن الآية تعني أنه في أول الإسلام كان القتال فقط إذا اعتُدِيَ على المسلمين، ثم نسخت فيما بعد بالآيات الدالة على مبادأة القتال هذا القول مرجوح لأن النسخ لا يُعمد إليه إلا إذا وُجد التعارض من كلّ وجه، وهنا لا تعارض فالآية لا تعني أن لا نبدأ الكفار بالقتال بل أن لا نعتدي بتجاوز الحدّ في قتالهم، فلا نزيد عما أجازه الشرع في قتالهم كما بينا، وليس معنى ﴿ **وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ** ﴾ أي لا تبدءوا القتال بل أن لا تتجاوزوا حدود الشرع في قتالهم كالتمثيل وقتل الأطفال... إلخ، ولذلك فلا تعارض بين آيات القتال وبالتالي لا نسخ.

٤. القتال في سبيل الله هو القتال لإعلاء كلمة الله وليس لمصلحة أو سمعة أو رياء، يقول صلوات الله وسلامه عليه وقد سئل عن الرجل يقاتل سمعة ورياء... فقال: **"سئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"**[2].

فالذي يقاتل رياء أو وطنية مجردة أو مصلحة دنيوية فليس في سبيل الله، ولذلك فالنية تعتبر في الجهاد وهو كالعبادات، النية شرط صحة فيه: ﴿ **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢** ﴾ آل عمران/آية١٤٢.

٥. يبين الله سبحانه في كثير من آياته وأحاديث رسوله ﷺ أمور القتال والسياسة الحربية، وفي الآية التالية ﴿ **وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ** ﴾ يبين الله سبحانه أمرين من أمور القتال:

أ ـ إنه يصح قتال الكفار المحاربين في كل مكان إلا مكانا واحدا استثنته الآية الكريمة وهو ﴿ **عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ** ﴾ بشرط أن لا يقاتلونا فيه فإن قاتلونا فيه قاتلناهم،

---

[1] أبو داوود: ٢٢٩٥، أحمد: ١٧٨/٤، ٤٨٨/٣

[2] البخاري: ١٢٠، ٢٥٩٩، مسلم: ٣٥٢٥

كما هو مبين في ما بعد.

﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ أي في كل مكان وجدتموهم فيه لأن (حيث) ظرف للمكان.

ب – إنه يجب إخراج الكفار المحاربين من كل مكان اخرجوا المسلمين منه ولا يصح إقرارهم على البقاء فيه وكل اتفاق معهم لإقرارهم يعتبر باطلا ﴿ **وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ** ﴾.

﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ ﴾ أي حيث وجدتموهم. والثقف: الوجود على وجه الأخذ والغلبة.

﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ أصل ﴿ ٱلۡفِتۡنَةُ ﴾ في لغة العرب عَرْضُ الذهبِ على النار لتنقيته من الغش، ثم استُعمِل في معنى الابتلاء للمؤمنين بتعذيبهم، ومحاولة صرفهم عن دينهم، وصدهم عن سبيل الله، ونشر الشرك بينهم، وهي هنا كذلك فإنها بيان من الله للمؤمنين أن لا يتقاعسوا عن قتال الكفار، فهم قد حاولوا فتنتهم عن دينهم بشتى أنواع العذاب، والفتنة أشدّ من القتل، فكأنهم قتلوا المؤمنين مرارا بمحاولة فتنتهم تلك، فلينشط المؤمنون في قتالهم دون هوادة.

٦. ويبين الله للمؤمنين أن لا يقاتلوا الكفار عند المسجد الحرام إلا إن قاتلوهم فيه ﴿ **وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾** ﴾. قرأ حمزة والكسائي: (ولا تقتلوهم... حتى يقتلوكم... فإن قتلوكم...) أي دون ألف. وقرأ باقي القراء السبعة بالألف.

أما قراءة (ولا تقتلوهم) فهي نهي عن القتل وعن القتال، لأن القتل لا يتم دون قتال. والقراءة الأخرى (ولا تقاتلوهم) فهي نهي عن المقاتلة سواء أحدث القتل أم لم يحدث.

فالقراءة الأولى لها معنيان (القتال، والقتل). والقراءة الثانية لها معنىً محكم واحد (القتال)، والقراءتان متواترتان، والمحكم قاضٍ على غير المحكم، فيكون النهي عن القتال سواء أحدث قتل أم لم يحدث. أي أن مجرد القتال عند المسجد الحرام (حرام)، إلا ان يبدأ الكفار بقتالنا فنقاتلهم.

أما ما حدث من حوادث قليلة من القتال عند الفتح، وقتل بعض من أهدر الرسول ﷺ دمهم لأنهم كانوا يؤذون الإسلام والمسلمين، ولم يخرجهم الرسول ﷺ ويقتلهم خارج مكة، فذلك حكم خاص بساعة من نهار أُحِلَّتْ للرسول ﷺ بنص

الحديث الذي أخرجه البخاري، قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

أي أن النهي لا يشمل قتالنا للكفار إن هم بدءوا قتال المؤمنين في الحرم، فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله غفور رحيم ﴿ **فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾** ﴾.

٧. ثم يأمر الله سبحانه المسلمين أن يقاتلوا الكفار ليُقضى على ما يسببونه من فتنة للمسلمين: الشرك والصدّ عن سبيل الله وتعذيب المؤمنين ومحاولة صرفهم عن دينهم، وكذلك حتى يكون الدين لله خالصاً. فإن انتهى الكفار عن شركهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله فليوقف المسلمون القتل عنهم، لأن القتل لا يكون إلا للظالمين، وما داموا قد تركوا الكفر ودخلوا في الإسلام فلم يعودوا ظالمين.

﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ أي حتى ينتهي الشرك والصدّ عن سبيل الله وتعذيب المؤمنين لصرفهم عن دينهم.

﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ أي يصبح الدين خالصا لله ليس فيه شرك، وهذا تُشعر به (اللامُ) الداخلةُ على (الله) سبحانه وهي تفيد الملك الخالص. ولم يذكر هنا ﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ الأنفال/آية٣٩ كما في الأنفال، فتلك للكفار عموما ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾** ﴾ الأنفال/آية٣٨-٣٩... لأن آية البقرة هذه في مشركي العرب أي في جزء من الكفار، وآية الأنفال في الكفار عامة فناسب لفظ (كلُّه) في آية الأنفال ﴿ **الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ على غير وضعه في الآية هنا ﴿ **الدِّينُ لِلَّهِ** ﴾.

﴿ **فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾** ﴾ عقوبة الظالمين هي ليست في الحقيقة عدوانا ولكنها استعملت هنا استعمالا مجازيا على نحو قوله تعالى ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ الشورى/آية٤٠ وقوله سبحانه ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ البقرة/آية١٩٤ أي تسمية عقوبة السيئة بالسيئة وعقوبة المعتدي بالاعتداء.

* * *

﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. بعد أن أزال الله الحرج عن المؤمنين في أن يقاتلوا الكفار المحاربين عند المسجد الحرام إن قاتلوهم فيه، فكذلك أزال سبحانه الحرج في هذه الآية عن قتال المسلمين الكفارَ في الشهر الحرام إذا قاتلوهم فيه. ففي صلح الحديبية اتفق على أن يعود المسلمون للعمرة في العام المقبل في شهر ذي القعدة ـ وهو الشهر الذي كان فيه صلح الحديبية ـ لأداء العمرة التي سميت (عمرة القضاء) لأنها بدل العمرة التي جرى الصلح بموجبها، وقد توقع المسلمون احتمال أن ينقض الكفار ما عاهدوا عليه فيقاتلوا المسلمين عند الحرم لمنعهم، وفي الشهر الحرام ـ ذي القعدة ـ وكانوا يتحرجون من القتال في الحرم وفي الشهر الحرام، فأعلمهم الله في هذه الآية أن ﴿ **ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ** ﴾ أي إن قاتلوكم فاقتلوهم، والـ﴿ **قِصَاصٞ** ﴾ يفيد المماثلة في العقوبة.

وقد كان رسول الله ﷺ لا يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى، فإن لم يُغزَ أقام الشهر حتى ينسلخ كما رواه أحمد عن جابر رضي الله عنه، فكان الرسول ﷺ لا يبادئهم القتال في الشهر الحرام إلا أن يبادئوه هم أو تكون المعركة مستمرة ويدخل الشهر الحرام، ولذلك فلما نقل إلى رسول الله ﷺ وهو في الحديبية أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ـ وكان أرسله إلى قريش لبحث أمر الصدّ عن العمرة ـ بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فكان ذلك في الشهر الحرام (ذي القعدة)، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك.

وهكذا بعد فتح مكة وحدوث معركة هوازن يوم حنين ثم تحصُّن فلول الكفار المنهزمين في الطائف، فلحقهم رسول الله ﷺ وحاصرهم في الطائف وضربها بالمنجنيق، ودخل ذو القعدة والحصار مستمر لم يرفعه الرسول ﷺ بحجة الشهر الحرام، لأن ذلك كان استمراراً للمعركة وإنما رَفَعَ ﷺ الحصارَ لصعوبة فتحها ولحدوث قتل في المسلمين

فانصرف عنها رسول الله راجعا إلى مكة بعد أن حاصرها أربعين يوما كما ثبت في الصحيحين عن أنس ﵁.

وقوله سبحانه ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ هو تأكيد لما سبق ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ ﴾ ولكن هنا بزيادة معنى، ففي بداية الآية جواز قتالهم في الشهر الحرام إن قاتلوكم فيه فالشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص يُفيد المماثلة في العقوبة ولكنها هنا خاصة في المسجد الحرام.

وأما في تكملة الآية ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ فإن المعنى عام في كل عقوبة على اعتداء أن تكون في حدود الشرع وأن لا تتجاوز المماثلة في العقوبة.

وكما ذكرنا فإن ﴿ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ ﴾ قد استعملت هنا استعمالا مجازيا أي (فعاقبوه على اعتدائه) لأن المعاقبة على الاعتداء لا تعتبر اعتداء على الحقيقة.

ثم يختم الله سبحانه الآية بإدخال الطمأنينة إلى قلوب المؤمنين فهم المتقون والله معهم بالنصر والعون ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ ﴾.

٢. يأمر الله سبحانه المسلمين أن لا يُعرِّضوا أنفسهم للهلاك بترك الجهاد والإنفاق فيه، فإن الإنفاق في سبيل الله يعني الإنفاق في الجهاد كما يدلّ عليه استقراء الآيات الوارد فيها الإنفاق مقرونا مع ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وكما وضحه أبو أيوب الأنصاري في أثناء غزو القسطنطينية.

أخرج أبو داود وغيره عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينية فخرج صفّ عظيم من الروم فحمل رجل من المسلمين حتى دخل فيهم فقال الناس: ألقى بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري ﵁ فقال: أيها الناس إنكم تؤولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت فينا معاشر الأنصار، إنّا لما أعزّ الله تعالى دينه وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سِرّا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت وإن الله تعالى قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ ما يردّ علينا ما قلنا الآية ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ ﴾ فكانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الغزو. فالتهلكة في التخلف عن الإنفاق في الجهاد ويكون معنى ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي أنفقوا في الجهاد.

و﴿ ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ مصدر كالهُلْك والهَلاك وليس في كلام العرب مصدر على

(تفعلة) بضم العين إلا هذا في المشهور، وحكي عن سيبويه (تضُرّة وتسُرّة) أيضا من الضرر والسرور.

ثم يختم الله سبحانه الآية بأن يحسن القادر في الإنفاق في الجهاد فينفق في أفضل وسائل الجهاد، وينفق من أفضل ماله، أي يحسن في النفقة بشكل عام والله سبحانه يحب المحسنين ويجزيهم خيرا ومن يحبه الله فالخير آتيه ﴿ **وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥** ﴾.

* * *

﴿ **وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦** ﴾.

يبين الله في هذه الآية ما يلي:

١. إن من شرع في الحج أو العمرة فعليه إتمامهما أي إكمال نسكهما بشروطهما وأركانهما كما بينه رسول الله ﷺ: "**خذوا عني مناسككم**"[١].

والأمر هنا يفيد الطلب لكنه طلب جازم بقرينة ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ** ﴾ فحيث قد رتب على عدم التنفيذ (هدي) فهذا يعني أن الطلب ﴿ **أَتِمُّواْ** ﴾ طلب جازم وبذلك فمن شرع في الحج أو العمرة عليه إتمامهما على وجههما على الوجوب.

إلا أن الله سبحانه استثنى حالة (الإحصار) ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ** ﴾ والإحصار في اللغة بمعنى المنع مطلقا من عدو أو مرض، غير أن ذكر الله سبحانه ﴿ **فَإِذَآ أَمِنتُمْ** ﴾ يدلّ أن الإحصار هنا المنع من العدو وذلك لأن الأمن لغة في مقابل

[١] مسلم: ٢٢٨٦، النسائي: ٣٠١٢، أبو داوود: ١٦٨٠، أحمد: ٣/٢١٨، ٣٦٦

الخوف فإذا علمنا أن الآية نزلت عام الحديبية تأكد أن الإحصار هو المنع من قبل العدو.

ولا يقال إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيكون الإحصار بالعدو وبخلافه من مرض أو غيره، لا يقال ذلك من وجهين:

أ. إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هي صحيحة ولكن في الموضوع نفسه كما هو مقرر في الأصول ولذلك يبقى العموم في إحصار العدو للرسول ﷺ في الحديبية وفي كلّ إحصار من أي عدو في أي زمن.

ب. أن لا عموم هنا في الآية بالنسبة للإحصار فإن ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ** ﴾ فعل مثبت، والفعل المثبت لا عموم له ولكنه مطلق، ويكون في ما ورد فيه وهو حبس العدو على إطلاقه أي (أيُّ حبسٍ من قبل العدو)، ولذلك فإن الإحصار هو المنع من إتمام الحج والعمرة من قبل العدو.

ولقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ في الحبس عن إتمام الحج بسبب المرض ولكنها تختلف عن واقعة الإحصار، فقد أخرج الترمذي وحسنه من حديث الحجاج بن عمرو "**من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل**"[1]، وقوله ﷺ لضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب وقد قالت: **يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية**: "**حجي واشترطي أن محلّي حيث حبستني**"[2] أي أن المحرم إذا اشترط في إحرامه ثم عرض له المرض فإن له أن يتحلل، وليس عليه ما على الممنوع عن إكمال الحج بسبب العدو.

والحديثان يدلان على أن المنع من إكمال الحج بسبب المرض لا يسمى إحصاراً، ولا تنطبق عليه أحكامه، بل إنْ حَبَسَ المرضُ الحاجَّ فيتحلل حيث حبسه المرض ويحج من العام القابل، وليس فيه الهدي كما في الإحصار.

ولذلك فإن الإحصار يكون بسبب المنع من العدو لا غير.

٢. فإن حصل الإحصار فلا يجوز التحلل حتى يذبح هديا يتيسر له ﴿ **فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ** ﴾ أي ما تيسر من الهدي لأن استيسر وتيسر بمعنى واحد. و﴿ **ٱلْهَدْيِ** ﴾ مصدر بمعنى المفعول أي المُهدى من النعم: بدنه أو بقرة أو شاة كما يتيسر للمحرم، وما عظم فهو أفضل كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

[1] الترمذي: ٨٦٢، وحسنه

[2] أحمد: ٢٠٢/٦

ووجوب الذبح قبل التحلل آتٍ من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ فحلق الرؤوس كناية عن التحلل، أي أن المحرم إذا أحصر فعليه أن يذبح هديا تيسر له قبل أن يتحلل. وقرينة وجوب الذبح قبل التحلل هي السنة فإن رسول الله ﷺ قال عن المسلمين في الحديبية الذين تلكأوا في الذبح: "**لقد هلكوا...**"[1].

وهي وصف مفهم يفيد الطلب الجازم في ذبح الهدي قبل التحلل.

٣. مكان ذبح الهدي هو الحرم وذلك آتٍ من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ ومحله الحرم لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ الحج/٣٢-٣٣. والبيت العتيق هو الكعبة المشرفة، وهي هنا مجاز مراد به الحرم كله، من باب إطلاق الجزء والمراد الكل، على نحو قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ الإسراء/آية١ فأطلق المسجد الحرام مجازاً على الحرم من باب إطلاق الجزء والمراد الكل لأن الرسول ﷺ أسري به من الحرم وليس من داخل المسجد الحرام. والبيت العتيق هنا مثل ذلك أي أنه مجاز عن الحرم كله من باب إطلاق الجزء والمراد الكل.

ويؤكد ذلك، أي أن الحرم كله هو مكان الذبح قوله ﷺ: «**نحرتُ ها هنا ومنىً كلها منحَر، فانحروا في رحالكم**» أخرجه مسلم، وقوله ﷺ: «**كل فجاج مكة طريق ومنحر**» أخرجه أبز داود والحاكم وصححه.

وهنا يرد هدي رسول الله ﷺ عند الحديبية وذبح الرسول لها هناك، والحديبية كما نعلم في الحل على حدّ الحرم أي خارجه وليست فيه، والجواب على ذلك من وجهين:

أ. إن كفار قريش منعوا رسول الله ﷺ والهدي معه من العمرة ذلك العام فأبقوهم مكانهم في الحديبية فذبحوا حيث هم، لمنع العدو لهم ولمنع الهدي أن يبلغ محله أي الحرم، وذلك بدلالة قوله تعالى ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ الفتح/آية٢٥ أي والهدي محبوسا وممنوعا أن يبلغ محل ذبحه وهو الحرم، أي أن الرسول ﷺ ذبح الهدي حيث أحصر في الحديبية لمنع العدو له

---

[1] الروض الأنف في تفسير سيرة ابن هشام للسهيلي: ٣٧/٤

من الوصول إلى الحرم حيث محل ذبحه.

ومعنى ذلك أن محل ذبح الهدي الحرم إلا إذا منع العدو من ذلك فيذبح حيث مكان الإحصار.

ب. كما ورد في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن أبنية رسول الله ﷺ – خيامه – كانت مضروبة في الحل وكان يصلي في الحرم لأن الحديبية على الحد بين الحل والحرم، وكما يروي الزهري أن رسول الله ﷺ نحر في الحرم، وبخاصة وأن الرسول ﷺ كان يصلي صلواته وهو في الحديبية في الحرم، أي يتجاوز الحل إلى الحرم ويصلي ويرجع وفي هذه الحالة يكون الرسول ﷺ قد نحر في الحرم لأن المكان متصل فالأمر سهل ميسور.

وعلى هذا يكون نحر الهدي قد تمّ في الحرم كما في الآية ﴿ **وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ** ﴾ أي الحرم.

٤. ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ** ﴾.

يقول كعب بن عجرة رضي الله عنه "**أن النبي ﷺ مرّ به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك؟ قال: نعم. قال: فاحلق رأسك وأطعم فرقا من ستة مساكين – والفرق ثلاثة آصع – أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة**"[1] أي اذبح شاة. ومن رواية البخاري "**أن رسول الله ﷺ قال له: ما كنت أرى أن الجهد بدّل بك هذا أما نجد شاة؟ فقال: لا. قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك**"[2].

فكما بينت الآية والحديث فإن من كان به مرض أو أذى من رأسه أي من جراحه وقمل وصداع، فإن هذا يخصص قوله تعالى ﴿ **لَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ** ﴾ أي يجوز أن يحلق وإخراج الفدية التي هي على التخيير صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو شاة، وهي قرينة على الوجوب وذلك للتخيير بين عدة أمور كما في الأصول.

٥. ثم يبين الله سبحانه الحكم الشرعي لمن تمتع بالعمرة إلى الحج بدون إحصار أي وهو آمن، فإن هذا المتمتع – وهو الذي يحرم بالعمرة من الميقات في أشهر الحج ثم بعد

[1] مسلم: ٢٠٨٤

[2] البخاري: ١٦٨٦

أن يؤديها يتحلل وينتظر إلى يوم التروية الثامن من ذي الحجة ثم يحرم للحج من جوف مكة ويأتي بأعمال الحج – عليه أن يذبح ما استيسر من الهدي وهو هدي المتعة، وهذا معنى قوله سبحانه ﴿ **فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ** ﴾ فمن لم يجد هديا يذبحه في الحج فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج كأن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه، أو أيام التشريق كما أخرج البخاري وجماعة عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: لم يرخص ﷺ في أيام التشريق أن يصمن إلا لمتمتع لم يجد هديا[1].

وأخرج مالك عن الزهري "**قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة فنادى في أيام التشريق فقال: إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى إلا من كان عليه صوم من هدي**"[2] ثم عندما يرجع إلى أهله يكمل صوم سبعة أيام أخرى فيصبح المجموع عشرة أيام كاملة. كما أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره ﴿ **وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ** ﴾ أي (إذا رجعتم إلى أمصاركم)[3] وكلّ ذلك كما جاء في قوله سبحانه ﴿ **فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ** ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ **تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ** ﴾ لإزالة الالتباس من أن قوله سبحانه ﴿ **فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ** ﴾ تعني صيام ثلاثة أيام في الحج أو صيام سبعة إذا رجعتم لأن من معاني (الواو) (أو) التخييرية، فإذا قلت (جالس زيدا وعمرا) فإنك لو جالستهما أو جالست أحدهما تكون ممتثلا للأمر، فقول الله سبحانه: ﴿ **تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ** ﴾ بينت المقصود وهو ﴿ **ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ** ﴾ جميعا أي عشرة أيام.

وهذا إذا لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وإلا فالموضوع مختلف.

﴿ **ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ** ﴾.

﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ إشارة عائدة إلى ﴿ **فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ** ﴾ أو عائدة إلى ﴿ **فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ** ﴾ غير أن إدخال (اللام) على ﴿ **مَن** ﴾ ترجح أن تكون ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ عائدة إلى ﴿ **فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ** ﴾ لأنها لو كانت عائدة إلى ما يترتب على المتمتع إن لم يجد هديا لكان الداخل ليس (اللام) بل

---

[1] البخاري: ١٨٥٩

[2] تفسير الطبري: ٢/٢٥٠

[3] تفسير الطبري: ٢/٢٤٨، ولم يخرجه البخاري

(على) أي كانت الآية (ذلك على من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) فإن (لهم) غير (عليهم) فـ(لهم) تناسب أن له أن يتمتع أو لا يتمتع، وأما (عليهم) فتناسب ترتيب شيء يفعلونه نتيجة عدم تحقق أمر ما.

وعليه فدخول (اللام) على الموصول ﴿ **مَن** ﴾ ترجح عودة ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ إلى ﴿ **فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ** ﴾.

ويكون المعنى إن من كان أهله حاضري المسجد الحرام لا يجوز لهم التمتع بالعمرة إلى الحج، أي ليس لهم أن يحرموا بالعمرة في أشهر الحج ثم يكملوها ويتحللوا ثم بعد ذلك يحرموا للحج، بل إن كان أهله حاضري المسجد الحرام إما أن يحرموا في أشهر الحج قارنين فيؤدوا العمرة ولا يتحللوا بل يستمروا محرمين حتى يؤدوا الحج ويكملوه، أو أن يحرموا بالحج وحده أي مفردين، فإن أرادوا أن يعتمروا فليعتمروا ما شاءوا في غير أشهر الحج.

٦. أما من هم حاضرو المسجد الحرام، فإن الحاضر هو المقيم وقد أضيفت إلى المسجد الحرام، غير أن المسجد الحرام يطلق على الحرم كذلك على نحو قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ** ﴾ الإسراء/آية١ وقد أسري برسول الله ﷺ من الحرم وليس من المسجد، وهذا ما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير ﴿ **حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** ﴾ أي أهل الحرم.

والمراد من حضور الأهل حضور الْمُحْرِم وعُبِّر به لأن الغالب على الرجل أن يسكن حيث أهله ساكنون.

ولذلك فإن المعنى يكون: إن من تمتع بالعمرة إلى الحج من غير أهل الحرم، لأن هؤلاء لا متعة لهم بالمعنى الذي بيناه، فإن عليهم أن يذبحوا هديا فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أخرى عندما يرجع إلى بلده.

ثم يختم الله سبحانه الآية بالأمر بالتقوى في امتثال كلّ أمر على وجهه واجتناب كلّ نهي على وجهه، وبالتالي ينال رضوان الله وينجو من عذابه وإلا فإن الله سبحانه شديد العقاب ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦** ﴾.

* * *

﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾.

يُبيِّن الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. ﴿ **ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ** ﴾ وهذا سبب للحج فلا يجوز في غير أشهر الحج وهي: شوال وذو القعدة وتسعة أيام من ذي الحجة مع ليلة النحر. (قال عبد الله بن عمر وجماهير الصحابة والتابعين هي: شوال، ذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وهو صحيح على شرطهما هكذا في المستدرك)، وعشر ذي الحجة لا يدخل فيها نهار العاشر، وهذا هو الراجح كما نبينه بإذن الله.

أما لماذا قلنا الحج لا يجوز في غير أشهر الحج فلأن ﴿ **ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ** ﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات كما ذهب إلى ذلك النحاة، فتمّ تخصيص هذه الأشهر من بين شهور السنة وكانت هي سببا للحج كأوقات الصلاة أسباب للصلاة، وكدخول شهر رمضان سبب للصيام.

وقد قال ابن عباس "**من السُّنَّة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج**"[١] وقول الصحابي: من السنة كذا في حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ، ولا سيما قول ابن عباس وهو ترجمان القرآن.

وأما لماذا قلنا إنَّ نهاية شهور الحج هو التاسع من ذي الحجة مع ليلة النحر، فلأن التاسع من ذي الحجة هو يوم عرفة، والرسول ﷺ يقول: "**الحج عرفة من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع فقد تمّ حجه**"[٢]، في رواية لأبي داوود: "**من أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر**

[١] الدر المنثور: ٢/٥٢٦، تفسير القرطبي: ٢/٤٠٦، تفسير الطبري: ٢/٢٥٧

[٢] الترمذي: ٨١٤

فقد أدرك الحج"[1]، ومن رواية الدارقطني: "**الحج عرفة الحج عرفة**"[2]. وهذا يعني أن من فاته يوم عرفة إلى طلوع فجر يوم النحر دون أن يقف على عرفة فلا حجّ له. وليلة جمع أي ليلة مزدلفة.

وحيث إن أشهر الحج هي أسباب للحج ولأن الحج يفوت بفوات يوم عرفة إلى فجر العاشر دون وقوف على عرفة فهذا يعني أن أشهر الحج تنتهي بطلوع فجر ليلة النحر.

٢. ﴿ **فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ** ﴾ أي من ألزم نفسه بالحج فأحرم بالحج فيهن فيحرم عليه الرفث والفسوق والجدال في الحج.

و(الرفث) هو الجماع أو الكلام به أمام النساء وما هو من لوازمه والفحش في القول.

و(الفسوق) المعاصي أو السباب لقوله عليه السلام: "**سباب المؤمن فسوق**"[3].

و(الجدال) الخصومة والمراء مع الرفقاء وذوي العلاقة في الحج حتى تُغضبهم، وتحدث منازعة وصخب في الحديث. (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجههما ليسا من الجدل).

أما لماذا قلنا إنها حرام؛ فلأنّ قوله سبحانه ﴿ **فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ** ﴾ نهي عن هذه الأمور، ولأن الله سبحانه يقول بعدها ﴿ **وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ** ﴾ هذا المنطوق له مفهوم إشارة إلى أن الأمور السالفة في الحج ﴿ **فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ** ﴾ هي ليست من الخير أي هي مما يغضب الله سبحانه. هذا بالإضافة إلى أن بعض هذه الأمور (كالفسوق) وصف مفهم يفيد الجزم في النهي فهو قرينة على النهي الجازم كذلك. وبذلك يكون النهي جازما عن هذه الأمور وأن فعلها حرام في الحج.

وقد يقال إن هذه الأمور أو معظمها مما يحرم سواء في الحج أو في غيره، فلماذا خصت بالتحريم هنا كالفسوق مثلا؟

والجواب على ذلك أن هذا دليل على عظم الإثم عليها وشدة جريمتها في هذا

---

[1] أبو داوود: ١٦٦٤

[2] الدارقطني: ٢/٢٤١

[3] البخاري: ٤٦، مسلم: ٩٧

النسك (الحج) في أشهر الحج، على نحو قوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾الحج/آية٢٥... و(الإلحاد بظلم) عليه عذاب أليم في الحج وغيره.

وعلى نحو قوله سبحانه: ﴿ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ التوبة/آية٣٦ والظلم حرام في الأشهر الحرم وغيرهن، وإنما هنا لبيان عظم الإثم في ذلك.

٣. ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

روى البخاري عن ابن عباس أن أناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون ثم يقدمون فيسألون الناس، فنزلت الآية ﴿ وَتَزَوَّدُواْ ﴾ فهي بمعناها الحقيقي (وهو اتّخاذ الطعام للسفر).

ولما ذكر الله سبحانه الزاد في السفر نبّه إلى ضرورة مصاحبة هذا الزاد المادي لزاد آخر هو خير الزاد، وهو هنا (زاد) بالمعنى المجازي أي خير مؤونة ودعم لكم وهو التقوى بالمعنى الشرعي أي خشية الله وطاعته.

فهو إرشاد من الله سبحانه أن يتزود الحاج بالزاد المادي حتى يستعين به في سفره ولا يسأل الناس في الحج، ويضيف إلى هذا الزاد المادي ـ الطعام والنفقة ـ زادا خيرا من الأول وهو تقوى الله وطاعته وخشيته وامتثال أمره سبحانه واجتناب نواهيه.

ثم يختم الله سبحانه بخطاب عام لجميع أولي الألباب أن يتقوا الله، ووجه الله سبحانه الخطاب لأولي الألباب لأنهم هم الذين يدركون الخير من الشر ورحمة الله من عقابه وما ينفعهم في عيشهم وما يضرهم وبذلك يبتعدون عن معاصي الله ويتقربون إليه سبحانه بالطاعات ويكونون بذلك من المتقين.

٤. يبين الله سبحانه أن أعمال التجارة وما في حكمها كأن يؤجر دابته أو سيارته كلها مباحة للمحرم في أشهر الحج ولا تبطل حجه ما دام عقد النية وأحرم بالحج لله سبحانه وأداه بشروطه وأركانه.

ولا يُقال هذه عبادة والنية شرط في صحتها! فإذا نوى بالحج أي أحرم بالحج فلا يجوز للمحرم أن يباشر أي عمل غير الحج، كما لا يجوز لمن أحرم بالصلاة أن يباشر أي عمل غير الصلاة.

لا يقال ذلك لأنه لا قياس في العبادات، بل الأصل اتّباع النصّ الوارد في العبادة

والتقيد به حيث ورد، فلا يقاس الحج على الصلاة. وكذلك فوقت الصلاة بعد الإحرام بها لا يتسع لغيرها فهو ضيق في هذه الحالة ووقت الحج بعد الإحرام به يتسع لغير أعمال الحج كما هو واقع مدة شهور الحج والمدة اللازمة لمناسك الحج.

هذا بالإضافة إلى أن النص على إباحة التجارة في موسم الحج قد ورد في الكتاب بالآية المذكورة ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي تبتغوا رزقا من ربكم كالربح في التجارة وغيره.

وقد ورد في السنة كذلك كما أخرج أحمد عن أبي أمامة التيمي: "**قال: قلت لابن عمر إنا نكري فهل لنا من حج؟ قال: ألستم تلبون؟ ألستم تطوفون بالبيت؟ ألستم تطوفون بين الصفا والمروة؟ ألستم... ألستم؟ قلت: بلى. قال: إن رجلا سأل النبي ﷺ عما سألت عنه فلم يدرِ ما يرد عليه حتى نزلت ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الآية فدعاه فتلا عليه حين نزلت وقال: أنتم الحجاج**"[١].

٥. بعد ذلك يبين الله في هذه الآية أن الحجيج إذا أفاضوا من عرفات إلى المزدلفة فليذكروا الله عند المشعر الحرام وليحمدوه سبحانه على هدايته لهم وتوفيقه لهم في أداء فريضة الحج وتعلمهم لأحكامها بعد أن كانوا من قبل ـ أي في الجاهلية ـ على ضلال يحجون على غير هدى ويشركون بالله ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ ﴾ أي إذا دفعتم أنفسكم بكثرة من عرفات، من فاض الماء إذا سال مُنصبا فهو من إفاضة الماء أي صبه بكثرة.

و﴿ عَرَفَٰتٍ ﴾ هنا ليست جمع لعرفة، بل نفس المعنى للمكان المعروف في الحج وهي اسم من لفظ الجمع فلا تجمع ولا واحد له، أي ليست هناك أجزاء في الموقف كلّ واحد منها تسمى (عرفة) ثم جمعت (عرفات) بل (عرفة) و(عرفات) بمعنى واحد علم على المكان المعروف، و(التاء) في (عرفات) ليست تاء التأنيث ولهذا صرف.

﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ أي إن كنتم من قبل مجيء الرسول ﷺ لكم بالهداية، وبيان أحكام الشرع للحج وغيره، من الضالين.

﴿ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هي مزدلفة كلها كما قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ

---

[١] الطيالسي: ص٢٥٩ رقم ١٩٠٩، الدر المنثور: ٥٣٥/٢

ويطلق على مزدلفة كذلك (جَمْع).

٦. وفي الآية الأخيرة يأمر الله سبحانه المسلمين سواء كانوا من قريش أو من غير قريش أن تكون إفاضتهم من عرفة إلى مزدلفة وليس من مزدلفة، أي أن يكون وقوفهم في عرفة وليس في مزدلفة، وفي ذلك إبطال لما اعتادته قريش في الجاهلية أن تقف في مزدلفة ولا تقف في عرفة كسائر الناس، فقد كانت قريش في الجاهلية لا تقف في عرفات حيث الحلّ بل تقف في مزدلفة لأنها من الحرم، ويقولون نحن قطّان بيت الله الحرام فلا نخرج من الحرم، وكانوا يُسمَّون (الحمس) ويقفون وقوفا خاصا في مزدلفة دون الناس، فقال الله في هذه الآية مخاطبا قريشا وكلّ المسلمين (وليكن وقوفكم في عرفة حيث يقف سائر الناس) واستغفروا الله عن أخطائكم السابقة في عدم حجكم على هدى، والله سبحانه غفور لعباده المخلصين رحيم بهم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله سبحانه: ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ** ﴾[1]. وعلى هذا المعنى يكون ﴿ **ثُمَّ** ﴾ عطف على ﴿ **وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾** ﴾ أي أن في الآيات تقديم وتأخير من حيث المعنى فكأن ترتيب المعنى على النحو التالي: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس من عرفات وليس من مزدلفة كما كانت تصنع قريش في الجاهلية، فإذا أفضتم من عرفات ونفذتم أمر الله سبحانه فاذهبوا إلى مزدلفة واذكروا الله عند المشعر الحرام ـ أي مزدلفة ـ واحمدوا الله على هدايته لكم بعد أن كنتم قبل ذلك من الضالين غير المهتدين).

وهنا قد يقول قائل: كيف يكون المذكور بعد ﴿ **ثُمَّ** ﴾ في ترتيب الوقوع قبل المذكور قبلها في الآية السابقة؟

نحن نعلم أن ﴿ **ثُمَّ** ﴾ تفيد الترتيب في الأفعال مع التراخي بمعنى وقوع ما بعدها بعد ما قبلها على التراخي أي بعد مهلة.

ففي الآية السابقة ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ۖ

---

[1] البخاري: ٤٢٤٨، مسلم: ١٢١٩، أبو داوود: ١٩١٠، الترمذي: ٨٨٤

﴾ أي عند مزدلفة فالحجيج يكون قد وصل مزدلفة.

وجاءت الآية الأخيرة ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ** ﴾ والذي يتبادر إلى الذهن من معنى ﴿ **ثُمَّ** ﴾ أن المعنى: وقد وصلتم إلى مزدلفة وبعد ذكركم الله وصلاة الفجر ادفعوا إلى (منى) أي المعنى المتبادر ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ** ﴾ هو: ثم أفيضوا من مزدلفة إلى منى.

فكيف يكون معنى الآية حسب أسباب النزول: ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ** ﴾ هو ولتكن إفاضتكم من عرفة وليس من مزدلفة، مع العلم كما قلنا إن ﴿ **ثُمَّ** ﴾ تفيد وقوع ما بعدها بعد ما قبلها وليس قبله؟

والجواب على ذلك من وجهين:

أ. إن ما رواه البخاري ومسلم حول نزول الآية يرجح أن معنى ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ** ﴾ أي أفيضوا من عرفة وليس من مزدلفة.

ب. إن ﴿ **ثُمَّ** ﴾ تعني الترتيب مع التراخي وأن ما بعدها يكون من حيث الوقوع بعد ما قبلها، ولكن هذا ليس كلّ معناها، بل إنها تستعمل في غير ذلك فإن من استعمالاتها أن يكون ما بعدها من حيث الوقوع قبل ما يسبقها في الكلام ولكنه قليل في لغة العرب. فالعرب يقولون: (أعجبني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب). وهنا عطف بها (ما صنع أمس) على ما صنع اليوم أي عطف اللاحق على السابق بدون نسق التتابع بينهما، غير أن المعنى المشهور لها هو أن يقع اللاحق بعد السابق بمهلة بينهما، ولذلك فاستعمالها على نحو آخر يحتاج إلى قرينة، ويكون المقصود من هذا الاستعمال إبراز أمر مطلوب التركيز عليه لأن اختلاف النسق في الاستعمال من العربي الفصيح يكون لغرض وليس دون غرض.

وبدراسة قول العرب السابق نجد أن القرينة الدّالة على أن ما بعد ثم سابق لما قبلها هو الاستعمال الصريح لكلمة (أمس) بعد (ثم) واستعمال (اليوم) قبل (ثم).

أما الأمر المراد إبرازه في قولهم هذا فهو التقليل من قيمة ما صنعه اليوم، فظاهر الكلام مدح لما صنعه أمس وحقيقته ذمّ لقدراته فبدل التقدم بالعمل للأمام تراجع عن ذي قبل فكان عمل اليوم أدنى من عمل أمس.

وفي الآية الكريمة فإنّ القرينة هي سبب النزول فيما رواه البخاري ومسلم.

أما الغرض المراد إبرازه فهو إبطال ما اعتادته قريش من الوقوف في مزدلفة وعدم ذهابهم للوقوف في عرفة فكأن الله سبحانه بعد أن ذكر في الآية السابقة إفاضتهم من عرفات إلى مزدلفة عاد فذكرهم أنّ هذه الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة واجبة على قريش كغيرهم من الناس.

وفي الآية الكريمة فإن القرينة هي سبب النزول فيما رواه البخاري ومسلم.

أما الغرض المراد إبرازه فهو إبطال ما اعتادته قريش من الوقوف في مزدلفة وعدم ذهابهم للوقوف في عرفة، فكأن الله سبحانه بعد أن ذكر في الآية السابقة إفاضتهم من عرفات إلى مزدلفة عاد فذكرهم أن هذه الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة واجبة على قريش كغيرهم من الناس.

* * *

﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾** ﴾.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه ما يلي:

١. إذا قضى الحجيج مناسكهم فليذكروا الله سبحانه كذكرهم آباءهم أو أشد ذكراً.

﴿ **أَوْ** ﴾ هنا بمعنى بل أي ليذكروا الله سبحانه، ليس فقط كذكرهم آباءهم بل أشدّ ذكرا؛ فقد كان من عادة الحجيج بعد فراغهم من حجهم أن يقفوا بين المسجد بمنى والجبل ويتفاخرون بآبائهم فيعددون فضائلهم وما صنعوه في أيامهم فأمرهم الله أن يتركوا هذا الصنيع وأن يذكروا الله بدلا منه أشدّ من ذكرهم السابق لآبائهم.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات. ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ**

﴿ذِكۡرٗاۗ﴾.

٢. ثم يبين الله سبحانه أن الحجيج فريقان:

أ. فريق مهتم بالدنيا فيسأل الله أن يؤتيه منها رغد العيش وزينة الحياة الدنيا دون أن يتطلع إلى الآخرة وسؤال الله الفوز فيها، وهذا الصنف من الناس لا نصيب له في الآخرة لاهتمامه بحظه من الدنيا فحسب.

ب. وفريق ثانٍ يسأل الله الفضل في الدنيا والأجر في الآخرة، حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة فينال رضوان الله وينجو من عذاب النار.

والله سبحانه سيجزي كلا بما كسب وهو سبحانه سريع الحساب لا يعجزه حسابهم مهما كان كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢**﴾.

❁ ❁ ❁

فُرِغ منه ليلة الخميس العشرين من محرم سنة ١٤١٧هـ.

الموافق السادس من حزيران سنة ١٩٩٦م.

ويليه الحزب الرابع ـ الجزء الثاني من سورة البقرة

من كتاب التيسير في أصول التفسير

من الآية ٢٠٣ إلى الآية ٢٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التيسير في أصول التفسير

الحزب الرابع/ الجزء الثاني

مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

البدء به يوم الخميس

السابع والعشرون من محرم سنة ١٤١٧هـ

الموافق الثالث عشر من حزيران ١٩٩٦م

من الآية ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ (٢٠٣)

إلى الآية ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ (٢٥٢)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن
تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ
وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ
وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ
فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ
مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي
ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨
فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩
هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن
يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ
ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ
ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ
بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ
ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ

وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. تكبير لله سبحانه في أدبار الصلوات في يوم النحر وأيام التشريق وكذلك عند الذبح وعند رمي الجمار.

أما أيام التشريق فهي مدلول ﴿ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ ﴾ كما في الآية الكريمة، وذلك لأن هذه الأيام هي التي ذكر الله سبحانه في الآية تعقيبا عليها ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ

﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾ وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه سماها (أيام منى الثلاثة) بغير يوم النحر، يقول ﷺ: "**الحج عرفة، فمن جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيام منى الثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**"[1]. وليلة (جمع) هي ليلة مزدلفة فمن أدركها قبل طلوع الفجر أي قبل طلوع فجر يوم العيد ـ النحر ـ فقد أدرك أيام منى الثلاثة، وهذا يعني أنها ما بعد يوم العيد لأن من حضر للحج متأخراً ولكنه أدرك الوقوف على عرفة ليلة جمع قبل الفجر لا يكون قد أدرك يوم العيد لأن اليوم يبدأ من الليل عند الغروب وقد فاته ذلك، فهو كان في الليل على عرفة، فيكون الذي أدركه هو أيام التشريق وهي أيام منى الثلاثة باستثناء يوم العيد، وحيث قد عقّب رسول الله ﷺ عليها في الحديث: "**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**" يدلّ أن أيام منى الثلاثة الواردة في الحديث هي الأيام المعدودات الواردة في الآية.

وعليه يكون **﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾** أي كبروا الله في أدبار الصلوات المكتوبة في أيام التشريق. وكذلك فإن الآية **﴿ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ ﴾** الحج/آية٢٨ تدل على التكبير في أيام النحر وهي يوم الأضحى والأول والثاني من أيام التشريق كما روي عن عمر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ، وهذا مذهب الحنفية والمالكية والحنابلة.

وروى نافع عن ابن عمر أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات في الآيتين السابقتين يجمعها أربعة أيام: يوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان، واليوم الرابع معدود لا معلوم، لأن النحر لا يصحّ فيه[2].

أما التكبير عند الرمي فكما ورد في حجة رسول الله ﷺ: "**كان يرمي الجمار وهو يقول: بسم الله والله أكبر**"[3].

وكذلك عند النحر فيسمي الله ويكبر كما ورد في الآية: **﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧ ﴾** الحج/آية٣٧.

---

[1] الترمذي: ٨١٤، النسائي: ٢٩٩٤، ابن ماجه: ٣٠٠٦، أبو داوود: ١٦٦٤

[2] الأيام المعلومات في الآية هي أيام النحر، والأيام المعدودات في الآية هي أيام التشريق.

[3] البخاري: ٢٨١٠، مسلم: ٣٦١٠، أبو داوود: ١٩٦٦، الترمذي: ٩٠١، أحمد: ٩٠/٦

وكما ورد في الحديث عند النحر[1].

٢. ﴿ **فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ** ﴾.

تفيد هذه الآية أمرين:

أ. إن الله سبحانه قد أباح أن يكمل المرء حجه ويغادر إلى أهله بعد رمي الجمار في ثاني أيام التشريق، فهو يرمي جمرة العقبة الأولى بعد طلوع شمس يوم النحر ثم يرمي الجمار الثلاثة بعد زوال أول أيام التشريق ثم بعد زوال ثاني أيام التشريق، ويباح له بعدها أن يتعجل فيغادر إلى أهله بعد إكمال حجه أو يتأخر فيرمي جمار ثالث أيام التشريق ومن بعدها يغادر إلى أهله بعد إكمال حجه بطواف الوداع.

وفي الآية ما يدلّ على أن الحاجّ يخير في التعجيل ولا يقال كيف يقع التخيير بينهما وهما متفاضلان لأن التأخير أفضل؟ لا يقال ذلك لأن التخيير كما يقع بين المتساويين فهو يقع كذلك بين الفاضل والأفضل كما يخير المسافر بين الصوم والإفطار والصوم خير له ما دام قادراً: ﴿ **وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ** ﴾ البقرة/آية١٨٤.

ب. إن هذه الآية في ختام الحج وهي تفيد أن من أكمل حجه وغادر إلى أهله خلال يومين من أيام التشريق أي بعد رمي جمار ثاني أيام التشريق، أو أكمل حجه وغادر إلى أهله بعد رمي جمار ثالث أيام التشريق، فهذا أو ذاك لا إثم عليه إن كان من المتقين أي أن ذنبه مغفور فلا إثم عليه أي نفى عموم الإثم عليه، ولكن هذا الوعد من الله سبحانه ﴿ **لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ** ﴾ فقط أي خاصاً بهم، فمن كان من الحجيج المؤدين لحجهم على وجهه والمتقين لله فيه فإنهم يغادرونه إلى أهلهم لا إثم عليهم أي مغفور ذنبهم كما قال صلوات الله وسلامه عليه: "**من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه**"[2] فقوله سبحانه: ﴿ **فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ نفي عام وتبرئة مطلقة، أي من تعجل أو تأخر وكان من المتقين في حجهم أي أدوه على وجهه بتقوى الله فقد غفر لهم، وقد قال بذلك علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود – رضي الله عنهم –.

وعليه فإن ﴿ **لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ** ﴾ ليست شرطاً في جواز التعجيل أو التأخير، بل هي شرط في عودة الحاج مغفور الذنب ﴿ **فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ سواء عجّل أو تأخر.

---

[1] "**كان النبي يسمي الله ويكبر عند النحر**" أحمد: ١٤٤/٣، ابن حبان: ٣٢٣/١٣

[2] البخاري: ١٤٢٤، مسلم: ٢٤٠٤

٣. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

أي على الحجيج بعد مغادرتهم إلى أهلهم أن يستمروا في تقواهم الله سبحانه وأن يتذكروا على الدوام أنهم لا بدّ ميتون ومبعوثون ومحاسبون أمام الله سبحانه، ليكون ذلك مانعاً لهم أن يأتوا أية معصيةٍ خشية غضب الله وعقابه وطمعاً في جنته ورضوانه ليحافظوا على مغفرة الله لهم وعفوه في حجهم وبعد حجهم.

* * *

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ ﴾.

هذه الآيات معطوفة على الآيات السابقة ﴿ **فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١** ﴾ فإن الله سبحانه بعد أن ذكر آيات الحجّ وبين أن الناس بعد قضاء مناسكهم صنفان: صنف يسأل الله الدنيا ولا نصيب له في الآخرة، وصنف يسأل الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وهذا في الحجّ.

كذلك يبين الله سبحانه أن التطلع للدنيا والتطلع للآخرة موجود في أصناف الناس في الحج وغير الحجّ.

وقد فصل الله سبحانه بين المعطوفَيْن (أصناف الناس في الحج وفي غير الحج) بأنْ ذَكَرَ سبحانه التعجيل في يومين أو التأخير إلى ثلاثة. والفصل بين المعطوفين بأمر، مقصود منه عند فصحاء اللغة إبراز هذا الأمر. والتأكيد عليه فلا يستهين الناس به. وهي في القرآن الكريم هنا كذلك، فالله سبحانه بعد أن ذكر في الآيات السابقة ﴿**فإذا قضيتم مناسككم...**﴾ بعد الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام أكد على وجوب المبيت ليلتين من ليالي التشريق على الأقل حتى لا يستهين الناس بالمبيت فيكتفوا بالإفاضة من عرفة إلى

مزدلفة ثم النحر ولا يبيتوا. فذكْر المبيت بين المعطوفين آكد من ذكره دون ذلك.

بعد ذلك بين الله سبحانه وصفين آخرين للناس في هذا السياق:

١. فريق يعجبك قوله في الحياة فهو حسن الحديث منمق الألفاظ قوي الأسلوب يظهر لك حلاوة اللسان ويؤكد لك مشهداً الله على ذلك أن ما في سريرته مثل علانيته، في الوقت نفسه الذي يكون فيه شديد الخصومة والكيد للإسلام والمسلمين.

فإذا تركك وذهب سار مسرعاً ليكثر من الفساد والإفساد وليأتي الشر من أوسع أبوابه من إهلاك للزروع وللضروع وسفك لدماء الإنسان والحيوان ولكلّ ذي روح.

فإذا رأيت فعاله وكشفتها فذكّرته الله وخشية الله أخذته الأنفة والحمية وتمادى في غيه بدل أن يقلع عن ظلمه وسوء فعاله، فكان مصيره جهنم وبئس المصير.

﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي في أمور الدنيا وأسباب المعاش، فالمراد من (الحياة) ما به الحياة والعيش.

﴿ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ شديد المخاصمة في الباطل كما قال ابن عباس رضي الله عنه، و﴿ أَلَدُّ ﴾ صفة كأحمر لأنه يجمع على (لُدّ) ومؤنثه (لدّاء) وليس أفعل التفضيل لأن أفعل التفضيل تضاف إلى ما هو بعضه كقولك (زيد أفضل القوم)، ولأن الخصام بمعنى الخصومة ولا يكون الشخص بعض الحدث أي (وهو ألدّ الخصومة) وهناك من جعل (الخصام) جمع (خصم) وعندها يصبح (وهو ألدّ الخصام بمعنى وهو ألدّ الخصومة). غير أن تفسير ابن عباس رضي الله عنه يرجح المعنى الذي ذكرناه ابتداء أي شديد المخاصمة في الباطل، وتكون (ألدّ) صفة وليست أفعل التفضيل، وفي ذلك دلالة إشارة أن شدة المخاصمة مذمومة كما في الحديث: "**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**"[1]. وهي من صفات المنافقين لأنهم يحبون الدنيا فيكثرون الخصام عليها.

﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ ﴾ أي الزرع وكلّ ذات روح.

الحرث: الزرع، النسل: كل ذي روح يقال: نسل ينسل نسولاً لخروجه من ظهر أبيه وبطن أمه.

﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ العزة خلاف الذل ولكنها هنا تعني الأنفة والحمية مجازاً، أي اندفع مأخوذاً بالأنفة المصحوبة بالإثم، وهذا كناية عن المكابرة والعناد

---

[1] البخاري: ٢٢٧٧، مسلم: ٤٨٢١، الترمذي: ٢٩٠٢

والتمادي في الباطل.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ دلالة على عظم الإثم الذي يقع فيه من ذكرته بتقوى الله ونصحته فلم يتقِ ولم ينتصح بل انزعج من تذكيره بالتقوى وتقديم النصح له.

وهذه الآيات ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ نزلت في الأخنس بن شريق حليف بني زهرة: "أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ ذلك منه وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله تعالى يعلم إني لصادق. ثم خرج من عند رسول الله ﷺ فمرّ بزرع للمسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر"[1].

واللفظ عام فيشمل الأخنس وكلّ من كانت تلك صفاته ويدخلون في الوعيد.

﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ أي الفراش، وهو للتهكم فإن جهنم نار مؤججة وليست فراشاً يوطأ لراحةٍ أو نومٍ.

٢. وفريق يبيع نفسه ويبذلها في سبيل الله لا يريد من وراء ذلك إلا رضوان الله سبحانه فيكون في الآخرة في جنات النعيم، ليس همه الدنيا كالفريق الأول بل غاية الغايات رضوان الله سبحانه.

ثم يختم الله الآية ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ أي المؤمنين فهو سبحانه رؤوف بهم محبّ لهم يرشدهم إلى ما فيه مرضاته سبحانه لينالوا الدرجات العلى في الفردوس الأعلى.

﴿ يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ أي يبيعها ويبذلها في الجهاد والدعوة للإسلام على نحو قوله سبحانه ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾ التوبة/آية١١١ ... وقد نزلت هذه الآية في الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي كما قال ابن عباس وأنس بن مالك وغيرهم - رضي الله عنهم - وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة إلى المدينة منعه الناس أن يهاجر بماله إلا أن يتجرد منه، ففعل رضوان

[1] الدر المنثور: ٢/٥٧٢، تفسير الطبري: ٢/٣١٢

الله عليه، وتخلص منهم، وأعطاهم ماله أو أرشدهم إليه في مكة كما في رواية، وهاجر، فأنزل الله هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، وأن رسول الله ﷺ أخبرهم بها.

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابنُ أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجراً إلى النبي ﷺ فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته ثم قال يا معشر قريش لقد علمتم أنني من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي كل سهم معي في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي، قالوا نعم. فلما قدم على النبي ﷺ قال: ربح البيع أبا يحيى ونزلت الآية ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾** ﴾. وأخرج الحاكم في المستدرك نحوه من طريق سعيد بن المسيب عن صهيب موصولاً.

وهذه الآية وإن نزلت في صهيب رضي الله عنه إلا أن ألفاظها عامة فهي بشرى لكل من جاهد في سبيل الله أو دعا إلى الإسلام فقال كلمة الحق ولاقى في سبيل هذا أو ذاك أذى في سبيل الله، وبذل نفسه طلباً لرضوان الله سبحانه، فله البشرى التي جعلها الله لصهيب رضي الله عنه ﴿ **وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾** ﴾.

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

تبين هذه الآيات الكريمة ما يلي:

١. لقد كان بعض الذين أسلموا حديثا من يهود يظنون أنهم لو أبقوا على الإيمان بشيء من التوراة لا يضر ذلك إيمانهم شيئاً، فأنزل الله مبينا لهم أن الدخول في الإيمان

يقتضي الإيمان بكلّ ما أنزل أي بالإسلام كله، وترْك عقائد الكفر، وأنَّ إبقاء أي شيء منها، ولو كان يسيراً يكون اتباعاً لطرق الشيطان الذي هو عدو واضح العداوة للمؤمنين، وفي هذا تأكيد على وجوب الإيمان بكل ما أنزل على رسول الله ﷺ وترك ما سواه من أديان الكفر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب للذين تركوا الكفر واعتنقوا الإسلام.

﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ أي ادخلوا في الإسلام كله.

فـ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ هنا الإسلام كما فسره ابن عباس رضي الله عنه والمقصود من الإسلام كله أي الإيمان به كله دون استثناء والعمل بشرعه كله دون غيره.

﴿ كَآفَّةٗ ﴾ حال من (السلم) أي السلم كله بمعنى الإسلام كله.. وأصل (كافّة) من اسم الفاعل (كافّ) بمعنى مانع من كفَّ أي منع. فقولك (هذا الشيء كافّ) أي مانع لأجزائه من التفرّف، فكأنك قلت مجازاً (هذا الشيء جميعه أو كله) بعلاقة السببية. ثم ألحقت (التاء) باسم الفاعل لنقله من الفاعلية من (كفَّ) إلى اسم (كافّة) بمعنى (الكلّ والجميع).

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – إنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي ﷺ آمنوا بشرائعه وأبقوا على شيء من شرائع موسى – عليه السلام – فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل وألبانها بعد ما أسلموا، فأنكر عليهم المسلمون فقالوا: إنا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنبي ﷺ، طالبين العمل ببعض شرائعهم السابقة، فأنزل الله الآية.

أي أن من دخل في الإسلام، عليه أن يدخل فيه كله، فلا يبقي شرعاً غيره، فالإسلام ناسخ لغيره من الشرائع ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ المائدة/آية٤٨ أي: ناسخاً، والإبقاء على شيء من الشرائع السابقة، التي لم يقرها الإسلام، يكون اتباعاً لخطوات الشيطان ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾.

٢. لا يصح أن يفسر ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ في الآية الكريمة بمعنى مسالمة العدو، وذلك لأن ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ ترد بمعنى (الإسلام) و(المسالمة)، أي أن للسلم أكثر من معنى، وبالتالي فهو لفظ مشترك أي متشابه، وتقرير أي المعنيين هو المراد، يفهم من القرائن المتعلقة بذلك في

الآيات المحكمة.

فإذا كان ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ هنا بمعنى المسالمة، يكون المعنى (ادخلوا في مسالمة العدو كلّ المسالمة) والأمر للوجوب بقرينة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ وبالتالي تكون المسالمة الكاملة للعدو فرض على المؤمنين، وهذا يناقض المحكم من آيات القتال التي تفرض على المؤمنين قتال الكفار حتى يكون الدين كله لله وذلك بدخول الناس الإسلام أو دفعهم الجزية والخضوع لأحكام الإسلام ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ الأنفال/آية٣٩ ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾ التوبة/آية٢٩ والحديث: "**الجهاد ماض إلى يوم القيامة**"[١]. وكلها تفيد مضي القتال للكفار لإعلاء كلمة الله وخضوع الكفار لأحكام الإسلام، وهذا يبين أن ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ في الآية الكريمة بمعنى الإسلام وليس مسالمة العدو لمناقضتها بهذا المعنى الأخير (المسالمة) للمحكم من آيات قتال العدو، والمحكم قاضٍ على المتشابه فيكون المعنى قد تعين في الآية بالإسلام أي الدخول في الإسلام كله.

٣. أما ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ التي وردت في القرآن بمعنى (المسالمة) فقد وردت في آيتين: واحدة في الأنفال والأخرى في سورة محمد ﷺ، وباستعراضهما تتبين الحالة التي يكون فيها ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ بمعنى المسالمة:

أ. آية الأنفال ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ الأنفال/آية٦١. هذه الآية تفيد أنه إن مال وعرض الكفار المسالمة فاقبل منهم واعتمد على الله في كلّ ذلك، وعَطْفُ التوكل على الله والاعتماد عليه سبحانه على قبول المسالمة إذا عرضوها يدلّ على أن المسلمين يقبلون من مركز قوة، ويظهر ذلك من الآيات قبلها: ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ

[١] البخاري: باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر ١٠٤٨/٣، أبو داوود: ٢٥٣٢، البيهقي: ١٥٦/٩.

﴿ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ﴾ الأنفال/آية ٥٦ـ ٦٠.

أي قاتلوا الكفار قتالاً شديداً يدخل الرعب والفزع في قلوب من سمعوا به من الأعداء حتى إنهم ليفرون من هول ذلك القتال قبل أن يصل إليهم، وكلّ ذلك مع إدخال الرهبة في قلوب الأعداء الظاهرين والمختفين وذلك من قوة الإعداد.

وبعد كلّ هذه الضربات الهائلة ضد العدو، بعدها إن عرض العدو المسالمة لما وصل إليه من سقوط وانهيار فاقبل منه لأنه يكون عمليا قد استسلم لك وكسرت شوكته.

ب. أما الآية الأخرى ففي سورة محمد ﷺ: ﴿ **فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥** ﴾ محمد/آية٣٥.

وهي تدلّ على تحريم الدعوة لمسالمة العدو لأن في ذلك ذلا وهوانا، ولأن المؤمنين هم الأعلون فالله معهم ولن ينقص شيئاً من أجورهم نتيجة ثباتهم في قتال العدو وعدم مسالمتهم له.

وهكذا أَجْمَلَ القرآن في هاتين الآيتين: ﴿ **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ** ﴾، ﴿ **فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ** ﴾، حُكْمَ مسالمة العدو بأنه جائز إذا:

أولاً: عَرَضَ العدو المسالمة نتيجة ضعفه وهزيمته، مع قوة المسلمين ونصرهم.

ثانياً: وكان في ذلك عزة للمسلمين وطريق لنصرهم، وإذلال للعدو وطريق لهزيمتهم.

وقد بين رسول الله ﷺ في صلح الحديبية هذا المجمَل:

أ ـ فقد علم رسول الله ﷺ قبل ذهابه للعمرة أنَّ يهود خيبر يحاولون التحالف مع قريش لقتال الرسول الكريم ﷺ، فتحييد قريش كان نصراً لرسول الله ﷺ.

ولذلك كان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ عند رجوعه للمدينة أن غزا خيبر وقضى عليها بعد أن حيّد قريشا من الانضمام لخيبر بموجب صلح الحديبية.

ونزلت على رسول الله ﷺ وهو راجع من الحديبية إلى المدينة في الطريق: ﴿ **إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١** ﴾ الفتح/آية١ فكان صلح الحديبية ثم من بعده فتح خيبر فتحاً مبيناً لرسول الله ﷺ، وكان في ذلك الصلح عزّ وأيَّ عزّ للمسلمين وإضعاف وأيَّ إضعاف للكافرين.

ب ـ وقد كانت قبائل العرب تخشى قريشاً إن دخلت في دين محمد وعهده، فاستطاع الرسول ﷺ بذلك الصلح أنْ يزيل هذه الخشية من قبائل العرب لأن تسلم، ولذلك دخلت خزاعة في عهد رسو الله ﷺ وأسلم الكثيرون، أفراداً وقبائل دون خشية من صولة قريش، فكان هذا قوةً للمسلمين وإعزازاً لدين الله.

ج ـ وكان ذلك الصلح (المسالمة) مع العدو مؤقتاً لأن تعطيل الجهاد أو إلغاءه حرام في الإسلام، بل جريمة كبرى كما تدلّ على ذلك النصوص التي ذكرناها.

د ـ وكذلك كان هذا الصلح المؤقت معقوداً مع كفار محاربين، سلطانهم على أرضهم، وليس مع كيان مغتصب لأرض المسلمين حتى لا يكون الصلح إقراراً لاغتصابهم، لأن صلح الحديبية عقد مع كفار قريش، وكيانهم يومها على أرض لم يفتحها المسلمون بعد، بل كانت تحت سلطانهم قبل فتح المسلمين لها، أما الصلح مع كيان قائم على اغتصاب بلاد المسلمين مثل دولة يهود في فلسطين فهذا لا يصحّ لأن فيه إقراراً لسلطان الكفار على بلاد المسلمين، وهو مخالف لآيات المسالمة في سورتي الأنفال ومحمد ومخالف كذلك لصلح الحديبية.

وبغير هذه الشروط المبينة في كتاب الله وسنة رسوله فإنه لا تجوز مسالمة العدو مطلقاً.

ومن اللافت للنظر أن هذا الصلح كان لتحييد قريش عن يهود خيبر ليتفرغ الرسول ﷺ لقتال يهود خيبر، ومع ذلك فإن مشايخ السلاطين يستدلون بهذا الصلح لمسالمة يهود وإنهاء حالة الحرب معهم!!

ومن هنا يتبين أن ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ الذي ورد في القرآن بمعنى المسالمة للعدو، محرم، إلا إن كان لإعزاز الإسلام والمسلمين، وإضعافاً وكسراً لشوكة العدو، وأن يكون مؤقتاً، وأن يعقد مع عدو لا يقوم كيانه على أرض اغتصبها من المسلمين حتى لا يكون في ذلك إقرار لما اغتصبه، وهذا هو المستفاد من آية الأنفال وآية سورة محمد ﷺ وواقع صلح الحديبية.

٤. ثم بين الله سبحانه أنهم إنْ لم يدخلوا في الإسلام كله، وأبقوا على أي شيء من الشرائع السابقة لم يقره الإسلام، فإنهم يكونون بذلك قد أوقعوا أنفسهم في غضب الله وعقابه، وبخاصةٍ وقد بينت لهم الحجج الظاهرة الدالة على أنَّ الإسلام هو الحق، وأنَّ الأديان السابقة قد حرفت وبدلت: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ آل

عمران/آية٨٥ فبعد الإسلام لا يقبل أي شرع غيره.

﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ أي تنحيتم عن الدخول في الإسلام كله، وأصل الزلل السقوط وأريد به ما ذكر مجازاً.

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ أي أن الله غالب على أمره لا يعجزه شيء من الانتقام منكم، وهو حكيم لا يعذب إلا بحقّ، هذا هو المنطوق، أما مفهومه فهو أنكم إن ملتم عن الدخول في الإسلام كله فإن الله معاقبكم عقاباً شديداً كما تستحقون.

٥. ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام في معنى النفي أي ما ينظرون.

﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ﴾ أي إلا أن يأتيهم أمر الله بعقوبتهم من باب الإسناد المجازي بالإضمار على نحو قوله سبحانه: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ النحل/آية٣٣ ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ الأعراف/آية٤، والعرب تقول (وصل الأمير) إن وصل رسوله أو أمره، وذلك من باب المجاز بالإضمار.

وبذلك يكون ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ أي يأتيهم أمر الله مع ظلل من الغمام، فإنَّ ﴿ فِى ﴾ هنا بمعنى مع على نحو قول العرب (أقبل الأمير في العسكر) أي مع العسكر. و﴿ ظُلَلٍ ﴾ جمع ظلة وهي كلّ ما أظلك.

وبذلك يكون المعنى: (أي أنهم بعدم دخولهم في الإسلام كله ما ينظرون إلا أن يأتي أمر الله بعذابهم مصحوباً بالغمام والملائكة) وفي هذا تهديد شديد وصورة بلاغية قوية، فإن الغمام ـ السحاب ـ عادة مظنة الرحمة فإتيانه لهم يسوق معه العذاب دليل هول ما أعدّ لهم من شدة العقاب، فإذا أضيف قدوم ملائكة العذاب نحوهم تبين مقدار فظاعة الأمر وهوله.

٦. وفي الآية الأخيرة وعيد شديد وتأكيد لعقوبتهم بما يستحقون الواردة في الآية السابقة، لكنها هنا عقوبة بالمنطوق صراحة، أما في السابقة فهي عقوبة بالمفهوم. ففي الأولى يدل إعلامهم أن الله عزيز حكيم، تعقيباً على زللهم، على عقوبة الله لهم بدلالة الإشارة، وإن لم تذكر العقوبة نصاً في المنطوق بل ذكر ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾. أما الآية التالية ففي منطوقها التهديد بالعقاب ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، فعدم قبول الدخول الجزئي في الإسلام وعقوبة من لا يدخلون في الإسلام كله ـ أمر محسوم لا تبديل له ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

***

﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

يتبين من هاتين الآيتين ما يلي:

١. بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة وجوب الدخول في الإسلام كله لمن أراد أن يقبل الله إيمانه فلا يؤمن ببعض ويكفر ببعض، ولا يؤمن بالإسلام ويضيف إليه شيئا ليس منه، وبخاصة بعد أن تأتيه البينات الواضحة والحجج القاطعة على الإيمان بالإسلام كاملاً.

وبعد أن بين الله سبحانه أن من ينحرف ولا يدخل في الإسلام كله بعد مجيء هذه البينات فإن له عذاباً شديداً.

بعد ذلك بين الله في هذه الآية الكريمة جواباً لمن يتساءل مستغرباً: كيف يمكن لإنسان أن لا يدخل في الإسلام كله بعد مجيء الآيات الدالة على ذلك؟

وهذا الجواب هو النظر في واقع بني إسرائيل، فلقد جاءهم الحجج القاطعة بوجوب إيمانهم بموسى ـ عليه السلام ـ وما أنزل عليه من كتاب وبما أنزل الله فيه من صفة رسول الله ﷺ ووجوب إيمانهم به، وكلّ ذلك في آيات بينات جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك فقد كفروا بمحمد ﷺ وحرفوا وبدلوا في كتبهم كما أملته عليه أهواؤهم، فبدل أن تكون تلك الآيات البينات نعمة عليهم تدفعهم للإيمان والهدى بدلوها فجعلوها طريقاً لكفرهم وضلالهم، ولقد علموا أن من بدل نعمة الله كفرا فإن عقابه شديد أليم ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾** ﴾.

﴿ **سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ على طغيانهم وجحودهم وتركهم الحق بعد وضوح الآيات، وليس استفهاماً لأن يجيبوا فيعلم واقعهم من جوابهم، كما تقول لمخاطب: سل فلاناً كم أنعمت عليه، تريد توبيخ فلان وليس انتظار جوابه.

﴿ **كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ** ﴾ كم خبرية، ولأن مميزها ﴿ **ءَايَةٍۭ** ﴾ مفصول عنها بفعل

متعدٍ فقد وجب الإتيان بـ﴿ مِّن ﴾ لئلا يلتبس المميز بمفعول ذلك المتعدي على نحو قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ الدخان/آية٢٥ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ القصص/آية٥٨ ... فلو لم تذكر ﴿ مِّن ﴾ وكانت الآية (كم آتيناهم آية) لالتبس موضع ﴿ ءَايَةٍ ﴾ هل هو مميز ﴿ كَمْ ﴾ أم مفعول ﴿ ءَاتَيْنَٰهُم ﴾.

٢. لقد بين الله في الآية الثانية سبب عدم اتباع الكفار للآيات البينات التي تأتيهم وهو تمسكهم بزينة الدنيا وزخرفها، فتصرفهم عن تدبر الآيات ومن ثم الإيمان.

ليس هذا فحسب، بل إنهم ينظرون إلى المؤمنين الذين يتطلعون إلى الآخرة ولا يتعلقون بالدنيا فيسخرون من فقرهم.

ثم بين الله سبحانه أن فقراء المؤمنين هؤلاء الذين يسخر منهم الكفار الذين زينت لهم الدنيا يكونون أعلى شأنا وأفضل منزلة عند الله يوم القيامة فهم في جنات النعيم، وأولئك الكفار في جهنم وبئس المصير، فالمؤمنون فوقهم في الدرجات لأنهم في جنة عالية والكفار في نار هاوية.

أما الرزق في الدنيا فالله يؤتيه من يشاء كافراً كان أو مؤمناً دون أن يحاسبه أحد على ذلك بل لحكمة من الله يستدرج الكفار بالتوسعة عليهم ليزدادوا إثماً، ويبتلي المؤمنين إن قدر عليهم رزقه ليزدادوا بذلك أجراً: ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ التزيين للدنيا أي جعلها حلوة محببة للذين كفروا يتشبثون بها ويتنعمون فيها إما بتوسعة الرزق عليهم من الله سبحانه، أو بوسوسة الشيطان لهم بالتمتع فيها والإغراق في الشهوات واللذات.

أما الأول فيكون المزين لهم هو الله سبحانه لاستدراجهم على نحو قوله سبحانه ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ آل عمران/آية١٧٨.

وأما الثاني فيكون المزين هو الشيطان بوسوسته كما ذكرنا على نحو قوله سبحانه عن فعل إبليس ـ لعنه الله ـ ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ الحجر/آية٣٩.

والراجح فيها أن تزيين الدنيا للكفار هو بتوسعة الرزق عليهم لاستدراجهم فالأمر متعلق بالرزق بقرينة آخر الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي يستهزئون بهم لفقرهم وإعراضهم عن الدنيا

وإقبالهم على الآخرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ أي فوقهم لأنهم في عليين والذين كفروا في أسفل سافلين.

وقد رويت روايات فيمن هم الذين يسخرون وممن يسخرون، أهُمْ رؤساء الكفر في مكة يسخرون من فقراء المؤمنين أم يهود في المدينة من فقراء المهاجرين أو غيرهم، وإن كان الأرجح أنها في اليهود لأن موضوع الآية السابقة فيهم، إلا أن العبرة ليست بخصوص السبب بل بعموم اللفظ، واللفظ عام يشمل الكفار المتصفين بتلك الصفات والذين يتصرفون تلك التصرفات.

* * *

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. أن الناس كانوا في بداية عهد آدم ـ عليه السلام ـ بعد أن أخرجه الله من الجنة وأنزله على الأرض، كانوا مقرين لله بالعبودية مؤمنين به سبحانه فكانوا أمةً واحدةً والأمة هنا هي مجموعة من الناس بعقيدة واحدة.

ثم بعد ذلك اختلفوا فأصبح منهم المؤمن ومنهم الكافر، فبعث الله النبيين في أوقاتهم التي حددها سبحانه يبشرون المؤمنين برضوان الله والجنة وينذرون الكافرين بسخط الله والنار، وكان الله سبحانه ينزل معهم كتبه بآياته المبينة لهم الخير من الشر، وليحكم النبيون بينهم في كل ما يتنازعون فيه.

غير أن تلك الأمم كانت تختلف على رسلها وكان أشدها اختلافاً علماؤها وأحبارها ورهباها، فهم الذين كانوا يغيرون ويبدلون في الكتب المنزلة عليهم بعد أن جاءهم الدلائل القاطعة المبينة للحق من الباطل، أي أنهم كانوا يعمدون إلى الباطل يفعلونه وهم يدركون أنه باطل أي يضلون على علم دون حجة أو برهان بل استكباراً وعناداً وظلماً وعدواناً، أما الذين أخلصوا لله وصدقوا بما جاءهم رسل الله فأولئك كان الله سبحانه يهديهم سبيل الرشاد ويبين لهم ما أدخله المختلفون على رسلهم من تحريف وتبديل ليبتعدوا عنه فلا يقعوا في الإثم والضلال بل ينجيهم الله من ذلك بمنه وفضله ﴿ **وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣** ﴾.

﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ فيها محذوف بعد ﴿ **أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ** ﴾ أي فاختلفوا وأصبح منهم المؤمن ومنهم الكافر، وهذا المحذوف يدلّ عليه ﴿ **مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ لأن إرسال النبيين مبشرين ومنذرين يعني أنهم أرسلوا إلى بشر مختلفين منهم من يستحق (البشرى) ومنهم من يستحق (الإنذار) وهذا يعني أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق ثم اختلفوا فكفر من كفر وبقي على الإيمان من بقي، وكان هذا حالهم عندما أرسل الله رسله إليهم مبشرين للمؤمنين منذرين للكافرين.

﴿ **وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ** ﴾ وفي هذا دلالة أن الرسل كانت لهم شرائع مسطورة في كتبهم ليقضوا ويحكموا في خلافات الناس ومنازعاهم بموجبها على نحو قوله سبحانه ﴿ **لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ** ﴾ المائدة/آية٤٨.

﴿ **وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ** ﴾.

﴿ **ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ** ﴾ أي علماء وأحبار ورهبان أهل الكتاب المنزلة بقرينة ﴿ **مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ** ﴾ فهم الذين يدركونها والآية تدل أنّ أشدهم اختلافاً هم أحبارهم ورهباهم فهم الذين يبدلون ويحرفون ويكتمون الحقّ وهم يعلمون.

﴿ **بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ** ﴾ أي استكباراً وظلماً وعناداً دون حجةٍ أو برهانٍ، وذكر ﴿ **بَيۡنَهُمۡ** ﴾ بعد ﴿ **بَغۡيَۢا** ﴾ أي أن البغي متمكن فيهم فكأنه معهم أينما ذهبوا فهو جالس بينهم حيث جلسوا.

٢. إن الآية الأولى تدلّ على احتدام الصراع بين الحق والباطل حتى ورسلهم

بينهم، ليس هذا فحسب بل إن أهل العلم فيهم أشدهم اختلافا وأنَّ المؤمنين قلة بينهم كما في الحديث: "**يأتي النبي ومعه الرجل والنبي معه الرجلان ...**"[1].

وهذا يعني أن المؤمنين يشقون طريقهم في تلك المجتمعات الفاسدة بصعوبة وبتضحية بالغة، وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ فيما رآه من قومه ومن أهل الكتاب في وقته اليهود والنصارى، حيث لم يستجيبوا لدعوة الحق التي جاء بها رسول الله ﷺ بل قاوموه ووقفوا في وجهه وأخرجوه من مكة وصدوا عن سبيل الله وقاتلوه في المدينة وجمعوا عليه الناس في الخندق ﴿ **وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ** ﴾ الأحزاب/آية١٠ واشتدت عليه الأمور كما صنعت الأمم السابقة مع رسلهم.

وفي الآية الثانية يبين الله سبحانه أن هذه سنته في خلقه فإن ثمن الجنة غال: ابتلاء بالبأساء والضراء والمصائب العظام، كوقع الزلازل، بشدة بالغة يقول معها الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله استثقالا لوطأة ذلك البلاء، وعندها يأتيهم نصر الله فنصر الله قريب للثابتين على الحق الصابرين على البلاء، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وكأن العبد لم يُبتلَ ولم يرَ بأساً ولا ضراء لما يراه من نعيم ورضوان من الله أكبر: "**يؤتى يوم القيامة بأشد الناس بلاء ومصيبة فيدخل الجنة ويسأل عن المصائب التي رآها في الدنيا فكأنها لم تكن في حياته لعظم ذلك النعيم**"[2].

﴿ **أَمْ** ﴾ هنا منقطعة فهي استئناف لكلام جديد، فالآية السابقة ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً** ﴾ وهنا ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ فهو تغيير في صيغة الخطاب وهو لـ﴿ **أَمْ** ﴾ المنقطعة أنسب من المتصلة لاختلاف صيغة الخطاب، ثم إن ﴿ **أَمْ** ﴾ المتصلة تقتضي كلاماً واحداً متصلاً ويشترط أن تسبقها همزة الاستفهام كقولك (أعندك زيد أم عمرو؟) أي أيهما عندك؟ وجوابه زيد إن كان عنده زيد أو عمرو إن كان عنده عمرو، وأما (أم) المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر، وهي هنا ليست بعد استفهام بل بعد خبر منفصل عن الكلام بعدها، فهي (أم) المنقطعة.

و(أم) المنقطعة تكون بمعنى (بل والهمزة) والمعنى: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة، أي إنكار الحسبان واستبعاده فلا دخول للجنة دون ابتلاء كما بينه الله سبحانه.

---

[1] البخاري: ٥٣١١، أحمد: ٥٨/٣، تفسير الطبري: ٨/٢

[2] أحمد: ٢٥٣/٣، الزهد لابن المبارك: ٢٢٠، ابن أبي شيبة: ٢٤٨/١٣

﴿ **وَلَمَّا يَأْتِكُم** ﴾ أي ولم يأتكم، وفي ﴿ **لَمَّا** ﴾ معنى التوقع لحدوث الفعل المنفي بعدها، وهي في هذا تختلف عن (لم).

﴿ **حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ** ﴾ للدلالة على أن الشدة كبيرة والهول عظيم لدرجة أن يستثقلها ويدرك طول شدتها ليس عامة الناس بل الرسل الذين يوحى إليهم وأصحابهم المؤمنون الملازمون لهم.

﴿ **مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ** ﴾ أي متى يأتي نصر الله؟ استطالة لمدة الشدة لا شكاً ولا ارتياباً.

﴿ **أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾** ﴾ أي أجابهم الله سبحانه موحياً إلى رسوله أنَّ نصر الله قريبٌ.

وتصديرها بحرف التنبيه (ألا) وحرف التوكيد (إنَّ) تطميناً لقلوبهم بأنَّ هذا الوعد محقق الوقوع قريباً.

ولما كان قولهم ﴿ **مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ** ﴾ أي متى يأتي نصر الله؟ كأنهم يتوقون بشدة إلى قرب النصر، جاء الجواب طبق السؤال مؤذناً بالتنبيه والتأكيد بقرب النصر ﴿ **أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾** ﴾.

* * *

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

جعل الله سبحانه هذه السورة العظيمة جامعة لأنواع كثيرة من الخير، فذكر سبحانه المؤمنين والكافرين والمنافقين، ثم ذكر يهود وتحريفهم كتبهم واختلافهم على أنبيائهم وقتل بعضهم أنبياءهم وجدلهم بالباطل ومؤامراتهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

فذكر العقيدة وبعض متعلقاتها ليكون المؤمن راسخ الإيمان واعياً على كيد الكفر وأهله.

ثم ذكر الله سبحانه بعد ذلك أنواعاً من الأحكام الشرعية المبنية على العقيدة الإسلامية، فذكر البيت وبناء إبراهيم وإسماعيل له ثم تحويل القبلة إليه وكذلك الحج إليه، وذكر سبحانه الصوم والجهاد وعدداً من الأحكام الشرعية التي تتعلق بالدعوة للإسلام

واحتدام الصراع بين الحق والباطل واختلاف الناس على رسلهم، وثقل البلاء الذي يلقاه المؤمن والصبر على الأذى في سبيل الله ومن ثم النصر والفتح القريب.

كل ذلك ليستقيم أمر المسلم في إيمانه وفي أفعاله آمرا بالمعروف ناهياً عن المنكر لا يضره من خالفه: **"لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك"**[1].

وفي هذا السياق ـ بيان عدد من الأحكام الشرعية بعد أن ذكر الله سبحانه سابقاً العقيدة الإسلامية ـ جاء هذا السؤال والجواب في هذه الآية الكريمة وتساؤلات تبعته حول عدد من الأحكام الشرعية المبينة في هذه السورة العظيمة.

فقد سأل عمرو بن الجموح رضي الله عنه رسول الله ﷺ فيما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النفقة من ماله، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير فقال: يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا؟ فنزلت الآية الكريمة والتي تبين ما يلي:

١. يظهر من الآية أن السؤال كان عن الأموال التي تُنفَق ولكن الله سبحانه أجاب عن (المُنفَق) بشكل عام ﴿ **قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ** ﴾ أي من الحلال الطيب، ثم بين سبحانه مَن الذين لهم الأولوية في الإنفاق عليهم ﴿ **فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾. وفي هذا دلالة على أن النفقة لا يعتد بها ولا تقبل إلا إن وقعت موقعها أي للذي يستحقها.

٢. أن الآية في الصدقة المندوبة وليست في الفريضة (الزكاة) وذلك بقرينة ﴿ **قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ** ﴾ فقد جعل الله الإنفاق متوقفاً على المنفِقين فلم يقل سبحانه (أنفقوا خيراً لكذا وكذا) وعندها كان احتمال الفرض وارداً، ولكنها هنا ﴿ **مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ** ﴾ أي إن أنفقتم فليكن من خير وليكن للوالدين والأقربين ... الآية.

وهذا يعني أن الإنفاق متوقف على المنفقين، وحيث أن النفقة ـ الصدقة ـ قربة إلى الله فيكون الإنفاق هنا مندوباً.

وتؤكد هذا خاتمة الآية الكريمة ﴿ **وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾** ﴾ و﴿ **مَا** ﴾ هنا كذلك شرطية، فالنفقة متوقفة على المنفق ولذلك فإن القول بنسخها بآية الزكاة غير وارد فهذه في الصدقة المندوبة وآية الزكاة في الفريضة.

---

[1] البخاري: ٢٨٨٤، مسلم: ٣٥٤٤

٣. تبين الآية الأولويات في الصدقة، فالأولى أن تكون في الوالدين والأرحام والأقارب أي الأدنى فالأدنى: **"إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم الأقرب فالأقرب"**[١] **"سئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي، ذاك حق واجب ورحم موصولة"**[٢] أي ذوي الأرحام. **"وأتى رجل النبي ﷺ فقال: إن لي ديناراً. قال: أنفقه على نفسك. قال: إن لي دينارين. فقال: أنفقهما على أهلك. قال: إن لي ثلاثة. قال: أنفقها على خادمك. قال: إن لي أربعة. قال: أنفقها على والديك. فقال: إن لي خمسة. قال: أنفقها على قرابتك. فقال: إن لي ستة. فقال: أنفقها في سبيل الله تعالى"**[٣]. وكما جاء في الحديث: **"الصدقة على الفقير صدقة، وهي على الرحم صلة وصدقة"**[٤]. ثم بعد الوالدين والأقربين للمحتاجين والأولى اليتيم وهو من كان صغيراً وفاقداً للأب، ثم المساكين والفقراء من غير اليتامى، ثم الذي انقطع به السبيل، وهكذا فالإنفاق في الأولى فالأولى أفضل مما سواه والله سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من خير فكلّ نفقة من مال حلال طيب بإخلاص لله توضع في موضعها أي لمستحقيها مهما صغرت، يتقبلها الله بقبول حسن ويعلمها سبحانه على أي حال أنفقت ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾** ﴾.

* * *

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ

---

[١] ابن ماجه: ٣٦٦١، أحمد: ١٣١/٤، ١٣٢

[٢] أبو داوود: ٤٤٧٤، الترمذي: ٢٥٣٢، الدر المنثور: ٦١١/٢

[٣] أحمد: ٣٦٩/٣، ابن حبان: ٨٢٨، البيهقي: ٤٦٦/٧، ٤٧٧

[٤] النسائي: ٢٥٣٥، ابن ماجه: ١٨٣٤، أحمد: ١٧/٤، ٢١٨

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات عدداً من الأحكام الشرعية في نفس السياق الذي ذكرناه سابقاً:

١. أن الجهاد فرض، وفي هذه الآية دلالة على ذلك بالإضافة للأدلة المستفيضة في موضوع الجهاد.

أما دلالة هذه الآية فهي آتية من:

أ. ﴿**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ**﴾ وهذا أمر من الله سبحانه للمسلمين بالقتال، فهو طلب بالقتال.

ب. وذكر ﴿**وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ**﴾ قرينة على أن الطلب جازم وأنَّه فرض وذلك لأن (الكره) يعني (المشقة) والطلب مع المشقة دليل جزم في الطلب وإلا لما كان في ذكر المشقة دلالة لأن المكلف إن لم يكن الطلب جازما يستطيع أن لا يقوم بالفعل وبالتالي يتفادى المشقة أي لا يكون لذكرها دلالة.

وحيث قد اقترن ذكر المشقة مع طلب الفعل فهذا يعني قرينة على الجزم وأن الطلب جازم فيكون فرضا كما هو مبين في الأصول.

ثم يبين الله سبحانه أن النفس البشرية قد تكره ما يثقل عليها وهو عظيم الأجر فتتأثر بالواقع الآني أكثر من تأثرها بما يترتب عليه آجلا، وبالتالي قد تحب ما خفّ عليها وهو يحمل شراً في آجله.

ويكون المعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من مشقة وهو خير لكم فهو طريق النصر والعزة ونشر الإسلام، وهو طريق الحسنيين النصر أو الشهادة. وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فهو السبيل إلى الذلّ والمهانة وتجرؤ العدو عليكم والطمع فيكم.

فإن تركتم الأمر لهواكم ضللتم، وإن اتبعتم فرض الله فزتم والله سبحانه هو علام

الغيوب ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

٢. وفي الآية الثانية جواب عن سؤال: هل يجوز القتال في الشهر الحرام؟ فيبين الله سبحانه أن القتال في الشهر الحرام إثمه كبير ولكن الأكبر منه إثما هو ما صنعه المشركون من كفر بالله وصدّ عن سبيله وعن المسجد الحرام، وكذلك إخراج الرسول ﷺ والمؤمنين منه، والوسع الذي بذله المشركون لفتنة المؤمنين عن دينهم، كلّ ذلك أكبر إثماً وأعظم وزراً من القتال في الشهر الحرام.

ثم إن الله سبحانه يبين في الآية الكريمة أن الكفار لن يتركوا قتال المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا وهم لن يستطيعوا بإذن الله.

ويختم الله سبحانه الآية بأن الذي يرتد عن دينه ويموت على ذلك، فإن عمله قد حبط في الدنيا والآخرة وهو من أصحاب النار خالداً مخلداً فيها.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام فـ﴿ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام.

أما السائلون فهم وفد من كفار قريش، كما روى الزهري عن عروة، قدم على رسول الله ﷺ فسألوه: "أيحل القتال في الشهر الحرام"[1] وذلك تعقيباً على سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وذلك أنَّ رسول الله ﷺ أرسل عبد الله بن جحش رضي الله عنه في سرية إلى (نخلة) فقال: **كن حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش، ولم يأمره بقتال** على نحو ما رواه ابن إسحاق والبيهقي وغيرهما من طريق زيد بن رومان عن عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - "**أن رسول الله ﷺ قد بعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه ومعه ثمانية رجال من المهاجرين وذلك في رجب - الشهر الحرام - ولم يأمره بقتال وكتب له كتابا قبل أن يعلمه أين يسير، فقال: اخرج أنت وأصحابك حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه فما أمرتك به فامضِ له ولا تستكره أحداً من أصحابك على الذهاب معك، فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه "أن امضِ حتى تنزل نخلة فأتنا من أخبار قريش بما اتصل إليك منهم**" ونفذ عبد الله بن جحش أمر رسول الله ﷺ، فلما نزل نخلة مرّ بهم عمرو بن الحضرمي في بضعة نفرٍ ومعهم عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وتجارةً، فاعترضهم المسلمون وقتلوا عمراً بن الحضرمي وأسروا اثنين

[1] تفسير الطبري: ٣٤٧/٢، ابن هشام: ٢٥٢/٢، ٢٥٤، الدر المنثور: ٦٠٢/٢

معه، وكان ذلك في آخر يوم من رجب وقدموا بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ فقال لهم: **والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وأوقف رسول الله الأسيرين والبعير ولم يأخذ منها شيئاً.** وعندها سقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء: قد سفك محمد ﷺ الدم الحرام وأخذ المال وأسر الرجال واستحل الشهر الحرام، فنزلت الآية الكريمة"[1].

وفي رواية الزهري عن عروة أن وفداً من كفار قريش بعد أن بلغتهم تلك الحادثة قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا سائلين رسول الله ﷺ: "أيحل القتال في الشهر الحرام؟" تعييراً للمسلمين بما فعلوه، فنزلت الآية الكريمة.

وبعد نزول الآية الكريمة أخذ رسول الله ﷺ العير وقبل فداء الأسيرين.

وفي روايات أن اعتراض العير والقتل كان في أول يوم من رجب وأنّ السرية أرسلت في جمادى الثانية، وحيث كان ذلك فلا يغير من سبب النزول حيث إنه في الحالتين قد وقعت الحادثة في رجب أوله وآخره، وهو شهر حرام.

٣. يتبين من الآية الكريمة أن القتال في الشهر الحرام محرم وإثمه كبير ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ ولكن الله سبحانه يبين لكفار قريش أن ما فعلوه من كفر بالله وصدّ عن سبيله والمسجد الحرام وإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين ومحاولات المشركين التي بذلوا فيها الجهد الجهيد لفتنة المسلمين كلّ ذلك أكبر عند الله، ولذلك فإن على المشركين قبل أن ينكروا على المسلمين القتال في الشهر الحرام أن ينظروا إلى ما اقترفوه من جرائم في حق الله ورسوله والمؤمنين والحرم، عندها سيجدون رجحان جرائمهم بالكثير الكثير عن القتال في الشهر الحرام.

﴿ **وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ** ﴾

أي أن كفار قريش يحتجون على القتال في الشهر الحرام ولا يحتجون على ما فعلوه من جرائم تفوق القتل في الشهر الحرام.

﴿ **وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** ﴾ معطوف على ﴿ **سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ وليس معطوفا على المجرور في ﴿ **بِهِۦ** ﴾ لأن العطف على الضمير المجرور مرجوح ما دام حرف الجرّ لم يكرر، فلا تقول (مررت به وزيد) ولكن تقول (مررت به وبزيد) هذا من وجه، ومن وجه آخر

[1] خُرِّج في الصفحة السابقة

فإن دلالة المعنى أرجح في جعله معطوفاً على ﴿ **سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ فيكون المعنى بهذا العطف: وصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام أي وصدّ عن المسجد الحرام، وهذه أرجح في الدلالة من العطف على الضمير لأن المعنى عندها يكون: وصدّ عن سبيل الله وكفر بالله وكفر بالمسجد الحرام، فنسبة الكفر إلى المسجد الحرام مرجوحة بالنسبة للصدّ عن المسجد الحرام.

وهكذا فإنَّ في الآية دليلاً على أنَّ القتال في الشهر الحرام حرام، ولكن ما فعلوه من كفر وصدّ وفتنة أكبر إثماً وأفظع جرماً.

ولقد ودى الرسول ﷺ دم ابن الحضرمي فأعطى ديته لورثته لأن قتله تمّ في الشهر الحرام الذي لا يصحّ بدء القتال فيه، وبقي القتال في الشهر الحرام حراماً إلى أن نسخ ذلك كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله.

٤. يبين الله سبحانه شدة عداوة الكفار للمسلمين فهم لن يتركوا قتالهم حتى يردوهم عن دينهم إنْ استطاعوا، ثم يبين الله مصير أولئك الذين يرتدون عن دينهم من المسلمين ويموتون على ذلك، فأعمالهم حابطة وإثمهم عظيم وهم مخلدون في نار جهنم.

﴿ **حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ** ﴾ حتى هنا للتعليل أي يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم.

﴿ **إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ** ﴾ استبعاداً لاستطاعتهم كقولك لعدوك: (إن ظفرت بي فلا تبقِ علي) وأنت واثق بأنه لا يظفر بك.

وفي هذا دلالة على أن الكفار مهما صنعوا من مكائد ومؤامرات وحروب لن ينجحوا في ردّ المسلمين عن دينهم، كما فيه دلالة كذلك على عظم عداوة الكفار للمسلمين.

﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾** ﴾.

في هذه الآية بيان حال الذي يرتدّ ويموت على الكفر، فهذا في حقه أمران:

أ. يحبط عمله، فما عمله قبل ردته كأنه لم يُعمل أي لو كان قد حجّ قبل الردة فإن حجه باطل.

ب. إنَّه يخلد في نار جهنم لأنه مات كافراً.

ولا يقال هنا إنَّ الله سبحانه جعل الوفاة على الردة قيداً لحبوط الأعمال لأنَّ الآية ليست (**ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم**) لو كان

كذلك لكان الموت على الردة هو الذي يؤدي إلى أن يحبط العمل، ولكن الآية أضافت ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ أي أنها رتبت أمرين على أمرين:

= (**أن يرتد** **ويموت على الردة**) رُتِّبَ عليه (**أن يحبط عمله** **ويخلد في نار جهنم**).

= أما إن ارتد فقط قبل أن يموت على ذلك فإن الله سبحانه قد بيّن حاله في آيات أخرى:

﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ** ﴾ المائدة/آية٥ ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ الزمر/آية٦٥. ومعنى ذلك أن من ارتد فقط حبط عمله، فإن حجّ قبل ردته ثم عاد للإسلام عليه أن يحج من جديد.

أما إن ارتد ومات على الارتداد فقد حبط عمله وتَخَلَّدَ في نار جهنم.

٥. قد وردت روايات في نسخ هذه الآية أو عدم نسخها، والراجح أن هذه الآية ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ** ﴾ منسوخة بما ورد في سورة التوبة.

فقد نزلت هذه الآية في أوائل الهجرة للمدينة وقبل معركة بدر، واستمر القتال في الشهر الحرام محرما إلا في حالتين:

أ. أن يبدأ الكفار بالقتال فيه وذلك من الآية ﴿ **ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ** ﴾ البقرة/آية١٩٤، وقد بينا معنى هذه الآية فيما سبق.

ب. أن يكون القتال قد بدأ في غير الشهر الحرام ولم ينته قبل دخول الشهر الحرام، فيجوز استمراره في الشهر الحرام إن تطلبت السياسة الحربية ذلك.

ودليله محاصرة رسول الله ﷺ للطائف بعد فتح مكة ومعركة حنين حيث انحازت ثقيف إلى الطائف وتحصنت فيها، فحاصرها رسول الله ﷺ ودخل الشهر الحرام والحصار مستمر.

وقد بينا ذلك عند تفسير الآية السابقة ﴿ **ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ** ﴾ البقرة/آية١٩٤.

أما في غير هاتين الحالتين، فإن البدء بالقتال في الشهر الحرام أو في الحرم كان محرماً بنصّ الآيتين: ﴿ **وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ** ﴾ البقرة/آية١٩١ ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ** ﴾.

ولقد استمر ذلك إلى أن نزلت على رسول الله ﷺ سورة التوبة، وبعدها أصبح القتال جائزاً في الحرم وفي الشهر الحرام ما دامت السياسة الحربية تقتضي ذلك.

أما الدليل فهو على النحو التالي: ﴿ **بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢** ﴾ التوبة/آية١ـ٢.

فقد أُمهِل المشركون بموجبها أربعة أشهر دون أن يقاتلوا، أي أنهم آمنون خلال هذه الأشهر الأربعة، والتقيد بهذه الأشهر يعني أن قتلهم جائز بعد انسلاخ هذه الأشهر الأربعة كما قال سبحانه: ﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ﴾ التوبة/آية٥ ... والأشهر الحرم هنا ليست الأشهر الحرم من كلّ سنة بل انقضاء المهلة التي حددت لهم أي الأشهر الأربعة التي ذكرت في الآية السابقة، والدليل على أنها هي أنهم أمهلوا أربعة أشهر وليس في شهور السنة أربعة أشهر حرم متتالية، ولذلك فالمقصود هنا الأربعة أشهر (**المهلة**) سواء أكانت (**شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم**) كما في بعض الروايات، أم (**ذا القعدة وذا الحجة والمحرم وصفر**) أو أي ترتيب آخر، فهي ليست الأشهر المعروفة من السنة وهي التي ثلاثة سرد: **ذو القعدة وذو الحجة والمحرم** وواحد فرد وهو **رجب**، فهي غير متصلة أي ليست أربعة متتالية. وبالتالي يكون المعنى: (**إذا انتهت المهلة التي حددت بأربعة أشهر، فإذا انتهت فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**) وهذا يعني أن قتالهم يصبح جائزاً في كل زمان ومكان بعد انقضاء تلك المهلة.

أما في كل زمان فآت من أن القيد بالمهلة كان زمنياً ﴿ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ فإذا انتهى ذلك القيد بانتهاء المدة الزمنية لك ﴿ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ يصبح قتالهم جائزاً في كلّ زمان بعد انتهاء ذلك القيد الزمني في الآية.

وأما في كلّ مكان فإن ﴿ **حَيْثُ** ﴾ تفيد المكان وبالتالي فبعد انتهاء المهلة يقاتل المشركون في كلّ مكان.

﴿ **حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ﴾ أي في أي مكان وجدتموهم فيه.

أما القول بأن ﴿ **وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ** ﴾ البقرة/آية١٩١ خاص في الحرم وأن ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ**

كَبِيرٌ﴾ خاص في الشهر الحرام.

وأن ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ التوبة/آية٥ عام في الأمكنة والأزمنة، وأن العام لا ينسخ الخاص.

فهذا صحيح إن كانت دلالة العام ظنية ودلالة الخاص قطعية، ولكن هنا دلالة العام كذلك قطعية: في الأمكنة ﴿ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أي في كلّ مكان وجدتموهم فيه، وقطعية في الأزمنة﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي بعد انتهاء المهلة كما بيناها سابقاً وهي الأربعة أشهر، فاقتلوهم في كل زمان لأن (**تحديد مهلة يمنع القتال فيها**) يعني (**جواز القتال بعدها**) لأن هذا هو مفهوم الآية، أي أن الدلالتين للعام والخاص قطعيتان متعارضتان، فإذا علم أن الخاص هو المتقدم، والعام هو المتأخر، فلا يتأتى أن يقال إن النص السابق مخصص لنص عام لم ينزل قبله أو وقته، بل لم يكن نازلاً ونزل فيما بعد، فلم يبق إلا أن يقال إن العام ما دام متأخراً عن الخاص وهو قطعي الدلالة فإنه ينسخ الخاص السابق نزوله عليه، ولذلك فالقول بالنسخ هو الصحيح الراجح.

وأما حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: "**إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنَّه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه. فقال العباس: إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. قال: إلا الإذخر**"[1].

فإن هذا الحديث قاله رسول الله ﷺ يوم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، أي قبل آية التوبة التي نزلت في السنة التاسعة للهجرة، فلا يؤثر هذا في العمل بآية التوبة الناسخة المحكمة كما بينا.

ثم إن الحديث يحمل على أن مكة بعد فتحها أصبحت دار إسلام وانتهى الشرك وسلطانه فيها فأصبح يحرم القتال فيها بهذا الاعتبار على نحو قوله ﷺ عند فتح مكة: "**لا هجرة بعد الفتح**"[2] حيث إن مكة بعد الفتح أصبحت دار إسلام فهي والمدينة سواء،

---

[1] البخاري: ٢٩٥١، مسلم: ٢٤١٢

[2] البخاري: ٢٥٧٥، مسلم: ٣٤٦٨

فلا هجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح، فإذا تغير واقع مكة فلم تعد دار إسلام ثم أقيمت الخلافة بإذن الله في مكان غير مكة فتعود الهجرة من مكة إلى دار الإسلام كما كانت من قبل.

وهي هنا كذلك، فإن رسول الله ﷺ قد حرم القتال في مكة بعد الفتح حيث قد أصبحت دار إسلام وأصبح أهلها مسلمين، والحديث على هذا الاعتبار يحرم مكة إلى يوم القيامة. فإذا تغير واقع مكة فلم تعد دار إسلام ولا عاد أهلها مسلمين فإن حديث تحريم القتال فيها لا ينطبق حينئذ لاختلاف واقع تطبيق الحديث.

والآية ليست في موضوع حرمة مكة كدار إسلام وأهلها مسلمون، فهي حرام بهذا الاعتبار، ولكن الموضوع في قتال المشركين في الحرم وفي الشهر الحرام، فلا تعارض بين الآية والحديث من حيث نسخ آية التوبة لآية البقرة كما سبق بيانه.

٦. إلا أن قتال المشركين الذي أحله الله في الحرم وفي الشهر الحرام قد قيد بمفهوم الشرط في الآية المذكورة ﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝** ﴾ التوبة/آية٥.

أ. أي أن القتال الجائز هو ما كان لإدخال الناس في الإسلام وإعلاء كلمة الله لأن ﴿ **فَإِن تَابُوا۟** ﴾ في الآية أي تركوا الكفر ﴿ **وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ أي دخلوا الإسلام من باب إطلاق الجزء للدلالة على الكل ﴿ **فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ** ﴾ أي لا تقاتلوهم، ولأن مفهوم المخالفة للشرط معمول به فإن هذا يعني أنهم يقاتلون إن لم يتوبوا ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة أي بقوا على كفرهم ولم يدخلوا الإسلام سواء أكانوا كفاراً ابتداءً أم مسلمين ارتدوا وأصبحوا كفاراً.

وعليه فإن القتال لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله صحيح على وجهه في كلّ أشهر السنة الأشهر الحرم وغير الحرم، هذا من حيث الزمان كما أنه كذلك صحيح في كل مكان حتى في الحرم إن كان واقع إعلاء كلمة الله وإدخال الناس في الإسلام موجوداً في مكة كأن ينتشر الكفر في مكة بالارتداد أو غيره ويسيطر الكفار عليها وتصبح تحت سلطانهم، فإنهم يقاتلون للقضاء عليهم وإعادة مكة لسلطان الإسلام حتى ولو تحصنوا في الحرم وكان الشهر شهراً حراماً.

ب. ومن الجدير ذكره أن الدولة الإسلامية تقاتل الكفار والمرتدين المتحصنين في

الحرم إن كانوا جماعات ممتنعة بقوتها، أي ينطبق عليها واقع القتال، أما إن كان هؤلاء المتحصنون في الحرم أفرادا أو جماعات غير ممتنعة بقوتها فإن هؤلاء لا ينطبق واقع القتال معهم فهم لا يقاتلون بل يعاقبون فيضيق الخليفة الخناق عليهم حتى يستسلموا أو يلقى القبض عليهم.

كل ذلك بخصوص مبادأتنا لقتال الكفار في الحرم أو الشهر الحرام، أما إن قاتلونا أو كانت المعركة مستمرة ودخل الشهر الحرام فالنصوص واضحة في قتالهم كما بينا ذلك سابقاً.

ج. وعلى ذلك فلا تجوز المبادأة بالقتال في الحرم والأشهر الحرم إلا لإدخال الكفار في الإسلام أو القضاء عليهم وصدّ عدوانهم أو قتال المرتدين، وذلك من مفهوم الشرط في الآية الكريمة ﴿ **فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ** ﴾ التوبة/آية٥.

ولا يجوز قتال غير هؤلاء في الحرم أو الشهر الحرام، فيحرم أن يقاتل المسلمون فيه أو يروعوا أو يظلموا فإن ذلك إثم كبير وجريمة عظمى في شرع الله، والعقوبة في الإسلام شديدة ـ و أكثر شدة من حدوثها في مكان آخر أو شهر آخر ـ:

فانتهاك حرمة الحرم والمسجد الحرام كبيرة وكبيرة في دين الله:

﴿ **وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥** ﴾ الحج/آية٢٥.

﴿ **مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ** ﴾ التوبة/آية٣٦.

فالحرام حرام في غيرها وهو فيها أشد حرمةً.

والجريمة جريمة في غيرها وهي فيها أكبر جرماً.

والظلم ظلم في غيرها وهو فيها أظلم وأعظم.

٧. لقد غفر الله سبحانه لعبد الله بن جحش رضي الله عنه وسريته ما فعلوه في تلك الغزوة في الشهر الحرام وأقام الحجة على كفار قريش في أنهم فعلوا ويفعلون من الكفر والصدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ومن الفتنة ما يفوق أضعافاً مضاعفةً ما فعلته تلك السرية.

أما الدليل على مغفرة الله لعبد الله بن جحش رضي الله عنه والرهط الذين كانوا معه فهو:

أ. قوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨ ﴾.

فهذه الآية نزلت فيهم وأثنى الله عليهم بما وصفهم به من الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله وأنهم يرجون في ما فعلوه ويفعلون رحمة الله، ثم ختمها الله سبحانه بالمغفرة والرحمة لهم.

ب. قبول رسول الله ﷺ ما غنموه من العير والأسيرين بعد أن توقف عن ذلك لإنكاره عليهم القتال في الشهر الحرام حتى نزلت الآية الكريمة.

وقبول رسول الله ﷺ لما غنموه دليل على مغفرة الله لهم عما فعلوه وقبول عملهم.

وقد ختم الله الآية الكريمة بالدلالة على مغفرته سبحانه والثناء عليهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨ ﴾.

❁ ❁ ❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا
تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ
وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ
أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ
أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ
(٢٢٢) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً
لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)
وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى

ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٖۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ

﴿ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠ ﴾.

تستمر الآيات تنزل على رسول الله ﷺ في هذه السورة العظيمة تبين أحكاماً شرعيةً في عدد من المسائل في بناء محكم للشخصية الإسلامية من حيث العقيدة والأحكام الشرعية أي بناء العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية ليكون المسلم صادق الإيمان قوي الالتزام شديد التقيد بأحكام الإسلام:

١. سأل بعض المسلمين عن الخمر والميسر، فأجابهم الله سبحانه عما في تعاطيها فقال سبحانه: ﴿ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ولم يقل (هما إثم) ولذلك فهم المسلمون من تلك الآية عدم تحريم الخمر والميسر ولكن الأفضل عدم تعاطيهما لأن ﴿ إِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾.

أما النفع فهو نتيجة متاجرتهم في الخمر وما يحصلون عليه من ربح، وفي الميسر هو ما ينتقل إليهم من مال بالمقامرة دون كدّ أو تعب ثم من النفع ما كانوا يوصلونه إلى الفقراء من مال المقامرة.

أما الإثم فيهما فما يصدر عن الشارب من الفحش والتصرفات السيئة المشينة، وما يحدث من المقامر من أكل مال الغير بالباطل وبيع ماله هو نتيجة المقامرة إن خسر، ثم ما يورث ذلك من عداوة وبغضاء.

قال الواحدي: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: "أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل ومسلبة للمال، فأنزل الله تعالى الآية"[1].

والخمر مأخوذة من (خَمَرَ) إذا ستر ومنه خمار المرأة، وكلّ شيء غطى شيئاً فقد خمره، ومنه (**خمروا آنيتكم**) فالخمر تخمر العقل أي تغطيه وتسده.

والميسر مصدر ميمي من يسر كالموعد من وعد، يقال: يسرته إذا أقمرته من القمار، وأصل اشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة بلا كدّ أو تعب.

٢. والخمر اسم لكل مسكر "**كلّ مسكر خمر**"[2] والخمر حرام سواء أكان مصنوعاً

---

[1] تفسير البيضاوي: ١/٢٣٥

[2] مسلم: ٣٧٣٣، ٣٧٣٥، الترمذي: ١٧٨٤، النسائي: ٥٤٨٨، ابن ماجه: ٣٣٨١، أحمد: ٢/٣١،٢٩

مما كانت تصنع منه العرب خمرها في ذلك الوقت (العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة) كما أخرج أبو داود، أم من نوع غيرها إذا كان واقعه محققاً (الإسكار) في الشراب المصنوع طبقاً للحديث المذكور سابقاً.

ولذلك فالأشربة الحديثة المسكرة التي يدخلها الكحول كالكالونيا وأمثالها فهي تعتبر خمراً وتنطبق عليها أحكامها.

ولم تحرم الخمر بالآية المذكورة ﴿ **۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ** ﴾ كما ذكرنا ولكنها حرمت بآية المائدة ﴿ **إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾** ﴾ المائدة/آية ٩٠–٩١.

فهي نهي جازم بأقوى أنواع الجزم:

﴿ **إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ** ﴾.

﴿ **مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ** ﴾.

﴿ **فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾** ﴾.

﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ** ﴾.

﴿ **وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ** ﴾.

﴿ **وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ** ﴾.

﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾** ﴾.

وكلّ واحدة منها تكفي للتحريم ولذلك فقد قال الصحابة: "انتهينا يا رب"، وكان إقلاعهم عنها عجباً؛ فقد كان الواحد منهم يشرب الخمر سنوات وسنوات فلما وصله خبر التحريم عند نزول آية المائدة لفظ حتى الذي في فيه من خمر ولم يقل: أشرب هذه ثم ألتزم!

والخمر محرمة في عشرة مواضع كما ذكرها رسول الله ﷺ : "**فقد لعن رسول الله ﷺ الخمرة ولعن معها عشرة: بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها**

وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها"[١].

وعقوبة شارب الخمر أن يجدّ أربعين أو ثمانين، وليس غير الأربعين أو الثمانين فيحرم خمسون مثلاً وذلك: "**لما صح عن رسول الله ﷺ أنه حدّ شارب الخمر أربعين وثمانين"**[٢].

أما عقوبة بائعها وبقية العشرة فعقوبة تعزيرية، فإن لكل حرام في الإسلام عقوبة من قبل الدولة الإسلامية ـ الخلافة ـ حدا أو جنايات أو تعزيرا أو مخالفات كما هو مفصل في نظام العقوبات في الإسلام في بابه.

٣. والميسر هو كلّ مقامرة سواء أكانت مما استعمله العرب حين التحريم أم فيما بعد ما دام واقعها هو واقع الميسر نفسه.

وقد كان من الميسر الشائع عندهم المقامرة على جزور يشترونه ويعينون ثمنه ثم يجعلون سهاماً لكل واحد منهم، كلّ سهم معلم بعلامات تدلّ على حظه من قسمة الجزور يعني هذا السهم له حصة واحدة من الجزور، ذاك له اثنان، وبعضها لا حصة له وهكذا، ثم يضعون هذه السهام في (ربابة) أي كنانة كالكيس من القماش، ثم يختارون واحداً يدخل يده في الكيس ويحرك السهام مرتين أو ثلاثاً ثم يخرج سهماً سهماً.

فإن خرج سهم فلان نرى العلامة التي عليه فإن كان عليه (حصة واحدة) يأخذ من لحم الجزور حصةً واحدةً وإن كان عليه حصتان أخذهما بعد قسمة الجزور بعدد الحصص ومن خرج سهمه خالياً من الحصص لم يأخذ شيئاً ودفع ثمن الجزور.

وكانوا يعطون الفقراء فيقامرون وينفعون الفقراء ويدفع أصحاب الأسهم الخالية ثمن الجزور.

هذا من القمار الذي كان شائعاً عندهم، وهو يشمل كلّ مقامرة مهما كانت وسيلتها، فمن قام بأي نوع من أنواع اللعب الذي يدفع فيه المغلوب مبلغاً معيناً فإن عمله هذا يكون مقامرة. وكلّ اشتراك في سحب أوراق بأرقام معينة، فإن خرج رقمه أخذ ومن لا يخرج رقمه ذهب ما دفعه ولا يأخذ شيئاً هو كذلك مقامرة حتى لو أنفق من ريع اليانصيب شيئاً للفقراء أو بعض الجهات (الخيرية) أي ما يسمى اليوم باليانصيب الخيري فهو أيضاً مقامرة ما دام اشتراكاً بأرقام: من خرج رقمه أخذ، ومن لم يخرج رقمه خسر ما دفع ولم يأخذ شيئاً.

---

[١] الترمذي: ١٢٩٥

[٢] أبو داوود: ٣٨٨٣

إنَّ كلّ ذلك يدخل تحت مسمى الميسر، فإن واقع الميسر الذي كان عندهم يشمله:

فقد كان الذي يخرج سهمه يأخذ نصيباً.

وكانوا كذلك ينفعون الفقراء باللحم الذي يخرج لهم.

فالواقع واحد وكلّ مقامرة بالحظوظ تدخل فيه.

وليس هذا كواقع (القرعة) التي وردت في الحديث: "**كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه**"[1]، "**اعتق رجل من الأنصار ستة أعبد عند موته لم يكن له مال غيرهم فبلغ ذلك النبي ثم دعا بهم فجزأهم ثم أقرع بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة**"[2].

فتلك لتعيين حصص المقترعين حيث لكل منهم حصة متشابهة مع الحصص الأخرى، ويراد تعيين حصة كلّ منهم فيقترعون على تعيين تلك الحصص فهم يملكون تلك الحصص ابتداء ولم يملكوها بالمقامرة، فواقعها غير الميسر وهي طيبة حلال والميسر خبيث حرام كما سنبينه إن شاء الله.

والميسر كله حرام ليس بالآية المذكورة فهي قد بينت أن الإثم في تعاطي الميسر أكبر من نفعه، ولكن التحريم قد نزل في آية المائدة التي ذكرناها ﴿ **إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ** ﴾.

وقد ذكرنا كيف أنها شديدة التحريم بناء على دلالة ألفاظها وعقوبة من يتعاطى الميسر (التعزيز) وهي عقوبة في الإسلام يقدرها القاضي بشرط تحقيق الزجر لمتعاطي الميسر، فتكون بالقدر الكافي لعقوبة متعاطي القمار وكذلك لزجر أمثاله ممن يسمعون بعقوبته، فيجب أن تكون شديدة زاجرة بالقدر المناسب للجريمة.

وفي خاتمة الموضوع أقول:

إن الذين يحاولون إخراج (اليانصيب الخيري) المنتشر هذه الأيام من الميسر المحرم بحجة أنهم ينفعون بناتجه بعض الفقراء هم في ضلال وحجتهم داحضة وقولهم باطل لأن واقع الميسر الذي كان منتشراً عند نزول التحريم كان فيه نفع للفقراء بتوزيع اللحم الذي يكسبه أصحاب الميسر ذوي السهام المخصص لها حصص، حتى إنهم كانوا في

---

[1] مسلم: ٢٤٤٥، أحمد: ١١٤/٦، ١١٧، ابن حبان: ١٣/١٠

[2] الترمذي: ١٣٦٤، ابن حبان: ٤٠٧/١٠

الجاهلية لا يأكلون منها بل يعطوها للفقراء ويفتخرون بذلك ويذمون من لا يفعله ومع ذلك كان التحريم منصباً عليه.

ولذلك فاليانصيب الخيري يدخل تحت تحريم الميسر ولا يخرجه من ذلك نفع الفقراء ببعضه، لأن واقع الميسر المحرم منطبق عليه.

٤. ثم يبين الله سبحانه مسألة أخرى، فقد ذكر سبحانه في آية سابقة ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ** ﴾ أولويات الإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل فهي فيمن توجه النفقة إليهم.

ولكن هذه الآية الكريمة ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ** ﴾ بينت أمراً آخر، فهو جواب لسؤال غير السؤال الأول، فهذا كان عن كمية ما ينفقون فبين الله سبحانه أنه ﴿ **ٱلْعَفْوَ** ﴾ وهو ما زاد عن النفقة المعتادة أي من فضل الأموال.

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن نفراً من الصحابة أمروا بالنفقة في سبيل الله تعالى، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا، فما ننفق فيها؟ فنزلت وكان قبل ذلك ينفق الرجل ماله حتى ما يجد ما يتصدق ولا ما يأكل حتى يُتصدَّق عليه.

فكان الجواب فيها أن تكون الصدقة من فضل المال، أي في الزائد عن النفقة المعتادة.

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ بهذا المعنى، فقد أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول**"[1] أي كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوي من المال وبالتالي يتصدق ويترك مالا لنفقة من يعول.

ثم يبين الله سبحانه أن ما أنزله من آيات حول ما ينفقون وحول الخمر والميسر وما سبقه من أحكام، كلّ ذلك ليتفكروا فيما يصلحهم من أمور الدنيا والآخرة وليعتبروا بفناء الدنيا وزوالها فيتقوا الله فيما يعملون ويتطلعوا إلى الآخرة ويسارعوا في الخيرات ليلقوا الله وهو عنهم راضٍ.

---

[1] البخاري: ١٣٠٣، ٢٣٠٣، ٨٠٨٦، مسلم: ١٠٣٤، أبو داوود: ١٦٧٦، النسائي: ٢٥٣٤

٥. ثم يذكر الله سبحانه مسألة أخرى في سياق عدد من الأحكام الشرعية في هذه السورة العظيمة، وهذه المسألة هي جواب سؤال عن موضوع اليتامى فقد تحرج المسلمون الذين كان لديهم أيتام يكفلونهم، تحرجوا من الاقتراب من أموال اليتامى خوفاً من الله ومن عذابه إن لم يحسنوا الولاية، وذلك بعد نزول آية الأنعام ﴿ **وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾الأنعام/آية١٥٢، وكذلك آية النساء ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾** ﴾ النساء/آية١٠ فجعلوا يفصلون طعامهم عن طعامهم وشرابهم عن شرابهم حتى ليفسد بعض ما يزيد من طعام اليتامى دون أن يأكل منه الأولياء تحرجاً من الإثم، فسألوا رسول الله ﷺ فنزلت الآية على نحو ما أخرجه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه وفيها يبين الله ما يلي:

أ. إن كل ما فيه إصلاح لأموال اليتامى وتنميتها وحفظها يمكن للولي فعله وفي ذلك أجر إن أحسن وأخلص فيه.

ب. إن مخالطتهم أفضل من عزلهم، فأن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن بالإصلاح والحسنى لهم خير من عزلهم، وهذه الأفضلية آتية من ذكر الله سبحانه ﴿ **وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ** ﴾ فذكر ﴿ **فَإِخْوَٰنُكُمْ** ﴾ فيه حثّ وتشجيع على مخالطتهم ومعاملتهم كأنهم أفراد عائلتهم زيادة في العناية والاهتمام.

ج. ثم يبين الله لهم أنه سبحانه يعلم من خالطهم للإصلاح أو للإفساد **(أي للمحافظة على أموالهم أو لاتخاذ المخالطة تبريرا لأكل أموالهم).**

د. ثم يُذكِّرهم الله سبحانه في ختام الآية بفضله عليهم بأن يسر عليهم كفالة اليتيم وجوّز لهم مخالطتهم بالحسنى وأعدّ لهم أجرا عظيما على ذلك، ولو شاء الله سبحانه لضيق عليهم ﴿ **لَأَعْنَتَكُمْ** ﴾ في كفالة اليتيم وشدد عليهم العقوبة إن خالطوهم بشيء من أموالهم فالله غالب على أمره لا يعجزه شيء ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله سبحانه ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾** ﴾.

* * *

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ

بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

يذكر الله في هذه الآية الكريمة الأمور التالية:

١. تحريم تزويج المؤمنة من مشرك وتحريم زواج المؤمن من مشركة مهما كان نوع الإعجاب بالمشركين والمشركات أكان مالاً أم جاهاً أم غير ذلك.

والقول بالتحريم ناتج من أن هناك نهياً ﴿ **وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ** ﴾ ﴿ **وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ وهناك قرينة تفيد النهي الجازم وهي: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ** ﴾ فيكون النهي جازماً أي حراماً.

٢. المشرك والمشركة هنا يشمل كلّ كافر بدلالة ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ** ﴾ أي يدعون إلى الكفر المؤدي إلى النار، وذلك لأن النار ذكرت هنا في مقابلة الجنة وأصحاب النار الذين لن يدخلوا الجنة هم الكفار، ولذلك فإن ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ** ﴾ علة للتحريم ولخيرية الأمة المؤمنة على الحرة المشركة وخيرية العبد المؤمن على الحرّ المشرك وذلك في موضع النكاح ـ الزواج ـ.

أي أنّ ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ** ﴾ علة لخيرية المؤمنين وتحريم زواج المؤمنين من مشركات أو المؤمنات من مشركين.

وهذا التعليل بهذا المعنى يشمل (**الذين يدعون إلى الكفر المؤدي إلى النار**) وهو لكلّ كافر مهما كانت نوعيته.

ولا يقال إن (**لفظ مشرك**) لا يشمل (**أهل الكتاب**) فتحريم الزواج من المشركين والمشركات لا يشمل أهل الكتاب، حيث وردت آيات تفصل المشركين عن أهل الكتاب ﴿ **مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ** ﴾ البقرة/آية١٠٥ لا يقال ذلك من وجهين:

أ. أن اليهود والنصارى مشركون بنصّ الكتاب، فقد قال الله سبحانه: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾** ﴾ التوبة/آية٣٠ـ ٣١ فاليهود والنصارى مشركون.

ب. إنَّ {المشركين} إذا أطلقت عرية من القرائن فهي تدلّ على من جعل مع الله أنداداً شركاء، أي للدلالة على نوع من أنواع الكفر فإذا وردت مع قرينة فهي بحسب القرينة، وهي هنا وردت معللة (**بأنهم يدعون إلى النار ولا يدخلون الجنة**) وهذه العلة تشمل كلّ كافر من أهل النار وليس من أهل الجنة.

أما الآية ﴿ **مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ البقرة/آية١٠٤ فهي أسماء لأنواع من الكفر: أهل الكتاب والمشركين، وكلّ منهما تدل على مسماها، ولذلك فإن ﴿ **ٱلْمُشْرِكَـٰتِ** ﴾ و﴿ **ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ في الآية تشمل كلّ كافر من أهل الكتاب أو من غيرهم كما بيّنا.

أي أن هذه الآية تفيد:

تحريم زواج المؤمن من كافرة.

وتحريم زواج المؤمنة من كافر.

٣. لقد ورد تخصيص هذه الآية العامة في كل كافر بآية المائدة ﴿ **ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ المائدة/آية٥.

فهنا تخصيص لنوع من أنواع الكفر، وهنَّ المحصنات الكتابيات، أي اليهوديات والنصرانيات فهنَّ اللاتي يطلق عليهن هذا اللفظ شرعا، ولذلك فالزواج من نساء أهل الكتاب المحصنات (**العفيفات**) يجوز للمسلمين.

أما زواج المسلمة من الكفار فقد بقي على عمومه، ولم يرد له تخصيص في أي نوع من الكفار سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

٤. أما لماذا قلنا إن ﴿ **ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ** ﴾، أي (أهل الكتاب)، تطلق على اليهود والنصارى فالنصوص في ذلك كثيرة في الكتاب والسنة منها: ﴿ **يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٥** ﴾ آل عمران/آية٦٥ أي أن أهل الكتاب هم اليهود (التوراة) والنصارى (الإنجيل). ولما سئل رسول الله ﷺ عن التعامل مع المجوس قال صلوات الله وسلامه عليه: "**سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم**"[1] أي كاليهود والنصارى إلا في الذبائح

[1] الموطأ: ٥٤٤، المعجم الكبير للطبراني: ١٩/٤٣٧، البيهقي: ٩/١٨٩، ابن أبي شيبة: ٣/٢٢٤، ١٢/٢٤٣، عبدالرزاق: ١٠٠٢٥

والنساء. وغير ذلك من النصوص.

٥. إلا أن المستثنى من التحريم من نساء أهل الكتاب أي العفيفات، أما ما يفعله بعض المسلمين الذين ينتقلون في بلاد الكفار من الشرق والغرب فيتزوجون من نسائهم دون أن يهتموا بالعفاف فهذا مخالف للحكم الشرعي لأن واقع تلك البلاد يهيمن عليه ما يسمونه بالحرية الشخصية والتي تجعل الزنا عندهم أمرا معتادا، ولذلك فمن الأهمية بمكان أن يهتم الشباب المسلم بهذا الأمر، فإن وجدوا العفيفة من أهل الكتاب فيحلّ لهم ذلك وإن لم تكن فلا تحلّ لهم حفاظا على أحكام الشرع وعدم اختلاط الأنساب وعدم الوقوع في مآسٍ كثيرة نتيجة تلك الحالات.

روى ابن عطية أن حذيفة بن اليمان تزوج بكتابية، فأراد عمر أن يفرق بينهما فقال له حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن.

وروي عن ابن عباس نحو هذا، أي أن عمر كره له ذلك لاحتمال عدم العفاف فكيف إذا تحقق كما في بلاد الكفار هذه الأيام؟

وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير تزوج يهودية فكتب إليه عمر: خلِّ سبيلها. فكتب إليه: أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تعافوا المؤمنات.

فقد كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس بالمسلمات. ومن ذلك يتبين أن الشاب المسلم إن أراد الزواج من كتابية عليه أن يطمئن أنها عفيفة لا تتعاطى الزنا، فإن عثر على هذه يجوز له الزواج منها ولكن الأولى أن يتزوج من المسلمات.

يقول ﷺ: **"تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"**[١].

٦. وبناء على ما سبق، فإنه لم يستثن من تحريم الزواج من الكافرات إلا نساء أهل الكتاب المحصنات ـ أي العفيفات ـ وغير ذلك فالآية تحرمه على نحو ما بيناه.

ويكون معنى الآية:

يحرم عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوا الكافرات باستثناء نساء أهل الكتاب

[١] البخاري: ٤٧٠٠، مسلم: ٢٦٦١، الترمذي: ١٠٠٦

العفيفات، فإن أمة مؤمنة خير من مشركة مهما كان حسنها، وكذلك يحرم عليكم أن تزوجوا المؤمنات من الكفار بأنواعهم كلها ـ المشركين وأهل الكتاب والمجوس وغيرهم من الكفار ـ فإن عبداً مؤمناً خير من مشرك مهما كان سبب إعجابكم به، وذلك لأن دعوة الكفار وطريقهم هي إلى النار، وأما دعوة المؤمنين وطريقهم فهي الجنة والمغفرة من الله سبحانه.

ثم يبين الله سبحانه في خاتمة الآية أن آيات الله هذه التي أنزلها مبينة ملازمة دعوة الكفار للنار، ودعوة المؤمنين للجنة والمغفرة من الله، هذه الآيات مدعاة لأن تكون موضع تذكر من قبل المؤمنين ليوم الحساب، الجنة أو النار فيحرصوا بذلك على ما يقربهم من الجنة ويبعدهم عن النار.

﴿ **وَلَا تَنكِحُواْ** ﴾ أي لا تتزوجوا.

﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ** ﴾ الأمة هنا مقابل الحرة لأن الموضوع هو في بيان الخيرية والتفاضل بين الإيمان والشرك، فناسبه أن الإيمان يرفع حتى الإماء الواقعات في الرقّ، ويخفض حتى الحرائر المشركات، أي أن الإيمان يجعل الأمة أعلى درجة وأفضل مكانة من الحرة المشركة ففي الآية تفضيل الأمة المؤمنة على المشركة مطلقاً، أما تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة فهو من باب أولى (مفهوم الموافقة).

﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ جواب الشرط محذوف دلت عليه الجملة السابقة، أي لا تتزوجوها ولو أعجبتكم فأمة مؤمنة خير منها.

والإعجاب يدخل فيه كلّ ما يزينها في عين المريد زواجها كجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها.

يقول رسول الله ﷺ: "**لا تَزَوَّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنُهن أن يُرْدِيَهُن، ولا تَزَوَّجوهن لأموالهن فعسى أموالُهن أن تُطْغِيَهن، ولكن تَزَوَّجوهن على الدين ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل**"[1].

﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ** ﴾ البدء بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد، هي للمبالغة في الحرص على المؤمنات وتحريم زواج المشركات، وكذلك ﴿ **وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** ﴾ لإفادة المعنى نفسه: الحرص على المؤمنين وتحريم زواج المؤمنة

[1] ابن ماجه: ١٨٤٩، الدر المنثور: ٢/٦١٦

من مشرك.

"**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**"[١].

﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ ذكر هنا ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وذكر في الآية السابقة ﴿ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأن الآية السابقة كانت تعقيباً على أمور محسوسة: الخمر والميسر واليتامى والإصلاح لهم، فقال الله سبحانه بعدها ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ ﴾ أي تفكروا في هذه الأمور المحسوسة لديكم لتلتزموا بناء على هذا التفكر بما يصلح دنياكم وآخرتكم.

وأما هنا فيقول سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

فموضوع النار والجنة أمور ليست واقعة تحت حسّ الإنسان ليتفكر فيها، بل هي تعتمد على النقل والتذكير فقال الله سبحانه: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

بعد أن بين الله سبحانه تحريم الزواج من الكافرات ـ باستثناء الكتابيات العفيفات ـ وتحريم زواج المؤمنات من الكفار بشتى أنواعهم دون أي استثناء، بعد ذلك يبين الله في هاتين الآيتين أحكاماً تتعلق بمعاشرة الأزواج لزوجاتهم تؤدي إلى حياة زوجية طاهرة متآلفة.

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يبين الله سبحانه ما يلي:

١. تحريم الجماع للزوجة في المحيض، أي في مكان الحيض وهو الفرج إلى أن

---

[١] الترمذي: ١٠٨٤، ابن ماجه: ١٩٦٧، ابن حبان في الثقات: ٤٩١/٥

ينقطع الدم.

٢. إباحة إتيان الرجل زوجته بعد انقطاع الدم وندبه بعد الانقطاع والاغتسال.

٣. تحريم إتيان المرأة في غير مكان الزرع وهو الفرج، فيحرم إتيانها في دبرها بل في مكان الزرع أي محل النسل فقط.

أما وجه الاستدلال من الآيتين الكريمتين فعلى النحو التالي:

١. يقول سبحانه: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ** ﴾.

و﴿ **ٱلْمَحِيضِ** ﴾ هو مكان الحيض أي الفرج، وهو أرجح من تفسيره بالمصدر حيث إن السؤال كان عن مباشرة النساء فأمر الله سبحانه باعتزالهن بالنسبة للجماع وليس باعتزالهن في غير ذلك.

فإذا فسر ﴿ **ٱلْمَحِيضِ** ﴾ بالمصدر يكون السؤال عن سيلان الدم من حاض السيل وفاض أي: سال، وإن كان السؤال كذلك وكان الجواب كذلك يكون المعنى: يسألون عن أيام سيلان الدم (حيض المرأة) والجواب: فاعتزلوا النساء في هذه الأيام، وليس هذا المقصود من الآية بدليل مناسبة نزولها فإنها أمر بعدم اعتزالهن إلا في الجماع. أما إن كان السؤال عن مكان الحيض، يكون الجواب: فاعتزلوهن وبالتالي يكون المقصود اعتزال موضع الدم دون باقي الأمور.

وهذا هو المناسب بمدلول الآية وسبب نزولها: "**عن أنس** رضي الله عنه **أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة عندهم لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها في البيوت وأخرجوها من البيت، فسأل أصحاب رسول الله** ﷺ **النبي** ﷺ **فأنزل الله ـ عز وجل ـ:** ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ** ﴾ إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: **اصنعوا كل شيء إلا النكاح.** فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إنَّ اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ **فتغير وجه رسول الله** ﷺ **حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله** ﷺ **فأرسل في أثارهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما**"[١].

[١] مسلم: ٤٥٥، النسائي: ٢٨٦، الترمذي: ٢٩٠٣

فقوله: ﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ﴾ يعني الفرج لقوله ﷺ: **"اصنعوا كل شيء إلا النكاح"**.

أما قولنا إن هذا حرام فلأن في الآية نهي عن الجماع للنساء مدة الحيض فهو طلب ترك.

وقوله سبحانه: ﴿ قُلۡ هُوَ أَذٗى ﴾ أي مستقذر، ووضع غاية لمنع الجماع حتى ينتهي هذا الأذى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾ يفيد توقف المنع على انتهاء مدة الأذى فهو وصف مفهم يفيد الجزم لأنه إن لم يفد الجزم فإن الزوج يستطيع أن يفعله في وقت الحيض فلا تكون للغاية المذكورة أية دلالة، وحيث قد رتب منع الجماع على ذلك الوصف مع الغاية فإنه يدل على الجزم، فيكون طلب الترك طلباً جازماً أي أن الجماع في مدة الحيض حرام.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ أي عن (مكان الحيض).

﴿ قُلۡ هُوَ أَذٗى ﴾ قل هو موضع أذى في فترة الحيض.

﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ﴾ أي فاعتزلوا النساء في مكان الحيض.

﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ﴾ أي عدم الجماع.

وهكذا يكون الحرام هو الجماع، أما غير ذلك من العيش معا فلا شيء فيه. تقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **"كنت أَتَعَرَّقُ العَرْق وأنا حائض فأعطيه للنبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه"**[1] أي أن الرسول ﷺ كان يكمل الأكل من العرق ـ العظم الذي عليه لحم ـ الذي تأكل منه عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي حائض، وكذلك تشرب ويشرب بعدها.

أي أن العيش بين الرجل وزوجته الحائض لا شيء فيه إلا الجماع.

كلّ ذلك قبل أن ينقطع الدم، فإذا انقطع فلا حرمة لأن الله سبحانه جعل غاية لذلك ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾ ويَطْهُرْن أي ينقطع الدم عنهن، فالطُّهْرُ إذا نسب للمرأة لا يدل على الاغتسال لغة، بل معناه فيها انقطاع الدم فإنَّ (طَهُرَتْ) خلاف (طَمِثَتْ)، وامرأة طاهر ونساء طواهر: طَهُرْن من الحيض أي انقطع دمهن.

---

[1] مسلم: ٤٥٣، النسائي: ٦٩

أما القول بأن هذه الآية تقرأ قراءتين متواترتين ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بالتخفيف، وكذلك ﴿ **يطّهرن** ﴾ بالتشديد فهذا صحيح، والتخفيف تعني انقطاع الدم لا غير، فهي من المحكم وقراءة التشديد تعني انقطاع الدم والاغتسال فهي من المتشابه ولأنهما قراءتان متواترتان والمحكم قاض على المتشابه فإن المعنى في القراءتين يكون قد تعين بانقطاع الدم.

أي أن التحريم ينتهي بانقطاع الدم من مفهوم الغاية ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ فهو يعني: (ولا تجامعوهن حتى ينقطع الدم) فغايته انقطاع الدم.

فمن أتى امرأته قبل انقطاع الدم فقد ارتكب حراماً وعليه عقوبة تعزيرية إن وصل أمره للقضاء في الدولة الإسلامية يقدرها القاضي بما تزجره، ويجوز للقاضي أن يحكم عليه بصدقة يخرجها كما أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس موقوفاً عليه في الصحيح: "**أن من أتى امرأته وهي حائض يتصدق بدينار إن كان دما أحمر أو نصف دينار إن كان دما أصفر**"[1] ويجوز للقاضي أن يقدرها بعقوبة أخرى تزجر فاعله، هذا إن وصل خبره إلى القضاء وإن لم يصل فليتب الفاعل ويستغفر ربه وعسى الله أن يغفر له ويتوب عليه إن كان صادقاً مخلصاً ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ** ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

٢. إن الآية تفيد جواز مباشرة النساء بعد الحيض في حالتين:

أ. إذا انقطع الدم بقوله سبحانه ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ ومفهومه الحل بعد انقطاع الدم.

ب. وبعد الاغتسال بعد انقطاع الدم ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ** ﴾ فيجوز هذا وذاك ولا تناقض بين مفهوم الأولى ومنطوق الثانية.

غير أن الفارق أن قوله سبحانه: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ** ﴾ جعل غاية لتحريم المباشرة وهي انقطاع الدم، فإذا انتهى هذا الأمر تعود المباشرة للمرأة كما كانت قبل وجود المانع وهو (الحيض) فتكون المباشرة للمرأة وبعد انقطاع الدم مباحة أي لا إثم فيها.

أما قوله سبحانه: ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ** ﴾ فهي تعني أن إتيان المرأة بعد انقطاع الدم وبعد الاغتسال يكون مندوباً، وذلك لأن قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ**

[1] أحمد: ١٩٢٨، الدر المنثور: ٢/٤٢٤

﴿ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ ﴾ هو مدح للمتطهرين وفيه دلالة إشارة على مدح الزوج الذي لم يأتِ زوجته إلا بعد أن ينقطع الدم وتغتسل ولأن هذا المدح بدون قرينة جازمة فيكون مندوباً كما هو مبين في الأصول.

ومما يجدر ذكره ويجب أن يلفت النظر إليه أن المندوب غير المباح، ففي المندوب ثواب وأجر بالنسبة لمن أتى امرأته بعد أن ينقطع دمها وتغتسل وليس كالإباحة في إتيانها بعد انقطاع الدم فإن ذلك الأجر في هذه الحالة يفوته.

٣. أما إتيان المرأة فيحرم أن يكون في غير موضع الزرع، أي موضع الولد وذلك لأن الله سبحانه يقول: ﴿ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ قال ابن عباس: أي الفرج ولا تعدوه إلى غيره. وفي الآية الثانية بين الله ذلك فقال: ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴾ أي هنّ حرث لكم بمعنى مكان الزرع لكم، فقد تحدد الإتيان بمكان الزرع أي مكان النسل.

﴿ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴾ أي كيف شئتم مستلقية أو على جنب أو من قدام أو خلف ولكن في مكان الزرع، مكان النسل أي القبل.

ولذلك يحرم على الرجل أن يأتي امرأته في دبرها، وتسمى هذه باللوطية الصغرى وعلى فاعلها عقوبة تعزيرية زاجرة يقدرها القاضي لتردعه وتردع غيره، وذلك إذا وصل أمره للقضاء فإن لم يصل فعقوبته تكون يوم القيامة إلا أن يغفر الله له فالله غفور رحيم ولكنه سبحانه كذلك شديد العقاب.

أما لماذا قلنا إن الآية تفيد تحريم إتيان النساء في أدبارهن، فلأن في الآية نهي عن إتيان غير محلّ الزرع وذلك من مفهوم الآية ﴿ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴾ وهناك قرينة على الجزم قوله سبحانه ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ ﴾ فهو وعيد من الله سبحانه لمن عصاه أن يعلم أنه ملاقيه، وفي هذا ما فيه من الوعيد فالأمر بالتقوى والوعيد بأنه ملاقيه تعني تهديدا من الله بالعقوبة وهي قرينة على أن الإتيان في غير مكان الحرث أي الدبر منهي عنه نهياً جازماً أي أنه حرام.

وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك بالإضافة للآية الكريمة:

أخرج البخاري وجماعة عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها ثم حملت جاء الولد أحول، فأنزل الله الآية: ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ

﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي أن الله بين كذب ما زعموه.

أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "إن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأته وهي مدبرة جاء الولد أحول. فأنزل الله **﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾** فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مقبلة ومدبرة إن كان ذلك في الفرج**"[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحلّ أن تأتوا النساء في حشوشهن**"[2] أي في أدبارهن.

أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى**"[3].

ثم يختم الله الآية مبينا للمؤمنين أن يقدموا خيراً لأزواجهم عند المعاشرة والمباشرة من عمل صالح وإحسان بينهم وتسمية عند الجماع وما يدعو للألفة وحسن الصحبة من مقدمات، وأن يتقوا الله في كلّ ما يفعلون ويتذكروا دائماً أنهم لا بدّ ملاقو الله سبحانه فيجزيهم على كلّ معصية يعصونها أو خطأ يرتكبونه.

وفي الوقت نفسه بشر الله المؤمنين الملتزمين طاعته سبحانه الصادقين المخلصين بنعيم كبير ورضوان من الله أكبر **﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾**.

* * *

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

في سياق بيان الله سبحانه لعدد من الأحكام، فإن الله يبين في هذه الآيات ما يلي:

١. ينهى الله سبحانه عن أن يقسم أحد يمينا على عدم فعل خير ما، وأن يتخذ التمسك باليمين وعدم الحنث به حجة له في عدم فعل ذلك الخير ظناً منه وجوب البر

---

[1] الدر المنثور: ٦٢٧/٢، الكامل لضعفاء الرجال لابن عدي: ١٣/٧، ووثقه، تاريخ بغداد: ٤٨٤/١٢

[2] الدر المنثور: ٦٣٢/٢، الدارقطني: ٢٨٨/٣

[3] أحمد: ١٨٧/١، الدر المنثور: ٦٣٤/٢

بالقسم في هذه الحالة وإلا عصى الله.

وهكذا يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن حلف اليمين لا يصحّ أن يمنعه من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، بل عليه أن يفعل الخير ويكفر عن يمينه كما جاء في الحديث: "**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه ويفعل الذي هو خير**"[1].

وروى الكلبي أنها نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف على ختنه بشير بن النعمان أن لا يدخل عليه أبدا ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين امرأته بعد أن كان طلقها وأراد الرجوع إليها والصلح معها. وفي سبب النزول ما يدل على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يمنعه يمينه عن فعل الخير الذي حلف أن لا يفعله.

وفي خاتمة الآية الكريمة يبين الله سبحانه أنه سميع لأيمانهم عليم بأحوالهم ومقاصدهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو سبحانه يعلم سرهم وجهرهم ﴿ **وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾** ﴾.

﴿ **عُرْضَةً** ﴾ على وزن فُعلة مثل (غرفة) من عرض الشيء يعرض أو يعرُض من باب نصر وضرب بمعنى جعله معترضاً أي حاجزاً.

﴿ **وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ** ﴾ أي لا تجعلوا الله تعالى حاجزا لأجل حلفكم به عن البر والتقوى والصلاح بمعنى عدم جعل الحلف بالله مانعاً لأن تفعلوا البر والتقوى والإصلاح بين الناس الذي حلفتم ألا تفعلوه.

فاللام في الآية ﴿ **لِّأَيْمَٰنِكُمْ** ﴾ للتعليل، أي لأجل أيمانكم و﴿ **أَن تَبَرُّواْ** ﴾ في تقدير (لأن تبروا).

٢. في الآية الثانية يبين الله فضله على هذه الأمة، فلقد تجاوز لنا عن اللغو في الأيمان أي التي تجري على اللسان دون قصد اليمين كما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "أنزلت هذه الآية ﴿ **لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ** ﴾ من قول الرجل لا والله وبلى والله"[2] وقد روي عن أبي قلابة: لا والله وبلى والله لغة من لغات العرب لا يراد بها اليمين، وهي من صلة الكلام، ولقد عفا الله سبحانه عن مثل هذا اللغو في اليمين ولم يؤاخذنا إلا بما كسبت قلوبنا أي بما قصدته من أيمان حيث يوافق فيها لفظ اليمين ما استقر في القلوب.

---

[1] مسلم: ٣١١٣، ابن حبان: ١٩٦/١٠

[2] البخاري: ٤٢٤٧، ٦١٧٠

وهذه المؤاخذة منها ما تجبره الكفارة فيؤديها صاحبها ولا شيء عليه لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومنها ما لا تنفع فيه كفارة ولا تجبره بل عليه عقوبة تعزيرية شديدة من الدولة الإسلامية في الدنيا أو عقوبة عظيمة في الآخرة.

أما الأولى فهي الأيمان المنعقدة والتي لا ينفذها صاحبها ويحنث فيها، وهي التي ينشؤها صاحبها ولا ينفذها كأن يقسم لأفعلن كذا ثم لا يفعل، ففيها الكفارة كما بينته سورة المائدة ﴿ **وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ** ﴾ المائدة/آية٨٩ وتنفيذ الكفارة يعفيه من أي شيء بعدها لا من قبل الدولة الإسلامية في الدنيا ولا في الآخرة.

والثانية الأيمان الكاذبة المتعمدة فيقسم المرء على حدوث شيء وهو يدرك أنه كاذب وهي المسماة باليمين الغموس التي تغمس صاحبها في نار جهنم، فتقتطع بها الحقوق وينشر بها الفساد.

وهذه الأيمان لا يجبرها كفارة، فلا كفارة فيها بل عقوبة تعزيرية شديدة في الدنيا من قبل الدولة الإسلامية يقدرها القاضي محققاً فيها الزجر لصاحبها ولمن يسمع بها لشدتها، فإن لم يصل خبره إلى الدولة الإسلامية فقد توعده الله بعذاب شديد شديد كما بينه الرسول ﷺ من حديث ابن عمر قال: "**جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ فذكر الحديث وفيه اليمين الغموس وفيه قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: الذي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب**"[١].

وعن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: **خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله وقتل النفس بغير حق وبهت مؤمن والفرار يوم الزحف ويمين يقتطع بها مالاً بغير حق**"[٢] أي اليمين الغموس.

ولقد ختم الله الآية بأنه سبحانه لا يؤاخذنا باللغو بل بما كسبت قلوبنا كما بيناه، فهو سبحانه ﴿ **غَفُورٌ** ﴾ حيث لم يؤاخذنا باللغو ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ فلم يعجل العقوبة لمستحقيها. و(الحليم) من حَلُمَ يَحلُم حِلْماً إذا أمهل بتأخير العقاب.

---

[١] البخاري: ٦٤٠٩

[٢] أحمد: ٣٦٢/٢

* * *

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هاتين الآيتين حكما آخر من الأحكام الشرعية في السياق نفسه الذي ذكرناه سابقاً، وهذا الحكم هو أن الحلف بعدم جماع المرأة فوق أربعة أشهر وهو ما يسمى بالإيلاء حكم مختلف عن الأيمان الأخرى التي ذكرناها في تفسير الآية السابقة، فهو هنا إما أن يقسم أن لا يجامع زوجته أربعة أشهر فما دونها أو فما فوقها فيترتب عليه ما يلي:

أولاً: إن كان الحلف على عدم الجماع أربعة أشهر أو أقل من أربعة أشهر فهو لا يسمى (إيلاء) بل هو في هذه الحالة يمين كالأيمان المعتادة إن نقضه فجامع زوجته قبل المدة التي أقسم عليها يكون حنث بيمينه ويكفر اليمين وإن لم يجامعها المدة التي حلف عليها ـ وهي أقل من أربعة أشهر في هذه الحالة ـ يكون قد برّ بيمينه ولا شيء عليه كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **"أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهراً فنزل لتسع وعشرين وقال: الشهر تسع وعشرون"**[1].

ثانياً: أن يحلف ألا يجامع زوجته فوق أربعة أشهر وهو ما يسمى بالإيلاء الشرعي والذي له أحكام بينتها الآيتان الكريمتان، ويكون الحكم على النحو التالي:

أ. إن جامعها قبل أربعة أشهر يكفر عن يمينه وينتهي الأمر.

ب. إن استمر لا يجامعها حتى انتهاء الأربعة أشهر فيوقف ويجبر على أحد أمرين:

أولاً: إما أن يفيء أي يرجع لما كان عليه قبل أن يحلف وهو كناية عن الجماع، ويكفر عن يمينه.

ثانياً: وإما أن يطلق.

فإن رفض هذا وذاك طلق عليه الحاكم.

وما بيناه آت من دلالة الآيتين الكريمتين المذكورتين على النحو التالي:

﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ** ﴾ الإيلاء ـ في أصله ـ الحلف الذي يقتضي النقيصة

---

[1] البخاري: ٢٩٨، ٣٦٥، ٤٨٠٣

في الأمر الذي يحلف عليه فيحلف أن يعمل سوء أو ينقص من خير على نحو قوله سبحانه ﴿ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً ﴾ آل عمران/آية١١٨ ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ النور/آية٢٢ ثم أصبح له معنى شرعي وهو الحلف المانع عن جماع المرأة.

﴿ مِن نِّسَآئِهِمۡ ﴾ أي زوجاتهم، وفيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات وليس بالإماء.

﴿ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ ﴾ التربص هو الانتظار والتوقف، أي أن له أربعة أشهر فقط مهلة وبعدها عليه التوقف لتقرير أحد الأمرين المذكورين فيما بعد.

﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا لما كانوا عليه كناية عن الجماع.

﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ فيه دلالة على أن الزوجة لا تطلق بمضي المدة إلا أن يطلقها زوجها أو يطلق عليه الحاكم.

وبالتالي يكون معنى الآية:

إن الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم فوق أربعة أشهر فإنهم عند مضي الأربعة أشهر يوقفون لتنفيذ أحد أمرين: إما أن يفيئوا ويرجعوا إلى ما كانوا عليه كناية عن الجماع ويكفروا أيمانهم، أو يطلقوا فإذا أبوا طلق عليهم الحاكم.

ويختم الله سبحانه الآيتين:

﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ ﴾ لما حدث منهم من اليمين على إضرار المرأة تلك المضرة.

﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧ ﴾ سميع لإيلائهم الذي صار منهم طلاقاً، عليم بغرضهم من هذا الإيلاء فيجازيهم بما يستحقونه.

* * *

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ

أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات البينات أحكام تتعلق بالطلاق بعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة بعض الأحكام المتعلقة بالزواج والمعاشرة بين الأزواج:

١. يبين الله سبحانه أن النساء ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن إذا طلقن فعدتهن أن ينتظرن بدون زواج مدة ثلاثة قروء، وأنّه يحرم عليهن أن يكتمن واقع حيضهن أو حملهن لأي سبب كان لأنَّ العدة تتوقف على صدقهن في ذكر ما في أرحامهن من حيض وحمل كما فسرها ابن عمر – رضي الله عنهما – .

ثم إن أزواجهن لهم الحق في إرجاعهن إلى عصمتهم خلال فترة العدة في الطلاق الرجعي أي المرة أو المرتين كما في الآية اللاحقة.

ويحث الله سبحانه الأزواج عند مراجعتهم لأزواجهم أن يكون ذلك بقصد الإصلاح والإحسان في الحياة الزوجية والمعاشرة الطيبة وليس من باب مضايقة المرأة، فلا هو يريدها ولا يتركها.

وفي خاتمة الآية يبين الله سبحانه وجوب أداء المرأة ما أوجبه الله من حقوق عليها لزوجها، وأداء الرجل ما أوجبه الله من حقوق لزوجته فالرجل والمرأة مطالبان بأداء الأحكام الشرعية المتعلقة بهما سواء بسواء من حيث الأداء على وجهه، في الوقت الذي يبين الله سبحانه أن الرجال لهم درجة على درجة النساء وهي التي بينها الله سبحانه في آية النساء ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ النساء/آية٣٤ أي قوامة رعاية فهو المسؤول عن البيت وصاحب الإذن فيه وصاحب النفقة على أهله وغير ذلك من

الأحكام المتعلقة بالرجل دون المرأة في هذا الباب.

والله سبحانه هو أعلم بما يصلح مخلوقاته وما يناسب الرجل والمرأة من أحكام، وهو سبحانه عزيز غالب لا يعجزه معاقبة من خالف الأحكام الشرعية رجلاً كان أو امرأةً، وهو حكيم عالم بعواقب الأمور وما يناسبها وما يصلحها.

﴿ **وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ** ﴾ (ال) هنا للعهد فهي عن مطلقات مخصوصات بالحرائر المدخول بهن اللائي يحضن، وذلك لأن غير هذا الصنف من النساء عدتهن غير هذه كما قال سبحانه ﴿ **وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ** ﴾ الطلاق/آية٤ وكذلك التي يتوفى عنها زوجها، فإن عدتها أربعة أشهر وعشر: ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ** ﴾ البقرة/آية٢٣٤ وكذلك فإن الأمة تَعْتَدُّ بقُرْأين لأنها على النصف من الحرة: أخرج الدارقطني وغيره عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: "**طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان**"[1] وكذلك فإن غير المدخول بها لا عدة لها لقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾** ﴾ الأحزاب/آية٤٩.

وقلنا ﴿ **وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ** ﴾ (ال) هنا للعهد أي لمطلّقاتٍ مخصوصات وهن الحرائر المدخول بهن ذوات الأَقْراء، قلنا ذلك ترجيحاً على كونها للعموم، ثم خُصصتْ في (غير الحرائر وغير المدخول بهن وغير ذوات الأقراء الصغيرات والكبيرات وغير ذوات الأحمال) لأن الأنسب في تخصيص العام أن يكون الباقي بعد التخصيص أكثر، وليس أن يكون المخصَّص هو الأكثر كما هو واضح هنا لهذا رجحنا كون (ال) للعهد على كونها للعموم ثم خُصصتْ.

وترجيح العهد بدل الاستغراق أو العموم آتٍ كذلك من ذكر ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ** ﴾ فهي إذن لنساء مخصوصات ذوات قروء.

﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ** ﴾ ينتظرن ثلاثة قروء أي إن عدتهن هي ثلاثة قروء.

أما ما هو (القرء)؟ فهو في اللغة يأتي بمعنى الحيض والطهر والراجح هنا أنه

---

[1] الترمذي: ١١٠٢، أبو داوود: ١٨٧٢

(الحيض) لما يلي:

أ. "روي أن فاطمة بنت أبي حبيش قالت: **يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال ﷺ: لا، دعي الصلاة أيام أقرائك**"[1] وهذا يدلّ أن (القرء) هو الحيض، أيام أقرائك أي أيام حيضك.

ب. عن عائشة أنه ﷺ قال: "**طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان**" في مقابل عدة الحرة ثلاثة قروء أي ثلاث حيضات، فنصف عدة الحرة (نصف ثلاثة قروء) أي قرآن اثنان فيكون القرء هو الحيض. وقد قيل في هذا الحديث إن أحد رواته (مظاهر بن أسلم) لا يعرف له غير هذا الحديث مما اعتبره بعضهم مجهولا إلا أن ابن حبان وثقه، وقال الحاكم: "مظاهر شيخ من أهل البصرة ولم يذكره أحد من متقدمي مشايخنا بجرح" ولهذا فالحديث حسن.

أما قوله تعالى: ﴿ **إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ الطلاق/آية١ واعتبار أنّ ﴿ **لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ أي لأول العدة، وحيث أن الطلاق حسب الشرع هو ما كان بعد الطهر من الحيض أي أن أول العدة هو الطهر وبذلك يكون القرء هو الطهر كما جاء فيما رواه الشيخان أن ابن عمر – رضي الله عنهما – طلق امرأته وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ ثم قال: "**مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر قبل أن تمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء**"[2].

فإن هذا القول متوقف على معنى (اللام) في ﴿ **لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ وفي "يُطلَّق لها النساء" و(اللام) في مثل هذه الحالة مشتركة المعنى: فقد تأتي لأول الوقت (كتبت لغرة كذا) فالفعل وقع فيه أي مع دخول الوقت، وقد تأتي بعد الوقت (كتبته لليلة خلت من كذا) أي تم الفعل بعد الوقت، وقد تأتي قبل الوقت (كتبته لليلة بقيت من كذا) أي تم الفعل قبل الوقت والقرينة هي التي تبين المعنى المقصود.

وهنا يكون (لعدتهن) قبل بدء عدتهن لقرينة وقوع الطلاق، فالطلاق يقع قبل بدء العدة، وهكذا "فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء" أي تطلق النساء قبل عدتهن، وبالتالي فلا تناقض بين اعتبار (القرء) بمعنى (الحيض) كما في الحديثين اللذين ذكرتهما

---

[1] أحمد: ٢٤٥٠٠، الدارمي: الطهارة رقم ١٨٢ واللفظ "**اجتنبي الصلاة أيام محيضك، اجلسي أيام أقرائك**"

[2] الترمذي: ٤٨٥٠، ٤٩١٦، مسلم: ٢٦٧٥، ٢٦٧٦

في البداية وبين حديث الشيخين في موضوع ابن عمر، فإن العدة تبدأ بالحيض ولما علم رسول الله ﷺ أن ابن عمر طلق زوجته في الحيض أمره بمراجعتها إلى أن تحيض وتطهر ويطلقها في الطهر الذي يسبق بدء العدة من الحيضة التالية، فالطلاق حسب الشرع هو الذي يتمّ في طهر لم تمسّ المرأة فيه قبل بداية العدة من الحيضة التالية، ثم يعد بعدها حيضتان فتكون ثلاثة قروء وتنتهي بذلك عدة المرأة الحرة المدخول بها ذات الحيض.

ولا يقال إن الآية ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ** ﴾ فيها تأنيث للعدد (ثلاثة) أي أن المعدود مذكر (قرء) فكيف يكون قروء بمعنى (حيضات) جمع حيضة لأن العدد حينذاك يكون مذكرا (ثلاث)؟ لا يقال ذلك لأن العدد يجوز التأنيث فيه إن كان لفظ المعدود مذكراً بغضّ النظر عن معناه كما نقول (له ثلاث من البط ذكور) فقد جعلت العدد مذكراً بناءً على لفظ المعدود المؤنث (البط جمع بطة) وهكذا فلفظ (قروء) جمع (قرء) لفظ مذكر فيجوز تأنيث العدد معه. فيجوز أن يعامل العدد مع اللفظ ومع المعنى أما اللفظ فقد ذكرناه، وأما المعنى فقوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**﴾ فالعدد مؤنث وهو يطابق المعدود من حيث المعنى، أي لم يؤخذ المعدود بلفظه (سبط أسباط) بل بمعناه (فرقة فرق).

ولذلك قلنا إن الراجح في معنى (القرء) هو الحيض لأن حديث الرسول ﷺ لفاطمة بنت أبي حبيش صريح في الموضوع: "**دعي الصلاة أيام أقرائك**" ولحديث عائشة عن عدة الأمة وهو صريح (حيضتان) ولأن اللام في قوله تعالى ﴿ **لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ وحديث الشيخين: "**يطلق لها النساء**" يعني قبل بدء عدتهن كما بيناه أعلاه. ويكون الجمع بين الأدلة يرجح معنى القرء في الحيض وتكون العدة ثلاث حيضات متتاليات.

﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ** ﴾ ﴿ **بُعُولَتُهُنَّ** ﴾ أزواجهن جمع بعل كعم وعمومة.

﴿ **أَحَقُّ** ﴾ ههنا بمعنى حقيق، عبر عنه بصيغة التفضيل للمبالغة.

﴿ **بِرَدِّهِنَّ** ﴾ أي برجعتهن في العدة إن كان الطلاق رجعياً كما في الآية التالية.

﴿ **فِي ذَٰلِكَ** ﴾ أي زمن التربص ـ فترة العدة ـ.

والمعنى: أن لبعولتهن حق الرجعة في العدة وذلك في الطلاق الرجعي.

﴿ **إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا** ﴾ فيه حثّ للأزواج أن يكون قصدهم الإصلاح والمعاشرة

الحسنة عند إرجاع زوجاتهم في العدة.

ولا مفهوم لهذا الشرط أي أن الرجعة غير متوقفة على إرادة الأزواج الإصلاح بل لو راجعها فالرجعة جائزة مهما كانت نيته، ففي حديث ابن عمر عندما طلق زوجته في الحيض أمر رسول الله ﷺ عمر أن يبلغ ابنه أن يرجعها ثم بعد أن تطهر وتحيض وتطهر يمسكها إن شاء أو يطلقها وقد مرّ الحديث، فهنا واضح أن الإرجاع لم يكن لأجل المعاشرة الزوجية أي ليس للإصلاح ومع ذلك صحت الرجعة.

غير أن الزوج الذي يراجع زوجته للإضرار بها حتى لا تنتهي عدتها فتسرح منه وإنما يريد أن يبقيها على عصمته بالمراجعة إضرارا بها وليس للمعاشرة الزوجية فهذا آثم بنص الآية ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ** ﴾ البقرة/آية٢٣١ وهي نهي جازم أي تحريم إمساك المرأة مضارة لها.

٢. يبين الله في الآية الثانية أن الطلاق الذي يملكه الرجل ويراجع زوجته في العدة هو تطليقتان ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ** ﴾[١]، فإن طلقها الأولى فله أن يراجعها خلال العدة وليس شرطا رضى الزوجة، لكنها إن بقيت دون مراجعة حتى إذا انقضت عدتها فتصبح أجنبية عن زوجها السابق ولا يجوز له الزواج منها إلا بعقد ومهر جديدين أي أن رضاها شرط كأي عقد زواج، وهذه الحالة المسماة في الفقه البينونة الصغرى.

وهكذا إذا طلقها الثانية، ولا يملك الرجل في الإسلام غير هاتين الطلقتين برجعة.

أخرج الترمذي عن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعا قالت: "**كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته والله لا أطلقك فتبيني ولا آويك أبدا. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك. فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها، فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ ﴾ فكان الحدّ الأقصى لطلاق الرجعة للرجل مرتين**"[٢].

---

[١] الطلاق بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم.

[٢] الترمذي: ١١١٣

أما إن كانت الزوجة عند زوجها وقد مضى عليها طلقتان من زوجها وراجعها خلالهما، فإن حقه من الطلاق مع الرجعة قد انتهى وبالتالي يكون له أحد أمرين:

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي استمرار الزوجية بحسن الصحبة وحسن العشرة وطاعة الله سبحانه ورسوله ﷺ فيما بينه من حقوق الأزواج وواجباتهم.

أو ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أي أن يطلقها الثالثة وهو ما بينته الآية الثالثة.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ ﴾.

وذكر ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه دلالة على أن لا يضارها في الطلاق فلا يأكل حقها بتضييق الخناق عليها في الطلاق كما تبينه الآيات اللاحقة ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾.

أما لماذا قلنا إن ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ هي بعد استنفاذ الطلقتين أي هي للزوجة الموجودة في عصمة زوجها بعد أن مضى عليها طلقتان، ولم نقل إنها المراجعة بعد الطلقة الأولى والثانية، فيمسك بمعروف أو لا يراجع حتى تنقضي العدة فيكون هنا تسريحا بمعروف وتصير المرأة بذلك أملك لنفسها.

إن السبب أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: إن الطلقة الثالثة هي التسريح بإحسان وبالتالي أصبح المعنى كما قلنا: إن الزوجة التي في عصمة زوجها، إن كان قد مضى عليها طلقتان فإن زوجها حينذاك إما أن يستمر معها بالمعروف من حسن الصحبة وحسن المعاشرة أو يطلقها الثالثة ويسرحها بإحسان.

أخرج ابن مردويه من طريق أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة قال «**إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**». وفي رواية ابن أبي حاتم من طريق أبي رزين الأسدي أين الثالثة؟ قال ﷺ: «**التسريح بإحسان**»"[1].

بعد ذلك يبين الله سبحانه أنه لا يحل للأزواج أن يأخذوا شيئاً مما قدموه لزوجاتهم من مهور مقابل أن يطلقوهن، بل إن أراد الزوج طلاق زوجته فليطلقها بإحسان دون أن يضارها ليأخذ شيئاً مما آتاها ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾.

لكن الله سبحانه استثنى حالة يجوز للرجل أن يأخذ من زوجته وهي الحالة التي

[1] الدر المنثور: ٦٦٤/٢، تفسير ابن كثير: ٢٧٣/١، المهذب: ٧٨/٢

تسمى (الخُلْع) وهي أن تبغض الزوجة زوجها وتنفر من العيش معه عيش الأزواج ويكون سبب ذلك منها وليس من زوجها، ففي هذه الحالة يباح لها أن تفتدي مخالعتها من زوجها بأن تعيد له ما دفعه من مهر دون زيادة وتختلع منه بإذن الإمام أو من ينيبه ويفسخ عقد زواجها منه، وتبين منه حال المخالعة فلا يملك الزوج بعد ذلك مراجعتها بل له الزواج منها من جديد بعقد ومهر جديدين.

أما لماذا قلنا إن (الخلع) يكون بسبب من الزوجة فذلك من الكتاب والسنة: أما من الكتاب فإن الطلاق بيد الرجل فإذا كره زوجته أو لم يرد صحبتها فبإمكانه طلاقها، وقد حرم الله عليه أن يضار زوجته لتعفيه من بعض حقوقها حتى يطلقها، بل إن شاء أمسكها بمعروف أو سرحها بمعروف دون أن يضارها ليأخذ شيئاً مما آتاها، يقول سبحانه: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ** ﴾ أي إن كنتم لا تريدوهن زوجات وأردتم طلاقهن فطلقوهن بمعروف دون أن تظهروا تمسككم بهن وأنتم لا تريدوهن من أجل أن تعتدوا على حقوقهن فتأكلوها فتعفيكم المرأة من بعض حقوقها كي تطلقوهن.

ولذلك فإن كان السبب من الرجل وهو لا يريدها فليطلقها دون أن يأخذ منها شيئاً، وسنفصل هذه الآية بعد قليل إن شاء الله.

فحيث إنَّ الطلاق بيد الرجل، فإنه إن لم يرد زوجته يطلقها بالمعروف وبالتالي يكون الخلع ـ أي افتداء المرأة من زوجها ـ في حالة إذا كانت هي التي لا تريد زوجها وهو يريدها.

أما السنة فإن سبب نزول الآية أن المرأة هي التي لم ترد زوجها.

روى ابن ماجة بإسناد جيد عن ابن عباس: "**أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً. فقال لها النبي ﷺ: تردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بستانه ولا يزداد**"[1].

وروى ابن جرير عن ابن عباس: "**إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي امرأة ثابت بن قيس، أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء**

---

[1] ابن ماجه: ٢٠٤٦

أبداً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في جماعة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. فقال زوجها: يا رسول الله إني أعطيتها أفضل مالي حديقة لي، فإن ردت عليّ حديقتي. قال: ما تقولين؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته. قال: ففرَّقَ بينهما"[1]. وروى نحوه الإمام أحمد من طريق عبد الله بن عمرو، ومن طريق سهل بن أبي حثمة.

ولذلك فإن المرأة إن لم ترد زوجها لبغضها له وعدم إمكانها العيش معه في الوقت الذي هو يريدها فيه فله أن يقبل أن تردّ المهر الذي أعطاه لها وتختلع منه.

فإن قيل إن الله سبحانه يقول: ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ فلماذا أسند لهما الخوف من عدم إقامة حدود الشرع في حياتهما الزوجية ولم يُسنِدْ للزوجة فقط؟ والجواب إن بغض الزوجة للزوج ونفورها منه وعدم طاعتها له سيؤثر في الزوج وبالتالي يُخشى من كليهما عدم إقامة حدود الله. وقوله سبحانه ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ** ﴾ أي إلا أن يتوقعا ويكون المعنى: إلا أن تبغض المرأة زوجها ولا تريده ونتيجة ذلك يتوقع الزوجان أن لا يستطيعا إقامة حدود الله في حياتهما الزوجية، وبذلك فلا تعارض بين قوله سبحانه: ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ وبين أن يكون عدم إرادة العيش مع الزوج آتياً من قبل الزوجة.

إلا أن هذه الإباحة في طلب الزوجة المخالعة من زوجها عندما يكون هناك سبب تبغض فيه زوجها وتنفر منه، ويترتب عليه خوف الزوجين من عدم تمكنهما إقامة حدود الله في حياتهما الزوجية.

غير أنه يحرم على المرأة أن تطلب المخالعة من زوجها بدون سبب لديها يخشى معه أن لا يقيما حدود الله ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ وهذا ما بينه حديث رسول الله ﷺ: "**إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات**"[2] الذي يرويه عقبة بن عامر الجهني. وفي رواية أخرى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ: "**المختلعات هن المنافقات**"[3] أي اللاتي يطلبن الخلع من أزواجهن بدون سبب لديهن يتوقع معه عدم القيام بحدود الله في الحياة الزوجية وذلك جمعاً بين أدلة إباحة الخلع في الحالة التي ذكرناها أولا وأدلة تحريم طلب الزوجة الخلع من زوجها المذكورة في الحديثين

---

[1] أحمد: ١٣،٤/١٥٥١٣، الدر المنثور: ٢/٦١٧، تفسير الطبري: ٢/٤٦١

[2] النسائي: ٣٤٠٧، الدر المنثور: ٢/٦٧٦، تفسير الطبري: ٢/٤٦٧

[3] الترمذي: ١١٠٧، تفسير الطبري: ٢/٤٦٧

الأخيرين.

أما لماذا قلنا يباح له ولها المخالعة في هذه الحالة فلأن المخالعة ليست فرضاً، فالله سبحانه يقول: ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ** ﴾ أي يباح لهما ذلك فإن افتدت وأعادت المهر لا شيء عليها، وكذلك قبوله للمهر المدفوع وتخلية سبيلها، لا شيء عليه به.

والأمر الآخر أن الزوج ما دام يؤدي حقوق زوجته فلو نشزت هي فلم تطعه ولم ترد العيش معه، فالله سبحانه فرض عليه في هذه الحالة ﴿ **فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ** ﴾ النساء/آية٣٤ ولم يفرض عليه غير ذلك كأن يطلقها أو يخالعها.

وأما لماذا قلنا إنه لا يصح أن يأخذ منها أكثر مما دفع فلأن الرسول ﷺ يقول في حديث ابن عباس الذي رواه ابن ماجة السابق: "**فأمره النبي ﷺ أن يأخذ بستانه ولا يزداد**"[١] وفي حديث أبي الزبير الذي أخرجه الدار قطني: "**قال النبي ﷺ إلى امرأة ثابت بن قيس: أتردين عليه حديقته التي أعطاك؟ قالت: نعم وزيادة. فقال النبي ﷺ: أما الزيادة فلا**"[٢] وكلّ ذلك يدلّ على أن له أن يأخذ مهره الذي دفع دون زيادة.

ولا يقال إن الآية ﴿ **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ** ﴾ تفيد العموم من لفظ ﴿ **مَا** ﴾ وبالتالي يجوز له أن يأخذ أكثر من المهر الذي قدمه، لا يقال ذلك لأنها وإن كانت من ألفاظ العموم إلا أنها خصصت بالأحاديث التي ذكرناها بأنه لا يصحّ له أن يأخذ أكثر من المهر المقدم لها.

وأما أن (الخلع) يتم بإذن من الإمام أو من ينيبه أي القاضي أو ما هو في حكمه فلأن الله سبحانه يقول ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ** ﴾ أي إلا أن يتوقع الزوجان ألا يقيما حدود الله في حياتهما الزوجية ولا يستطيعا تنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة بحياتهما الزوجية.

غير أن الله سبحانه لم يرتب جواز المخالعة على خوف الزوجين من عدم إقامة حدود الله بل وضع شرطا آخر وهو: فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما، أي أن الله سبحانه جعل المخالعة تتوقف على قناعة جهة أخرى بصحة توقع الزوجين

---

[١] ابن ماجه: ٢٠٤٦

[٢] ابن ماجه: ٢٠٤٦، الدر المنثور: ٦٧٢/٢

عدم إقامتهما حدود الله، وواضح هذا من تغيير صيغة الخطاب من التثنية إلى الجمع مما يدلّ أن تلك الجهة هي غير الزوجين.

والذي يملك صلاحية إنهاء الحياة الزوجية غير الزوج هو الإمام أو من ينيبه كالقاضي. ويؤيد ذلك حوادث المخالعة التي رويت في عهد رسول الله ﷺ والتي ذكرنا بعضها سابقاً، فقد كانت ترفع إلى رسول الله ﷺ ليفصل فيها. وقد كان رسول الله ﷺ رسولاً وحاكماً في آن.

ولذلك فمن لم ترد زوجها لبغضها له، وخافت هي وزوجها في هذه الحالة أن لا يقيما حدود الله أي أن لا يطيعا الله ورسوله في حياتهما الزوجية، يكون بذلك قد تحقق الشرط الأول ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ بعدها ترفع المرأة التي تريد مخالعة زوجها الأمر للحاكم أو القاضي فيدرس الأمر ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ عندها يعرض عليها أن تعيد المهر الذي قدمه الزوج وتنخلع من زوجها.

وقد رويت حوادث كان الخلفاء الراشدون يستعملون أساليب توفر لهم قناعة بأن الزوجين لن يقيما حدود الله بعد أن تطلب الزوجة الخلع من زوجها.

روى ابن جرير أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل (أي حبسها فيه) ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني. فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها.

أما أن الخلع فسخ وليس طلاقاً فللأسباب التالية:

أ. قوله سبحانه ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ** ﴾. وفي هذه الآية: طلقتان، ثم بعد ذلك مخالعة ولكن الله سبحانه في الآية التالية قال: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ** ﴾ أي إن طلقها الثالثة فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

وهذا يعني أن الخلع ليس طلاقاً وإلا لكان المذكور في الآية التالية ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ** ﴾ طلاقاً رابعاً وهو ليس كذلك.

ب. أخرج أبو داود من طريق عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلٍ الأَنْصَارِيَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَأَنَّ

رَسُولَ اللَّه ﷺ خَرَجَ إِلَى الصُّبْحِ فَوَجَدَ حَبِيبَةَ بِنْتَ سَهْلٍ عِنْدَ بَابِه فِي الْغَلَسِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ «مَنْ هَذه فَقَالَتْ أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ قَالَ مَا شَأْنُك قَالَتْ لاَ أَنَا وَلاَ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ لِزَوْجِهَا فَلَمَّا جَاءَ ثَابتُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ لَه رَسُولُ اللَّه ﷺ هَذه حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ وَذَكَرَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ وَقَالَتْ حَبِيبَةُ يَا رَسُولَ اللَّه كُلُّ مَا أَعْطَانِي عِنْدِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لِثَابتِ بْنِ قَيْسٍ خُذْ مِنْهَا فَأَخَذَ مِنْهَا وَجَلَسَتْ هِيَ فِي أَهْلِهَا».

وقد أخرج هذا الحديث بلفظه، إلا من حروف بسيطة لا تغير المعنى، النسائي والإمام مالك.

وكذلك أخرج النسائي من طريق مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ الرُّبَيِّعَ بِنْتَ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ ثَابتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ فَكَسَرَ يَدَهَا وَهِيَ جَمِيلَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ فَأَتَى أَخُوهَا يَشْتَكِيهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ثَابِتٍ فَقَالَ لَهُ خُذِ الَّذِي لَهَا عَلَيْكَ وَخَلِّ سَبِيلَهَا قَالَ نَعَمْ فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَتَرَبَّصَ حَيْضَةً وَاحِدَةً فَتَلْحَقَ بِأَهْلِهَا.

وواضح من هذه الأحاديث أنه لم يُذكر الطلاق بل فقط الفرقة مثل (خل سبيلها)، (تلحق بأهلها).

وأما ما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – في حديثه الذي أخرجه البخاري والنسائي أن رسول الله ﷺ قال لثابت: "**اقبل الحديقة وطلقها تطليقة**"[1] وذلك عن امرأته، فإن رواية ابن عباس هذه مرجوحة لأن رواية النسائي وأبي داود ومالك في الموطأ هي عن امرأة ثابت بن قيس من قولها هي، وفي آخره: "**وخلّ سبيلها**"، «**تلحق بأهلها**»، «**وجلست في أهلها**» وليس "وطلقها تطليقة" ورواية صاحبة القصة أرجح من رواية غيرها كما هو معروف في الترجيح في الأصول، ولذلك فالخلع ليس طلاقاً.

ج. إن رسول الله ﷺ أمر المختلعة أن تتربص بحيضة وليس بثلاث، وهذا يعني أنه ليس طلاقاً.

وقد ورد ذلك في الحديث الذي رواه النسائي الذي ذكرناه سابقاً. وكذلك فيما رواه الترمذي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من

[1] البخاري: ٤٨٦٧، النسائي: ٣٤٠٩

زوجها فأمرها النبي ﷺ "**أن تعتد بحيضة**"[1] وهذا يعني أنه ليس طلاقاً وإلا لاعتدت بثلاث حيضات. وما دام ليس طلاقاً بل هو فسخ لذلك فلا يصحّ له مراجعتها بعد المخالعة سواء في العدة أو غيرها. وله أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين برضاها، وبالأحكام الشرعية المتعلقة بذلك.

ويختم الله سبحانه الآية بأن هذه حدود الله ويجب الوقوف عندها والتزامها وعدم تجاوزها، فمن عصى الله وتعدّ حدوده فهو من الظالمين الذين يستحقون العذاب الأليم ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾** ﴾.

٣. يبين الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أن من طلق زوجته الطلقة الثالثة – أي تجاوز الحد المسموح له ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ** ﴾ – فقد بانت منه زوجته بينونة كبرى بمعنى أنه لا يحلّ له أن يراجعها في عدتها وكذلك لا يحل له أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين بل يحرم عليه ذلك إلا أن تتزوج زوجاً غيره، ثم إن طلقها الزوج الجديد جاز للأول أن يخطبها ويتزوجها بعقد ومهر حيث تكون كأية امرأةٍ أجنبيةٍ عنه.

وهنا تبرز مسألة هل إن البينونة الكبرى تقع بالطلاق الثلاث المتفرق مرة بعد مرة، أم أنها تقع بالطلاق الثلاث بكلمة واحدة؟

هذه المسألة مما اختلف فيه الفقهاء وأطالوا الخلاف وبالتدقيق فيها أقول وبالله التوفيق:

إنه لا فرق بين أن يكون الطلاق ثلاثاً متفرقات أو مجتمعات، ويترتب الحكم (البينونة الكبرى) على الطلاق بلفظ الثلاث جملة أو مرة بعد مرة بعد مرة، والدليل على ذلك:

١. قوله تعالى: ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ** ﴾ إلى أن يقول سبحانه ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ** ﴾. ووجه الاستدلال أن الله سبحانه قال: ﴿ **مَرَّتَانِ** ﴾ وطلقتان دون تقييد باجتماع أو تفرق وكذلك ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا** ﴾ أي الثالثة والفعل مثبت فهو مطلق غير مقيد أي: (فإن طلقها الثالثة) مجتمعة مع الطلقتين أو منفصلة عنهما.

فالآية تفيد البينونة الكبرى بالطلاق الثلاث سواء أكان مجتمعاً أم متفرقاً.

[1] الترمذي: ١١٠٦، ١١٠٥، النسائي: ٣٤٤١، أبو داوود: ١٩٠٢، ابن ماجه: ٢٠٤٨

ولا يقال إنه قد ورد تقييد للمرات بأن تكون متفرقة فهي التي تفيد البينونة الكبرى، أما إن كانت مجتمعة بلفظ واحد فإنه لا يترتب عليها بينونة كبرى بل تعتبر طلقة واحدة وذلك كما جاء في بعض أحاديث رسول الله ﷺ.

لا يقال ذلك لأن هذه الأحاديث كلها ضعيفة لا ترقى إلى الحسن أو الصحيح إلا حديثين رويا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهما لا يصلحان للتقييد ولا يعمل بهما كما نبينه الآن بإذن الله.

الحديثان هما:

الأول: حديث محمد بن إسحاق الذي يقول فيه: حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس: طلق ركانة امرأته في مجلس واحد ثلاثاً فحزن عليها، فقال له رسول الله ﷺ: فإنها واحدة[1]. رواه الإمام أحمد في مسنده.

والثاني: حديث طاووس أن أبا الصهباء قال لابن عباس: أتعلم إنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وثلاثاً من إمارة عمر؟ قال ابن عباس: نعم[2].

ولم يرو أي حديث صحيح أو حسن عن غير ابن عباس ينص على الثلاث جملة تعتبر واحدة، غير أن هذا الاعتبار مرجوح لأن فتاوى ابن عباس الصحيحة الثابتة عنه تعتبر أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثاً، وتترتب عليه بينونة كبرى. وأذكر فيما يلي عدداً من هذه الفتاوى:

١. روى عبد الله بن كثير عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً، قال: فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الحُمُوقة ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس!! ... وإن الله قال: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢** ﴾ وإنك لم تتق الله فلم أجد لك مخرجاً، عصيت ربك وبانت منك امرأتك.وأنَّ الله قال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ** ﴾ في قبل عدتهن، أي أن ابن عباس اعتبر الطلاق الثلاث معاً واقعاً وتترتب عليه بينونة كبرى.

٢. وروى مثله حميد الأعرج وغيره عن مجاهد عن ابن عباس.

٣. وروى شعبة عن عمرو بن مرة وأيوب وابن جريج جميعاً عن عكرمة بن خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

---

[1] أحمد: ١/٢٦٥

[2] مسلم: ١٤٧٢

٤. وابن جريج عن عبدالحميد بن رافع عن عطاء عن ابن عباس.
٥. والأعمش عن مالك بن الحارث عن ابن عباس.
٦. وابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس.

كلهم قالوا في الطلاق الثلاث أن ابن عباس أوقعها ثلاثاً وقال: بانت منك امرأتك[١].

ولشهرة هذه الفتاوى وصحتها عن ابن عباس بإيقاع الطلاق بلفظ الثلاث، كل ذلك يجعل الحديث المروي عن ابن عباس أن الرسول ﷺ جعل الثلاث واحدة، يجعله مرجوحاً لأن الصحابي إذا عمل بغير ما روي فإن روايته تكون مرجوحة، ويكون الراجح في المسألة مدلول الآية الكريمة باعتبار الطلاق الثلاث مفرقا أو مجتمعا يفيد وقوع البينونة الكبرى. وقد عمل بهذا كثير من الفقهاء وكثير من العلماء بأن الثلاث تقع ثلاثاً.

وقد قال البخاري في صحيحه (باب من جوز الطلاق الثلاث لقوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ وذكر حديث اللعان (عن سهل بن سعيد الساعدي،... قال سهل: فتلاعنا... فطلقها ثلاثاً، قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، قال ابن شهاب فكانت تلك سنة الأولين[٢].

وقد قال البيهقي تعليقاً على حديث طاووس عن ابن عباس الذي أخرجه مسلم ولم يخرجه البخاري، قال البيهقي: أظن البخاري تركه لمخالفته سائر الروايات عن ابن عباس[٣]، وساق الروايات عنه وقد بيناها سابقاً.

والخلاصة أن الطلاق الثلاث جملةً أو متفرقاً واقع وتترتب عليه البينونة الكبرى، إلا أن هناك فرقاً بين الطلاق الثلاث المجتمع وبين الطلاق الثلاث المفرق وهو أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد في مجلس واحد منهيٌّ عنه نهياً جازماً أي أنه حرام، غير أنه واقع ثلاثاً كما بينا، والمطلِّق به آثم وذلك استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه محمود بن لبيد: **"أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟! حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله!"**[٤].

---

[١] أبو داوود: ١١٩٧
[٢] البخاري: الطلاق الباب الرابع ٥٢٥٩
[٣] البيهقي: ٧/٣٣٦
[٤] النسائي: ٣٤٠١

ومن الجدير ذكره أن القائلين بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدة لهم شبهه الاستدلال، ولكن قولهم مرجوح واعتبار هذا الطلاق واقعاً ثلاثاً هو الراجح.

﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ** ﴾ هذه تفسير لقوله سبحانه في الآية السابقة ﴿ **أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ** ﴾ فمعناه هنا كما بيناه سابقاً أي أن يطلقها الثالثة.

﴿ **حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ** ﴾ أي حتى تتزوج غيره ويجامعها، أي يتمّ الجماع في عقد صحيح.

أما (العقد) ففهم من ﴿ **زَوۡجًا** ﴾، وأما (الجماع) ففهم من ﴿ **تَنكِحَ** ﴾.

فإن قيل إن (النكاح) تأتي في الوطء وفي العقد فكيف تعينت هنا في الوطء أي الجماع؟ إن قيل ذلك فإن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الباب كثيرة تبين أن المقصود هو الجماع في زواج صحيح، فلو تمّ عقد زواج بدون الجماع ثم طلقها الزوج الأخير فإنها لا تحلّ لزوجها الأول بعقد الزواج هذا دون جماع.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: **"جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني طلاقي، فتزوجني عبدالرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدبة الثوب. فتبسم النبي ﷺ فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك"**[1].

روى أحمد والنسائي وابن جرير عن ابن فر قال: **"سئل النبي ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخي الستر ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، هل تحل للأول؟ قال: حتى تذوق العسيلة"**[2].

والمراد بالعسيلة لذة الجماع أي لا بدّ من جماع لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: **"ألا إن العسيلة الجماع"**[3].

ولذلك فإن طلقت الزوجة ثلاث تطليقات فإنها لا تحل لهذا الزوج إلا أن تتزوج غيره ويجامعها الزوج الجديد فإذا طلقها يجوز للزوج الأول أن يخطبها من جديد بعقد ومهر جديدين وبالرضا والاختيار إن غلب على ظنهما أنهما سيقيمان حياة زوجية في

---

[1] البخاري: ٢٤٤٥، ٤٨٥٦، مسلم: ٢٥٨٧

[2] النسائي: ٣٣٦١، ابن ماجه: ١٩٢٣، الموطأ: ٩٧٥، أحمد: ٢/٢٥، تفسير الطبري: ٢/٤٧٧

[3] أحمد: ٦/٦٢

حسن صحبة ومعاشرة.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي مباح لهما أن يتزوجا من جديد إن كانا يتوقعان إقامة حياة زوجية كما حددها الله وشرعها.

﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا ﴾ أي إن توقعا، لأن ﴿ أَن ﴾ المصدرية هنا للتوقع.

ثم يختم الله سبحانه الآية ببيان أن هذه الأحكام هي حدود الله يجب الوقوف عندها وعدم تجاوزها، وقد خصّ الله أولي العلم بذلك لأنهم الذين يفقهون وينتفعون بهذا البيان ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

* * *

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هاتين الآيتين ما يلي:

١. إذا طلق الرجل زوجته طلقة أو طلقتين ثم قاربت عدتها أن تنتهي فعليه إما أن يراجعها ويعيدها لعصمته بالمعروف رغبة بزوجته في حسن صحبة وحسن معاشرة، أو يتركها حتى تنقضي عدتها فتملك نفسها ويكون تسريح جميل دون مضايقة أو إزعاج.

ويحرم الله على الزوج أن يمسك زوجته إضرارا بها فيراجعها ليس رغبة فيها بل ليطيل مضايقتها ومنعها من أن تقضي عدتها وتملك نفسها وذلك ليضطرها إلى أن تعطيه من حقوقها عليه حتى يطلقها، ويكون الزوج بذلك ظالماً لنفسه بتعريضه هذه النفس إلى عقاب الله في الآخرة فضلاً عن كشف سوء خلقه على الناس باعتدائه على حقوق زوجته والإضرار بها.

ثم يحذر الله سبحانه الأزواج من التلاعب في آيات الله وأحكامه فيسيئوا التصرف في حقّ الرجعة الذي جعله الله لهم ويستعملوه في إرجاع المرأة لمضارتها وليس لمعاشرتها بالمعروف برغبة فيها.

ويذكرنا الله تعالى بنعمة الإسلام التي أنعمها علينا في كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ لنشكره عليها ونلتزم شرعه سبحانه ونعتبر ونتعظ بآياته وأحكامه.

ثم يختم الله سبحانه الآية الكريمة بالأمر بالتقوى فنخشى الله في كلّ ما نقوم به من فعل أو قول، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾ وفيه تحذير لمن يحيدون عن شرع الله في معاشرة أزواجهم.

﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي آخر عدهن حيث الأجل حقيقة في كلّ المدة كما ورد في الصحاح، وكذلك حقيقة في الجزء الأخير كما نقل الأزهري أي هو مشترك وتحديد المعنى المراد يتوقف على القرينة، وهي هنا ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وهذه تدل على آخر مدة العدة لأن الزوج لا يملك أن يمسك زوجته أي إرجاعها إلا في العدة فإذا انتهت فليس له ذلك.

ويكون المعنى﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي آخر عدهن وقبل أن تنتهي.

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي إذا أوشكت عدهن على الانتهاء فإما أن تراجعوهن فتمسكوهن أو تتركوهن حتى تنقضي العدة وبذلك تسرحوهن ويصبحن مالكات أنفسهن.

وهذا كله في طلاق الرجعي ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ فهو الذي يجوز للزوج أن يراجعها في العدة.

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ أي ترجعوهن للإضرار هن وذلك كأن يكون الزوج لا يريد زوجته ولكن يريد أن يطيل عليها مدة بقائها دون تسريح حتى يضطرها لإعطائه من حقوقها، ويكون بذلك قد اعتدى على حقوقها.

﴿ ضِرَارًا ﴾ أي تطويلا لمدة بقائها عنده دون تسريح مضارة لها.

﴿ لِّتَعْتَدُوا ﴾ أي لتلجئوهن لإعفائكم من حقوقهن لأجل أن يطلقن منكم ويسرحن.

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي الإسلام فاشكروا الله على ذلك والتزموا شرعه.

﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي ما أنزل عليكم من القرآن والسنة

وهو عطف بيان لما قبله ﴿ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾.

٢. وفي الآية الثانية ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ يبين الله سبحانه حكما آخر يتعلق بالمطلقات عند بلوغ الأجل.

ففي الآية الأولى بيان عدم إمساك الأزواج زوجاهن إضرارا بهن ليعتدوا على حقوقهن بإلجائهن إلى التنازل عن حقوقهن.

أما في هذه الآية فإن الله سبحانه يبين حكماً آخر وهو أن المطلقات إذا أكملن العدة ثم بعد ذلك رغب أزواجهن الأوائل في خطبتهن من جديد ويريدون الزواج منهن بعقد ومهر جديدين، وذلك بعد الطلقة أو الطلقتين فإن الله سبحانه في هذه الحالة يأمر أولياءهن أن لا يمنعوا هذا الزواج ما دام الرجل ومطلقته يريدون ذلك برغبة صادقة ظاهرة عليهم ضمن أدب الإسلام.

ثم يبين الله سبحانه أن الموافقة على هذا الزواج أعظم بركةً ونفعاً وأبعد عن الآثام والريب التي قد تصاحب عدم الموافقة على الزواج.

ويختم الله الآية الكريمة بأن حقائق الأمور لا يعلمها إلا الله سبحانه، فقد يحبّ المرء أمرا ونتائجه شرّ وقد يكره أمراً ونتائجه خير، فقد يظن الأولياء أن زواجاً ما فيه خير أو فيه شرٍ والحقيقة ونتائجها غير ذلك، ولكن الله سبحانه هو الذي يعلم حقائق الأمور ونتائجها وخيرها وشرها، فاتّباع شرع الله فرض وهو الخير كلّ الخير ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي فأكملن عدهن وذلك بقرينة ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ لأن الزوج يملك مراجعة زوجته خلال العدة دون ممانعة وحيث هناك إعضال – أي منع – فهذا يعني أن (أجلهن) هنا حقيقة في المدة كاملة. وأصل (العضل) الحبس والتضييق، والمعنى: وإذا طلقتم النساء فأكملن العدة فلا تمنعوهن من الزواج ممن طلقوهن طلقة أو طلقتين.

﴿ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ﴾ أي إذا كانت لهم الرغبة الصادقة في العودة لبعضهما بزواج جديد وكانت هذه الرغبة ظاهرة عليهما بالمعروف أي في حدود آداب الإسلام.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ ﴾ أي موافقة الأولياء على تزويج المطلقة لزوجها السابق ما دامت تريده ويريدها، هذا الأمر أكثر بركة ونفعاً وأبعد عن الآثام والريب.

أخرج البخاري في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن معقل بن يسار قال: "كانت لي أخت فأتاني ابن عم لي فأنكحتها إياه فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يا لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبداً. وكان رجلاً لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال: ففيَّ نزلت فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه"[1] وفي لفظ "فلما سمعها معقل قال: سمعا لربي وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك"[2].

وهي عامة في موضوعها تشمل من نزلت فيهم وغيرهم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في الموضوع نفسه كما هو معروف في الأصول.

❁ ❁ ❁

[1] البخاري: ٤١٦٥، الترمذي: ٢٩٠٧، أبو داوود: ١٨٧٨

[2] الدر المنثور: ٢/٦٨٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ
وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا
تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا
فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ
أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ
بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ
أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا
عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ
سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ
عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ
أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن
طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن
طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ
إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ
لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧ حَٰفِظُواْ
عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ
رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ
غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ
ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا
وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ
ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن
تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ
أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ
عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾.

في هذه الآيات البينات يبين الله ما يلي:

١. إذا طلقت المرأة وكان لها طفل في سن الرضاع، فإن على والده أن يدفع نفقة إرضاعه من طعام وكسوة لوالدته مدة الرضاعة، أي يدفع لها أجرة مدة الرضاع وهي حولان كاملان إن أراد الوالد إكمال مدة الرضاعة.

وعلى الوالد أن يدفع النفقة لوالدة ابنه بما يتناسب مع وسعه فإن لم يكن الوالد موجودا تولى الإنفاقَ على الإرضاع الورثةُ.

ولا يصح أن تضار المرأة بولدها فتمنع من إرضاعه إن أرادت أو تمنع من رؤيته، وكذلك يحرم أن يضار الوالد بولده كأن ترفض أمه إرضاعه وبخاصة إذا كان متعلقا بها.

كما أنه ليس هناك حرج على الوالدين إن اتفقا على فطم الطفل قبل الحولين إن تراضيا وتشاورا واتفقا على ذلك.

وكذلك لا جناح على الأب أن يسترضع لابنه امرأة أخرى إن كان هناك عذر مشروع لعدم استمراره مع أمه، وفي هذه الحالة يستلم ولده من والدته بعد أن يكون قد دفع لها أجرة إرضاعه ثم يسلمه لأخرى ترضعه بعد أن تسلم المرضعات الجدد أجرة الإرضاع.

ثم يختم الله سبحانه الآية بتذكير الوالدين بالتقوى ليحنوا على ولدهما ولا يسيئا تربيته أو يضارا بعضهما فإن الله سبحانه لا تخفى عليه خافية مما يعملون وسيجزي كلا بما يستحق ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣ ﴾.

﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ ﴾ هذا خبر في معنى الطلب، أي لترضع الوالدات المطلَّقات أولادهن وهو على وجه الندب لعدم وجود قرينة تلزم الوالدة بذلك، إلا أن الأم أحق بالحضانة ـ ما لم تتزوج ـ وذلك لأن الآية تخاطب الوالدات بالإرضاع ابتداء.

﴿ ٱلۡوَٰلِدَٰتُ ﴾ لفظ عام في كل والدة ولكنها مخصصة في المطلقات فقط دون الزوجات وذلك للسببين التاليين:

أ. إن الآية وردت بعد آيات الطلاق فالسياق يشير أن المقصود بالوالدات هن المطلقات المرضعات، فعلى الزوج أن يدفع لهن أجرة.

ب. أن الآية تنص على دفع الرزق والكسوة بسبب الإرضاع ﴿ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ بعد ذكر ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ ﴾ وهذا يعني أن المقصود هن المطلقات المرضعات لأن رزق الزوجات وكسوتهن فرض على الزوج بسبب الزوجية وليس بسبب الإرضاع، فكون الآية ربطت الرزق والكسوة بالإرضاع فهذا يعني أن الوالدة ليست في عصمة الزوج.

وعلى ذلك فالآية تبين أن من حق المطلقات المرضعات أخذ أجرة على إرضاع أولادهن.

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ فيه دلالة إشارة أن نسب الولد هو للوالد وليس للأم.

كما أن المنطوق ﴿ ٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ و﴿ ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ يفيد استعطاف الوالدين وإثارة شفقتهما على العناية بالولد والاهتمام به دون المضارة لكليهما.

﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي على الوارث أجرة المرضع إن توفي الوالد ولم يكن للولد مال يكفي لحاجته المعروفة ولأجرة أمه، والوارث هنا لفظ عام على كل وارث.

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ المضارة مفاعلة من الضرر أي يلحق الوالد ضررا بالوالدة بسبب الولد كأن يضيق عليها في الرزق والكسوة أو يأخذ الصبي منها وهي تريد إرضاعه، ولا تلحق الوالدة ضرراً بالوالد بسبب الولد كأن تطلب منه فوق طاقته من الكسوة والرزق أو أن تقول بعد أن ألفها الولد اطلب له مرضعة أخرى مضايقة له.

وهذا النهي جازم لأن (المضارة) وصف مفهم يفيد الجزم، أي أن الآية تفيد تحريم المضارة.

و(الباء) في ﴿ بِوَلَدِهَا ﴾ و﴿ بِوَلَدِهِۦ ﴾ سببية، أي بسبب الولد.

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي إن أراد الوالدان فطاماً للمولود قبل الحولين المذكورين سابقاً ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ وفي الآية دلالة أن لا ينفرد أحد الوالدين بتقرير فطام المولود.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ فلا إثم عليهما أي مباح لهما ذلك.

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

بعد أن بين الله سبحانه مدة الرضاع الكامل وهي حولان ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ بعد ذلك بيّن الله سبحانه تشاور الزوجين حول فطام المولود قبل السنتين ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ وهنا يتوقع أن ترفض المرأة إكمال الرضاع للحولين فلا يتفقا على الفطام، ويحب الوالد أن يكمل رضاع ولده إلى الحولين، والأم ترفض ذلك لسبب أو لآخر، عندها ذكر الله سبحانه أن لا جناح على الوالد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى.

﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي إذا سلمتم للمراضع ما قررتم إيتاءهن من أجور بالمعروف لأمثالهن، ودلالة ﴿ ءَاتَيْتُم ﴾ بالماضي لإفادة أمرين:

الأول: لصوق هذه الأجور بذمتهم منذ اليوم الأول للإرضاع.

الثاني: مفهوم إشارة بأفضلية دفع أجور المرضعة ابتداء.

فتسلموا الأمهات أجرة مدة الإرضاع الأول التي أرضعتها للولد، وتطيبوا أنفسهن بالمعروف لأمثالهن من أجرة ثم تسلموا كذلك أجرة المرضعة الجديدة كذلك بالمعروف في مثل هذه الحالات ﴿ تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ أي تسترضعوا لأولادكم فحذف الجار على نحو قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ المطففين/آية٣ أي كالوا لهم.

٢. يبين الله سبحانه في الآية الثانية أن عدة المتوفى عنها زوجها هي أربعة أشهر وعشراً، ويحرم خلالها على المرأة أن تتهيأ للأزواج من لباس جميل أو طيب ونحوه بل تعيش في بيتها عيش حداد: "**لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً**"[١] كما قال رسول الله ﷺ. فإذا انتهت العدة فلا شيء عليها ولا على أوليائها إن فعلت في نفسها من العيش العادي كأية امرأة في حياتها الخاصة والعامة بالمعروف لأمثالها في الوسط الذي تعيش في حدود الشرع.

ثم يختم الله الآية الكريمة بأن الله سبحانه خبير بما نعمل مطلع عليه ويجزي به ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ أي تقبض أرواحهم، فإن التوفي لغةً هو القبض يقال: توفيت مالي من فلان واستوفيته منه أي قبضته وأخذته. وحسب القرائن يُفهم معناها، سواء أكانت بقبض الروح، أم قبض المال، أم القبض في النوم دون الروح كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى**﴾، أم بقبض الجسم حيّاً سواء أكان ذلك في اليقظة أم في النوم كما حدث مع عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، فالله نجاه من أن يقتلوه ورفعه حياً إليه سبحانه وسينزل إلى الدنيا في الوقت المعلوم كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ ينتظرن بلا زواج أي عدهن ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾

[١] البخاري: ١٢٠١، ٤٩١٨، مسلم: ٢٧٣

تذكير العدد بإضمار المعدود بالليالي، فالعرب عند عدم ذكر المعدود تضمر الليالي لأنها غرر الشهور، واليوم يبدأ بدخول الليل ولذلك لا يستعملون التأنيث في مثله للمعدود بإضمار الأيام بل يضمرون الليالي حتى إنهم ليقولون: (أصبحنا عشراً من شهر رمضان) كما قال الفراء، مع أن الصوم إنما يكون في الأيام، وهذا في غالب قولهم على نحو قوله سبحانه ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴾ طه/آية١٠٣ بإضمار (ليال) أي عشر ليال.

وكل متوفى عنها زوجها تعتد أربعة أشهر وعشراً إلا ذوات الأحمال فأنْ يضعن حملهن، حيث إن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾ هو عام، والآية ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ الطلاق/آية٤ مخصصة للعام.

﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أيها الأولياء.

﴿ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ﴾ أي مما كان ممنوعا عليهن في فترة العدة، فلهن أن يعشن العيش العادي كأي امرأة بالمعروف لأمثالها في الوسط الذي تعيش في حدود الشرع من لباس جميل أو طيب ونحوه، وذلك بعد انقضاء العدة.

٣. وفي الآية الثالثة يبين الله حكما آخر بالنسبة للمتوفى عنها زوجها وهي جواز التعريض أثناء العدة بالرغبة في الزواج منها بعد انقضاء العدة، وكذلك لا شيء على من أضمر في نفسه أن يخطب المرأة المتوفى عنها زوجها ليتزوجها بعد العدة.

والتعريض[1] أن تقول قولا تميله عن صريح منطوقه إلى مفهومه، فأصل التعريض إمالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه وجانب فتذكر أمام المرأة في عدتها ـ المتوفى عنها زوجها ـ أنك تريد الزواج وأنك تبحث عن امرأة صالحة أو تذكر فضلك وأنك لا تظلم لو تزوجت وأمثال ذلك، فما ذكرته هنا صحيح ولكنه واسطة لنقل المفهوم أي ما سكت عنه وهو رغبتك بالزواج منها، وهكذا فإنه يحرم ذكر الزواج من المرأة المتوفى عنها زوجها صراحة، ولكن يجوز تعريضاً كما بينا أو إضماره في النفس حتى انتهاء

---

[1] التعريض يشبه الكناية إلا أن الفارق أن المنطوق في الكناية ليس على الحقيقة، ولكنها لا تتعذر إلا أنها غير مقصودة، أما التعريض يكون المنطوق صحيحا على الحقيقة ولكن المقصود منه الوصول إلى المفهوم، فنقول في الكناية: فلانة أو فلان نؤوم الضحى، لكن هذا المنطوق ليس على الحقيقة فهو قد يكون لا ينام إلى الضحى بل المقصود منه أنه مدلل أو كسول، وهكذا كثير الرماد كناية عن الكرم، وقد لا يكون يشعل نارا تنتج رمادا. أما التعريض فتذكر أمرا صحيحا على الحقيقة كأن تقول أمامها: إنني أبحث عن زوجة صالحة وأنت تريد الزواج فعلا لكن المقصود إعلامها رغبتك في الزواج منها.

العدة.

ثم يبين الله سبحانه أنه يعلم أن طالبي الزواج لن يصبروا على السكوت عن إظهار الرغبة فيهن، فأدّب الله سبحانه الرجال كيف يذكروهن تعريضاً وحرم عليهم أن يعطوهن وعداً صريحا بالزواج منهن، أو يتخذوا إجراءات معلنة لعقد الزواج مقدمة لإتمامه بعد إكمال العدة بل ما يباح هو التعريض فقط كما بينه الله سبحانه.

ثم يختم الله سبحانه الآية الكريمة بالتحذير من مخالفة أمر الله في ذلك، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ وفي هذا تهديد لمن يظهرون مالا يبطنون ظنا منهم أن الله سبحانه لا يعلم سرهم ونجواهم.

ومع ذلك فالله سبحانه غفور لمن رجع عن خطئه، وحليم لا يعجل العقوبة لمستحقها عله يراجع نفسه فيتوب ويعمل صالحا ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أي لا تواعدوهن خلال العدة عزمكم على النكاح منهن (السر) هنا هو إرادة النكاح أي الجماع كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – .

﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ ﴾ استثناء منقطع أي لكن أن تقولوا قولاً معروفاً، وهو ما ذكر في أول الآية أي التعريض بالزواج دون التصريح على نحو ما بينا.

﴿ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ ﴾ أي لا تتخذوا إجراءات جازمة للزواج منهن كمقدمات معلنة كأن تبدأ بشراء بعض متطلبات الزواج أو التحضير له لتقوموا بتنفيذه بعد العدة، لأن العزم على الفعل يتقدمه.

وبذلك فقد حرم الله على الرجال أمرين:

التصريح في العدة بالزواج منهن.

وكذلك تهيئة مقدمات عقد الزواج بشكل صريح في مدة العدة.

وواضح أن النهي عن مقدمات الشيء نهي عن الشيء على وجه أبلغ للدلالة على أن عقد الزواج في فترة العدة جريمة كبرى في الإسلام وهو عقد باطل.

﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾ أي حتى تنتهي مدة العدة.

* * *

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هاتين الآتين ما يلي:

١. ليست هناك تبعة من مهر على الرجال إن طلقوا زوجاتهم قبل الدخول بهن، وقبل أن يسموا لهن مهراً، بل عليهم في هذه الحالة أن يعطوهن شيئاً يتمتعن به تطييباً لأنفسهن نتيجة وحشة الطلاق دون تحديد بمقدار، ولكن يتوقف على ما يطيق إن كان غنياً أو فقيراً.

وهذه المتعة فرض على الزوج، فقد أخرج ابن جرير: "قال لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ قال رجل: إن أحسنت فعلت وإن لم أرد ذلك لم أفعل. فأنزل الله الآية: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾"[١] البقرة/آية٢٤١ وبذلك علم أن المتعة فرض.

فالموسع أي الغني عليه أن يمتع بما يناسبه والمقتر أي الفقير ما يناسبه، ولكن لا يجب فيها بحال مال أكثر من نصف المهر لأمثالها لأن الآية اللاحقة تجعل نصف المهر المسمى حقا للمرأة المطلقة غير المدخول بها إن سمى لها مهراً.

أما لماذا قلنا إن ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي لا تبعة مهر عليكم ولم نقل لا إثم عليكم فذلك من وجهين:

الأول: أن لا إثم في الطلاق بشكل عام ما دام حسب أحكام الشرع سواء التي دخل بها أو غيرها.

الثاني: أن الأدلة الشرعية أوجبت المهر على المدخول بها المطلقة دون تسمية مهر

---

[١] الدر المنثور: ٧٣٩/٢

بأن لها مهرَ مثلها كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: **"بالنسبة للمرأة التي لم يسم لها مهر ودخل بها فجعل لها رسول الله ﷺ مهر مثلها"**[1].

وجعل للمطلقة غير المدخول بها وسمي لها مهر أن يكون لها نصف المهر المسمى.

أما هذه غير المدخول بها وغير المسمى لها مهر فلم يجعل الإسلام لها نصف مهر مثلها، وإنما أن تمتع حسب الوسع وهذا لا يسمى مهراً، ولهذا قلنا ﴿ **لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ** ﴾ أي لا تبعة مهر.

﴿ **مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ** ﴾ أي ما لم تجامعوهن.

﴿ **أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ** ﴾ أو تسموا لهن مهراً. ﴿ **أَوۡ** ﴾ هنا بمعنى (و) أي أن ﴿ **لَّا جُنَاحَ** ﴾ و﴿ **مَتِّعُوهُنَّ** ﴾ مشروطان بحدوث الأمرين: (عدم الدخول) و(عدم تسمية مهر) وليس على التخيير بواحد من الأمرين.

٢. ثم يبين الله سبحانه في الآية الثانية أن للمطلقة غير المدخول بها نصف المهر المسمى إن كان لها مهر مسمى، إلا أن تعفو هي فتتنازل عن نصف مهرها المسمى أو يعفو الزوج فيدفع لها كلّ المهر المسمى.

ثم يبين الله سبحانه أن العفو الذي يقوم به أحد الزوجين يجعل صاحبه أقربَ للتقوى، ففيه أجر كبير ودليل التقوى عند الفاعل وفيه إن العفو مندوب بقرينة ﴿ **أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ** ﴾ التي تفيد الثناء من الله سبحانه على فاعل العفو ولكنها لا تفيد العقوبة على تركه، فتكون قرينة على الندب وبخاصة أن الله ذكر بعد ذلك ﴿ **وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ** ﴾ أي حثّ لهم على تفضل بعضهم على بعض بالعفو.

ثم يختم الله الآية الكريمة بتذكيرهم أن الله بصير بما يفعلونه فيجازي كلّ عامل بعمله ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧** ﴾.

﴿ **إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ** ﴾ أي تعفو المطلقة فتتنازل عن نصف مهرها المسمى فلا تأخذه.

﴿ **أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ** ﴾ أي يعفو الأزواج فيدفعوا المهر كاملا لمطلقاتهم.

وقلنا إن ﴿ **بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ** ﴾ هو الزوج وليس الولي مثلاً للأسباب التالية:

أ. ذكر الله سبحانه أولاً ﴿ **فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ** ﴾ أي للمطلقة غير المدخول بها،

[1] البيهقي: ١٠٥/٧، الدر المنثور: ٧٠١/٢

المسمى لها مهر، فيكون لها نصف المهر المسمى، ثم بعد ذلك قال سبحانه ﴿ **إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ** ﴾ وهذا يعني أن هناك طرفين لكل منهما حق العفو في موضوع المهر، أما الطرف الأول فقد حُدِّد بالنساء المطلَّقات ﴿ **إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ** ﴾ والطرف الثاني الذي بيده عقدة النكاح فيكون الزوج لأنه هو الطرف الوحيد الباقي بعد المرأة المطلَّقة الذي يملك حق العفو في موضوع المهر، ويكون المعنى أن لها نصف المهر إلا إن عفت فلم تأخذ هذا النصف وتتركه للمطلِّق، أو يعفو المطلِّق عن نصفه المتبقَّى له فيعطي كاملَ المهر للمطلَّقة.

ب. وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في آيات أخرى طرفيْ عقد الزواج اللذين لهما التصرف في المهر: قال تعالى: ﴿ **وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤** ﴾ النساء، فللزوجة هنا أن تعفو عن صداقها.

وقال تعالى: ﴿ **وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ** ﴾ النساء/آية ٢٠، فقد نُسب للزوج دفعُ المهرُ، وعدم الأخذ منه إذا أراد طلاقها.

أي أن التصرف في المهر نُسب للزوج والزوجة، وبذلك يكون حق العفو لأيٍّ منهما وليس لغيرهما.

ج. قوله تعالى: ﴿ **وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ** ﴾ يعني أن العفو من صاحب الحق وليس ممن لا يملك هذا الحق، فإن كان العفو من ولي المرأة فلا يكون أقرب للتقوى لأنه عفو عن حقّ الغير. وهكذا فلو عفا الولي ورفضت الزوجة فلا قيمة لعفوه حيث إن الصداق ملكها وليس ملكه، وبالتالي فلا يكون أقرب للتقوى.

وقد اختار أبو حنيفة في مذهبه هذا الرأي أي أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، وكذلك أخذ به الشافعي في الجديد.

﴿ **وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ** ﴾ أي لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض.

* * *

﴿ **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩** ﴾.

هاتان آيتان في الصلاة أنزلهما الله خلال آيات الزواج والإيلاء والطلاق والخلع والأولاد والاسترضاع ... ومما يستفاد من نزولها خلال خضم هذه الأحداث:

أولاً: أن لا ينسى المرء المحافظة على الصلاة خلال الأحداث التي تمر معه في حياته مع الزوجة والأولاد، فلا تنسيه مشاكله عماد دينه، الصلاة لله الواحد الأحد فهي ركن للإسلام عظيم.

والثاني: إنَّ الاهتمام بالصلاة والفزوع إليها أمر مهم في الإسلام وبخاصة عندما تتعاظم المشاكل والأحداث، وقد كان رسول الله ﷺ يفزع إلى الصلاة كلما أهمه أمر فضلاً عن أن الصلاة تقرب الإنسان من ربه وتقوي دافع التقوى عنده فيتقي الله ربه عند تعامله مع الزوجة والأولاد فيضفي على المعاملات تحرياً للحق ووقوفاً عنده في النكاح والطلاق والأولاد فيبتعد عن الظلم والإضرار بالآخرين.

الثالث: أن يتذكر المرء دائما أن هذا الإسلام العظيم لا يفصل بين الدين والسياسة، لا يفصل بين العبادات والمعاملات أو ما يسمونه بالأحوال الشخصية أو الجهاد وبيعة الخليفة وغير ذلك، فلا فرق بين حكم وحكم ولا بين واجب وواجب، فالذي بيّن أحكام الزواج والطلاق والاسترضاع هو الذي بيّن أحكام الصلاة أو الجهاد أو الزكاة فكلها من عند الله لا يصح فصلها عن بعض ولا الإيمان ببعض دون بعض ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾** ﴾ البقرة/آية٨٥-٨٦.

ويبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. يأمر الله بالمحافظة على الصلوات ويخص منها الصلاة الوسطى، ويأمرنا كذلك بأن نؤدي الصلاة خاشعين لا نتكلم فيها ما ليس منها.

﴿ **حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ** ﴾ أي أدوها في أوقاتها بأركانها وأحكامها. أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ للبخاري، قال: **"سألت رسول الله ﷺ، قلتُ يا رسول الله: أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلتُ: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلتُ ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، فسكتُّ عن رسول الله ﷺ ولو استزدتُه لزادني"**.

﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ ذكرت عدة روايات عما هي الصلاة الوسطى، فقد قيل الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء وغيرها، وبالبحث فيها يتبين أنه لم يرد أحاديث عن رسول الله ﷺ إلا في صلاة العصر وصلاة الظهر أما غير هاتين الصلاتين فوردت عنها روايات موقوفة على الصحابة – رضوان الله عليهم – وقول الصحابي رأي له وليس دليلاً شرعياً، ولذلك سنترك بحثها.

ونستعرض الآن الأدلة الشرعية الواردة في العصر وتلك الواردة في الظهر لنرى الرأي الراجح في الصلاة الوسطى.

أولاً: أخرج مسلم من حديث علي – كرم الله وجهه –: "أنه ﷺ قال يوم الأحزاب: **شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم ناراً**"[1].

وأخرج الترمذي عن سمرة: "**أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة الوسطى فقال: هي العصر**"[2].

ثانياً: أخرج أحمد وأبو داوود بسند جيد عن زيد بن ثابت قال: "**كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم تكن صلاة أشد على الصحابة منها فنزلت ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾**"[3].

وبدراسة هذه الأدلة يتبين أن المجموعة الأولى من الأحاديث صريحة في تسمية الرسول ﷺ أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وفي المجموعة الثانية أن الصحابي يذكر أن سبب نزول الآية بخصوص صلاة الظهر.

والمجموعة الأولى أقوى في الدلالة على الموضوع لأنها نص صريح فيه فترجح على الثانية.

صحيح أن سبب النزول أرجح في تعيين المطلوب لو كانت الأحاديث الأولى محتملة لكنها نصّ صريح في المسألة، ولذلك فالراجح أنها صلاة العصر. وقد وردت فيها أحاديث تؤكد فضلها.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ: "**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**"[4]. وقال

---

[1] مسلم: ٦٢٧

[2] الترمذي: ١٨١٢، وقال: حديث حسن صحيح

[3] أحمد: ١٨٣/٥، أبو داوود: ٤١١

[4] مسلم: ٩٩٢، النسائي: ٤٧٤، أحمد: ١٤٥/٢

ﷺ: **"بكروا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله"**[1].

بذلك تكون في الآية ﴿ **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ** ﴾ ذكر الخاص بعد العام، فقد أمر الله سبحانه بالمحافظة على الصلوات وخصّ منها الصلاة الوسطى لحكمة يعلمها سبحانه.

﴿ **وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨** ﴾ أي خاشعين بدون كلام من غير الصلاة. أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم قال: **"كنا نتكلم على عهد رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام"**[2].

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **"أتيت النبي ﷺ وهو يصلي فسلمت عليه فلم يرد علي، فلما قضى الصلاة قال: إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أنا أمرنا أن نقوم لله قانتين لا نتكلم في الصلاة"**[3].

٢. وفي الآية الثانية يبين الله سبحانه كيفية الصلاة في شدة الخوف، فإن الله سبحانه يبين هيئة الصلاة في ثلاث حالات:

الأولى: الصلاة المعتادة في الظروف الآمنة من وجوب أداء أحكامها بشروطها وأركانها، فيتمم القيام والقراءة والركوع والسجود وباقي ما يجب منها حسب الأحكام الشرعية المتعلقة بالصلاة.

والثانية: أن يكون هناك خوف من عدو وخشية من مهاجمته للمسلمين ووجوب الحراسة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة.

فأمر الله سبحانه بالصلاة في هذه الحالة بكيفية خاصة بينتها آية النساء ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢** ﴾ النساء/آية١٠٢ التي نزلت في غزوة ذات الرقاع في شهر جمادى الأولى السنة الرابعة للهجرة كما روى بيانها

---

[1] البخاري: ٥٢٠، النسائي: ٤٧٠، ابن ماجه: ٦٨٦

[2] البخاري: ٤١٧٠، مسلم: ٨٣٨

[3] تفسير الطبري: ٢/٥٧٠، الدر المنثور: ٢/٧٢٠، النسائي: ١٢٢٠

ابن إسحاق طبقا لما ذكره ابن هشام في سيرته عنه.

روى الجماعة إلا ابن ماجة عن الصلاة التي صلاها الرسول ﷺ بالمسلمين في ذات الرقاع: "**أن طائفة صَفَّتْ معه وطائفة وِجاهَ العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائما فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وِجاهَ العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته فأتموا لأنفسهم فسلم بهم**"[1].

وهناك أحاديث أخرى صحيحة بكيفيات أخرى وكلها تصحّ ما دامت الأحاديث الواردة فيها صحيحة على أن تنفذ الصلاة على وجوهها الواردة في الأحاديث.

أما **الثالثة:** ففي حال الالتحام مع العدو، وهنا حالتان:

أ. إن كان الخوف شديداً أي أن العدو يهاجم المسلمين والترقب والمناورة في المعركة مستمرة، وأمكن الصلاة من الجند راجلين أو راكبين بالإيماء – تخفيض الرأس في السجود أكثر من الركوع – إن أمكن ذلك صلوا هذه الصلاة – صلاة الخوف الشديد – كما جاء في آية البقرة ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا** ﴾.

أخرج ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنه: "**أن النبي ﷺ وصف صلاة الخوف وقال: فإن كان الخوف أشد من ذلك فرجالاً أو ركباناً**"[2] أي أن الرسول ﷺ وصف صلاة الخوف في سورة النساء ثم أضاف إن كان الخوف خوفاً أشد فرجالاً أو ركباناً إشارة إلى آية البقرة.

وهذا الحديث هو في البخاري في تفسير سورة البقرة بلفظ "**فإن كان الخوف أشد من ذلك فصلوا رجالاً قياماً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها**"[3] ثم أضاف البخاري قال مالك قال نافع: **لا أرى عبد الله بن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ**.

ب. إن كان الالتحام أشد وتحسب القتال من العدو أكبر حتى يخشى توقع الهلاك لو شغل الجند عن القتال بالصلاة حتى ولو بخفض الرأس أي إيماء، ففي هذه الحالة يجوز تأخير الصلاة حتى تزول هذه الحالة كما حصل مع رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب،

---

[1] البخاري: ٣٨١٧، مسلم: ١٣٨٥، أبو داوود: ١٢٣٨، النسائي: ١٥٣٧

[2] ابن ماجه: ١٢٤٨، الموطأ: ٣٩٦

[3] البخاري: ٤٢٦٠، الموطأ: ٤٤٢

فقد أخرج الشافعي بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "**حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هَوِيٌّ من الليل حتى كفينا القتال وذلك قوله تعالى:** ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ **فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمر فأقام الظهر فصلاها كما كان يصلي، ثم أقام العصر فصلاها كذلك، ثم أقام المغرب فصلاها كذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كذلك. وفي لفظ فصلى كل صلاة ما كان يصليها في وقتها**"[1].

ولا يقال هنا إن هذا كان قبل نزول آية النساء في صلاة الخوف لأن الخندق كان في السنة الخامسة للهجرة وآية النساء في غزوة ذات الرقاع السنة الرابعة للهجرة، ولذلك فلكل حالة صلاتها كما بيناه.

وكما حدث في واقعة (تستر) مع الفرس، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه "**حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصلّ إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها**"[2].

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي إن خفتم أن تصلوا قياماً بالأرض فصلوا رجالاً أي راجلين أو ركبانا أي راكبين حسب وضعكم، وهذا الحذف على نحو قولهم (**إن خيراً فخير وإن شراً فشر**) أي (إن تفعل خيراً، وإن تفعل شراً).

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ أي إذا زال خوف العدو فصلوا الصلاة المعتادة واشكروا الله على نعمه والتيسير عليكم في الصلاة وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمونه.

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

[1] الأم: ١/١٠٦، ابن خزيمة: ٢/٨٨، الدارمي: ١/٤٣٠

[2] البخاري: ١/٣٢٠، كتاب الجمعة: باب الصلاة عند مناهضة الحصون.

﴿٢٤٢﴾.

في هذه الآيات يبين الله سبحانه:

١. أن على الأزواج أن يوصوا عند وفاهم أن يُنفق على زوجاهم وتوفر لهم السكنى حولاً كاملاً ولا يصلح للأولياء أن يجبروهن على ترك مسكنهن والنفقة تستمر لهن إلى نهاية الحول، إلا إذا تركن المسكن باختيارهن، وعندها تنتهي النفقة عليهن، ولا يكون بعدها إثم على الأولياء ولا عليهن فيما فعلن في أنفسهن من قطع الحداد ولبس الجميل من الثياب أو الطيب ونحوهما حسب المعروف لأمثالهن ضمن الأحكام الشرعية المتعلقة بحياهن العامة والخاصة.

ويختم الله سبحانه الآية بأنَّه غالب على أمره يعاقب من خالف أمره، لا يأمر إلا بما يصلح أمر عباده ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٤٠﴾﴾.

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي ليوصوا وصية وهو طلب من الله سبحانه للذين أشرفوا على الموت أن يوصوا لأزواجهم من بعدهم.

وهذا الطلب جازم بدلالة ذكره سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ وهذا المنطوق فيه دلالة إشارة أن هذه الوصية مترتبة عليهم وهم أموات أي في ذمتهم إن ماتوا دون أن يفعلوها، وذلك لأن الله سبحانه لم يقل (إذا حضرهم الوفاة) بل قال ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ وهو وإن كان المقصود من المنطوق ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ الذين يشارفون على الوفاة على سبيل المجاز، إلا أن استعمالها فيه دلالة إشارة كما قلنا على ترتب هذه الوصية في ذمتهم لو توفوا ولم يفعلوها.

﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي النفقة عليهن والسكنى مدة الحول. وقد كان في أول الإسلام أن الرجل يجب عليه أن يوصي عند وفاته لزوجته من بعده النفقة والسكنى مدة سنة، وكانت النفقة والسكنى واجب عليه مدة سنة إلى نزول قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فأوجب الله فيها على النساء بعد أزواجهن عدة مقدارها أربعة أشهر وعشراً وهي التي يجب على الزوج فيها النفقة والسكنى لأنها العدة.

ولم يتركها الله سبحانه لوصية الأزواج، فلم يسند تحديد العدة إلى الأزواج بالوصية كما في ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بل حدد الله سبحانه

العدة، وجعل النفقة والسكنى واجبة فيها وليس أكثر منها.

ومن ثم نَسَخَتْ آية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ آية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ وصارت العدة للمرأة التي يجب فيها النفقة والسكنى للمرأة وهي أربعة أشهر وعشراً، وبعد ذلك فلا سكنى ولا نفقة للمرأة المتوفى عنها زوجها إلا نصيبها من ميراثه الربع إن لم يكن له ولد، والثمن إن كان له ولد كما جاء في سورة النساء ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ النساء/آية١٢.

ولا يقال كيف تنسخ آية البقرة السابقة في التلاوة الآية اللاحقة في التلاوة؟ لا يقال ذلك لأنها وإن كانت قبلها في التلاوة إلا أنها بعدها في النزول، ولكن الرسول ﷺ أمر بوضعها في التلاوة في هذا المكان لأن ترتيب الآيات في السور توقيفي لحكمة يعلمها الله.

وهي مثل الآية ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ البقرة/آية١٤٢ في التلاوة تسبق آية ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ البقرة/آية١٤٤ علما بأنها في النزول بعدها كما هو ثابت في معناها وكما بيناه سابقاً في موضعها.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس: "قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته وينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله تعالى ذكره بعد ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها. وقال في ميراثها: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ ﴾ فبين الله ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة"[1].

ولذلك نقول إن هذه الآية كانت في أول الإسلام وكانت ترتب على الأزواج وجوب النفقة والسكنى لأزواجهم اللاتي يتوفون عنهن مدة حول كامل، وكان يحرم

---

[1] الدر المنثور: ٦٩١/٢، تفسير الطبري: ٥٨٠/٢، البيهقي: ٤٢٧/٧

على الورثة أن يخرجوهن من السكنى أو يمنعوهن النفقة طيلة الحول ما دمن لم يخرجن من المسكن.

فإن خرجن باختيارهن وتركن المسكن المعين فقد انتهى وجوب النفقة لهن وعندها لا جناح ولا إثم لا على الأولياء ولا عليهن فيما فعلن في أنفسهن من لباس أو طيب أو نحوه في حدود الشرع ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ ﴾. وقد استمر ذلك إلى أن نزلت الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ ﴾ فنسخت وجوب النفقة والسكن السابقة وحصرتها فقط في العدة ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ ﴾، وجعلت النفقة والسكنى واجبة للمرأة خلال عدتها فقط.

أخرج مالك في الموطأ أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِطَرَفِ الْقَدُومِ لَحِقَهُمْ فَقَتَلُوهُ قَالَتْ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنٍ يَمْلِكُهُ وَلاَ نَفَقَةٍ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **نَعَمْ قَالَتْ فَانْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ أَمَرَ بِي فَنُودِيتُ لَهُ فَقَالَ كَيْفَ قُلْت فَرَدَّدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ لَهُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي فَقَالَ امْكُثِي فِي بَيْتِك حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ قَالَتْ فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا قَالَتْ فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِك فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ**."[1] قال الترمذي عن هذا الحديث حسن صحيح.

ثم يختم الله سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ أي أن الله غالب على أمره يعاقب من خالف أمره، وأنّه يقضي بما هو خير لعباده وما فيه مصلحتهم الحقة فليمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه يفوزوا في الدنيا والآخرة.

٢. يؤكد الله سبحانه في الآية الثانية وجوب المتاع للمطلقات غير المدخول بهن وغير المسمى لهن مهر، ففي الآية السابقة ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ فقال أحد المسلمين: إن أحسنت فعلت وإن لم أحسن لم أفعل. فأنزل الله هذه الآية لبيان أن متعة هذا النوع من المطلقات

---

[1] الموطأ: ١٠٨١

فرض ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ وقد بينا ذلك في تفسير تلك الآية.

وهذه الآية والآية السابقة متصلتان في آيات الطلاق قبلها، فالآية السابقة ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ منسوخة بالآية قبلها ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ والآية هذه ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ ﴾ لإزالة الالتباس في الآية ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ وبيان أن هذه المتعة على الوجوب.

٣. ويبين الله سبحانه في الآية الأخيرة أنه أنزل هذه الأحكام لتعقلوها وتتدبروها وتنفذوها، ففيها خيركم في الدنيا والآخرة فهي التي تحقق لكم حياة طيبة مع أزواجكم وأبنائكم وسائر أموركم ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ
يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ
لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً
فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ
ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ

وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات البينات:

١. يخاطب الله سبحانه رسول الله ﷺ والمؤمنين ليعتبروا من مثل قوم تركوا ديارهم وهم ألوف مؤلفة خوفاً من قتال عدو زاحف نحو ديارهم، فتركوا الديار وفروا من أمامه حفاظاً على حياتهم، فلما وصلوا مكاناً ظنوه آمناً نزلوا فيه حفاظاً على حياتهم فلما نزلوا فيه فجأهم الموت الذي فروا منه في مأمنهم، ثم بعثهم الله بعد مدة ليعلموا أن الله هو المحيي والمميت وأن آجالهم إذا جاءت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وفي هذا حثّ للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله وأنه لا مفرّ من الموت ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾ النساء/آية٧٨ فيسارع المؤمن إلى القتال لينال إحدى الحسنيين دون أن يكون من القاعدين الخوالف وهو يعلم أن القعود لا يمنع من أجل إذا دنا ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ

﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ آل عمران/آية١٦٨.

ثم يبين الله سبحانه في آخر الآية أن الله لذو فضل على الناس، فيضرب لهم الأمثال ويذكرهم بآياته ويخبرهم بما فيه فوزهم في الدارين، ومع ذلك فإن المعتبرين قليل والشاكرين لنعمه سبحانه دون الكافرين بكثير ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام للتقرير والتعجب وهي تستعمل لمن رأى رأي العين حقيقة فتذكره بما رأى لتقرير ما رآه والتعجب منه، وكذلك تستعمل لمن تنقل له أنت الأمر ليدركه كما لو رآه حقيقة وللتعجب منه، وهي هنا كذلك فقد أخبر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ بالقوم الذين ضربوا مثلا كما لو كانوا أمامه للاعتبار والتعجب من حالهم، ولهذا عديت الرؤية بحرف الجر (إلى) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾ فجاءت بمعنى الإدراك ولو كانت الرؤية الحقيقية لما عدّي الفعل بحرف الجر بل يكون حينها متعدياً بنفسه.

﴿ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ لم يبين الله سبحانه سبب خروجهم، وقد وردت روايات في سبب الخروج ليس منها ما أسند إلى رسول الله ﷺ ومنها فراراً من مرض وهو الطاعون ومنها فراراً من ملاقاة عدوهم، والراجح منها حسب سياق الآيات أنه الفرار من أمام عدو زاحف عليهم وذلك لأن الآية التالية نص في القتال ﴿ وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ دليل على أنهم كثرة كاثرة أي أعدادهم كبيرة ولضعف إيمانهم فروا أمام زحف عدوهم حيث إن ﴿ أُلُوفٌ ﴾ جمع كثرة ولم ترد (آلاف) التي هي جمع قلة.

وقد ذكرت روايات عن أعدادهم وليس لها سند ثابت، غير أن الراجح أنها فوق العشرة آلاف لأن العرب لا تجمع ألفاً إلى عشرة على وزن (ألوف) بل على وزن (آلاف) أي جمع قلة على وزن (أفعال). والذي يجمع جمع كثرة هو ما فوق العشرة آلاف فيجمع على (ألوف)، ولذلك فغاية ما يقال عن عددهم أنهم كثرة كاثرة تفوق العشرة آلاف.

﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي خشية الموت بأن يقتلوا من قبل عدوهم إن لاقوه في ميدان القتال.

٢. في هذه الآية الكريمة أمر من الله سبحانه بالجهاد في سبيل الله ﴿ وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فالقتال يجب أن يكون بنية صادقة مخلصة لله

وليس لمصلحة أو سمعة أو رياء، فإن الله سبحانه لا يقبل الجهاد إلا أن يكون خالصاً له سبحانه فهو الذي في سبيل الله "**سئل رسول الله ﷺ عن القتال أيه في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**"[1] والله سميع ينصر من ينصره وعليم بصدق النية وخالص التوجه إلى الله لا تخفى عليه خافية.

٣. بعد ذلك يحثّ الله المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله في الجهاد، وأنَّ أجره عظيم عند الله كما لو أقرضه المرء لربه للدلالة على عظم الثواب على مثل هذا الإنفاق.

وأن لا يخشى المنفق على ضياع ماله في الإنفاق فإن الله هو الذي يقدر الرزق ويوسعه وهو سبحانه الذي يخلف ما ينفق العبد: "**ما من يوم إلا وينزل ملك بأمر الله ليعطي منفقا خلفاً وممسكاً تلفاً**"[2]. هذا فضلا عن الأجر العظيم في الآخرة وهو يوم لا بدّ قادم يرجع الناس فيه إلى ربهم ﴿ **وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾** ﴾.

﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ** ﴾ أي من الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، فيكون (يضاعفه) منصوباً جواباً للاستفهام كقولك (من أخوك فنكرمه) لأن الأفصح في جواب الاستفهام بالفاء، إذا لم يكن قبله ما يُعطَف عليه من فعل مستقبل، هو نصبه.

أخرج أبو حاتم عن ابن عمر قال: "لما نزلت ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ** ﴾ البقرة/آية٢٦١، فقال رسول الله ﷺ: **ربّ زد أمتي**، فنزلت ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا** ﴾ الآية قال: **رب زد أمتي**، فنزلت: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾** ﴾ الزمر/آية١٠"[3].

فهو أجر عظيم لمن أنفق في سبيل الله إخلاصاً لله وصدقاً مع رسول الله ﷺ.

﴿ **وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ** ﴾ أي يوسع الرزق ويقدر، ولذلك فالمؤمن يسعى في الأرض طلبا للرزق ويطمئن ويقنع بما قسمه الله، فالرزق بيده سبحانه ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾** ﴾ الذاريات/آية٥٨.

* * *

[1] البخاري: ١٢٠، ٢٥٩٩، مسلم: ٣٥٢٥

[2] البخاري: ١٣٧٤، مسلم: ١٠١٠، أحمد: ٣٠٥/٢، ابن حبان: ٤٦٢/٢

[3] ابن حبان: ٥٥٠/١٠

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. يضرب الله مثلا آخر متعلقا بالقتال في سبيل الله، ففي الآية السابقة كان عن قوم تركوا ديارهم هرباً من لقاء عدوهم حفاظا على حياتهم فلما وصلوا مكانا ظنوه آمناً نزلوا فيه، فأتاهم الموت من حيث لم يحتسبوا ليكون في ذلك عبرة للمقاتل في سبيل الله فلا يخشى ملاقاة العدو لأن أجله بيد الله لا يقدمه أو يؤخره قعود عن القتال أو فرار فيكون اندفاع المؤمن في القتال قوياً يفوق ما عليه عدوه ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ النساء/آية١٠٤.

وفي هذه الآية يذكر الله سبحانه لرسوله ﷺ والمؤمنين قصة قوم موسى – عليه السلام – بعد وفاته حيث أمروا بالقتال فتذرعوا بأن ليس لهم ملك يقاتلون تحت لوائه، وطلبوا من نبيهم أن يرسل الله ملكا يقاتلون معه وكأنهم أرادوا قائداً متمرساً في فنون القتال عظيم الجسد. فقال لهم نبيهم فلعلكم لا تقاتلون لو أرسل لكم ملك وفرض عليكم القتال، وكأن نبيهم كان يتوقع أنهم لن يلتزموا كما هو شأنهم، لكنهم أجابوا

مؤكدين امتثالهم ومعللين ذلك بأن ديارهم قد احتلت وأُخرجوا منها، وأُبعدوا عن أزواجهم وأبنائهم، وهذا يجعلهم جادين في القتال في سبيل الله إن أرسل الله لهم ملكاً وكُتِبَ عليهم القتال، إلا أنهم عند فرض القتال عليهم عادوا إلى سيرتهم الأولى فلم يمتثل منهم إلا القليل وكانوا من الظالمين لعصيانهم أمر الله.

وليس في الآية ما يدلّ على أن هؤلاء القوم هم أولئك المذكورون في الآية السابقة ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ وإن كانت القصتان في موضوع القتال وعدم التخلف عنه بأية حجة.

فالآية الأولى في أولئك الذين فروا من ملاقاة عدوهم حفاظا على حياتهم فخسروا الدنيا بانتصار عدوهم عليهم، وفي الوقت نفسه لقوا الموت ينتظرهم في مأمنهم وكانت تلك للاعتبار بأن الأجل إذا جاء لا يؤخره فرار مما يجعل المؤمن يندفع بقوة لملاقاة عدوه.

وهذه الآية في أولئك الذين يبحثون عن الأعذار كي لا يقاتلوا، فهم لا يفرون خوفاً من الموت ولكنهم ينتحلون الأعذار لتأخير القتال.

٢. والدليل على ذلك ما ذكره الله سبحانه في الآية التالية لما أعلمهم نبيهم أن الله سبحانه قد أرسل لهم طالوت ملكاً عادوا يقولون إنهم أحق بالملك منه، وإنَّه ليس غنياً، ومع ذلك فقد أخبرهم نبيهم أن الله سبحانه هو الذي اصطفاه لهذه المهمة وزوده بما يؤهله لذلك: قوة في العلم والجسم ولكنهم لم يقتنعوا.

٣. بل طلبوا آيةً على صدق كونه ملكاً عليهم، فأخبرهم نبيهم أن الآية على ذلك أن يرد الله عليكم (التابوت) العظيم لديكم والذي كان قد فقد منكم فيعود لكم بكلّ ما فيه من آثار لرسولِي الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وتأتي به الملائكة بإذن ربها.

وهكذا لما حُصِروا فيما يطلبون وسدت عليهم سبل البحث عن معاذير استجابوا لنبيهم وساروا مع ملكهم للقتال في سبيل الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كما ذكرناها من قبل.

﴿ ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وجوههم وأشرافهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه، وقد استعمل في لغة العرب للدلالة على الأشراف ووجوه القوم لأن هيبتهم تملأ الصدور عادة غير عامة الناس.

﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ أي من بعد وفاة موسى ـ عليه السلام ـ .

﴿ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ جواب الطلب مجزوم للدلالة على تأكيدهم القتال إذا بعث لهم ملك.

﴿ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ ﴾ أي لعلكم لا تقاتلون إن كتب عليكم القتال، وفيه دلالة على أن نبيهم كان يتوقع منهم عدم الامتثال وعدم القتال.

﴿ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ﴾ أي طردنا من ديارنا ومنعنا رؤية أهلنا وأطفالنا الذين لم يتمكنوا من الخروج.

﴿ طَالُوتَ ﴾ اسم أعجمي معرب، وهو ممنوع من الصرف للعجمة.

﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ قد استنكروا أن يكون ملكاً عليهم واستدلوا على ذلك بأنه ليس من بيت الملوك وكذلك ليس غنياً. فأجابهم الله سبحانه أبلغ جواب فهو:

أولاً: هو الذي اصطفاه الله عليكم.

ثانياً: زاده الله بسطة في العلم لتمكينه من إحكام سياسة أموركم.

ثالثاً: زاده بسطة في الجسم، فهو مؤهل لقتال عدوكم بشدة وقيادتكم بحكمة وقوة.

وأولاً وآخراً فالأمر لله يضعه حيث يشاء فهو الذي يؤتي الملك لمن يريد.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧ ﴾.

وهنا يلاحظ أمران:

أ. إنَّ الله سبحانه لم يذكر في مؤهلات الملك (الغنى) الذي ذكروه فهو أمر ثانوي والأولوية ليست له في مؤهلات الحكم، بل الكفاية فيما يوكل له من عمل حتى لو كان فقيراً فيقدم على غير المؤهل للعمل وإنْ كثر ماله.

ب. إنَّ الله قدم العلم على الجسم لأهميته في القيادة إلى شاطئ الفوز والنجاة.

﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ ﴾.

لم ترد نصوص صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حول هذا التابوت، والذي يفهم من سياق الآية واللغة أن ﴿ ٱلتَّابُوتُ ﴾ صندوق كان معظماً لديهم يبعث

وجوده السكينة في نفوسهم فلا يخشون عدوهم عند القتال، وفي هذا الصندوق محفوظ لهم بقية من آثار موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ.

وإنَّ هذا الصندوق كان مفقودا فجعل الله عودته إليهم دليلا على صدق طالوت في كونه ملكاً أرسله الله عليهم.

وقد تمت آية الله فأحضرت الملائكة (التابوت) إليهم فآمنوا وصدقوا إن طالوت ملك عليهم وساروا معه لقتال عدوهم.

ولم تبين الآيات وكذلك لم يرد عن رسول الله ﷺ كيفية إحضار الملائكة للتابوت ولا كيف حملوه ونقلوه ولا من أين، لذلك نقف عند ما ورد في النص ولا نتجاوزه إلى روايات غير مسندة في مثل هذه الحالات.

﴿ **ٱلتَّابُوتُ** ﴾ الصندوق، وهو من (التوب) أي الرجوع لأن الصندوق يرجع إليه ما يخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاجه مما أودع فيه. ووزنه على (فعلوت) وأصله (توبوت) فقلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها.

و(تابوت) لغة قريش وهي التي كتب بها القرآن بين يدي رسول الله ﷺ، والأنصار تلفظها (تابوه) وهي التي سأل زيد بن ثابت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ حول جواز كتابتها في المصحف بالهاء، فأعلمه عثمان رضي الله عنه بأن تبقى كتابتها كما هي مكتوبة في الصحف بلغة قريش. ووزنها حسب لغة الأنصار ـ كما قال الزمخشري ـ فاعول ويقول: "إن (فاعولا) قليل الاستعمال، والأشهر لغة قريش على وزن فعلوت من التوب وهو الرجوع".

* * *

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

في هذه الآيات يبين الله سبحانه ما يلي:

١. بعد أن جاءت بني إسرائيل من بعد موسى الحجةُ القاطعة على أن طالوت هو ملكهم وذلك بإتيان التابوت إليهم صَدَّقوا وساروا مع طالوت لملاقاة عدوهم.

ثم أعلمهم طالوت أن الله مبتليهم بنهر من باب الاختبار لبيان صدقهم وإخلاصهم في ملاقاة عدوهم، وكان ذاك الابتلاء أن لا يشربوا من النهر كراعاً بمعنى أن لا يأخذوا الماء بأفواههم مباشرة من النهر، وأعلمهم أن من شرب الماء كراعاً من النهر فليس من أتباعه وأصحابه ومن لم يشرب أو شرب ولكن بغرفة بيده فإنه من أتباعه.

وكانت نتيجة الابتلاء أن شربوا كلهم كراعاً إلا القليل منهم، فسار بمن آمنوا معه لملاقاة العدو، فلما رأوا عدوهم رأي العين قال قسم منهم أن لا طاقة لهم بقتال جالوت وجنوده، ولكن القسم الآخر وهم شديدو الإيمان بالله الذين يتطلعون إلى الآخرة أكثر من تطلعهم إلى الدنيا وهم الفريق الأقوى إيماناً الذين فاقوا الفريق الآخر بأداء الطاعات وحسن التقرب إلى الله، قالوا مشجعين الفريق الآخر أن لا عبرة بكثرة العدد بل بعون الله والنصر مع الصبر والله مع الصابرين.

واندفعوا مع طالوت وهم يدعون الله أن يفرغ عليهم صبراً ويثبت أقدامهم وينصرهم على القوم الكافرين.

فاستجاب لهم الله سبحانه ومكَّنهم من أعدائهم فهزموهم بإذن الله وقتل داود ـ عليه السلام ـ جالوت وأنعم الله على داود بالملك والنبوة وعلمه غير ذلك مما ينفعه في دنياه كصنعته السلاح والحديد وما يعينه في الجهاد في سبيل الله.

ثم يبين الله سبحانه في آخر هذه الآيات أنه لولا الجهاد لفسدت الأرض ولكن الله سبحانه تفضل على العالمين بأن أرسل رسلاً يدعون الناس لدين الله ويقاتلون بالمؤمنين

أعداء الله ليحولوا دون فساد المفسدين وظلم الظالمين.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ ﴾ أي غادر معهم المدينة التي كانوا فيها وساروا باتجاه عدوهم لقتاله.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ أي مختبركم بالمرور على نهر.

﴿ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ ﴾ أي من كرع من النهر فشرب بفيه لأن الشرب من النهر على الحقيقة هو هكذا وليس تناولاً.

﴿ فَلَيۡسَ مِنِّي ﴾ أي ليس من أتباعي.

﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ أي لم يذقه، من طَعَم الشيء إذا ذاقه مأكولاً كان أو مشروباً ـ حكاه الأزهري ـ وفي هذا مفهوم موافقة فالنهي عن ذوق الماء كراعاً يعني شدة النهي عما زاد عن ذوق الماء أي شربه كراعاً.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ أي شرب متناولاً بيده، وهذا استثناء منقطع لأن النهي هو عن الشرب الكراع، والاستثناء للشرب تناولاً باليد وهو ليس من الشرب الكراع، فهو منقطع بمعنى لكن (**لكن من اغترف غرفة بيده**) فهو مني.

قرأ عامة أهل المدينة والبصرة (أبو عمرو وابن كثير ونافع) بنصب الغين من الغرفة بمعنى الغرفة الواحدة من قولك: اغترفت غرفة، والغرفة هي الفعل بعينه من الاغتراف.

وقرأ آخرون بالضم بمعنى الماء الذي يصير في كف المغترف فالغَرفة الاسم والغُرفة المصدر والغَرفة بالنصب معناها المرة، والغُرفة بالضم تعني الماء في اليد، سواء أكان مرةً أم مراتٍ، وحيث إن القراءتين متواترتان والمعنى واحد، فيكون المعنى المحكم المشترك بين القراءتين هو: المغترف من الماء مرة واحدة.

أما ﴿ بِيَدِهِۦ ﴾ بعد غرفة فهو قيد لها، (فالغرفة) نكرة في سياق الإثبات فهي مطلقة. و﴿ بِيَدِهِۦ ﴾ قيد لها فيكون المستثنى هو الذي تناول الماء بيده وشرب مرة واحدة، أي أن الذي سيكون من أتباع طالوت هو ذاك الذي لا يشرب كراعاً من النهر ويمضي مجتازاً له، أو لا يشرب كراعاً ولكن يغترف من النهر بيده مرة واحدة فقط، ويمضي مجتازاً له.

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ أي أصحاب اليقين بملاقاة الله وهم

شديدو الإيمان الذين يتطلعون إلى الآخرة فوق تطلعهم إلى الدنيا وأنَّ ملاقاة ربهم تأخذ عليهم العقول والسمع والأبصار.

فالظن هنا بمعنى اليقين بملاقاة الله بقرينة قولهم ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ وهذا يعني أنهم لا يشكون بملاقاة الله وهي قرينة على أن الظن هنا بمعنى اليقين.

﴿ جَالُوتَ ﴾ أعجمي معرب كما قلنا في (طالوت).

﴿ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ النبوة وقد جمع الله لداوود على بني إسرائيل الملك والنبوة وكان الملك منفصلا عن النبوة كما بينا في الآيات السابقة من قولهم لنبيهم أن يبعث لهم ملكاً.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي ولولا فرض القتال في سبيل الله لِرَدْع أهل الشرور والفساد.

* * *

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

هذه الآية يختم الله سبحانه بها ما أنزله على رسوله من أحكام وآيات دالة على صدق نبوته صلوات الله وسلامه عليه.

وكل من تدبرها بإعجازها في لغتها وأسلوبها وصِدْق إخبارها بمغيبات لا يعلمها بشر إلا بوحي من ربه، والإيمان الموافق للفطرة والعقل الذي دعت إليه الآيات، وعدم اختلافها في كل ما حوته من أحكام وأخبار، كل ذلك ينطق بصدق رسول الله ﷺ وأنّه رسول من رسل الله الذين أرسلهم لإنقاذ عباده من الظلمات إلى النور ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

* * *

تم الانتهاء من تفسير الحزب الرابع / الجزء الثاني

الذي يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ (٢٠٣).

إلى قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ ﴾ (٢٥٢).

من سورة البقرة من التيسير في أصول التفسير

وقد فُرغ من كتابته مع غروب يوم الأحد الواقع في:

الحادي والعشرين من صفر ١٤١٧هـ.

الموافق السابع من تموز سنة ١٩٩٦م.

ويتلوه الحزب الخامس/ الجزء الثالث

الذي يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ ﴾ (٢٥٣).

إلى قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ (٢٨٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير في أصول التفسير

الحزب الخامس/ الجزء الثالث

مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

البدء به ليلة الثلاثاء

السابع من ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ

الموافق الثالث والعشرين من حزيران ١٩٩٦م

من الآية ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٢٥٣) إلى آخر سورة البقرة ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (٢٨٦).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا
بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ
مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ
وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ
ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ
ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم
مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ
رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ

كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ
طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً
لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ
أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ
قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ
وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ
بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ
اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. بعد أن بين الله في الآية السابقة ﴿ **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾** ﴾ أنّ ما أنزله سبحانه من آيات وأحكام تدلّ على صدق نبوته ﷺ وأنّه من المرسلين، فإنه سبحانه يبين في هذه الآية ﴿ **۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ أن رسل الله يتفاضلون بكيفية نزول الآيات الدالة على صدقهم وتنوع الشرائع التي ينزلها الله عليهم، فمنهم من يكلمه الله تكليماً أو يوحي إليه وحياً أو يرسله إلى قومه خاصة أو إلى الناس كافة أو يجعل آية نبوته إبطال سحر السحرة أو شفاء الموتى أو قرآناً معجزاً يتلى.

كما يبين الله سبحانه أنه القاهر فوق عباده فلا يحدث في ملكوته شيء جبرا عن إرادته سبحانه.

فإن الذين اختلفوا على أنبيائهم بعد مشاهدتهم للآيات الدالة على صدق الرسل ثم اقتتلوا من بعدهم لم يصنعوا ذلك رغم إرادة الله بل فعلوه باختيارهم ولكن فعلهم هذا ليس جبراً عن خالقهم فإن الله سبحانه لو شاء لخلقهم على الهدى ولمنعهم من الاختلاف على أنبيائهم، غير أن حكمة الله سبحانه اقتضت أن يبين للناس الخير من الشر بإرسال الرسل إليهم ويتركهم يختارون ما يشاءون من خير فيثيبهم عليه أو ما يشاءون من شر فيعاقبهم عليه، فهم مسؤولون عنه ما داموا فعلوه باختيارهم.

وهنا لا بدّ من توضيح أمرين مهمين سبق أن ذكرناهما في هذا التفسير ونعيدهما للأهمية:

أ. أن العبد لا يستطيع أن يفعل فعلاً رغماً عن الله سبحانه أو جبراً عنه، وهذا هو معنى أن أفعال العبد بإرادة الله ومشيئته، أي ليس جبراً عن الله وليس معناها أنها برضى الله، فعندما يقال فلان سرق بمشيئة الله وإرادته يعني أنه سرق ليس جبراً عن الله، وليس معناه أنه سرق برضا الله، فمشيئة الله وإرادته لهما حقيقة شرعة تعني أنه لا يتم شيء في ملكوت الله جبرا عنه سبحانه بل بإرادته ومشيئته، وليست تعني المعنى اللغوي من شاء أو أراد بمعنى رضي.

ب. أن العبد مسؤول عن كلّ أفعاله الاختيارية، فإن كانت خيراً يجزَ عليها خيراً وإن كانت شراً يعاقب عليها ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴿٣٨﴾ ﴾ المدثر/آية٣٨ ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴿١٢٣﴾ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴿١٢٤﴾ ﴾ النساء/آية١٢٣-١٢٤.

وهكذا فإن أولئك الأقوام الذين اختلفوا على أنبيائهم من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق نبوتهم فآمن منهم من آمن وكفر منهم من كفر، هم مسؤولون عن اختيارهم المذكور للإيمان أو للكفر وسيجزون بذلك الجنة لأهل الإيمان والنار لأهل الكفر.

ولكنهم في كل ما اختاروه من إيمانٍ وكفرٍ لم يكن رغماً عن إرادة الله أو جبراً عنه سبحانه، فإن الله لو شاء لمنعهم من هذا الاختلاف والامتثال ولجعلهم أمة واحدة ولخلقهم على الهدى.

ولكن حكمة الله اقتضت غير ذلك فتركهم يختارون، إيماناً أو كفراً، ويجزيهم به، ثواباً أو عقاباً، بعد أن أرسل لهم الرسل وبين لهم الآيات وأقام الحجة عليهم، فالله سبحانه يفعل ما يريد ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴿٢٥٣﴾ ﴾.

﴿ **۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ أي ميزناهم عن بعض في عدد من الأمور، فمن الرسل من كلمه الله كموسى - عليه السلام - ﴿ **وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴿١٦٤﴾ ﴾ النساء/آية١٦٤ ومنهم من أوحى الله إليه وحياً - جبريل عليه السلام - كرسول الله محمد ﷺ ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ البقرة/آية٩٧.

ومحمد ﷺ أرسل للناس كافة، وغيره إلى أقوامهم خاصة: "**أعطيت**

خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كلّ نبي يرسل إلى قومه خاصة وقد بعثت إلى كلّ أحمر وأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد من قبلي"[1].

وهذه الآية ﴿ **۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ لا تتعارض مع الآية ﴿ **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ** ﴾ البقرة/آية٢٨٥ ولا تتعارض كذلك مع الحديث: **"لا تفضلوا بين أنبياء الله"**[2].

وذلك لأن أصل الفضل في اللغة الزيادة ضد النقص، فمن زاد على آخر في أمر فقد أفضل عنه في هذا الأمر أي زاده فيه، ولذلك فمن كان أكثر من غيره في الرزق يكون قد فضل عليه ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ النحل/آية٧١، فالتفضيل لا يعني أكثر من الزيادة في أمر ما، وقد يفضله الثاني في أمر آخر.

والأنبياء من حيث النبوة لا يتفاضلون، وهذا معنى ما جاء في الآية ﴿ **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ** ﴾ البقرة/آية٢٨٥ والحديث: **"لا تفضلوا بين أنبياء الله"** ولكن من زاده الله منهم أمراً آخر يكون قد فضله في ذاك الأمر كما في الآية ﴿ **۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ وكما في قوله سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝** ﴾ الإسراء وكما ذكرنا في الحديث السابق عن رسول الله ﷺ.

= ﴿ **مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ** ﴾ أي موسى ـ عليه السلام ـ.

= ﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ** ﴾ محمد ﷺ كما قال ابن عباس.

= ﴿ **وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ** ﴾ أي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين بإذن الله.

= ﴿ **وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ** ﴾ وقويناه بجبريل ـ عليه السلام ـ.

﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ** ﴾ أي أن اقتتالهم لم يكن رغماً وجبراً عن الله بل بمشيئته سبحانه، فالله قادر على منعهم من الاقتتال ولكن الله تركهم يفعلون باختيارهم ما يشاءون فاقتتلوا بسبب اختلافهم على أنبيائهم حيث آمن من آمن وكفر من كفر، فذِكْر ﴿ **وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟** ﴾ دليل على أن اختلافهم هو سبب اقتتالهم.

---

[1] البخاري: ٣٢٣، مسلم: ٨١٠

[2] البخاري: ٣١٦٢، مسلم: ٤٣٧٦

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ تأكيد لما ذكر في الآية السابقة من أن لا يقع في ملك الله شيء جبراً عنه سبحانه بل بمشيئته.

وهذا التأكيد ليس من قبيل التكرار المجرد بل طبقاً لأساليب العرب في كلامهم، فإن العربي الفصيح إذا بدأ بذكر أمر ثم حدث ما يدعو لذكر أمر آخر وأراد أن يعود للأول فإنه يذكره مرة أخرى، أو يذكر نحوه ليعيد اللحمة لما انقطع من الكلام.

وهذا على نحو قوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا ﴾ النحل/آية١٠٦ فإن ابتداء الكلام عمن يكفر بالله تعالى بعد إيمانه، ثم ذكر الله سبحانه بعدها حالة الإكراه، ثم عاد سبحانه فأكمل الآية بنحو ما بدأه به ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا ﴾ النحل/آية١٠٦.

وهذه الآية كذلك فقد ذكر الله سبحانه تعلق الامتثال بمشيئته سبحانه ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم ﴾ ثم ذكر اختلافهم على أنبيائهم، ثم عاد سبحانه على نحو ما بدأ به ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ وهذا أسلوب في العربية غاية في الفصاحة والبيان.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ فهو سبحانه لا يعجزه شيء ولا رادّ لحكمه ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ البقرة/آية١١٧.

٢. بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة حال الأمم واختلافهم على أنبيائهم فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ذكر الله سبحانه في الآيات اللاحقة بعض شأن المؤمنين والكافرين فالذين آمنوا ينفقون زكاة أموالهم إعماراً لآخرتهم حيث لا ينفعهم هناك إلا أعمالهم الصالحة، فلا تجارة يتاجرون بها هناك تدرّ عليهم أموالاً يزكونها ويؤجرون، ولا أصدقاء هناك يحملون من أوزارهم شيئاً أو يساعدونهم في فعل الخيرات، إلا إن كانوا من المتقين، ولا أحد يشفع لهم إلا أن يأذن الله فيكونوا من الفائزين.

وأما الذين كفروا فهم الظالمون الذين وضعوا الأمور في غير موضعها فكفروا بالذي خلقهم واتبعوا خطوات الشيطان فحاق بهم سيئات ما عملوا وكانوا من الهالكين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ هذا خطاب للمؤمنين أن ينفقوا من أموالهم وهو طلب بالإنفاق.

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ وعيد شديد وهو قرينة على أن الطلب جازم.

أي أن الإنفاق المطلوب في هذه الآية الكريمة هو فرض فهو (الزكاة) وليس المقصود في الآية صدقة التطوع.

﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ ﴾ بالرفع على اعتبار (لا) تعمل عمل ليس وهي في هذه الحالة تحتمل النفي العام وغير العام فهي من المتشابه، ولكنها قُرِئت كذلك بالبناء على الفتح باعتبار (لا) عاملة عمل (إن) وهي في هذه الحالة للنفي العام لا غير، فهي من المحكم.

والقراءتان متواترتان والمعنى واحد والمحكم قاضٍ على المتشابه، فيكون المعنى النفي العام للبيع والخلة والشفاعة في ذلك اليوم.

ويؤكد إفادةَ النفي هنا (العمومَ) ورودُ تخصيص للخلة والشفاعة، وورود تخصيص لأمر ما يعني أن ذلك الأمر لفظ عام. وقد ورد تخصيص الأخلاء بقوله سبحانه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزخرف/آية٦٧، وورد تخصيص الشفاعة بقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ طه/آية١٠٩ وبالحديث: "**أعطيت الشفاعة**"[1].

فلا خلة يومئذ للمتقين ولا شفاعة في ذلك اليوم إلا لمن أذن له الرحمن وإلا لرسوله ﷺ.

الخلة: خالص المودة وهي مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين.

﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ أي الكافرون هم الذين يضعون الأمور في غير موضعها فيكفرون بالخالق ويعبدون مخلوقاته ويشركون به بعض خلقه ويضعون تشريع المخلوقات في موضع تشريع الخالق، فهم بذلك ظالمون.

٣. بعد ذلك ذكر الله سبحانه آية عظيمة فيها صفات علية له جلّ شأنه، فهو وحده سبحانه المستحق للعبودية المتفرد في ألوهيته لا إله إلا هو الحي القائم بتدبير شؤون خلقه، الذي لا يعتريه فتور ولا غفلة أو نوم، المالك للسموات والأرض وما فيهن ومن فيهن، صاحب العظمة والجبروت الذي لا يتجاسر أحد على الشفاعة عنده دون إذنه،

[1] البخاري: ٣٢٣، مسلم: ٨١٠

العليم الخبير بكل مخلوقاته، وما قبلها وما بعدها، والذي لا يطلع على علمه أحد إلا بمشيئته سبحانه، المحيط بكل شيء الذي لا يعجزه ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، العلي في ملكه وسلطانه العظيم في عزه وجلاله هو سبحانه كما وصف نفسه المنزه المتعالي عن كلّ وصف لا يليق بعظمته الكبير المتعال العلي العظيم.

وهي أعظم آية في القرآن، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من طريق أبي ذر أنه قال: قلتُ يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم قال ﷺ «**آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم**» وأخرجه كذلك من طريق أُبيّ ومن طريق أبي أمامة رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين. وأخرج نحوه الدارمي في سننه.

ولا يتعارض هذا مع كون الآيات كلها كلام الله، فالقرآن كلام الله سبحانه وهو من حيث هذا الاعتبار عظمته واحدة، غير أن الله سبحانه شاء أن يجعل أجر بعض آياته أكبر من أجر الآيات الأخرى لحكمة يعلمها سبحانه.

فقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه: "**لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم قال رسول الله ﷺ: سورة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾** ..."[1].

وكما ذكرنا في الحديث السابق عن آية الكرسي أعظم آية في القرآن.

وهذا يعني أعظم أجرا وهو لا يتعارض مع كون آيات القرآن كلها كلام الله.

فهي سواء من حيث كونها كلام الله، ولكنها تتفاضل أجرا كما شاء الله ولا تعارض بين الحالتين.

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد ما ذكر في آخر الآية السابقة ﴿ **وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤** ﴾ تقريعاً للكفار وبياناً لعظيم ضلالهم وتماديهم في غيهم حيث وضعوا مخلوقات الله في مرتبة خالقهم العظيم الذي ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ فكيف يكفرون ويعبدون غير الله من مخلوقاته أو يشركون به مخلوقاته فيضعوا الأمور في غير موضعها ويكونوا من الظالمين.

---

[1] البخاري: ٤٢٨٠، ٤٣٣٤

فالله وحده المستحق للعبودية المتفرد في ألوهيته والكافرون هم الظالمون.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي أن الله سبحانه هو وحده المستحق للعبودية.

و﴿ ٱللَّهُ ﴾ مبتدأ، و﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود، ﴿ لَآ ﴾ نافية للجنس تعمل عمل إن، ﴿ إِلَٰهَ ﴾ اسم لا النافية للجنس مبني على الفتح وخبرها محذوف تقديره موجود أو معبود وهو مرفوع. والعرب تجعل موضع لا النافية للجنس واسمها (مبتدأ مرفوع) ويكون خبر ﴿ لَآ ﴾ النافية المحذوف هو خبر (لا واسمها) كذلك. و﴿ هُوَ ﴾ في محل رفع بدل من موضع ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ وخبر المبتدأ الأول هو ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وتكون ﴿ إِلَّا ﴾ هنا أداة استثناء ملغاة (لا عمل لها).

﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ صفتان لـ(هو).

﴿ ٱلْحَيُّ ﴾ الذي له الحياة الدائمة أي الذي لا سبيل عليه للفناء، وأصلها (حيو) فقلبت (الواو) المتطرفة المنكسر ما قبلها (ياء) وأدغمتا ولذلك كتبت (الحياة) بواو في رسم المصحف لهذا الأصل، ويؤيده (الحيوان) لظهور هذا الأصل فيه.

﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة للقيام، وأصله (قيووم) على (فيعول) فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواء ياء وأدغمت، وهي تعني القائم بتدبير ما خلق.

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ السنة فتور يسبق النوم وليس النوم أي النعاس، والآية تفيد شمول النفي لكلّ منهما فالله سبحانه لا يعتريه نعاس سواء أكان مؤدياً للنوم أم لم يؤدّ، كما أنه سبحانه لا يعتريه نوم.

والأصل في (سنة) (وسنة) ثم حذفت الواو ولذلك يقال للذي يغالبه النعاس (وسنان) للأصل المذكور.

وتكرار (لا) لإفادة شمول النفي لكل منهما، أي الإحاطة بكليهما مجتمعتين ومنفردتين بخلاف لو كانت (لا تأخذه سنة ونوم) فلا تفيد التنصيص على نفي الاثنتين منفصلتين، بل قد تنفيهما معاً أي لا تأخذه سنة ونوم في آن، وأما ما في الآية الكريمة ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ فالنفي شامل للنعاس وحده أو للنوم وحده أو كليهما فلا يعتري الله سبحانه نعاس أدى إلى النوم، أم لم يؤدّ كذلك لا يعتريه سبحانه نوم.

﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي أن الله سبحانه مالك كل شيء:

السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن. فاللام تفيد الملك.

وتكرار (ما) لإزالة الالتباس من كون الله سبحانه يملك السموات وما فيهن والأرض دون ما فيهن فيما لو كانت (له ما في السموات والأرض) إنما بتكرارها يقطع بالمقصود من أن الله سبحانه مالك السموات والأرض وما في السموات وما في الأرض.

وأما قولنا إن الآية تفيد أن الله مالك السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن أي العاقل وغير العاقل علما بأن الأداة المستعملة هي (ما) وهي لغير العاقل، فإن ذلك لسببين:

الأول: تغليب مكونات الكون المادية غير العاقلة على العقلاء لإبراز قلة حجم العقلاء بالنسبة لغيرهم من مخلوقات الله غير العاقلة.

وأما السبب **الثاني** فبقرينة ما جاء بعدها ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ الخاصة بالعقلاء، وهذا لأن ضمير الجمع (هم) خاص بالعقلاء يدلّ على أن ﴿ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ تشمل العقلاء.

والآية تفيد أن كلّ شيء مملوك لله سبحانه وما كان مملوكا لغيره لا يستحق أن يعبد، وذلك تقريعاً لهم على عبادتهم الأصنام والكواكب وغير ذلك من المخلوقات.

﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ الاستفهام استنكاري أي لا أحد يجرؤ على الشفاعة عند الله سبحانه دون إذنه، دلالة على عظمة الله وكبريائه سبحانه كما في حديث الشفاعة: "**آتي تحت العرش فأخر له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع. قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة**"[1].

والآية تفيد أن هناك شفاعة لكنها بإذن الله، فرسول الله ﷺ يؤذن له فيشفع كما في الحديث.

﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ الضميران عائدان على كلّ من يعقل من قوله سبحانه: ﴿ **لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ والمعنى أن الله سبحانه يعلم ما كان قبلهم ﴿ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ وما يكون بعدهم ﴿ **وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾.

﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يطلع على شيء مما يعلمه الله إلا أن يشاء الله تعليمه إياه، فما يعلمه الله سبحانه لا يستطيع أن

[1] البخاري: ٦٨٦١

يصل إليه أحد إلا بمشيئة الله سبحانه ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق/آية٥ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه/آية١١٤.

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ و﴿ كُرْسِيُّهُ ﴾ من المتشابه، ووفق ما ذكرناه في المقدمة حول طريقة التفسير المعتمَدة، فإننا سنعمد إلى الحقيقة الشرعية أولاً، أي نبحث عن أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الواردة في تفسير (الكرسي)، فإن وجدناها أخذنا بها وإلا عمدنا إلى اللغة العربية، وذلك لأن القرآن الكريم نزل باللغة العربية ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ يوسف، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء.

وقد وردت في تفسير الكرسي أحاديث، لو صحت لكانت هي المعتمدة في التفسير، ولكن لا تخلو من مقال، وأقربها إلى الصواب ما يلي:

- أخرج البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات) من طريق أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم؟ قال ﷺ: «**آية الكرسي**». ثم قال: «**يا أبا ذر، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة**».
- وأخرجه كذلك ابن حبان في صحيحه. وذكره نقلاً عنه ابنُ حجر في فتح الباري وأضاف (وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير ...).

ولو صح هذا الحديث لأخذنا به وكان المعنى أن الكرسي مخلوق عظيم خلقه الله سبحانه أوسع من السموات والأرض وما هي منه إلا كحلقة في فلاة، ولَكُنّا آمنا بهذا المعنى للكرسي ولم نتجاوزه.

ولكن البيهقي ذكر الحديث بسندين: الأول فيه يحيى بن سعيد السعدي البصري، قال العقيلي لا يتابع عليه، وقال ابن حبان يروي المقلوبات والملزقات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، «وقد انفرد عن ابن جريج» وقال ابن عدي يعرف بهذا الحديث وهو منكر من هذا الطريق. (انظر لسان الميزان ج٦ ص٣١٦ رقم ٩١٤٤/٧٠ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع).

والسند الثاني فيه إبراهيم بن هشام وهو كذلك لا يُحتج به كما ورد عند أبي زرعة وأبي حاتم والذهبي. (انظر لسان الميزان ج١ ص١٢٤ رقم ٣٧٣ دار الفكر

للطباعة والنشر).

وأما ابن حبان فقد ذكر في حديثه إبراهيم بن هشام كذلك، وهو لا يُحتج به كما ذكرنا أعلاه.

أما سعيد بن منصور فقد ورد الحديث في سننه قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد قال (ما السموات والأرض في الكرسي إلا بمنزلة حلقة ملقاة في أرض فلاة). وهذا السند ضعيف. قال أبو حاتم الرازي رحمه الله «إن الأعمش قليل السماع من مجاهد وعامة ما يروي عن مجاهد مدلّس». (انظر علل الحديث لابن أبي حاتم ج٢ ص٢١٠ رقم ٢١١٩، وانظر سنن سعيد بن منصور المجلد ٣ ص٩٥٢ رقم ٤٢٥، الهامش تحقيق الدكتور سعد آل حُميِّد دار الصُّمَيعي للتشر والتوزيع).

وعليه فلا تخلو الأحايث الواردة في تفسير الكرسي من مقال. وإذن فسنعمد إلى اللغة في تفسير (الكرسي):

إن العرب تطلق الكرسي على العلم كما جاء في القاموس على اعتبار أن الذين يجلسون على الكرسي هم العلماء من باب العلاقة المحلية، فيطلَق الكرسي ويراد به الحالّ فيه مجازاً، ومنه الكراسة لأنها تضم العلم.

ويكون معنى ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ أي (وسع علمه السموات والأرض). وبخاصة وأن قوله تعالى قبلها هو: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾، فالكلام بدأ عن علم الله وعدم الإحاطة بعلمه سبحانه. وهكذا يكون معنى أجزاء الآية متتابعةً: أن الله سبحانه يعلم كل شيء عن مخلوقاته وهم لا يحيطون بعلم الله سبحانه، فعلم الله قد وسع السموات والأرض، وهذا للدلالة على سعة علم الله وعدم الإحاطة به. وعليه فإن تفسير الكرسي بالعلم له وجه صحيح مستقيم.

وهذا ما نرجحه في تفسير (الكرسي) أي أنه (العلم)، ونقول نرجحه لأن المتشابه يرجَّح معناه ولا يقطع به لأنه متشابه.

وقد نقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه (العلم) أي أن كرسيه يعني علمه سبحانه.

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ لا يعجزه ولا يثقل عليه حفظ السموات والأرض وما

فيهن ومن فيهن.

﴿ يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي يثقله، يقال: آدني الشيء بمعنى أثقلني، وتحملت منه المشقة.

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ أي في القدرة والمنزلة.

﴿ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ القاهر الغالب للأشياء. تقول العرب: علا فلان فلاناً أي غلبه وقهره.

﴿ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ذو العظمة، وكلّ شيء بالإضافة إليه حقير، فهو سبحانه العلي في ملكه وسلطانه العظيم في عزه وجلاله.

وكلمة أخيرة نقولها: إن المتدبر لهذا القرآن العظيم يجد أن إعجازه يأخذ بالألباب، ففي هذه الآية الكريمة خمس جمل مستقلة متتابعة دون استعمال حرف عطف ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ ﴾ والآية قوية عظيمة.

ونقرأ في آية أخرى ست واوات ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود كذلك قوية عظيمة، وهذا ما لا تستطيعه العرب، فهم إذا أكثروا استعمال حروف العطف في الجملة ضعفت وأصبحت ركيكة في ألفاظها، وإذا وضعوا جملاً مستقلةً متتابعةً وراء بعضها مصفوفة دون ربط بأحرف العطف أصبحت ضعيفة من حيث المعنى.

إلا أن هذا القرآن العظيم معجز في أسلوبه لفظاً ومعنىً، حجة على الناس ينطق بالحق ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت/آية٤٢، فسبحان الله!! سبحان الله!!

٤. وتستمر الآيات في السياق نفسه الذي بدئ بالآية الأولى ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ ﴾.

ففي هذه الآية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ بيان من الله للناس أن من اختار الكفر منهم فقد ضل وغوى، ومن اختار الإيمان فقد هدي ورشد، والله سبحانه سميع لما يعلنون، عليم بما يسرون ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تفيد العموم أي أنه لا يكره أحد فيما يدين ويعتقد، وسبب نزولها يؤكد ذلك، فقد أخرج ابن جرير وأبو داود

والبيهقي عن ابن عباس قال: "كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ** ﴾ وفي رواية: إنما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه وأما إذ جاءهم الله بالإسلام فنكرههم عليه فنزلت ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ** ﴾ من شاء التحق بهم ومن شاء دخل الإسلام" قال أبو داود المقلات التي لا يعيش لها ولد[1].

غير أن هذا العموم خصص في حالتين:

أ. الخضوع لأحكام الشرع دون الاعتقاد فهذا يكره عليه أهل الذمة، فخضوعهم لأحكام الشرع على الوجوب شاءوا أم أبوا كما جاء في الآية الكريمة ﴿ **حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩** ﴾ التوبة/آية٢٩ أي خاضعون لأحكام الشرع. فيجوز لهم أن يبقوا على عقيدتهم، عقيدة الكفر في صلواتهم بكنائسهم ومشروباتهم ومطعوماتهم التي أقرهم الرسول ﷺ عليها، ولا يكرهون على تركها واعتناق الإسلام ولكن لا يجوز لهم أن يحتكموا لغير الإسلام في حياتهم العامة بل يكرهون على الاحتكام للشرع.

ب. مشركو العرب، يكرهون على الإسلام أو القتل كما جاء في الآية الكريمة ﴿ **سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ** ﴾ الفتح/آية١٦ وهي نزلت في مشركي العرب.

وبذلك تكون الآية عامة في غير الحالتين السابقتين، أي أن مشركي العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

والكفار الآخرون يقبل منهم الإسلام أو الجزية فإن لم يفعلوا قوتلوا، وإن قبلوا الجزية لا يكرهون على اعتناق الإسلام ولكن يكرهون على الخضوع لأحكام الإسلام في الحياة العامة.

فالآية على هذا عامة مخصصة في الحالتين المذكورتين.

﴿ **قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ** ﴾ أي قد تميز الإيمان من الكفر، والصواب من الخطأ، و﴿ **ٱلرُّشۡدُ** ﴾ بضم الراء وسكون الشين مصدر رشد يرشد من باب نصر، وهو نقيض

---

[1] أبو داوود: ٢٠٣٧، تفسير الطبري: ١٤/٣، البيهقي: ١٨٦/٩

الغي وأصله سلوك طريق الهلاك.

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (الطاغوت) كل ما عبد من دون الله وكلّ رأس ضلال وهو من طَغِيَ يطغى[1] ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ العلق إذا جاوز الحد بزيادة عليه، وأصله (طغيوت) ثم قدمت اللام وأخرت العين كما قيل جذب وجبذ وصاعقة وصاقعة، فصار (طيغوت) فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقلبت ألفا وأصبح وزنه (فلعوت).

﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾: ﴿ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ أي بالغ في التمسك.

﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ {العروة} ما يعتصم به ويتعلق به.

و﴿ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ فُعلى من الوثاقة، يقال في الذكر الأوثق وفي الأنثى الوثقى، كما يقال فلان الأفضل وفلانة الفضلى.

وهي تشبيه لمن كفر بالطاغوت وآمن بالله كمن تَمسَّك بحبل محكم مأمون.

وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله فيه دلالة على أنَّ مجاهدة الطاغوت تحتاج عناءً فوق ما يحتاجه الإيمان بالله، فالإيمان موافِق للفطرة ومقنع للعقل، والكفر طارئ على الفطرة، فمن تخلى عن عبادة الطواغيت وعاد إلى فطرته السليمة وجد الطريق ميسراً للإيمان، ومن حاول أن يبقي تمسكه بشيء من الطواغيت ثم يأخذ بشيء من الإيمان اختلطت عليه الأمور وضلّ وهلك.

وفي هذه الآية بيان وأي بيان لصلابة موقف الذي يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فهو متمسك بحبل الله المتين كمن تمسك بعروة وثقى شديدة الإحكام لا يصيبها أدنى تشقق أو ضعف.

﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ﴾ أي لا كسر لها أو تشقق قبل أن تنقطع، فالنفي هنا ليس للانقطاع بل لما يحدث قبله من تشقق، وهذا نفي بليغ للانقطاع.

وفي اللغة تستعمل (قصم) للانكسار مع البينونة أي إذا تشقق الشيء ثم انقطع وانفصل يقال له (انقصم) وإذا تشقق ولم ينقطع أو ينفصل يقال له (انفصم) فنفي الانفصام نفي للتشقق والانفصال فهو نفي بليغ للانفصال.

والمعنى أن الإيمان الذي يكون عليه من كفر بالطاغوت وآمن بالله، هو إيمان

---

[1] أو مِن طغا يطغو كما يقول الطبري، والمصدر في الأولى طَغِيَ يطغي هو (طغياً، وطغياناً بالضم والكسر)، والمصدر من الثانية هو (طُغْواً وطُغواناً بضمهما)، وأصله من الأول (طَغَيُوت) ومن الثاني (طَغَوُوت) والوزن كما بيناه هو (فلعوت).

شديد كمن تمسك بعروة محكمة وثيقة وأصبح جزءاً منها لا ينفصل عنها ولا تنفك عنه.

ويختم الله سبحانه الآية بأنه سميع لما يعلنون عليم بما يسرون، لا تخفى عليه خافية يعلم صدق المؤمنين ونفاق المنافقين وكفر الكافرين ﴿ **وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦** ﴾.

٥. وتستمر الآيات في بيان حال المؤمنين بأن الله وليهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق ويدخلهم الجنة خالدين فيها أبداً.

وكذلك يبين حال الكفار، عبدة الطواغيت بأن طواغيتهم يوردونهم إلى الهاوية يخرجونهم من النور إلى الظلمات ومن الهداية إلى الغواية فتهوي بهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿ **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ أي معينهم وناصرهم والمدافع عنهم على نحو قوله سبحانه: ﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ** ﴾ الحج/آية٣٨ فهو سبحانه الملجأ لهم من كل سوء.

﴿ **يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ** ﴾ يهديهم سبيل الرشاد ويوفقهم إلى الخير والصلاح ويثبتهم على الإيمان فلا يقعوا في الكفر والضلال.

﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ** ﴾ أي أن الذين يلجأ لهم الكفار هم الطواغيت، شياطين الإنس والجن، وهؤلاء لا يزيدونهم إلا غياً وضلالاً. و﴿ **ٱلطَّٰغُوتُ** ﴾ في اللغة يجوز فيه الإفراد والجمع، فقد يدلّ على المفرد فيجمع على (طواغيت) وقد يدلّ على الجمع فلا جمع له كما في هذه الآية الكريمة، فطاغوت تفيد الجمع بدلالة ﴿ **يُخۡرِجُونَهُم** ﴾ للجمع.

﴿ **يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ** ﴾ أي يحرفونهم عن دين الفطرة السليمة إلى الكفر فإن المرء يولد على الفطرة ولو خلي بينه وبينها لكان مسلماً لله خاضعاً له: "**يولد الإنسان على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**"[1] وهذه الفطرة السليمة التي يولد الناس عليها هي ذاك النور الذي أخرج الطواغيت أولياءهم منه، فحرفوهم عن الفطرة السليمة وأوردوهم موارد الغواية والهلاك، وزينوا لهم السوء فأطاعوهم فأوردوهم النار خالدين فيها وبئس الورد المورود.

---

[1] البخاري: ١٢٧٠، مسلم: ٤٨٠٣، الترمذي: ٢٠٦٤

* * *

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠ ﴾.

يبين الله في هذه الآيات كيف يثبت الله الذين آمنوا في مواقفهم مع الطواغيت، وأن حجة الكفار داحضة ساقطة.

ثم بين سبحانه بعض الأدلة على عظمة الله في خلقه للخلق وإحيائه للموتى وأن الله عزيز حكيم وأنه على كلّ شيء قدير:

١. ففي الآية الأولى ذكر سبحانه محاجة الكافر الطاغية لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فبدل أن يشكر الله الذي آتاه الملك بطر وتجبر وكفر وجعل نفسه إلهاً.

فلما حاجه إبراهيم بأنَّ الله يحيي الموتى ردّ الطاغية من باب المجادلة فزعم أنه يحيي ويميت بأن يقتل هذا ويعفو عن ذاك، من باب المخادعة والتضليل، فهدى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يسوق له أمراً لا ينفع فيه تضليل الطاغية ولا مراوغته.

فأعلمه إبراهيم أن الله الذي يتخذه إلها هو الذي يطلع الشمس من المشرق فإن كان ذاك الطاغية إلهاً فليجعل الشمس تطلع من المغرب.

وهنا دارت الدائرة بالملك الطاغية فأسقط في يديه وظهر الحق لذي عينين بأن الكفار يقلبون الحقائق ويغيرون الموازين ويضعون الأمور في غير نصابها، فبدل أن يؤمنوا بالله الخالق المحيي المميت يكفرون به سبحانه ويتخذون من مخلوقاته آلهة لهم ظالمون، ألا ساء ما يحكمون!

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ همزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي، أي هل رأيت الذي حاجّ إبراهيم؟ وفي الاستفهام معنى التعجب، والرؤية هنا القلبية أي العقلية، الفكر والبصيرة، لذلك أدخلت (إلى) عليها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ ﴾ والعرب تفعل ذلك إذا أرادت التعجب من رجل في بعض ما أنكرت عليه، فتقول (أما ترى إلى هذا!) والمعنى: هل رأيت مثل هذا!

﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ هو نمرود بضم النون والدال المهملة أو المعجمة (نمروذ) كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – .

وسميت مجادلته بالمحاجة وهي بلا حجة لأن الطاغية اللعين أوردها مورد المحاجة، ويصحّ إطلاق (محاجة) على ما يورده الكفرة المجادلون من أقوال حتى وإن كانت دون أدلة وبراهين ما داموا يوردونها مورد الحجج عند المجادلة على نحو قوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ آل عمران/آية٦٥ ونحو قوله سبحانه ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ آل عمران/آية٦٦ وقوله سبحانه: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ الشورى/آية١٦.

﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي لأن آتاه الله تعالى ذلك، أي بحذف اللام وهي تحذف كثيراً في (أن) و(إن) لإفادة التعليل.

أي أن إتيانه الملك حمله على ذلك فأورثه الكبر والبطر والتجبر، فبدل أن يشكر الله على نعمه كفر واتخذ نفسه إلهاً وجادل في الله ﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ الرعد/آية١٣(المحال) ككتاب الكيد والتدبير والقدرة.

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ وقد بدأ إبراهيم – عليه السلام – بهذه الحجة لكن الطاغية كابر وعاند وقال إنه يحيي ويميت بأن يقتل ويعفو: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ وعلى الرغم من أن ما ذكره ليس جواباً على حجة إبراهيم – عليه السلام – لأن المحيي الذي ينشئ النشأة من العدم أو يحييها بعد أن تكون ميتة، وما صنعه

النمرود ليس إحياء لميت أو إنشاء من العدم إلا أنه قاله مكابرةً وعناداً.

فكان من حكمة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لم يقف عند قول النمرود يجادله فيه أنه ليس إحياء للموتى بل جاءه بمثال حسي للمحيي والمميت فهو القادر على تحويل الأشياء من حالة إلى حالة على النقيض منها، والمجيء بخلقٍ جديدٍ فقال له: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ وهنا بهت الذي كفر فهذا لا تنفع فيه مراوغةٌ أو معاندةٌ، وبذلك انكشف سقوط حجة الملك الطاغية.

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ ﴾ أي غلب وصار منقطعاً عن الكلام متحيراً لاستيلاء الحجة عليه حيث لا فكاك منها.

وهذا شأن الظالمين دائما، فهم لا يهتدون إلى حجة أو برهان له قيمة أو وزن، بل تراهم ليتقولون سقط الكلام يزعمونه حججاً وهي داحضة واهية، فهم يضعون الأمور في غير مواضعها، ويقلبون الحقائق والقيم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ ﴾.

٢. ثم يذكر الله سبحانه في الآية التالية آياتٍ بيناتٍ، دلائلَ عظيمةً على قدرة الخالق إحياءَ الموتى، فتكون حجة للمؤمنين سواء أكانوا ممن شاهدوها حسياً أم نقلت إليهم تنطق بها آيات الله في كتابه العظيم فيعلمون منها عظمة الله وجلال شأنه العظيم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩ ﴾ وذلك فيما ذكره الله سبحانه في هذه الآية الكريمة من قصة ذلك الذي مرّ على قرية خالية من السكان ساقطة سقوفها، فنظر إليها متعجباً من حالها وخرابها من أهلها وعمرانها، متسائلاً: كيف يعيد الله سبحانه هذه القرية إلى حالتها الأولى عامرة بسكانها وبنيانها؟

فأماته الله سبحانه مائة عام ثم أحياه بعدها، وعند سؤاله عن مدة لبثه ظن أنها ليست أكثر من يوم أو بعض يوم، فتمّ إعلامه أنه لبث مائة عام، ثم طلب منه أن ينظر في أمره ويتدبر متاعه فإن طعامه وشرابه لم يتغير طيلة المائة عام في الوقت الذي يرى حماره فيه قد نفق ونخرت عظامه وتفرقت أوصاله!

ثم يخبره الله سبحانه أن إماتته وبعثه وما صنع في متاعه وحماره كلّ ذلك ليكون عبرةً وبرهاناً له ولقومه الذين شاهدوا حاله قبل الممات وبعده، وكذلك لكلّ من يأتي من بعد وينقل له هذا من رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ليكونوا من الموقنين.

وهذا شأن عجيب لا يستطيعه إلا خالق السموات والأرض، يحفظ الطعام والشراب

دون تغيير في ماهيته مدة مئة عام ويميت الحمار، وهي كلها كانت معا في آن واحد!

ثم بعد ذلك يريه الله سبحانه أشد من ذلك وأعجب، فعظام الحمار تتجمع وترفع عن الأرض وترد إلى مواضعها في الجسد ثم تكسى باللحم ويعود الحمار كما كان حياً بعد مائة عام!

كل هذا وهو ينظر بعينه فينطق معظماً للخالق البارئ مؤمناً بصاحب القوة والجبروت ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾.

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (أو) للعطف محلاً على المعنى، والتقدير: هل رأيت كالذي حاجّ إبراهيم في ربه أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها؟

﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ لم يخبرنا الله سبحانه في كتابه من الذي مرّ، أو ما هي تلك القرية؟ كذلك لم أجد حديثاً صحيحاً عن رسول الله ﷺ في ذلك، إنما هناك روايات عن بعض الصحابة والتابعين مختلفة في التعيين، وليست هذه المعرفة مهمة حيث إنّ سياق الآية يركز على قضية الإحياء والبعث فهي التي تحتاج التدبر والاهتمام وهي التي بينها الله سبحانه وجعلها آية للناس فنكتفي بما ذكره الله ـ جلّ شأنه ـ .

﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوي خوياً.

﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة على سقوفها بأن سقط السقف أولا ثم تهدمت الجدران عليها.

والعريش: سقف البيت وكل ما يتهيأ لظل فهو عريش ومنه عريش الدالية، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ النحل/آية٦٨.

﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟

﴿ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ ثم أحياه.

﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فكأنه ظن أنه نام ثم قام، والنوم المعتاد لا يطول عن ذلك كما توقع، ولعله عندما أحياه الله رأى الشمس لم تغب بعد فقال ما قال.

﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ فأعلمه الله أنه لبث مائة عام (بل) حرف عطف للإضراب، أي أنك لم تلبث كما قلت ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ولكنك

لبثت ﴿ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾.

وكيف أعلمه الله لا ندري لأنه من الغيبيات ولم يعلمنا الله سبحانه في الآية كيف كان ذلك.

﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أي لم يتغير في هذه المدة المتطاولة، واشتقاقه من (السنه) وفي لامها اختلاف، فقيل (هاء) بدليل سانهت فلاناً فهو أي ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ مجزوم بسكون الهاء وتكون الهاء أصلية.

وقيل (واو) بدليل الجمع على (سنوات) فهو مجزوم بحذف حرف العلة والهاء للسكت. والأرجح أن الهاء زائدة للسكت، وذلك أن لها قراءتين متواترتين:

واحدة ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ وصلاً ووقفاً.

وأخرى ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ وقفاً و(يتسن) وصلاً.

والقراءتان متواترتان وكلتاهما على وجه العربية الفصيحة.

أما قراءة الوقف بإثبات الهاء والوصل بعدم إثباتها فهو يعني أن الهاء زائدة.

وأما قراءة الوقف بإثبات الهاء والوصل بها كذلك فهو يحتمل: أنها أصلية لأنها مثبتة في الوصل والوقف. ويحتمل أنها زائدة فالعرب قد تصل الكلام بزائد على نحو نطقها به في حال القطع.

وتكون القراءة الأولى محكمة بزيادة الهاء.

والثانية متشابه بزيادة الهاء أو أصليتها، والمحكم قاضٍ على المتشابه فتكون الهاء زائدة في ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ والجزم بحذف حرف العلة.

﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أي انظر كيف نجمع عظامه ونكسوه لحماً ونحييه، وهكذا كان.

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي عبرة ودلالة على البعث بعد الموت.

﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ أي انظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض في التركيب للإحياء، فـ(النشز) الارتفاع والمعنى انظر إلى عظام الحمار كيف نرفعها من الأرض ونضمها لبعض ونعيدها إلى أماكنها من الجسد حية كما كانت.

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ أي لما وضحت له الأمور ورأى كيف يحيي الله الموتى عياناً وكيف يحفظ طعاماً وشراباً مائة عام دون

تغيير كأن السنين لم تمرّ عليها.

قال عندها: أعلم الآن عيانا أن الله على كل شيء قدير.

ومفهوم هذا المنطوق أنه كان من قبل يعلم استدلالاً أن الله على كلّ شيء قدير، والآن بالمشاهدة الحسية وفي هذا ترجيح أن الذي مرّ على القرية كان مؤمناً وأنه عندما قال: ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ لم يقلها كفراً أو إنكاراً لقدرة الله سبحانه بل استعظاماً لقدرته سبحانه واعترافاً بعجز المخلوقات عن معرفة كيفية إحياء الله للموتى إلا أن يعلمهم الله، فقال في نفسه ما قال رغبةً وتوقاً أن يريه الله ذلك.

وهذا أرجح من القول إن الذي مرّ على القرية كان كافراً فقال ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ إنكاراً لقدرة الله على ذلك فصنع الله به ما صنع ليوقن ويؤمن.

٣. ثم بعد ذلك يذكر الله لنا طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يريه الله سبحانه كيف يحيي الموتى؟ ويسأله الله تعالى شأنه وهو يعلم السر وأخفى ﴿ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ ﴾ فيجيب إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه مؤمن ولكن يريد أن يطمئن قلبه برؤية ذلك عياناً. والآية الكريمة تدلّ على أن رؤية المغيبات عياناً ليست شرطاً للإيمان بل الإيمان يتم استدلالاً فإن إبراهيم كان مؤمناً قبل أن يشاهد إحياء الموتى عياناً.

إنما رؤية المغيبات عياناً هي منزلة أخرى يمنّ الله بها على من شاء من عباده لحكمة يعلمها سبحانه.

ومن الجدير ذكره أن مشاهدة المغيبات تحتاج إلى دليل نقلي لإثباتها، فلو لم يخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه أراها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ لما قلنا بذلك لأن المغيبات غير واقعة تحت الحس ليبحث العقل فيها ويقيم الدليل عليها، بل تحتاج إلى دليل نقلي لإثباتها.

فالعقل يبحث في الواقع ومنه يخرج بنتيجة، وما لا واقع محسوس أمامه يعتمد في إثباته على النقل.

فنحن آمنّا بالله سبحانه عن طريق البحث العقلي في مخلوقاته الماثلة أمامنا، فعلمنا من واقعها المحدود المحتاج العاجز أنها مخلوقة لخالق أزلي قديم واحد أحد هو الله سبحانه.

ثم آمنا بأن القرآن كلام الله بالبحث في واقع هذا الكلام المعجز المتحدي للعرب الأقحاح الفصحاء أن يأتوا مثله، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا، فأدركنا أنه كلام الله سبحانه فآمنّا به.

وبالتالي آمنّا بأن الذي جاء به رسول من عند الله ﷺ.

ثم بعد ذلك آمنا بكلّ المغيبات بالدليل النقلي المقطوع به.

فطريق الإيمان بالمغيبات التي لا واقع محسوس يدلّ عليها، طريق ذلك الدليل النقلي.

وهكذا فلو قال أحدهم إنه رأى الملائكة أو الجنّ أو شاهد أموراً لا يعلمها إلا الله مغيبة عنه فإن قوله يردّ إلا أن يأتي بدليل من كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ تقيم الحجة له على ذلك.

وعليه فنحن نؤمن بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكل المغيبات التي جاءت بالدليل المقطوع عن الله ورسوله ونؤمن بكلّ ذلك استدلالاً بإقامة الحجة عقلاً ونقلاً.

ولا يتوقف الإيمان على مشاهدة المغيبات عياناً، فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مؤمناً قبل أن يرى كيفية إحياء الموتى كما جاء في الآية الكريمة ﴿ **قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ** ﴾.

وإنما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يرغب ويتوق أن يرى كيفية إحياء الموتى، وكان يحبّ أن يحقق الله له هذه الرغبة فيطمئن قلبه بالمشاهدة عياناً كما هو مطمئن بذلك استدلالاً.

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾ (رب) كلمة استعطاف تذكر قبل الدعاء مبالغة في استمرار الإجابة.

﴿ **أَرِنِى** ﴾ من الرؤية البصرية التي تأخذ مفعولين: الأول ضمير المتكلم والثاني ﴿ **كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾.

﴿ **كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾ سؤال فيه إقرار من إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأن الله يحيي الموتى ولكنه أحب أن يرى كيف يتم ذلك.

فهو لا يفيد شكاً في إحياء الموتى وإلا لكان بغير كيف، بل بالاستفهام (هل تحيي الموتى؟) (أتحيي الموتى؟) ونظير هذا أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته، ولو كان سائلا عن ثبوت ذلك من عدمه لقال (أيحكم زيد في الناس؟) أو (هل يحكم زيد في الناس؟).

فالسؤال ﴿ **كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾ إقرار بإحياء الله سبحانه للموتى والمراد أن

يرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ كيف تمّ هذا الإحياء.

وهذا هو المعنى الحقيقي للسؤال بـ(كيف).

إلا أن احتمال المعنى المجازي يبقى وارداً وهو استعمال كيف في الاستعجاز، كما إذا ادّعى مدعٍ أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله فتقول له: (أرني كيف تحمل هذا؟) وتريد أنه عاجز عن حمله.

وعلى الرغم من أن الحقيقة هي المقدمة على المجاز، إلا أن الله سبحانه أراد أن يظهر أن احتمال المجاز ليس وارداً في ذهن إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند السؤال.

فقال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ والله يعلم حقيقة الأمر، إلا أن الله سبحانه أراد أن يظهر أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يُردْ من سؤاله إلا المعنى الحقيقي من السؤال وهو رغبته في أن يجعله الله سبحانه يشاهد عياناً كيفية إحياء الموتى.

وهكذا كان جواب إبراهيم ـ عليه السلام ـ (بلى) أي أؤمن بأنك يا رب قادر على إحياء الموتى ولا شكّ عندي في ذلك.

﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ أي إنما سألت ليطمئن قلبي بالمشاهدة عياناً كما هو مطمئن بذلك استدلالاً.

فمنّ الله بفضله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأراه ذلك بأن أمره أن يجمع أربعة من الطير ويذبحها ويفرق أجزاءها على مواضع عدة في جبال مختلفة ثم يدعوها إليه فيرى كيف تتجمع ثانية ويعود كلّ جزء لأصله وتعود الطيور أحياء بإذن الله، وهكذا كان.

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ﴾ أي إن أردت ذلك فخذ، فالفاء هنا لجواب شرط محذوف (إن أردت فخذ).

﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ من صاره يصوره أو يصيره، وقد قُرئت بالضم (فصُرهن) بالتخفيف، وقرأ حمزة (قراءةً متواترةً) بالكسر (فصِرهنّ). وهي بالضم بمعنى قَطَعَه أو أماله.

وبالكسر بمعنى القطع كما قال الفراء.

ولأن القراءتين متواترتان والمعنى واحد فيكون المعنى المحكم بين القراءتين: قَطِّعهن أي اذبحهن وقَطِّعهن أجزاء.

﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ ﴾ أي نادهنّ.

﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ في موضع الحال و﴿ سَعْيًا ﴾ أي عدوا على أرجلهن، ولا يقال للطائر إذا طار سعى.

﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ أي غالب على أمره ذو حكمة بالغة لا يعجزه شيء، ولا تحكمه أسباب المخلوقات بل هو القاهر فوق عباده الخلاق العليم.

* * *

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾.

ذكرنا أن هذا الجزء من القرآن الكريم يبدأ بموضوع الإيمان والكفر ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ ثم ذكر الله سبحانه بعدها فريضة الإنفاق من رزق الله.

وبدأت الآيات بعد ذلك بذكر الإيمان والمؤمنين وأن الله وليهم وأن الكفار أولياؤهم الطاغوت ثم دلائل الإيمان وإحياء الموتى.

وبعدها، في هاتين الآيتين الكريمتين يذكر الله عن الإنفاق وهو الموضوع الثاني الذي بدأ به هذا الجزء من القرآن الكريم:

١. يبين الله سبحانه شأن الذين ينفقون في سبيل الله أي في الجهاد حيث إنَّ الإنفاق في سبيل الله في القرآن الكريم يعني الجهاد كما ذكرنا سابقاً، فيبين الله شأن هؤلاء المنفقين وأن شأنهم عظيم، فما ينفقونه يضاعف أضعافاً مضاعفةً من سبعمائة ضعف إلى أضعاف مضاعفة لا يعلم منتهاها سوى الله سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾.

﴿ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ ﴾ تمثيل التصوير للأضعاف كأنه حاضر بين يدي الناظر، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس: مضاعفة الأجر بمضاعفة الزرع.

و(سنبلة) «بالضم واحدة سنابل الزرع، وقد سنبل الزرع» هكذا في القاموس، وهذا يعني أن النون أصلية، والفعل (سنبل) رباعي وزنه (فَعْلَلَ)، وبذلك يكون وزن (سنبلة) هو (فُعْلُلة).

وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز لأنها سبب للإنبات، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، فالإسناد إلى الحبة إسناد مجازي.

ويؤكد معنى الإنفاق الذي ذكرناه بأنه في الجهاد حديث رسول الله ﷺ عن عدد من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُ مِائَةِ دِرْهَمٍ وَمَنْ غَزَا بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِي وَجْهِ ذَلِكَ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**»[1].

﴿ **وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٦١﴾ ﴾ ﴿ **وَٰسِعٌ** ﴾ كثير العطاء والمثوبة لعباده.

﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ عليم بنية المنفق وإخلاصه بالنفقة.

٢. يبين الله سبحانه في الآية السابقة أجر المنفق في سبيل الله، وقد ورد النص عاماً لكل منفق في سبيل الله ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ وفي هذه الآية الكريمة تخصيص للآية السابقة بأن الأجر هو لمنفقين مخصوصين في سبيل الله، وهم الذين لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذىً، أي يكون إنفاقهم خالصاً لوجه الله سبحانه، وأولئك يكون لهم أجر عظيم فلا يخافون على مستقبلهم، ولا يحزنون لما فاتهم فلهم الأمن الكامل: حياة طيبة فيما يأتي وفي الآخرة، ومغفرة عما مضى ﴿ **لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٢٦٢﴾ ﴾.

﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ أي في الجهاد، ﴿ **ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى** ﴾ المن في الأصل: القطع ومنه (حبل منين) أي ضعيف كأنه على وشك القطع. وهي هنا كناية عن الرياء في النفقة والمفاخرة بها.

وأما ﴿ **أَذًى** ﴾ فهو ما يصنعه المنفق من إساءة كردة فعل منه عند عدم تحقيق المصلحة التي أنفق من أجلها، فإذا جهز في القتال عدة أو عتاداً لتظهره الدولة أمام الناس من المجاهدين، فإن لم تفعل ولم تظهره، انفعل وأفسد وأساء.

وما جاء في الآية الكريمة من تخصيص بوصف مفهم ﴿ **ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى** ﴾ مقصود منه بيان الإخلاص التام في النفقة في سبيل الله حتى تقبل عند الله، ويكون لها الجزاء الأوفى الذي ذكره الله سبحانه، فتكون النفقة خالصةً لله مجردةً عن كلّ منٍّ أو أذىً.

[1] ابن ماجه: ٢٧٥١، الدر المنثور: ٣٧/٢

وعندها يكون لهم الجزاء العظيم الذي أعده الله لأوليائه ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ يونس/آية٦٢.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ
فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ
أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾
أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ
أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ
إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا
يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ
فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم

﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧١﴾.

التفسير:

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ٢٦٣ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. تعقيباً على ما سبق من آيات تبين وجوب الإخلاص لله في النفقة في سبيل الله دون أن يتبعها المنفق مناً ولا أذىً.

فإن الله سبحانه في هذه الآية ﴿ ۞ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ** ﴾ يؤكد للمسلمين أن الكلمة الطيبة والدعاء أفضل عند الله من صدقة ـ وهي هنا الصدقة ـ بوجه عام الفرض والتطوع يتبعها أذىً ومنٌّ على المنفق عليه.

ويختم الله سبحانه الآية بأنه غني عن الصدقة التي يخالطها منّ وأذىً، وحليم بعدم تعجيل العقوبة للذين يمنّون في صدقتهم ويؤذون.

﴿ ۞ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** ﴾ كلام طيب جميل، وصحّ الابتداء بالنكرة (قول) لاختصاصها

بالوصف (معروف) مما جعلها في حكم المعرفة.

﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل بالعقوبة كما بيناه سابقاً في هذا التفسير.

٢. ثم يخاطب الله المؤمنين أن لا يبطلوا الصدقات بالمن والأذى، وليس هذا تكراراً مجرداً للآيتين السابقتين بل في كلّ آية معنى جديد، ففي الآية الأولى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ تبين أن هذا الأجر هو للذين ينفقون دون منّ وأذى، والآية الثانية ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ ﴾ تبين التفاضل بين الحالتين: قول معروف وصدقة يتبعها أذى.

وهـذه الآيـة ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ تـبين أن المـن والأذى يبطل الصدقة.

فالأولى: أن الأجر شرطه عدم المن والأذى.

والثانية: أن القول الطيب أفضل من الصدقة مع المن والأذى.

والثالثة: أن المن والأذى يبطل الصدقة لإزالة الالتباس عن فهم الآية الأولى بأن الزكاة أو النفقة في الجهاد قد تجزئ ولكن دون أجر، فأبعدت الآية المذكورة ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم ﴾ احتمال أن تجزئ الصدقة مع المن والأذى، وأفادت بطلان الصدقة في هذه الحالة.

بعد ذلك يضرب الله مثلا لمن ينفق ماله رئاء الناس دون أن تكون نفقته خالصة لله واليوم الآخر، فالنفقة في هذه الحالة كتراب على حجر أملس ينزل عليه مطر شديد فيزيل كل ما علق به، أي أن هذه النفقة لا قيمة لها ولا وزن ولا تفيد صاحبها أجراً عند الله، وكذلك لا يستطيع صاحبها أن يعيدها إليه أي لا ينتفع بها دنيا أو آخرة.

ثم يختم الله سبحانه الآية بأن الكافرين ليسوا على هدى من الله بل هم في ضلال مبين.

﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ﴾ أي لا تبطلوا - أيها المؤمنون - صدقاتكم بسبب المن والأذى، كإبطال المنافقين لنفقتهم بسبب ريائهم وعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أي نفاقهم.

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ أي حجر كبير أملس.

﴿ عَلَيۡهِ تُرَابٞ ﴾ أي شيء يسير منه.

﴿ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ ﴾ أي مطر شديد.

﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ ﴾ أي أملس ليس عليه شيء.

﴿ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ ﴾ أي لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا رياء، ولا ينتفعون به قطعاً حيث لا يستطيعون إعادته فيخسرونه دنيا لأنه خرج من أيديهم، ويخسرونه آخرة لأنهم أنفقوه رياءً ونفاقاً فلا أجر لهم عليه.

٣. ويضرب الله مثلا للذين ينفقون إخلاصاً لله وابتغاء رضوانه بأن نفقتهم كبستانٍ مثمرٍ في كل الحالات، إن أصابه مطر شديد كان ثمره مضاعفاً، وإن لم يصبه إلا رذاذ قليل كالندى فإنه يكفيه ويثمر الثمر المعتاد.

هذا تمثيل لقبول صدقات هؤلاء المخلصين لله، في كل حال كثيرة كانت أو قليلة فهي زكية طيبة عند الله.

ثم يختم الله سبحانه الآية بأنه تعالى بصير يعلم حقيقة العمل من حيث إخلاصه لله وصدق النية فيه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ ﴾.

﴿ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾.

﴿ ٱبۡتِغَآءَ ﴾ أي طلب مرضات الله، وهو منصوب على الحال.

و﴿ تَثۡبِيتٗا ﴾ معطوف عليه وهذا أرجح من القول بنصبه على المفعول لأجله لأنه لو كان كذلك لكان (تثبيتا) معطوف عليه في معنى المفعول لأجله وهذا يخالف المعنى المقصود، فإن الإنفاق من قبل المؤمنين ليس من أجل تثبيت أنفسهم أي أنهم ليسوا ثابتين فأنفقوا لأجل أن يثبتوا بل هم ينفقون في حال أنهم ثابتون على الحق أو في حال أنهم يريدون التثبت من وقوع نفقتهم في الموقع الذي يرضي الله، وكلاهما قرينة على رجحان النصب على الحال من كونها نصبا على المفعول لأجله.

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ ﴾ (الجنة) البستان.

و(الربوة) المكان المرتفع يسيرا يغلب عليه التراب وهو أجود للنبات.

﴿ أَصَابَهَا وَابِلٞ ﴾ أي مطر شديد.

﴿ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ﴾ أي أعطت ثمرها.

﴿ ضِعۡفَيۡنِ ﴾ أي أعطت ضعفي ثمر غيرها من الأرضين.

﴿ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ ﴾ أي فمطر ضعيف رذاذ كالندى، وهو يكفيها

لتعطي ثمرها المعتاد.

فإن أصابها وابل آتت أكلها ضعفين، وإن لم يصبها وابل فطل وتعطي أكلها المعتاد أي أنها مثمرة في جميع الحالات.

٤. ثم يضرب الله سبحانه مثلا آخر لأولئك الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى زيادة على المثلين الأولين:

فالمثل **الأول**: فيما سبق من آيات كالمنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس.

و**الثاني**: كحجر صلد عليه تراب فأصابه مطر شديد فلم يُبق عليه شيئاً.

والمثل **الثالث** في هذه الآية: كرجل له بستان عظيم فينتفع به ويقضي به حاجاته، فلما بلغ منه الكبر مبلغه ولم تكن له ذرية بالغة تعينه في حياته، في هذا الوقت يحترق البستان فمصيبته عظيمة فهو لا يستطيع لكبره إصلاحه أو إنشاء مثيل له، وكذلك ذريته الصغيرة لا تستطيع أن تعينه في الكسب، فهي مصيبة فادحة قاتلة.

فالذي يبطل صدقاته بالمن والأذى كالذي يحترق مصدر عيشه الوفير وهو في أشدّ الحاجة إليه.

وهو مثل حسيّ فبدل أن ينتفع المرء بصدقاته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، تراه يبطل تلك الصدقات فلا تنفعه كمن يحترق بستانه وهو في أشدّ الحاجة إليه.

وهو كذلك مثل عام لمن يعمل الخير ثم يختمه بعمل الشر فيحرق ذلك الخير ويبطله.

أخرج البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب رسول الله ﷺ: "فيم ترون نزلت هذه الآية ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** ﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم. فغضب عمر وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله ـ عز وجل ـ له الشيطان فعمل في المعاصي حتى أحرق عمله. وفي رواية: فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال

الشقاء. فرضي ذلك عمر"[1].

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ أيحب أحدكم؟ والهمزة للإنكار.

﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ الإعصار ريح تستدير على نفسها شديدة وتسمى الزوبعة كذلك.

﴿ فِيهِ نَارٌ ﴾ النار: السموم أي حر شديد.

ويختم الله سبحانه الآية بالحث على التفكر فيما يضربه الله من أمثال لاتخاذ العبرة والذكرى ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾.

لا زالت الآيات في سياق الإنفاق، فبعد أن بين الله سبحانه أن الإنفاق في سبيل الله يجب أن يكون بدون من ولا أذى وإلا كان ذلك الإنفاق غير مقبول عند الله سبحانه.

١. بعد ذلك يبين الله سبحانه في هذه الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أن تكون النفقة من الطيب وليس من الخبيث.

ففي الآية الكريمة نهي عن أن يعمد المرء للخبيث من ماله فينفق منه، وهذا النهي جازم بقرينة ما في الآية التالية ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾

[1] البخاري: ٤٥٣٨

ومفهوم هذا المنطوق بدلالة الإشارة يفيد أن الذي يعمد للخبيث من ماله فينفق منه يكون متبعا لأمر الشيطان وهي قرينة على الجزم، أي أن النهي المذكور للتحريم.

وحيث إنَّ النفقة من الخبيث حرام فهو يعني أن الآية المذكورة هي النفقة الواجبة ـ الزكاة ومنه النفقة في سبيل الله أي الجهاد وأي نفقة وجبت على امرئ ـ فهي التي يحرم أداؤها من الرديء من المال.

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف في الآية التي قال الله فيها ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ قال: هو الجعرور ولون حبيق: "**فنهى رسول الله ﷺ أن يؤخذا في الصدقة**"[1] أي في زكاة التمر وهما نوعان رديئان من التمر.

عن عبيدة السلماني قال: سألت عليا عن قول الله ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ قال: فقال علي: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة ـ أي الذي يجمع الزكاة ـ أعطاه من الرديء فأنزل الله سبحانه ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾[2].

أما صدقة التطوع فإنه وإن كان الأفضل أن يتطوع المرء بالجيد من ماله من التمر ولا يتطوع بالرديء من ماله أو القليل منه إلا أنه لا يمكننا القول بأنه آثم في تطوعه هذا، وذلك لأنه ليس واجبا عليه وإن كان في قبول الله له نظر لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب.

ولذلك فالآية في تقاضي الحق الواجب على المرء فيجب أن يكون من الجيد، ولهذا ضرب الله لهم مثلاً في تقاضي حقوقهم، فلو كان لأحدهم حق على آخر فلا يتقاضاه بالرديء ﴿ **وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ** ﴾ فهم لا يأخذون الرديء في قضاء حقهم إلا أن لا يروا ذلك العيب والرداءة.

وفي ذلك إنكار وتوبيخ لفعلهم في أداء الزكاة من الرديء في الوقت الذي لا يرضون هم تقاضي حقوقهم من الرديء فكيف يرضون لله مالا يرضون لأنفسهم؟!

ثم يختم الله سبحانه الآية بأنه الغني عنهم، الذي لا ينتفع بصدقاتهم، بل يجزيهم

---

[1] النسائي: ٢٤٤٦، أبو داوود: ١٣٦٩، الموطأ: ٥٣٧

[2] الترمذي: ٢٩٨٧، المستدرك: ٢/٢٨٤، الدر المنثور: ٢/٤٩، تفسير الطبري: ٣/٨٣

عليها: مثوبةً إن كانت خيراً، وعقوبةً إن كانت شراً ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة/آية١١٠ ثم إنه سبحانه المستحق للحمد من خلقه على نعمه عليهم، وليس من حمد الله على نعمه أن يؤدي حقه سبحانه من الرديء من أموالهم التي رزقهم الله إياها ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ هو خطاب للمؤمنين بزكاة أموالهم من الجيد منها.

﴿ أَنفِقُواْ ﴾ زكوا.

﴿ طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الجيد من كسبكم.

﴿ كَسَبْتُمْ ﴾ أي حصلتم عليه في المعاملات كالبيع والشراء والإجارة والتجارة والشركات والإرث والهبة والوصية وأمثالها أي زكوا ذلك، وهو يشمل زكاة (**عروض التجارة والنقدين والأنعام**).

﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ويشمل زكاة الزروع والثمار المذكورة في الحديث: "**التمر والزبيب والقمح والشعير**" وكلّ ذلك بنصابه وشروطه.

﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ أي لا تعمدوا للرديء من أموالكم فتخرجوا منه الصدقة أي الزكاة.

و﴿ ٱلْخَبِيثَ ﴾ هنا ليس الحرام بل الرديء من المال لأن الخطاب للمؤمنين بإخراج الزكاة من الجيد وليس من الرديء بقرينة ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ و﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ وكسب المؤمن لا يكون حراماً لأن اقترانه بخطاب ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وصف مفهم على حل كسبه. وهكذا ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ فإسناده لله سبحانه يفيد حلال أصله.

والمعنى أن الله سبحانه يأمر المؤمنين أن يزكوا أموالهم من الجيد منها وليس أن يعمدوا للرديء فيخرجوه زكاة أموالهم.

﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾.

﴿ تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ إما من أغمض الرجل في أمر كذا أي: تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز. أو من تغميض العين كناية عن عدم الرؤية. والأرجح أنها من تغميض العين ذلك لأن الآية في سياق (أن الله لا يقبل قضاء حقه من الرديء من المال في جميع الأحوال لأنها متعلقة بالزكاة، كما لا يقبلون هم قضاء حقهم من الرديء من

المال إلا أن يغمضوا فيه) وحتى يصحّ التشبيه وتكون الزكاة غير مقبولة بحال من الرديء من المال فإن هذا يعني أن الاستثناء لا يقع بالنسبة لله سبحانه.

فلو كان المقصود بـ﴿ تُغۡمِضُواْ ﴾ التساهل والتجاوز أي أن الله لا يقبل هذه الزكاة من الرديء كما لا تقبلون أنتم إلا إذا تساهلتم وتجاوزتم، فمعنى ذلك أن الله لا يقبل هذه الزكاة إلا إذا تساهل وتجاوز أي عفا وهذه ممكنة، وبالتالي تفيد احتمال قبول الزكاة من الرديء إذا تساهل الله سبحانه بالنسبة لعبده، وهذا ليس المقصود من الآية فهي تعني أن الزكاة بالرديء لا يقبلها الله.

وبالتالي يكون ﴿ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ ﴾ أي أن لا تروه ولا تعلموا العيب فيه ولأن الله سبحانه منزه عن عدم العلم بحقيقة الأمر، أي أن هذا الاستثناء غير واقع بالنسبة لله سبحانه، ويكون المعنى في هذه الحالة:

إن الله سبحانه لا يقبل الزكاة من الرديء من المال كما لا تقبلوا أنتم قضاء حقكم من الرديء إلا أن لا تروا هذا العيب، ولأن الله سبحانه يرى كلّ شيء فالاستثناء هنا غير وارد بالنسبة لله سبحانه أي أن الله لا يقبل الزكاة من الرديء بحال من الأحوال.

٢. يبين الله سبحانه في الآية التالية أن الشيطان يخوف أولياءه دائماً بالفقر ويوسوس إليهم أن لا ينفقوا من أموالهم فلا يزكوها وإن اضطروا لذلك فمن الرديء من المال حتى لا يتعرضوا للفقر فيزين لهم السوء وعصيان الله للمحافظة على دنياهم، وتكون النتيجة تعرضهم لعقاب الله سبحانه، فيكون وعد الشيطان لهم مهلكة ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ ﴾ النساء/آية١٢٠.

ذلك وعد الشيطان: الفقر والفحشاء.

أما الله سبحانه فيعدهم مغفرةً منه وفضلاً. ولم يقل سبحانه: يعدكم غنى في مقابل وعد الشيطان (الفقر) ليشمل وعد الله الفوز في الدارين فهو وعد بالخير في الدنيا والآخرة، الرزق الحلال الطيب والمغفرة عن الذنوب والخطايا، أي وعد بخير الدارين.

ويختم الله سبحانه الآية بأنه واسع العطاء واسع المغفرة عليم بمن يستحق مثوبته ومن يستحق عقوبته ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾.

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ أي يخوفكم بالفقر إن أنفقتم، وهو استئناف لبيان سبب الخبيث في الإنفاق الوارد في الآية السابقة.

﴿ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾ أي الفعلة الفحشاء كالبخل وترك الصدقات، وتشمل كذلك المعاصي كلها كالزنا والإنفاق في الحرام والربا وغيرها.

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾ أي فوزاً في الدارين، مغفرةً عن الذنوب ورضواناً من الله في الآخرة، ورزقا حسناً وستراً في الدنيا ولنعم أجر العاملين.

(الوعد) في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير، وإذا قيد فحسب القيد فقد يكون في الخير أو في الشر كلفظ (البشارة).

فهذه الآية فيها تقييد الوعد في الوجهين:

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ﴾ أي في الشر.

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ أي في الخير.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وللمَلَك لَمَّةً، فأما لَمَّةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمَّة الْمَلَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ:** ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾[1].

و(اللمّة) بالفتح الهَمَّة والخطرة تقع في القلب، أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه، فما كان من خطرات الخير فهو من الملك وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان.

٣. يبين الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أن الحكمة نعمة كبرى من نعم الله سبحانه يؤتيها من يشاء من عباده، وهي الإصابة في القول والعمل والإتقان فيه مع التدبر والتفكر، ومن آتاه الله ذلك عرف خالقه والتزم شرعه ونال بذلك خيراً كثيراً.

وذكر هذه الآية بعد الآية السابقة وبخاصة قوله تعالى ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ ﴾ فيه دلالة على أن أولئك المنفقين من الرديء من مالهم في سبيل الله هم خلو من الحكمة ولو كانت لديهم لأدركوا أن مالا يرضونه لأنفسهم فعلى الوجوب أن لا يرضوه لخالقهم، فما داموا لا يقبلون إلا الطيب في قضاء حقهم، فإنه من باب أولى أن يدركوا ـ لو كانت عندهم حكمة ـ أن الله لا يقبل إلا الطيب في قضاء حقه كذلك.

[1] الترمذي: ٢٩١٤، الدر المنثور: ٦٥/٢، تفسير الطبري: ٨٨/٣

ثم يختم الله سبحانه الآية بأن الذين ينتفعون بآيات الله هم أولئك الذين يعقلون أصحاب الألباب الذين يتذكرون والذين يعتبرون ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي يعطيها لمن يشاء من عباده.

و﴿ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ في الأصل مأخوذة من الحكم وفصل القضاء وهي مصدر على الإحكام أي الإتقان في العلم والعمل وسداد الرأي والإصابة فيها وما يمتنع به المرء من السفه. وهذا يقع في كلّ ما من شأنه الإتقان والإصابة والسداد في الرأي، ولذلك استعملها العرب في هذا الأصل وفي معان مشتركة أخرى ضمن هذا الأصل والسياق يعين المعنى المطلوب.

فاستعملت في معرفة الله سبحانه، وفي القرآن وفي تدبره والنبوة والسنة وفي العلم والحكم والفقه وغيرها.

والراجح في الآية الكريمة ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أن الحكمة هنا هي أصل الاستعمال (السداد في الرأي والإصابة في القول والعمل) وقلت هذا لأن ذكر الآية بعدما سبقها ﴿ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ ﴾ فيه دلالة على أنهم لو كانت لديهم إصابة في القول والعمل وسداد في الرأي لأدركوا أن ما لا يرضونه لقضاء حقهم من باب أولى أن لا يرضاه الله لقضاء حقه، فلعدم وجود حكمة لديهم تيمموا الخبيث فأنفقوا منه وفاتهم إدراك أنهم أعطوا الله من المال الرديء ما لا يقبلون هم أن يأخذوه.

ثم يبين الله سبحانه بعد ذلك أن من أوتي الحكمة فقد فتحت السبل لديه إلى خير الدارين، فسداد الرأي والإصابة في القول والعمل ستمكنه من نوال خير الدارين بتوفيق من الله تعالى فينتفع بكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ ويسارع إلى الخير آخذاً منه ما استطاع إليه سبيلاً.

يقول رسول الله ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **"لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى الحكمة فيقضي بها ويعلمها"**[1] وهي هنا تعني تدبر القرآن والسنة والتفقه فيهما.

٤. بعد أن بين الله سبحانه الصدقة المفروضة والوفاء بها بلا منّ ولا أذى ولا رياء

[1] البخاري: ٧١، ١٣٢٠، مسلم: ١٣٥، الترمذي: ١٨٥٩

ومن طيب المال وجيده لا من رديئه، بين الله سبحانه في هذه الآية وجوب الوفاء بالنفقة التي يلزم العبد نفسه بها لسبب أي (النذر).

ثم توعد سبحانه المنفقين في ما فرضه الله عليهم ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ ﴾، وفي ما ألزموا أنفسهم به وأصبح واجباً عليهم ﴿ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ ﴾، وتوعدهم بالعقاب الأليم إن وضعوا تلك النفقة في غير موضعها، وهذا يشمل كل من أنفق رياء أو بالمن والأذى أو الخبيث من المال أو النفقة في أية معصية أو من امتنع عن الوفاء بالنذر أو من بخلوا في إخراج الصدقات.

كل أولئك توعدهم الله بالعذاب يوم لا يجدون ناصراً ينصرهم من عذاب الله، فهم ظالمون يضعون الأمور في غير مواضعها ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ ﴾ وهذا الوعيد قرينة على أن (النفقة والنذر) المذكورة في الآية هي النفقة الواجبة كالزكاة والنفقة على من يعول والنذر الواجب الوفاء، فهي التي يترتب على عدم أدائها عقوبة.

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ كناية عن مجازاته سبحانه لكلّ أولئك ففيه وعيد لمن خرج عن طاعة الله في الوفاء بما فرضه الله وبالنذور. و(الفاء) داخلة في جواب الشرط. (ما) شرطية.

يقول رسول الله ﷺ فيما أخرجه النسائي عن عمران بن الحصين: "**النذر نذران، فما كان من نذر في طاعة الله فذلك لله تعالى وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله تعالى فذلك من الشيطان، ولا وفاء فيه ويكفره ما يكفر اليمين**"[١].

٥. ثم يبين الله في الآية الأخيرة أن إبداء الصدقة وإظهارها خير إن خلا من الرياء وإخفاؤها عند إعطائها للفقير أفضل.

ويبشر عباده بأن الله سبحانه يكفر بصدقاتهم بعض سيئاتهم ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ هود/آية١١٤.

وأنه سبحانه بما يعملون خبير فلا تخفى عليه خافية فيعلم النية الصادقة في الصدقة والإخلاص في الدافع لها، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها سبحانه.

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذه الآية بيان للآية السابقة وهي تعني مدح إبداء أو إخفاء إعطاء الفقير من الزكاة المفروضة أو النذر الواجب الوفاء للفقراء، غير أن إخفاءه

[١] النسائي: ٣٧٨٥

خير من إبدائه فهو أفضل وأحب لله سبحانه وأبعد عن الرياء بالنسبة للمعطي وعن الحرج بالنسبة للفقير المعطى له.

ولأن هذه الآية ﴿ **إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ** ﴾ بيان للآية السابقة ﴿ **وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ** ﴾ لذلك ترك حرف العطف بينهما.

وحيث إنَّ الآية بيان كما ذكرنا فإن (الصدقات المذكورة فيها) هي (النفقة والنذر) المذكورة في الآية السابقة أي النفقة الواجبة للفقراء والزكاة المفروضة والنذر الواجب الوفاء للفقراء كما بيّنا سابقاً في مكانه.

وهنا تظهر مسألة وهو قوله سبحانه ﴿ **تُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ** ﴾ فإن إيتاء المنفق للفقراء في حالة النفقة الواجبة للفقير الذي يعول مثلا أو في حالة النذر الواجب وفاؤه للفقراء، هذا الإيتاء واضح ممكن من المنفق مباشرة.

لكن كيف يكون إيتاء المنفق مباشرة للفقراء في حالة الزكاة؟ فهل يجوز له ذلك أم لا بدّ من دفعها للدولة وهي تؤتيها الفقراء؟

يقول أبو يوسف في الخراج: "إن زكاة النقدين يجوز أن يعطيها صاحبها إلى الفقراء مباشرة دون أن يدفعها للدولة وذلك بإذن من الخليفة" والدليل عليه إذنه ﷺ لمن كان يدفع زكاة النقدين للفقراء وإقراره لهم.

فللخليفة أن يأذن للرجل بأن يدفع زكاة النقدين بنفسه للفقراء مباشرة وعندها تنطبق عليه الآية ﴿ **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ لأن فعل الشرط ليس ﴿ **تُخْفُوهَا** ﴾ بل ﴿ **تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ** ﴾ فالإخفاء أفضل إذا كانت الصدقة تعطى للفقير مباشرة من المنفق.

هذا في زكاة النقدين، فهي التي يجوز إعطاؤها الفقراء مباشرة من المنفق.

وأما في غير زكاة النقدين كالأنعام والزروع فلا يجوز لصاحبها إعطاؤها للفقراء مباشرة بل يجمعها ويدفعها إلى والي الصدقات أو المصدق أي عامل الصدقة، وفي هذه الحالة لا تنطبق الآية الكريمة بأفضلية الإخفاء بل إن علانيتها في هذه الحالة أفضل من أن يأخذها صاحبها للوالي خلسة أو يدفعها خفية لعامل الصدقة، فإظهار الطاعة للخليفة في تنفيذ الأحكام أفضل من إخفائها.

أخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة أن أبا ذرّ قال: "**يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟**

قال: صدقة سرّ إلى فقير أو جهد مقلّ. ثم قرأ الآية"[1].

وفي الحديث الصحيح: "**سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظلّ إلا ظله ... ـ ومنهم ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه**" و(صدقة) هنا مطلقة، الصدقة تشمل الفرض والنافلة. وجملة القول:

إن إخفاء الصدقة التي يعطيها صاحبها للفقير مباشرة فرضا كانت أو نافلة أفضل من إبدائها، أما إذا كانت فرضاً يؤدى للخليفة أو عماله فإعلانها أفضل من إخفائها، ولعل هذا مدلول ما روي عن بعض الصحابة في ذلك: "فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ صدقة السر من التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها خمس وعشرين ضعفاً" وتكون صدقة الفريضة هنا تعني تلك الصدقة ـ الزكاة ـ التي تؤدى للدولة الإسلامية فإعلانها أفضل لأن إظهار الطاعة للخليفة في تنفيذ الأحكام أفضل.

﴿ **فَنِعِمَّا هِىَ** ﴾ نعم فعل مدح ماض مبني على الفتح، فأصله نعم ثم بإدخاله على (ما) سكنت الميم وكسرت العين لالتقاء الساكنين.

(ما) نكرة تامة في محل نصب على أنها تمييز، وفاعل (نعم) ضمير مستتر يعود على الصدقات مفسر بالتمييز بعده.

﴿ **هِىَ** ﴾ مبتدأ مؤخر عائد على إبداء الصدقات وخبره مقدم وهو الجملة الفعلية قبله من فعل المدح والفاعل، أي فنعما إبداؤها لكن المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمخصوص بالمدح ليس الصدقات وإنما (إبداؤها) كما بيناه.

والدليل على أن المخصوص بالمدح هو إبداء الصدقات وليس الصدقات هو عطف الإخفاء وإسناد الخيرية له ﴿ **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ فهنا إسناد إلى الإخفاء وليس للصدقات وهو في مقابل المعطوف عليه ﴿ **إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ** ﴾ أي أن الممدوح أولاً هو إبداء الصدقة والأفضل من ذلك هو إخفاء الصدقة.

﴿ **فَنِعِمَّا هِىَ** ﴾ جملة في محل جزم جواب الشرط الأول ﴿ **إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ** ﴾.

---

[1] أحمد: ١٧٨/٥، ١٧٩، ابن حبان: ٧٦/٢

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ ﴾ جملة في محل جزم جواب الشرط الثاني ﴿ إِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ ﴾.

﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ ﴾، ﴿ مِّن ﴾ هنا زائدة فالله يكفر كلّ السيئات، أو تبعيضية فالله يكفر بعض السيئات.

غير أن القراءة المتواترة {ونكفر} بالنون وجزم الراء، وهذه القراءة ـ أعني بالجزم ـ تجعل التكفير للسيئات جواباً لشرط إخفاء الصدقات، أي أن (التكفير من السيئات يترتب على إخفاء الصدقات) فإن كانت ﴿ مِّن ﴾ زائدة يكون المعنى أنكم إن أخفيتم الصدقات فإن ﴿ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ كلها سيتم تكفيرها، وإن كانت ﴿ مِّن ﴾ للتبعيض يكون المعنى أنكم إن أخفيتم الصدقات فإن بعض سيئاتكم سيتم تكفيرها، ولأن إخفاء الصدقات ليس موجباً لتكفير كل السيئات بل بعضها من أدلة أخرى، فتكون ﴿ مِّن ﴾ هنا للتبعيض لا غير أي أن هذه القراءة تفيد معنى محكماً وهو (من للتبعيض).

أما القراءة الأولى ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ ﴾ فإن ﴿ يُكَفِّرُ ﴾ ليست معطوفة على محل جزم جواب الشرط لأنها مرفوعة بل هي جملة مستأنفة، وهي في هذه الحالة خبر من الله سبحانه أنه يكفر السيئات قد يكون كلها أو بعضها، فهذه القراءة تحتمل ﴿ مِّن ﴾ زائدة أي السيئات كلها أو ﴿ مِّن ﴾ للتبعيض أي بعضها، أي أن هذه القراءة من المتشابه.

والقراءة على الجزم تفيد أن ﴿ مِّن ﴾ للتبعيض كما بينا، وحيث إنّ القراءتين متواترتان والمعنى واحد والمحكم قاضٍ على المتشابه فتكون ﴿ مِّن ﴾ للتبعيض.

أي أن إخفاء الصدقة وإعطاءها للفقراء لا يكفر كل السيئات بل بعضها كما يتناسب معها حسب تقدير الله وحكمته.

وهذا المعنى هو الراجح هنا وفيه من الحكمة ما فيه، ليبقى العباد حريصين على خشية الله سبحانه والإكثار من الحسنات والتقرب إليه، فلا يتكلوا على إخفاء الصدقات ظنا منهم أنها كافية لتكفير كل سيئاتهم فيتجرءوا على حدود الله ومعاصيه اتكالاً على ذلك، فإن أدركوا أن الصدقات تكفر بعض السيئات كما في تقدير الله وعلمه حرصوا على الإكثار من الحسنات والتقليل من السيئات ليفوزوا عند الله في الدارين، وذلك الفوز العظيم.

﴿ **وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١** ﴾ أي مطلع على إعلان صدقاتكم وإخفائها وإخلاصكم فيها وصدقكم في التوجه إلى الله بها لا تخفى عليه خافية.

❁ ❁ ❁

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ
ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ
خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
٢٧٤ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ
ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ
بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ
وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ
تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

١. تستمر الآيات في الإنفاق ولكن الله سبحانه يذكر خلالها جزءاً من الآية كأنه في ظاهره لا علاقة له بالإنفاق.

والمعروف في لغة العرب أن العربي الفصيح لا يكون كلامه على غير نسق، فإن بدأ في كلامه جزءاً على غير اتصال بالسابق واللاحق فإنه يكون مقصوداً، ويكون المتكلم قد أخفى الصلة بين هذا الجزء وباقي الكلام ولم يجعلها صريحة الظهور لتكون مدعاة للوقوف عندها للتعمق في اكتشافها ولفت النظر إليها بهذا الأسلوب من النظم البديع.

وهذه الآية الكريمة كذلك فإن ما سبقها كان في الإنفاق وما تبعها في الإنفاق، وظاهر مدلول ألفاظها على غير ذلك فيكون التركيز عليها والوقوف عندها لاكتشاف هذه الصلة وتدبرها بعمق مقصوداً لله سبحانه.

وبتدبر هذه الآية الكريمة يتبين أننا غير مكلفين بإجبار الناس على الهداية والدخول في الإسلام فليس في مقدورنا ذلك، بل الله يهدي من يشاء. أما نحن فندعو للإسلام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فإن استجابوا فذلك الفضل من الله، فالله وحده القادر على هداية الناس أجمعين ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ السجدة/آية١٣.

وبتدبر هذا المعنى نتساءل الآن عن صلة هذا الجزء من الآية الكريمة مع ما قبلها، مما هو خاصّ بالإنفاق وما بعدها مما هو خاصّ بالإنفاق كذلك.

إن حرص الإنسان على هداية من يحب وإسلامه من قريب أو صديق قد تدفعه للضغط عليه ليكرهه على الدخول في الإسلام، ومن هذه الأساليب استعمال المال في ذلك، فإن كان ينفق عليه قد يمنع عنه النفقة كي يسلم أو يشترط إسلامه للنفقة عليه، فمنع الله المسلمين من استعمال النفقة أسلوباً لإكراه أقربائهم أو من لهم بهم علاقة للدخول في الإسلام.

فتدبر الآية الكريمة والوقوف عندها يفيد أمرين:

الأول: أنَّ الدخول في الإسلام أو الهدى يحتاج إلى قناعةٍ ورضىً واختيارٍ وليس بالإكراه والإجبار.

الثاني: أن لا تستغل النفقة على الأقارب أو من لهم علاقة لإكراه الناس على اعتناق الإسلام. ويؤكد ذلك ما رواه بعض الصحابة في سبب نزول هذه الآية: أخرج

ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: "كانوا ـ أي المسلمون ـ لا يرضخون لقراباتهم من المشركين فنزلت ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾" يرضخون: يعطون شيئاً من أموالهم، أي كانوا لا ينفقون على قراباتهم لأنهم مشركون حتى يسلموا. وفي رواية أخرى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: "كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة من قريظة والنضير وكانوا يتقون أن يتصدقوا ويريدونهم أن يسلموا فنزلت: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾".

و(يتصدقوا) الواردة في هذه الرواية بمعنى الصلة والنفقة لأن الصدقة قربة إلى الله ولا تجوز لغير المسلم.

وأخرج ابن جرير كذلك عن سعيد بن جبير: كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين حتى نزلت: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾.

وقد ذكر القرطبي عن بعض المفسرين أن أسماء ابنة أبي بكر الصديق أرادت أن تصل جدها أبا قحافة ثم امتنعت عن ذلك لكونه كافرا فنزلت الآية في ذلك.

وعليه فإن سياق الآيات مستمر بنسق واحد مع التركيز على عدم استعمال النفقة أو منعها لإجبار الناس على الدخول في الإسلام.

ومن الجدير ذكره أن عدم إجبار الناس على الدخول في الإسلام لا يعني عدم إجبارهم على النزول عند أحكام الشرع وتطبيق أحكام الشرع عليهم من قبل الدولة الإسلامية، فذلك فرض.

ولقد ذكرنا ذلك في تفسير الآية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ البقرة/آية٢٥٦ فارجع إليه.

ثم يكمل الله سبحانه آياته في الإنفاق فيبين في هذه الآية الكريمة أحكاماً أخرى للإنفاق، فقد سبق أن بين الله أن الإنفاق يجب أن يكون خالياً من المن والأذى ولا يكون رياء ولا يكون من الرديء من المال.

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه أن من ينفق نفقة فخيرها له فهو الذي سيثاب عليها وتوفى إليه في الدنيا والآخرة وبخاصة وهو ينفقها ابتغاء وجه الله.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو خطاب لأمته كذلك، والمعنى: لست مكلفاً بإجبارهم على الهدى. ومعنى التكليف آتٍ من ﴿ عَلَيْكَ ﴾ والهدى: الإسلام.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴾ أي أن الله سبحانه هو القادر على هداية الناس أجمعين ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يتركهم يختارون ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ ﴾ البقرة/آية٢٥٣.

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ ﴾ ﴿ مَا ﴾ شرطية ﴿ مِنۡ ﴾ تبعيضية، أي جزء من خير ﴿ خَيۡرٖ ﴾ مال لأن الخير إذا اقترن بالإنفاق فإنه يعني المال فإن لم يقترن فليس بالضرورة المال بل قد يأتي في غيرها ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ الزلزلة/آية٧.

﴿ فَلِأَنفُسِكُمۡ ﴾ أي فهو لأنفسكم لا ينتفع به في الآخرة غيركم، والفاء داخلة على جواب الشرط.

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي يكون ثوابه لأنفسكم في حال كونكم تنفقونه ابتغاء وجه الله.

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ ﴾ لا تنفقون والواو للحال والجملة حال. ﴿ ٱبۡتِغَآءَ ﴾ مفعول لأجله.

﴿ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ ﴾ كناية عن ذات الله سبحانه، وفي هذا الاستعمال الإخلاص الخالص لله فإن قولك: فعلت هذا لأجل زيد يحتمل أنك فعلته له وحده أو فعلته له ولغيره، أي فيه معنى الشراكة، فإن قلت: فعلته لوجه زيد كان خالصاً لزيد وحده.

وبذلك ﴿ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي خالصا لله وحده.

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٢ ﴾ بيان للجملة الشرطية ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ ﴾ أي بيان (لأنفسكم) أنه يوفى إليكم في الدنيا والآخرة دون أن تظلموا أي دون أن تبخسوا من الوفاء شيئاً فالله هو الموفي وهو خير الحاكمين، في الدنيا بمباركة المال وفي الآخرة بالأجر العظيم: "**اللهم اجعل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً**"[1] كما يقول رسول الله ﷺ.

٢. ثم يبين الله سبحانه أن الأولوية في الصدقات للمنقطعين للجهاد الذين ينشغلون به عن السعي في الأرض طلبا للرزق، والذين لا يلحون في سؤال الناس حتى لكأنهم أغنياء لتعففهم في السؤال ولولا ما يظهر عليهم من أثر الجوع في الجسم ورثاثة

[1] البخاري: ١٣٧٤، مسلم: ١٠١٠

اللباس لما عرف حاجتهم أحد.

فهؤلاء أجر النفقة إليهم عظيم والله سبحانه بخالص النية في الصدقة عليم.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي صدقاتكم للفقراء، واللام للتعدية أي أن يحرص المتصدق أن تعطى صدقته للفقراء ﴿ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الذين انقطعوا للجهاد أي أَحْصَرَهم الجهاد في سبيل الله.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا يستطيعون تنقلاً في الأرض للسعي لطلب الرزق لانشغالهم بالجهاد.

(فالحصر) هو المنع فكلّ من شغله الجهاد عن السعي لطلب الرزق أو كلّ من أصيب بجراح في الجهاد جعله لا يقدر على السعي لطلب الرزق تنطبق عليه هذه الآية ففي الإنفاق عليه أجر عظيم.

وهي تنطبق كذلك على من كانوا يسمون (أهل الصُّفَّة) في زمن رسول الله ﷺ الذين كانت العلة والجهاد يحبسهم عن طلب الرزق ويخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ كما ذكر ابن عباس – رضي الله عنهما – .

فهؤلاء وأولئك لهم الأولوية في النفقة من الفقراء الآخرين الذين لا يحبسهم الجهاد وهم يستطيعون أن يسعوا في الأرض لطلب الرزق.

﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ أي من أجل تعففهم عن المسألة فـ﴿ مِنَ ﴾ للتعليل والتعفف ترك الشيء والإعراض عنه مع القدرة على تعاطيه.

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي أثر الجوع على الأبدان ورثاثة الحال.

﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي إلحاحاً وهو اللزوم وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه، من قولهم: لحفني من فضل لحافه أي أعطاني من فضل ما عنده. وأصل اشتقاق الإلحاف من اللحاف، سمي بذلك لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف في التغطية، أي هذا السائل يعم الناس بسؤاله ويلازمهم حتى يعطوه فكأنه ألحفهم بذلك.

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ أي يجازيكم به خيراً، وهو ترغيب في الإنفاق.

٣. بعد ذلك يبين الله سبحانه الأجر العظيم والمنزلة الرفيعة لأولئك الذين لا يبخلون بأموالهم في سبيل الله في جميع الأوقات وجميع الأحوال فلهم أجرهم عند ربهم

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ أي في جميع الأوقات والأحوال، وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإشارة إلى مزية الإخفاء على الإظهار.

﴿ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ سبق شرحها.

ذكر ابن سعد في الطبقات أن هذه الآية نزلت في علف الخيل المربوطة في سبيل الله.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده عن عريب أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ الآية، قال: "**هم أصحاب الخيل**"[1].

وكلمة أخيرة في هذا الموضوع: إن الله سبحانه بين في الآيات السابقة أجر النفقة في سبيل الله وأنها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

ثم يبين الله سبحانه شروط النفقة المقبولة عند الله:

= فأن تكون بدون من ولا أذى: ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾.

= وأن لا تكون رياء ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

= وأن لا تكون من الخبيث ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ ﴾.

ثم بين الله سبحانه عدم استغلال النفقة والصلة للأقارب وذوي العلاقة لإكراههم على الدخول في الإسلام بل بالإقناع والاختيار ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾.

وكذلك بين سبحانه أن النفقة تعود على صاحبها بالخير إذا كانت خالصة لله فليكثر منها لينال الجزاء الأوفى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾.

ويختم الله سبحانه الآيات في النفقة الطيبة في سبيل الله في جميع الحالات والأوقات ليحصل المرء على الأجر العظيم عند رب العالمين وليكون آمناً على مستقبله

[1] الدر المنثور: ٢/١٠٠، ابن سعد: ٧/٤٣٣ عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده عريب.

إلى يوم القيامة ومطمئناً بمغفرة الله له على ما مضى من أيامه، فيكون في فوز الدارين وذلك الفوز العظيم ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

كل ذلك في النفقة في سبيل الله الحلال الطيبة الخالصة لوجهه سبحانه.

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

بعد أن بين الله سبحانه أجر المنفقين حلالاً طيباً في سبيل الله، بين في هذه الآيات مصير أولئك المنفقين حراماً وعصياناً لله سبحانه ولرسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر الله سبحانه في هذه الآيات (الربا) وبين عظم جريمته وسوء صنيع أهله والعقاب الشديد والعذاب الأليم على هذه المعصية الشنيعة والمنكر العظيم:

١. فقد ضرب الله مثلا للذي يأكل الربا كمن يتخبط من الصرع، يقف ويقع فيضطرب في مشيته ووقوفه وجلوسه فالجنون قد أخذ منه كل مأخذ، وذلك لأنه يعتبر

الربا كالبيع، والله قد حرم الربا وأحل البيع.

ثم يعفو الله سبحانه عما مضى من ربا الجاهلية، ويبين للمؤمنين أن عليهم بعد نزول تحريم الربا أن يلتزموا ويطيعوا الله ورسوله ﷺ، ومن تعامل بالربا بعد نزول التحريم مستحلا لما حرمه الله فقد استحق العذاب الأليم، وكان من أصحاب النار خالداً مخلداً فيها.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي يأخذونه، ويعمّ كل انتفاع به. وقد استعملت ﴿ يَأۡكُلُونَ ﴾ في القرآن الكريم للدلالة على الذم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ ﴾ النساء/آية١٠ ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ محمد/آية١٢ وهي هنا كذلك.

﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أي يوم القيامة.

﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي أنهم يبعثون من قبورهم، يقومون كما يقوم المتخبط المصروع في الدنيا ـ أي المجنون ـ وذلك خزي لهم يومئذ وهي قرينة على النهي الجازم عن الربا والذي تكرر تأكيد تحريمه في هذه الآيات.

﴿ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ أي الجنون، يقال: مُسّ الرجل فهو ممسوس إذا جن. والخبط هو الضرب على غير استواء كخبط العشواء.

وقد وردت روايات في تفسير ﴿ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ والراجح منها أن الإنسان حين يصاب بالجنون يصبح للشيطان تأثير أكبر عليه من خلال وسوساته، فيخيل إليه أمور كثيرة تؤدي بالمجنون للتخبط.

أما القول بأن الشيطان هو الذي يصرعه أو يؤدي به إلى الجنون فالآية لا تنطق بهذا، فالله سبحانه لم يقل (يتخبطه الشيطان بالمس) أي يصيبه الشيطان بالجنون وإنما الآية ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ أي يتخبطه الشيطان بسبب جنونه، أي أن الجنون سابق لتخبط الشيطان.

كذلك فإن القول بأن ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ من باب الكناية والمجاز حسب أساليب العرب في إطلاقهم على المصروع أن الجن قد مسته أي أصابته بالجنون ـ فهم قد اشتقوا الجنون من الجن ـ فإن ذلك مرجوح لأنه لا يعمد للكناية والمجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة، والحقيقة هنا لا تتعذر فلا يتعذر أن يوسوس الشيطان للمجنون بتخيلات عدة يجعله يتخبط فيقال (تخبطه الشيطان). ولعل الذين تأولوا أساليب العرب

من الكناية والمجاز كانوا يردون على من قال إن الشيطان هو الذي يصرع الشخص ويصيبه بالجنون، ولأنهم يرون أن الشيطان لا سلطان له بإصابة المرء بالجنون ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ** ﴾ إبراهيم/آية٢٢ فقالوا ما قالوه.

وقول كليهما مرجوح، والراجح ما قلناه وكما بيناه.

والغريب ما تجده في تفاسير الفريقين من تحامل على بعضهما لمخالفته رأيه في الموضوع حتى ليكاد بعضهم يخرج الآخر من الملة في الوقت الذي لا تقطع الآية برأي كليهما.

كما إني لم أطلع على حديث صحيح في تفسير الآية إلا ما روي عن رسول الله ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج وهو لا يقطع برأي أحدهما: "**فانطلق بي جبريل فمررت برجال كثير كلّ منهم بطنه مثل البيت الضخم ... إلى أن يقول: فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون، ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع ... إلى أن يقول: قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**"[1] فهي تشبه آكلي الربا الذين يصرعون لتمايل بطونهم به لثقلها بالذي يتخبطه الشيطان من المس.

وعليه فلا آية ولا حديث يقطع برأي أحدهما في تفسير الآية.

وما دام الأمر كذلك، أي لا حقيقة شرعية في تفسير الآية بقي أن نعمد إلى اللغة، فالقرآن نزل بلغة العرب فنجد الراجح ما قلناه إن مثلهم كمثل الذي يتخبطه الشيطان من المس أي بسبب الجنون، أي أن الجنون يسبق تخبط الشيطان للشخص فيجن الشخص بسبب من الأسباب ثم يتخبطه الشيطان بوسوساته وتخيلاته.

فلم يصرع الشيطان الشخص أي لم يجعله مجنوناً وإلا لكانت الآية الكريمة (الذي يتخبطه الشيطان بالمس) والباء تفيد الإلصاق أي بالجنون أي يصيبه بالجنون، وفي الوقت نفسه لا يلجأ إلى الكناية والمجاز فيصرف معنى الشيطان عن حقيقته لأن الحقيقة لا تتعذر.

وفي جميع الحالات نقول إن هذا ما نرجحه ولا نقطع به، ومن كان لديه ترجيح أقوى حسب أبحاث اللغة وأقسام الكتاب والسنة يُتَّبع.

---

[1] أحمد: ٢/٣٥٣، ٣٦٣، مسند الحارث بن أسامة: ١/١٧، ابن ماجه: ٢/٧٦٣ رقم: ٢٢٧٣

وهذا المثل تصوير حسي فظيع لشدة جريمة آكلي الربا، وهذه النتيجة قائمة عند جميع المفسرين على اختلاف فهمهم للمثل المضروب.

ويغفر الله لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان على ما كتبوه عن بعضهم في تفاسيرهم والله المستعان.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي أن المثل الفظيع الذي ضرب لهم لشدة جريمتهم وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ هو بسبب استحلالهم للربا واعتبارهم إياه كالبيع، وفي هذا دلالة على ما يصيبهم من خزي وعذاب في الدنيا والآخرة.

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ جملة مستأنفة من الله تعالى رداً عليهم وإنكاراً لتسويتهم بين الربا والبيع.

﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فمن بلغه وعظ بأن الربا حرام أي من بلغه التحريم، و(من) شرطية وسقطت علامة التأنيث في (جاء) لأن تأنيث الموعظة غير حقيقي بل هي بمعنى (وعظ) فذكر الفعل لأجل ذلك.

﴿ فَٱنتَهَىٰ ﴾ عطف على ﴿ جَآءَهُۥ ﴾ واقتران الفاء به للدلالة على سرعة الاتعاظ عند بلوغه النهي بلا تراخٍ.

﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ الفاء داخلة على جواب الشرط، والمراد لا يسترد منه ما تقدم أخذه واكتمل قبل التحريم، أما المعلق منه فيطبق عليه ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي أمر هذا الذي انتهى فله ما سلف، أمره في مستقبله إلى الله فهو سبحانه الذي يعلم مدى التزامه بالانتهاء عن الربا.

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أي من عاد إلى سالف عهده يقول البيع مثل الربا أي يعود إلى استحلال الربا.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ لأنه بعودته لاستحلال الربا يكون قد كفر وارتد عن الإسلام، والكافر يخلد في النار.

٢. ثم يبين الله سبحانه في الآية التالية عاقبة المرابي وعاقبة المتصدق، فالله لا يبارك مال الربا في الدنيا، ويعد لصاحبه عذاباً أليماً في الآخرة.

وهو سبحانه يبارك الصدقة ويعد لصاحبها أجراً عظيماً في الآخرة.

ثم يختم الله الآية الكريمة بأنه سبحانه يبغض الكفار الآثمين، وفي هذا دلالة تنبيه وإيماء بأن الذين يعودون لتحليل الربا ومساواته بالبيع هم كفار آثمون.

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي يذهب بركته وإن كان كثيراً. روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل**"[1].

والمحق: النقص والذهاب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه.

﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ ينميها في الدنيا بالبركة ويضاعف ثوابها في الآخرة. أخرج مسلم: "**إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيربيها له كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله حتى يجيء يوم القيامة وإن اللقمة على قدر أحد**"[2].

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ أي كل كفار باستحلال الربا، أثيم بالتمادي في أكله، وفي عصيان الله سبحانه ورسوله ﷺ. واختيار صيغة المبالغة في كفّار أثيم للدلالة على فظاعة جريمة الربا.

٣. وفي الآية الثالثة يعد الله سبحانه الذين اعتقدوا الإسلام والتزموا أحكامه الشرعية بأن لهم أجراً عظيماً عند الله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله سبحانه كما بيناه سابقاً.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي التزموا الأحكام الشرعية وطبقوها على وجهها المبين في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ.

﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ هذا في باب ذكر الخاص بعد العام لأهميته، فالصلاة والزكاة داخلتان في قوله سبحانه ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وذكرهن بعد ذلك للتنبيه على عظم فضلهما.

٤. في الآية الرابعة خطاب من الله سبحانه للمؤمنين أن يتقوا الله، أي يقوا أنفسهم عذاب الله بإقلاعهم عن الربا.

ثم يبين الله سبحانه في آخر الآية أن الإسلام الذي تؤمنون به يوجب عليكم ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب للمؤمنين.

---

[1] ابن ماجه: ٢٢٧٠، أحمد: ١/٣٩٥، ٤٢٤

[2] البخاري: ١٣٢١، مسلم: ١٦٨٥

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم عذاب الله.

﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ أي اتركوا الربا الذي لم تقبضوه فلا تأخذوه بل رأس مالكم فقط، ومفهومه أن الذي قبضوه قبل التحريم لا يطالبون به.

﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ أسلوب في العربية لإثارة المخاطب وحثه على تنفيذ ما يطلب منه، فالخطاب بدئ للمؤمنين وانتهى بتذكيرهم أن الإسلام الذي آمنوا به يوجب عليهم ترك الربا، كما تقول لمن تريد إثارة نفسه (إن كنت رجلاً فافعل ذلك) وأنت مدرك أنه رجل، فكأنك تذكره برجولته وتقول له إن الرجولة توجب عليك فعل كذا.

٥. ثم بعد ذلك بيان وبلاغ من رب العالمين أنكم بين أمرين:

أ. أن تلتزموا أمر الله وتتوبوا عن الربا ولا تعودوا إليه، فإن لكم رؤوس أموالكم دون رباً وتكونون بذلك لا تظلمون ولا تظلمون، فلا تظلمون غرماءكم بأخذ الزيادة ولا تظلمون من قبلهم فلا يردون إليكم رأس مالكم أو يماطلونكم به.

ب. أو تتيقنون وتعلمون أنكم بأخذكم الربا تكونون في حالة حرب مع الله سبحانه ورسوله ﷺ. وهو تهديد عظيم لآكلي الربا وبيان بليغ لفظاعة جريمة الربا، ومن يقدر على حرب الله ورسوله؟!

روي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا يد لنا بحرب الله تعالى ورسوله، وكانوا قد طلبوا رباهم إلى بني المغيرة فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: نزلت هذه الآية في بني عمرو بن عمير بن عوف الثقفي وأخوة له كان لهم رباً على بني المغيرة من بني مخزوم كانوا يداينون بني المغيرة في الجاهلية، وبعد الإسلام طلبت ثقيف ما كان لهم من ربا على بني المغيرة وكان مالاً عظيماً، فقال بنو المغيرة: والله لا نعطي الربا في الإسلام وقد وضعه الله تعالى ورسوله ﷺ عن المسلمين. فعرف شأنهم معاذ بن جبل ويقال عتاب بن أسيد ـ وكان والياً من قبل رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ـ فكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك فأنزل الله تعالى الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ فكتب رسول الله ﷺ بذلك: **"أن أعرض عليهم هذه الآية فإن فعلوا فلهم رؤوس أموالهم وإن أبوا فآذنهم بحرب من الله ورسوله"**[1].

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها لما نزلت قالت ثقيف

---

[1] الدر المنثور: ٢/١٠٧، تفسير الطبري: ٣/١٠٧

المقولة التي ذكرناها أولاً: لا يد لنا بحرب الله تعالى ورسوله ﷺ.

٦. بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة التحريم القاطع للربا وأن ليس لأهله إلا رؤوس أموالهم لا يظلمون ولا يظلمون، بعد ذلك ذكر الله سبحانه حالة تترتب على المطالبة برأس المال فقد يكون المدين في حالة إعسار ولا يستطيع دفع رأس المال الذي اقترضه من الدائن.

هذه الحالة عالجتها الآية الكريمة بإمهال المدين المعسر حتى يصلح حاله ويستطيع السداد، ثم يندب الله سبحانه الدائنين أن يصنعوا خيراً من الإمهال فيضيفوا له عفوا عن المعسر برأس المال أو جزء منه، وعندها يكون لهم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة بما يحصلوا عليه من خير وأجر.

ولقد كان المدين المعسر في الجاهلية يباع أي يسترق بسداد دينه، فكانت رحمة الله سبحانه بهذا الإسلام العظيم أن يمهل المدين المعسر إلى يسار من أمره حتى يسدد دينه، ليس هذا فحسب بل حثّ الدائنين على الصدقة على المعسر زيادة على الإمهال بوضع دينه كله أو بعضه عنه فالحمد لله رب العالمين.

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ كان هنا تامة أي إن وجد مدين معسر فأمهلوه حتى يصبح في يسر يستطيع معه السداد.

﴿ عُسْرَةٍ ﴾ أي ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة.

﴿ مَيْسَرَةٍ ﴾ من اليسر واليسار أي وجود مال.

وباعتبار كان تامة يكون الإمهال ليس خاصاً في مدين الربا فقط عند مطالبته برأس المال إن كان معسراً بل في كل مدين ما دام معسراً فيمهل إلى اليسر.

ولو كانت خاصة بالمدين في رأس مال الربا فقط وليس في كلّ مدين لكانت الآية (وإن كان ذا عسرة) وفي هذه الحالة يكون اسم كان ضميراً عائداً على المدين المطالب برأس مال الربا، ولكن الآية ليست كذلك بل ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ أي إن وجد مدين معسر وهذه تنطبق على كلّ مدين وصفه أنه معسر.

ويؤكد القولَ السابقَ أن (ذو عسرة) نكرة في سياق الشرط فهي لفظ عام تعم كل مدين.

وهي وإن نزلت في الذين يتعاملون بالربا إلى أن جاء الإسلام فأبطله وأوجب رأس المال وحرم الربا كما قال الكلبي في روايته إنها نزلت حين قالت بنو المغيرة لبني

عمير: نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن ندرك الثمر فأبوا أن يؤخروهم، فنزلت وهذه تكملة قصة الربا الذي كان بين بني المغيرة وبني عمير التي ذكرناها في تفسير الآية السابقة، أي أنها نزلت في المطالبة برأس مال الربا الذي كان بينهم.

إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكما قلنا فإنَّ ﴿ **ذُو عُسْرَةٍ** ﴾ لفظ عام، ولذلك فهي تنطبق على إمهال كل مدين معسر سواء أكان في رأس مال الربا أم في غيره.

﴿ **فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾ الفاء داخلة على جواب الشرط ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ** ﴾ ونظرة أي إمهال، وهي مبتدأ خبره محذوف أي فعليكم نظرة.

والإمهال هنا للوجوب وذلك لأن قوله تعالى بعده ﴿ **وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ يفيد أن الأمر الأول ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾ هو على الوجوب بدلالة ذكر ﴿ **تَصَدَّقُوا** ﴾ بعده، وذلك لأن الأمر بشيء ثم اتباعه بتطوع في جنس هذا الشيء يكون قرينة على أن الأمر الأول للفرض كأن تقول (اكتب هذه الصفحة ثم تطوع بأخرى) فإن ذلك يعني أن الأمر الأول (اكتب هذه الصفحة) على الإلزام أي فرض بدلالة التطوع بعده كما هو مثبت في بحث القرائن في الأصول. والصدقة على المعسر فوق إمهاله هي إعفاؤه من الدين أو جزء منه.

ولا يقال إن ﴿ **وَأَن تَصَدَّقُوا** ﴾ هو الإمهال، لا يقال ذلك لأنها عطفت عليه، وهذا يعني أنها زيادة عليه أي إمهال وشيء آخر كما تقول: أدِّ الزكاة وتصدق، فالمطلوب أداء الزكاة وشيء زائد فوقها أي صدقة تطوع زيادة.

﴿ **إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٢٨٠﴾ ﴾ جواب (إن) محذوف، أي إن كنتم تعلمون الخير الكثير والأجر الكبير الذي أعده الله سبحانه لمن يفرج عن المعسر ويضع عنه شيئا من دَيْنه، فإنكم ستسارعون إلى ذلك وهذا هو تقدير جواب (إن) الشرطية المحذوف.

أخرج الإمام أحمد في مسنده من طريق رِبْعِيٍّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو الْيَسَرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظِلِّه**» وفي رواية «**يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ**».

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "**من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر**".

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم"**[1].

ومن الجدير ذكره أن واقع المعسر الذي يجب إمهاله فيه بعض الآراء الفقهية والراجح لدي أنه الذي لا يملك فضل مال زائد عن حاجاته الأساسية وهي المأكل والملبس والمسكن، لأن أعسر فلان: افتقر، فالمعسر الفقير والفقير من لم يكن عنده مال يكفي حاجاته الأساسية فإن زاد فليس فقيراً وبالتالي ليس معسراً وعليه فيجب إمهاله ما دام ماله لا يزيد عن حاجاته الأساسية.

وليس المقصود بالمعسر الذي لا فضل مال لديه زائد عن حاجاته المعتادة، وحاجاته المعتادة هي المتعلقة بعيشه المعتاد مثل سيارته وخادمه وملابسه المتنوعة وطعامه وشرابه المتعدد، وهذه أكثر من حاجاته الأساسية وهي المطعم المحافظ على حياته والملبس الساتر لعورته والمسكن الذي يأوي إليه، وأما تنوع طعامه ولباسه فبالقدر الضروري الذي يمكنه من العيش فإن ملك أكثر من حاجاته الأساسية كما ذكرنا من سيارة أو مسكن آخر أو أرض أو أي نوع من المال الزائد عن حاجاته الأساسية فإن مطالبته بالدين دون إمهال تجوز في مثل هذه الحالات.

وله أن يقيم الدعوى القضائية عليه ويتقاضى دينه من تلك الأموال.

٧. وهذه الآية الأخيرة تذكير من الله سبحانه لنا باليوم الآخر والرجوع إلى الله فيه والحساب والعقاب حيث الجزاء العادل، فمن قدم خيراً يجد خيراً ومن قدم شراً يجد شراً ﴿ **لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ** ﴾ غافر/آية١٧ ﴿ **ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٢٨١﴾ ﴾.

﴿ **وَٱتَّقُواْ يَوْمًا** ﴾ أي قوا أنفسكم العذاب في ذلك اليوم بابتعادكم عن السيئات في الدنيا وإكثاركم من الحسنات.

ولعل الحكمة من وضع هذه الآية الكريمة بعد آيات الربا بيان عظم جريمة الربا وأن الربا يؤدي إلى غضب الله وإلى جهنم، ومن أراد أن يتقي غضب الله ﴿ **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ** ﴾ ومن أراد أن يتقي عذاب يوم القيامة ﴿ **وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ من أراد فليترك الربا الجريمة الفظيعة ولا يدخل في حرب مع

[1] أحمد: ١/٣٢٧

الله سبحانه ورسوله ﷺ حتى يلقى الله سبحانه في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً، وهو سبحانه عنه راضٍ، فيوفى أجره عند مليك عادل مقتدر. وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن العظيم.

وأخرج البخاري في صحيحه قال: بَاب مُوكِلِ الرِّبَا ... ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: "آخر آية نزلت في القرآن ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾" قال ابن جريج: يقولون إن النبي ﷺ مكث بعدها تسع ليال وبدأ يوم السبت ومات ﷺ يوم الاثنين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين.

وأخرج ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾.

وذكر القرطبي قال: روى أبو صالح عن ابن عباس قال: "آخر ما نزل من القرآن ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ فقال جبريل للنبي ﷺ: **يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة**"[1].

وذكر القرطبي في رواية أخرى أنه ﷺ قال: "**اجعلوها بين آية الربا وآية الدين**"[2].

ولا يتعارض هذا مع ما أخرجه البخاري عن ابن عباس: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا.

وما أخرجه أحمد عن عمر أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا.

وما رواه ابن ماجة وابن مردويه عن عمر أنه قال: من آخر القرآن نزولاً آية الربا، فإن الجمع بينها: إن آيات الربا نزلت ثم نزلت بعدها آخر آية وهي ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ فلا تعارض، فَفَهْمُ الأحاديث على وجهها يكون بأنَّ آخر آية نزلت: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾، ومن

---

[1] تفسير القرطبي: ٣٧٥/٣

[2] تفسير القرطبي: ٣٧٥/٣

آخر ما نزل آية الربا كما ذكر ذلك صراحة في رواية الإمام أحمد وابن ماجة وابن مردويه.

وأما ما ورد في البخاري بلفظ: آخر ما نزل آية الربا فهي تحمل على الروايات الأخرى: من آخر ما نزل، وتفهم كذلك على أن آيات الربا نزلت ثم نزلت بعدها آية ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ فيصدق القول إن آخر ما نزل آية الربا وآية ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾.

وخلاصة ما سبق أن آخر آية نزلت هي: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ ووضعت بأمر رسول الله ﷺ في موضعها في القرآن الكريم بعد آية الربا وعلى رأس ثمانية ومائتين من القرآن الكريم.

* * *

فائدة عن الربا:

بعد أن اكتملت آيات الربا في سورة البقرة فإنه لا بدّ من وقفة مع هذا الموضوع الخطير، فأقول وبالله التوفيق:

١. الربا لغة الزيادة مطلقاً، يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد. ومنه الحديث الذي رواه مسلم (... قال عبد الرحمن بن أبي بكر: فَايْمُ اللَّهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلاَّ رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا)[1] يعني الطعام الذي دعا فيه النبي ﷺ بالبركة.

وغالب ما كانت تفعله العرب من الربا أن تقول للغريم عند حلول أجل الدين: أتقضي أم تربي؟ فيزيدون المال مع زيادة الأجل ويصبح المال المطلوب هو رأس المال والزيادة الجديدة عند الأجل الجديد. فكل زيادة في الدين بسبب تأخير السداد كانوا يعتبرونه ربا ويجيزونه بينهم.

٢. هذا من حيث اللغة عند العرب، أما من حيث الشرع فقد أعطى للربا حقيقة شرعية على وجهين:

الأول: ربا النسيئة وهو ما كان سببه راجعاً للأجل أي التأخير من النساء الذي يعني التأخير، وهو ما كانت تفعله العرب (زيادة الدين لتأخير السداد إلى أجل) فقد أقر الشرع هذه التسمية اللغوية واعتبره ربا ثم أضاف له معنى شرعياً جديداً وهو: أن تبيع أصنافاً معينة بنفس الصنف أو بصنف منها مختلف ولكن التقاضي لا يكون يداً بيدٍ بل بعد أجل مهما كان قيمة التقاضي مثل المبيع أو يقل أو يختلف. أي أن ربا النسيئة (من

[1] مسلم: ٣٨٣٣

حيث الحقيقة الشرعية) هو نوعان:

= زيادة الدين لتأخير السداد.

= بيع صنف من الأصناف الربوية الستة ببعضها متشابهةً أو مختلفةً ويكون التقابض لأجل أي ليس يداً بيدٍ، وهذا يعني عدم التقابض في المجلس ـ حاضراً ـ.

الثاني: ربا الفضل وهو ما كان سببه التفاضل وليس الأجل، وهو أن تبيع صنفاً من هذه الأصناف وتتقاضاه حاضراً من نفس الصنف ولكن بأكثر منه.

وأما هذه الأصناف فهي الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح، والأصل في ذلك ما صحّ عن رسول الله ﷺ من أحاديث في البيع والقرض.

٣. أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "**الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثلٍ يداً بيدٍ فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه سواء**"[١].

وأخرج أبو داود عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "**الذهب بالذهب تبرها وعينها والفضة بالفضة تبرها وعينها والبر بالبر مدي بمدي والشعير بالشعير مدي بمدي والتمر بالتمر مدي بمدي والملح بالملح مدي بمدي فمن زاد أو ازداد فقد أربى، ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضة أكثرهما يداً بيدٍ، وأما نسيئةً فلا ولا بأس ببيع البر بالشعير والشعير أكثرهما يداً بيدٍ وأما نسيئةً فلا**"[٢].

والمدي: مكيال، التبر: قطع الذهب والفضة قبل أن تضرب وتطبع دراهم أو دنانير واحدها تبرة، والعين: المضروب من الدراهم أو الدنانير وهذا معنى قوله ﷺ: "**تبرها وعينها سواء**".

أخرج الدارقطني عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، من كانت له حاجة بورق فليصرفها بذهب وإن كانت له حاجة بذهب فليصرفها بورق هاء بهاء**"[٣] أي مقايضة في المجلس.

وهكذا، من أحب تمراً بنوعية فيمكنه أن يبيع تمره بمادة أخرى من غير جنسها ثم بهذا الثمن الجديد يشتري به التمر الذي يحبه، أما إن اشترى تمراً بتمرٍ

---

[١] مسلم: ١٥٨٨

[٢] أبو داوود: ٢٩٠٧، النسائي: ٤٤٨٧

[٣] الدارقطني: ٢٥/٣

فيجب مثلاً بمثلٍ يداً بيدٍ.

أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: جاء بلال بتمر فقال له ﷺ: من أين هذا؟ فقال بلال: من تمر كان عندنا رديء فبعت منه صاعين بصاع لمطعم النبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: "**أوه، عين الربا لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتر به**"[1] وفي رواية: "**هذا الربا فردوه ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا**"[2].

وهذا الحديث دليل على أن بيع الربا باطل وليس فاسداً، أي يجب فسخه ولا يجبر بردّ ما فيه من الزيادة الربوية بل يفسخ العقد كله.

فالرسول ﷺ لم يأمر بلالا أن يرد الزيادة الربوية فقط بل طلب منه أن يفسخ البيع فيردّ كامل التمر الذي اشتراه ويأخذ كامل التمر الذي باعه، ثم بعد ذلك يبيع تمره بدراهم أو دنانير مثلاً ويقبض الثمن حالاً ثم يذهب ويشتري بهذه الدنانير أو الدراهم من التمر الآخر.

(أوه) كلمة تقال عند الشكاية أو التوجع أي إنكار شديد لما صنعه بلال رضي الله عنه.

ومن هذه الأحاديث يتبين أنه لا يجوز بيع هذه الأصناف الستة إلا يداً بيدٍ أي مقايضةً في نفس المجلس، وكذلك لا يجوز أن تتفاضل إن كانت من الصنف الواحد ويكون هذا رباً، هو ربا الفضل.

ولذلك فما تصنعه محلات الذهب من شراء الذهب ببعضه أو الفضة ببعضها مع التفاضل في الوزن نتيجة اختلاف نوعية الذهب أو الفضة (خاتم أو أسورة ...) فهذا من ربا الفضل ولكن لهم أن يبيعوا الذهب بالفضة أو بنقد آخر كيف شاءوا متفاضلاً أو مثله بشرط التقابض في المجلس، ولا يجوز التقابض بعد أجل في بيع هذه الأصناف سواء من صنف واحد أو أصناف مختلفة وإلا كان من ربا النسيئة.

ومن الجدير ذكره أن هذه الأصناف الستة: (الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح) وردت بالتنصيص عليها في الأحاديث المذكورة، وهي أسماء جامدة لا مفهوم لها وهي غير معللة فلا يقاس عليها.

٤. وقد استثنى الله سبحانه من تحريم بيع هذه الأصناف الستة ببعضها والتقابض لأجل، استثنى منها بيع السلم أي أن يكون الثمن المعجل (نقداً أو ذهباً أو فضةً أو عيناً

---

[1] البخاري: ٢١٤٥، مسلم: ٢٩٨٥

[2] مسلم: ٢٩٨٦

أخرى حاضرة). والمؤجل هو السلعة ويسمى هذا البيع كذلك بيع السلف، فإن هذا البيع جائز وتأجيل التقابض فيها أي عدم تسليم السلعة والثمن حالاً بحالٍ - وهو واقع السلم - لا يجعله ربا حتى لو كان الثمن والسلعة من الأصناف الستة، أي لو كان الثمن ذهباً مثلاً والسلعة المؤجلة قمحاً أو شعيراً أو غيرهما من الأصناف الستة، وذلك للأدلة الواردة في بيع السلم:

أ. يقول سبحانه: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ** ﴾ والسلم دين لأن أحد العوضين حاضر والثاني السلعة المؤجلة، وقد ورد أن هذه الآية نزلت في بيع السلم - كما سنبينه عند تفسير هذه الآية بإذن الله - .

ب. حديث البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يستلفون في الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: **"من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم"**[1].

ج. روى البخاري عن محمد بن المجالد قال: بعثني عبد الله بن شداد وأبو بردة إلى عبد الله بن أبي أوفى فقالا: سله **هل كان أصحاب النبي ﷺ في عهد النبي ﷺ يسلفون في الحنطة؟ فقال عبد الله: "كنا نسلف نبيط**[2] **أهل الشام في الحنطة والشعير والزيت في كيل معلوم إلى أجل معلوم. قلت: إلى من كان أصله عنده؟ قال: ما كنا نسألهم عن ذلك"**[3] ثم بعثاني إلى عبدالرحمن بن عوف فسألته فقال: **"كان أصحاب النبي ﷺ يسلفون على عهد النبي ﷺ ولم نسألهم ألهم حرث أم لا"**.

فالسلم في طعام معلوم بكيل معلوم أو وزن معلوم يسلم آجلاً معلوماً بثمن عاجل معلوم ما دام بالشروط الشرعية.

فإن هذا البيع مستثنى من تحريم تأجيل التقابض في الأصناف الربوية، وكذلك هو مستثنى من تحريم بيع ما ليس عندك لأن السلعة لا تكون مملوكة لبائع السلم عند عقد السلم.

وهناك استثناء آخر متعلق ببيع العرايا وهو أن يشتري من ليس له نخيل، يشتري ثمر النخيل على الشجرة بكمية من التمر يدفعها لصاحب النخيل فيكون قد اشترى ثمر

---

[1] البخاري: ٢٠٨٥، مسلم: ٣٠١٠، النسائي: ٣٠٠٤، ابن ماجه: ٢٢٧١

[2] النبيط بفتح النون أهل الزراعة ذوي الخبرة في استخراج المياه من الينابيع لكثرة معالجتهم الفلاحة.

[3] البخاري: ٢٠٨٨

النخلة وهو عليها بتمر موجود معه، وهنا وإن كان الصنفان متشابهين (بلح ورطب وتمر) والوزن أو الكيل مختلف بين ما على النخل والتمر مع المشتري إلا أنه استثني بحديث رسول الله ﷺ: "**رخص رسول الله ﷺ ببيع العرايا**"[1] والعرية هي النخلة المعراة التي تشترى ليؤكل ما عليها.

٥. يقع الربا كذلك في القرض في جميع الأصناف وليس فقط في الأصناف الربوية لأن رسول الله ﷺ يقول: "**كلّ قرض جر نفعا فهو ربا**"[2] و(قرض) مطلق غير مقيد بقيد فهو في كلّ صنف، وروى البخاري في تاريخه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "**إذا أقرض فلا يأخذ هدية**"[3]. ولذلك فالزيادة في القرض عند سداده تكون رباً، أما إن كان أحسن نوعاً فلا بأس كأن يقترض ديناراً ذهباً قديماً في الاستعمال فيسدده جديداً بنفس الوزن أو يقترض جملاً فيسدده جملاً أجود دون أن يكون ذلك مشروطاً فلا بأس بذلك ولا يكون رباً، فقد اقترض رسول الله ﷺ جملاً فلما جاءت إبل الصدقة ردّ لصاحب الجمل جملاً أجود من جمله وقال ﷺ: "**أجودكم أجودكم قضاء**"[4].

لذلك يقع الربا في البيع في الأصناف الستة وفي القرض من كلّ صنف بيناه فيما سبق.

٦. والربا حرام حرمة شديدة جدا لقوله سبحانه ﴿ **وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** ﴾ فهو حرب على الله سبحانه ورسوله ﷺ كما في الآية. وكذلك في حديث رسول الله ﷺ تحريم شديد للربا:

أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "**اجتنبوا السبع الموبقات وفيها: وآكل الربا**"[5].

---

[1] البخاري: ٢٠٤١، مسلم: ٢٨٤١، الترمذي: ١٢٢٢، ١٢٣٤، النسائي: ٤٤٥٦

[2] السنن الكبرى للنسائي: ٥/٣٥٠، وقال: موقوف، الحارث بن أبي أسامة: ١/٥٠٠، تلخيص الحبير: ٣/٣٤، نصب الراية: ٤/٦٠

[3] البيهقي: ٥/٣٥٠، وتكملته "... **أجودكم أجودكم قضاءً**"

[4] البيهقي: ٥/٣٥٠ وهو تكملة الحديث السابق.

[5] البخاري: ٢٥٦٠، ٦٣٥١، مسلم: ١٢٩

وأخرج أبو داود عن ابن مسعود قال: **"لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده"**[1].

وأخرج الدار قطني عن عبد الله بن حنظلة – غسيل الملائكة – أن النبي ﷺ قال: **"لدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية في الخطيئة"**[2].

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **"الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم"**[3].

فما هي هذه الجريمة التي يكون مرتكبها معلنا حربا على الله ورسوله ﷺ؟ وما هي تلك الجريمة التي يكون ارتكابها أشدّ من الزنا بست وثلاثين مرة أو كأن ينكح الرجل أمّه؟ ... إنها الربا التي تهدم المجتمعات وتقودها إلى الجشع والاستغلال وامتصاص الدماء لدرجة استرقاق البشر، والغريب في أمرها أنها حيث حلت في القديم والحديث على اختلاف القديم والحديث تجدها مرتبطة باستعباد الناس وعدم تورع مرتكبها عن أبشع وسيلة ورذيلة والهرولة وراء كل ما يؤدي لزيادة ماله وإن كان في أساليبه تدمير البلاد والعباد ونشر الإفساد والفساد:

ففي الجاهلية وقبل مجيء الإسلام كان المرابون يستعملون الربا في استرقاق الناس، فقد كان المرابي يزيد الدين بزيادة الأجل حتى يؤدي بالمدين إلى عدم القدرة على السداد فيكون الحل أن يبيع المدين نفسه للدائن لسداد دينه ويصبح رقيقاً يباع ويشترى ويمتهن، وكان أصحاب الأموال يستعملونها لزيادة رقيقهم والهيمنة على الأماكن التي فيها يَحِلّون، بالإضافة إلى وسائلهم الأخرى التي ليس هذا مجال بحثها.

فكان الربا وسيلة من وسائل استرقاق الناس وامتصاص دمائهم والهيمنة عليهم.

وعلى الرغم من تطور المجتمعات على مر السنين حتى أيامنا هذه إلا أن هذه الصفة بقيت ملازمة للربا حيث حل استعباد الناس واسترقاقهم والهيمنة عليهم مع تنوع الوسائل والأساليب.

لقد أصبحت للربا في عصرنا كيانات ومؤسسات نشرته انتشاراً

---

[1] أبو داوود: ٢٨٩٥، الترمذي: ١١٢٧، ابن ماجه: ٢٢٦٨، أحمد: ٨٣/١، ٨٧، ٣٠٤/٣

[2] تفسير القرطبي: ٣٦٤/٣

[3] المستدرك: ٣٧/٢، الدر المنثور: ٣٦٤/١، مجمع الزوائد: ١١٦/٤

فظيعـــاً حـــتى لا تكـــاد تخلـــو منطقـــة ذات شـــأن مـــن بنـــك أو مؤسســـة ماليـــة أو مصـرف مالي قائم في مركـزه وفروعـه علـى الربـا، وكـأن واقعنـا اليـوم هـو مـا ينطـق بـه حـديث رسـول الله ﷺ: "**يـأتي علـى النـاس زمـان يـأكلون الربـا، فمـن لم يأكلـه أصـابه من غباره**"[1] أخرجه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لقد ربط الغرب الرأسمالي معظم بلاد العـالم، إن لم يكـن كلـها، ربطهـا اقتصـادياً بعجلة البنوك الرئيسة في بلاد الغرب إما مباشرة مع بنوكـه الرسميـة أو غـير مباشـرة مـع البنك الدولي والصندوق الدولي، وجعل النظام الربـوي عصـب تلـك الـبلاد في بنوكهـا المركزية والبنوك التجارية الأخرى، ثم رسم سياسات مع المتنفذين في تلك البلاد تربطهم بالقروض مع تلك الدول الرأسمالية وتكـون تلـك أولى خطـوات الانهيـار الاقتصـادي في تلك البلاد حيث خطوات تراكم الزيادات الربوية على القـروض بحسـاب مركـب حـتى تصبح تفوق رأسمال القرض ذاته أضعافاً مضاعفة وعندها يصبح البلد قد وقـع فريسـة في يد الغرب يتعاون هو وعملاؤه لامتصـاص ثـروات تلـك البلـدان بطريقـة تبقيـه يتحـرك حركة المذبوح.

وبعدها تأتي الخطـوة الثانيـة بـأن يتـولى المهمـة صـندوق النقـد الـدولي لتصـحيح الاقتصاد وتبدأ وصفاته بإرهاق الناس بالرسوم والضرائب وارتفـا ع الأسـعار، كـلّ هـذا العناء ليحصل البلد الواقع في المصيدة على شهادة حسن سـلوك اقتصـادي يسـتطيع مـن خلالها أن يؤجل سداد الديون الأصلية بأخذ ديون أخـرى مـع ربـا جديـد، أي أن هـذا الخضوع لسياسة الصندوق القاتلة المرهقة ليس إلا مقابل تأجيل سداد الـديون إلى آجـال قادمة مع إضافة ديون جديدة.

إن هـذه السياسـة الخبيثـة الربويـة هـي لاسـترقاق الـبلاد والعبـاد والهيمنـة عليهـا بتسميات أخفّ وقعـاً مثـل سياسـة التصـحيح الاقتصـادي بـدل اسمهـا الحقيقـي تسـريع الانهيـار الاقـتصـادي، كما أبدلوا اسـم الربـا ووضـعـوا مكانه اسما أخـف وقعـاً قـالوا عنه (الفائدة).

هذا من ناحية، أمـا مـن الناحيـة الأخـرى فـإن تلـك الـدول الرأسماليـة وبنوكهـا وشركاتها التجارية تستعمل الإغراء والتهديد لتجعل البلدان الأخـرى تضـع أموالهـا الـتي

---

[1] النسائي: ٤٣٧٩، أبو داوود: ٢٨٩٣، ابن ماجه: ٢٢٦٩، أحمد: ٢/٤٩٤

تجنيها من ثرواتها في بنوك الغرب الرأسمالي لتسير عجلة اقتصاده بأقصى سرعة بأموال تلك البلدان ثم إذا شذت تلك البلدان عن الطوق جمدت أموالها وتحكمت في امتصاص دماء تلك البلدان بأموالهم كما صنعت مع عدد من البلدان المعروفة في هذه الحقبة.

وعلى الرغم من عدم ذكرنا لتأثير القروض الربوية على الأفراد فإن ذلك لا يعني قلة هذا الأثر، فأخذ الأفراد للقروض الربوية يجعلهم في دوامة، فالربا يتضاعف على القرض ورأسماله ثابت ويبقى ثقل سداد الدين ورباه يضغط على الشخص وبخاصة إن كان غير ميسور الحال ـ وهم الغالبية ـ حتى يجعله في مأساة السجون وضيق العيش.

هذا عن الأثر المباشر للربا من حيث إثقال كاهل البلاد بالديون والربا عليها، ومن حيث تجميد أموال من شبّ عن الطوق من تلك البلدان.

أما عن الأثر غير المباشر فهو مدعاة لأن تستثمر تلك البنوك أموالها بأية وسيلة أو رذيلة لتتمكن من جني أرباح للبنك ذاته وليعطى جزء منه ربا لأصحاب الأموال، وهذا يفسر تلك السوق الرائجة لتجارة الفساد بأنواعه في الغرب الرأسمالي والسائرين في ركابه.

ومن جهة أخرى ما يؤديه من تخدير لأصحاب الأموال لاعتمادهم على ما يأخذونه عليها من ربا دون أن يستثمروها بمباشرة منهم في مشاريع تنفع البلاد والعباد وتنتج له ربحاً حلالاً طيباً.

إننا لم نتعرض بالتفصيل لكل الأهداف الخبيثة وراء إنشاء هذا النظام الرأسمالي الربوي الذي أصبح له دور كبير في بلاد المسلمين وكذلك لم نتعرض بالتفصيل للرؤوس الماكرة المهيمنة عليه حاليا من طبقات كافرة يهودية ورأسمالية ولا للسياسات الاقتصادية الربوية الماكرة المرسومة لبلاد المسلمين أو مؤامرات البنك الدولي وسياسات صندوق النقد الدولي التي لم تسلم منها بلاد المسلمين فحسب بل كلّ من وقع في مصيدتهما من الدول الأخرى، لم نتطرق لكل ذلك فهذا ليس مكان تفصيله، ولكننا قصدنا بما بيناه من أمور قليلة عن خطورة هذا النظام الربوي أن يدرك المرء شيئا من معاني كون الربا حرب على الله ورسوله وكونه أشد فتكا في المجتمعات من آفة الزنا على عظم سوئها وفحشائها.

وإن الأمم لن تشعر بالسعادة الاقتصادية ولا بالاستقرار الاقتصادي ما دام النظام الربوي يتحكم بحياتها الاقتصادية.

وهنا قد يقولون إن العلاقات الاقتصادية متحركة بين الناس، ففيهم الغني صاحب المال الوفير فإن لم يجد بنكاً يحفظ له ماله ويعطيه ربا عليه فإن أمواله ستبقى معطلة غير منتجة معرضة للضياع سدى، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن منهم الفقراء أو ذوي حاجة عليهم دين لا يستطيعون سداده، فوجود البنوك الربوية قد تساعدهم لسداد ديونهم عاجلاً مقابل قرض ربوي للبنك يسدد آجلاً.

وقد يحتاج هؤلاء الأشخاص إلى بعض الأمور ولا يكون لديهم مال، فبالاقتراض من البنك يستطيعون تسيير أمورهم الحياتية العاجلة ويسدد القرض على أقساط آجلة.

فكيف يمكن أن تحل تلك المشاكل دون الإبقاء على النظام الاقتصادي الربوي الحالي؟

أما حلّ هذه المشاكل فقد بينها الإسلام بياناً شافياً يجعل الإنسان يشعر بالطمأنينة الاقتصادية في جميع مناحي الحياة وينتفع بالثروات انتفاعاً يضمن العيش السليم ورغد العيش دون استعباد العباد أو إفساد البلاد.

فهو نظام من لدن لطيف خبير حكيم عليم، يعلم ما يصلح مخلوقاته وما يسعدهم في الدنيا والآخرة.

أما كيف يعالجها، فهذا بيانه:

١. لقد حرم الإسلام كنز المال، وكنز المال هو جمعه لغير حاجة بل يجب تشغيله في مشاريع صناعية أو زراعية أو تجارية أو أي وصف آخر يقره الشرع حتى تبقى الثروة متداولة متحركة نشطة في المجتمع ينتفع بدخلها صاحبها والعاملون فيها والفقراء من زكاة وباقي الأصناف، وينتفع المجتمع بعامة من مشاريعها.

وبالتالي فتخزين الثروة لغير حاجة أي كنزها دون تشغيلها في مشاريع هو حرام في الإسلام ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤** ﴾ التوبة/آية٣٤ هذا عن أحوال الأغنياء.

٢. أما من هم في فقر وحاجة:

أ. فقد حثّ الإسلام على إعطاء القرض بدون ربا وجعل أجر قرض مرتين

كصدقة: **"قرض مرتين يعدل صدقة مرة"**[1] أخرجه البزار عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ.

ب. إن كان مديناً وقد أعسر فلا يستطيع السداد فقد أوجب الإسلام إمهاله ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾ وتندب الصدقة عليه بإعفائه من الدين كله أو بعضه ﴿ **وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾.

ج. جعل للمدين نصيبا في بيت المال من الزكاة لسداد دينه ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ** ﴾ التوبة/آية٦٠.

د. أباح العمل ويسر أحكامه وحث عليه وأوجبه على من كان في حاجة ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ الملك/آية١٥ **"إن من الذنوب ما لا يكفرها إلا الهموم في طلب الرزق"**[2].

٣. ثم يأتي دور الدولة:

أ. فهي التي تتولى سداد الحاجات الأساسية لجميع أفراد الرعية من مأكل وملبس ومسكن سواء من دخله الذي يأتيه من عمل أو من إنفاق من يجب عليه نفقته أو إن لم يكن هذا ولا ذاك فمن بيت مال المسلمين: **"والسلطان ولي من لا ولي له"**[3].

ب. ثم هي تتولى الملكية العامة من معادن في باطن الأرض كالذهب والحديد والنحاس والبوتاس والفوسفات وغيرها من معادن صلبة أو سائلة كالبترول أو غازية، وتوصل هذه الأموال لأفراد المسلمين كلهم.

ج. وهي تتولى ملكية الدولة من خراج وجزية وغنائم وغيرها وتعطي منها الفقراء دون الأغنياء ﴿ **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾ الحشر/آية٧.

د. ثم هي تتولى إقراض أصحاب المشاريع بدون ربا أو هبات للمزارعين كما تمّ في عصر الخلفاء الراشدين فتساعدهم على العيش الطيب الكريم.

هـ. وتتولى الدولة فرض الضرائب على أغنياء المسلمين لسدّ حاجة الفقراء وما أوجبه الله على المسلمين إن لم يكن في بيت المال مال.

---

[1] تفسير الطبري: ٢٥/١٦، ٨٥/١٧، تفسير القرطبي: ٣٥٩/٣

[2] المبسوط للسرخسي: ٢٥٨/٣٠، كتاب الكسب لمحمد بن الحسن

[3] أحمد: ٤٧/٦، ١٦٥، الموطأ: ١٠٥٣

وفي الختام نقول:

• فإذا كان الغني يحرم عليه كنز ماله بل عليه تشغيله في مشاريع هو يتولاها بعمله وعرقه لينتفع بها الناس من حيث العمل فيها والأثر الاقتصادي على المجتمع، وينتفع بزكاتها الفقراء والمساكين وباقي أصنافهم.

• وإذا كان الفقير تسد حاجاته الأساسية بالعمل أو إنفاق الولي أو نفقة الدولة من بيت المال.

• وإذا كان المدين يمهل للسداد أو يعفى من دينه بعضه أو كله.

• وإذا كان يقرض صاحب المشروع دون ربا أو يوهب هبة.

• ثم إذا كانت الدولة توزع الملكية العامة وهي كثيرة على المسلمين، وتعطي من ملكية الدولة للفقراء دون الأغنياء كي لا تتداول الثروة عند فئة من الأمة ـ الأغنياء ـ دون غيرها.

• ثم إن الإسلام لم يترك سد الحاجة للمغامرة والتوقعات، فقد أوجب فرض ضريبة على أغنياء المسلمين لسد حاجة الفقراء الأساسية والجهاد وكل ما كان واجباً على المسلمين وبيت المال إن لم يكف بيت المال.

أبعد هذا يمكن أن يقال كيف يتصرف بأموال الأغنياء أو تسد حاجة الفقراء إن لم يكن هناك ربا ومرابون يستثمرون أموال الأغنياء بالربا ويقرضون الفقراء بالربا؟

إن المشكلة أن الأنظمة السائدة في عالمنا اليوم خلال هذا القرن العشرين هي أنظمةٌ بشريةٌ رأسماليةٌ أو اشتراكيةٌ قميئةٌ قبيحةٌ سيئةُ السمعة.

أطلقت بعضها ـ الرأسمالية ـ العنان للملكية الخاصة ولم تعترف بغيرها وجعلتها تحوز المال بأية وسيلة هابطة رديئة تحطم القيم وتدمر المجتمع، وجعلوا عصب حياتهم الربا فانتفخت بطون أصحاب الشركات وبيوت المال وهيمنت حتى على الحكم ومناحي الحياة واستعبدت البلاد والعباد ممن ساروا في فلكها واستنوا سنتها.

ومنع بعضها ـ الاشتراكية ـ الملكية عموماً وحصرتها في الدولة، فنقلت حفنة الجشعين المنتفخين من الشركات إلى الحكام ورؤساء الأحزاب الحاكمة فامتصوا خيرات الناس وعاثوا في الأرض الفساد من خلال هذا النظام الاقتصادي العفن.

فأين هذا من نظام وضعه رب العالمين فردّ الأمور إلى نصابها ووضعها في الموضع الذي يجب أن تكون فيه؟ ... فالخالق هو سبحانه الذي يعلم ما فيه خير مخلوقاته:

= فكانت الملكية الخاصة.

= وكانت الملكية العامة.

= وكانت ملكية الدولة.

كلها تسير في انتظام حسب أحكام الشرع دون أن تطغى واحدة على أخرى أو تتجاوز حدها، في نظام عادل من حكيم خبير، ينفق فيه المال حلالاً طيباً:

• يؤدى منه فرض الله سبحانه.

• ويؤدى منه فرض نفقة المرء ومن يعول من أهله.

• ويتصدق به فوق الفرض إحساناً على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة.

• ويتم ذلك في غير فساد ولا إفساد ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ القصص/آية٧٧.

نظام اقتصادي يورث السعادة لبني البشر ويجعل الحياة الدنيا طريقاً حلوةً ممتعةً لنعيم الآخرة، لا جشعٌ فيها ولا رباً ولا استغلالٌ، بل تكون رغداً حلالاً طيباً من العيش، سلاماً وأمناً من الله ومع الله القوي العزيز، الحكيم الخبير، بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا حرباً مع الله ورسوله وولوغاً في الجريمة والفحشاء.

هذا هو الحق وليس بعد الحق إلا الضلال والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا

﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله سبحانه النفقة في سبيل الله وأن لا يكون منٌّ ولا أذى فيها ولا رياء، وأن تكون من الحلال الطيب وليس من الخبيث، وبعد أن بيّن الله سبحانه الإخلاص في النفقة ابتغاء وجه الله وأجرها العظيم بالليل والنهار وفي السر وفي العلانية.

بعد ذلك ذكر الله الربا وعظم جريمته وتحريمه الشديد وأن ليس لأهله إلا رؤوس أموالهم لا يظلمون غيرهم بالربا ولا يُظلمون بذهاب رأس مالهم.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك إمهال المدين والصدقة عليه بإعفائه من دينه كله أو بعضه.

بعد ذلك ذكر الله أحكاماً تتعلق بالدين في الحضر والسفر:

أمر الله سبحانه المؤمنين إذا تعاملوا بالدين أن يكتبوا دينهم ويشهدوا عليه رجلين أو رجلاً وامرأتين طاعة لله وحفظاً لدَيْنهم، وحثّهم على ذلك مهما كان صغيراً أو كبيراً ما دام تعاملاً بالدين، ودفع عنهم الحرج إن كان بيعاً حاضراً.

كما حرم الله سبحانه أن يؤذى الشهود، أو من يكتبون الدَّيْن، كأن يُضغط عليهم أو يكرهوا لتغيير الوقائع، وأمرهم الله سبحانه أن يلتزموا الشرع في ذلك، ويدركوا أن الله لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة ﴿ **وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾** ﴾.

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟** ﴾ خطاب للمؤمنين.

﴿ **إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ إذا تعاملتم بالدين.

و(الدَّيْن) كل معاملة بيع يكون فيها أحد العوضين حاضراً والآخر غائباً،

وينطبق هذا على القرض كأن تعطي رجلاً مالاً ليسدده لك فيما بعد فهذا دين كذلك، وعلى كل بيع إن سُلمتِ السلعة وأُجِّل الثمن كدين على المشتري كما تشمل بيع السلم كذلك بأن يعجل الثمن وتسلم السلعة بعد أجل، كل ذلك يدخل تحت مدلول (الدين).

﴿ بِدَيْنٍ ﴾ تأكيد إلى ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾ وفيه زيادة فائدة أن يرجع إليه الضمير في ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ فلو لم يذكر ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ وقيل (إذا تداينتم إلى أجل مسمى) لذكر (فاكتبوا الدين) بدل ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ وهنا لا يكون النظم بذلك الحسن كما في الآية الكريمة عند ذوي الذوق العارف بأساليب الكلام.

﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي إلى وقت معلوم.

وأخرج البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله تعالى أحله وأذن فيه. ثم قرأ الآية" والسلف والسلم بمعنى واحد.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ قال: نزلت في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم.

ونزول الآية في السلم لا يمنع أن تنطبق على كلّ دين لأن لفظ {دين} ورد في الآية مطلقاً دون قيد إلا تقييده بالأجل المسمى فكل دين في بيع السلم أو غيرها يأمر الله سبحانه بكتابته.

﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ أمر من الله سبحانه بكتابته، والأمر يفيد الطلب، وقد وردت أقوال في هذه الكتابة إنها للوجوب أو الندب أو الإباحة المتضمن معنى الإرشاد، وهذه الأخيرة تعني عند قائليها أن فيها مصلحة دنيوية راجحة أي أن هذا المباح (الكتابة) أولى من غيره لحفظ الدين والابتعاد عن التنازع.

وحيث إنَّ الأصل في الأمر (الطلب) والقرينة هي التي تعين الحكم الشرعي للوجوب أو الندب أو الإباحة، فإنه بتدبر الآية الكريمة يتبين ما يلي:

أ. لا توجد قرينة تفيد الطلب الجازم من حيث ترتيب العقوبة على عدم الكتابة أو أية قرينة جازمة حسب ما هو معروف في الأصول، فلا تكون الكتابة فرضاً.

ب. هناك قرائن تفيد ترجيح الكتابة من عدمها:

= ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾.
= ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾.
= ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴾.
= ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.
= ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾.
وكل هذه تفيد أن الكتابة أرجح من عدمها.

إلا أن بعضها يفيد أن الترجيح لمصلحة دنيوية مثل:
﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ فهي لقطع التنازع في الحق، وأفضل لأنها تؤكد قول الشهداء وتيسر الأمر عليهم.

ولو اقتصرت على ذلك لأفادت الإباحة المتضمنة للإرشاد، غير أن بعضها يفيد أن الترجيح للثواب أي للندب مثل قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

وهذه قرينة على أن الأمر بالكتابة هو للندب، وبالتالي يكون المعنى:

الندب للمؤمنين أن يكتبوا الدين الواقع بينهم والمؤجل سداده إلى وقت محدد معلوم.

أما الدين المؤجل سداده إلى وقت غير محدد فليس مندوبا كتابته بل هو على الإباحة وذلك لأمرين:

الأول: أن الآية قيدت الدين المندوب كتابته بأجل مسمى وهو وصف مفهم فله مفهوم ويعمل به، أي أن الأمر بالكتابة على الوجه المبين في الآية لا يشمل الدين لأجل غير مسمى.

الثاني: أن الله في الآية التالية يقول: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ أي أن هذه الحالة وهي أن يأتمن الدائن والمدين بعضهما بعضاً مستثناة من الأمر بالكتابة على الوجه المبين في الآية، بل على الإباحة إن شاء كتب وإن لم يشأ لم يكتب.

والذي يعامل غيره بالدين ولا يحدد له أجلاً للسداد أي يقول له: أدّ إلي الدين في الوقت الذي تريد يكون داخلا تحت قوله سبحانه ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ لأنه لا يترك للمدين سداد الدين في أي وقت يشاء إلا أن يكون مؤتمناً له.

وهكذا تكون الآية مبينة:

أ. أن الحكم الشرعي بكتابة الدين المؤقت سداده بوقت معلوم هو الندب.

ب. والحكم الشرعي بكتابة الدين في حالة كون كل من الدائن والمدين قد ائتمنوا بعضهم بعضا، هو الإباحة إن شاءوا كتبوا وإن لم يشاءوا لا يكتبوا.

ويدخل في ذلك الدين غير المؤقت سداده بوقت معلوم حيث إن هذا يعني أنهم قد ائتمنوا بعضهم.

والآية لا تبين حكم تسمية الأجل لسداد الدين، فهذه تتعلق بكل حالة من حالات الدين وتدرس نصوص كلّ حالة، فمثلا في بيع السلم فإن تعيين الأجل وتحديده شرط في صحة بيع السلم فيجب أن يكون الأجل معلوماً علماً ينفي عنه الجهالة كأن يدفع الثمن عاجلاً ويقال: تسليم السلعة ـ القمح مثلاً ـ في تاريخ كذا بتحديد ينفي الجهالة، ذلك لحديث رسول الله ﷺ المشار إليه سابقاً الذي أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وهم يستلفون في الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: "**من أسلف في ثمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**"[1] فجعله ﷺ شرطاً في بيع السلم.

﴿ **وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ** ﴾ (الباء) إما متعلقة بـ﴿ **وَلْيَكْتُب** ﴾ أو بـ﴿ **كَاتِبٌ** ﴾.

فإن كانت على الأول أي وليكتب بالعدل بينكم كاتب، أي أن المطلوب أن تكون الكتابة بالعدل وإن لم يكن الكاتب عدلاً أي لو كان غير مسلم وكان جيداً في الكتابة غير متحيز مأموناً، فإن ندب الكتابة يتحقق به.

وإن كانت على الثاني ـ أي تعلقت الباء بالكاتب ـ فإن المعنى يكون: وليكتب بينكم كاتب عدل: أي أن يكون الكاتب عدلاً وهذا يعني مسلماً غير ظاهر الفسق، يتقي الله في كتابته، يفقه ما يكتب ويحسنه.

والراجح هو الثاني بقرينة ما جاء بعدها ﴿ **وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ** ﴾ والذي لا يرفض أن يكتب لأن الله علمه الكتابة ومَنَّ عليه من فضله هو المسلم العدل.

---

[1] البخاري: ٢٠٨٥، مسلم: ٣٠١٠، النسائي: ٣٠٠٤، ابن ماجه: ٢٢٧١

ولذلك يكون المعنى (وليكتب بينكم كاتب صفته أنه عدل، أي مسلم غير ظاهر الفسق فقيه لما يكتب مأمون فيه).

وأما ذكر ﴿ بَّيْنَكُمْ ﴾ للدلالة على أن الكاتب مختار من الطرفين غير متحيز لأحدهما وأن يكون غيرهما، أي أن لا يكون الكاتب أحد الطرفين ولا مرتبطاً أو متحيزاً لأحد الطرفين، بل يكتب ﴿ بَّيْنَكُمْ ﴾ فهو كاتب محايد.

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ لا يرفض الكاتب أن يكتب، والرفض هنا على الكراهة لأن النهي عن رفض الكتابة لم تصحبه قرينة جازمة فهو نهي غير جازم أي مكروه.

﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي لا يرفض الكتابة بل يكتب بسبب أن الله مَنَّ عليه بتعليم الكتابة، فيساعد الآخرين بالكتابة لهم شكرا لله على توفيقه له بتعلم الكتابة بعد أن لم يكن يعلمها، وهذه كما قلنا قرينة على أن الكاتب المخاطب مسلم عدل يدرك نعمة الله عليه بتعليمه الكتابة، ولذلك فعلى الدائن والمدين أن يختارا كاتباً عدلاً للكتابة بينهما.

﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أمر بالكتابة، وهو على الندب بدلالة ذكر الله قبلها ﴿ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي كما علمه الله الكتابة بعد أن لم يكن يعلمها فليحسن للآخرين بالكتابة إليهم إن كانوا في حاجة إليه.

﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو كذلك مندوب لأن الكتابة بناء عليه.

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ وتذكيره بالتقوى يؤكد الندب كذلك ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾.

﴿ وَلْيُمْلِلِ ﴾ من الإملال أي الإلقاء على الكاتب ما يكتبه، وفعله أمللت.

﴿ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ أي المدين فهو الذي يذكر للكاتب الدين الذي عليه زيادة في التوثيق، فاعتراف المدين بالدين أقوى من ادّعاء الدائن أن له ديناً، فالمدين هو الذي يملل على الكاتب.

﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ تذكير له بتقوى الله وحثّ له على الصدق في القول وتحري الحقّ فيما يقول.

﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينقص من الحق شيئا، وذكر ﴿ شَيْـًٔا ﴾

وتنكيرها للدلالة على عدم تنقيص أي جزء من الحق مهما كان قليلاً.

﴿ **فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا** ﴾ أي إذا كان المدين ﴿ **سَفِيهًا** ﴾ والسفيه الجاهل خفيف العقل بذيء اللسان، وهي هنا (بذيء اللسان) وهو الذي إن ترك له الإملال على الكاتب سيأتي كلامه سيئاً.

يقول: سافهه: شاتمه، وفي المثل: سفيه لم يجد مسافهاً، فالسفيه بذيء اللسان.

﴿ **أَوۡ ضَعِيفًا** ﴾ أي ضعيف الرأي لا يستطيع ترتيب الأمور أو إخراج الكلام على نسق، فإن ترك له الإملال فقد يقدم أو يؤخر أو يأتي بالكلام مضطرباً فيفسد المعنى.

﴿ **أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ** ﴾ أي لا يمكنه الحديث الواضح لعيّ في لسانه أو خرس كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –.

وما قلناه سابقاً هو الراجح لدينا وذلك لأن الآية تفيد:

أ. إن الأصناف التي تمنع من الإملال لا يمنع تعاملها بالدين لأن الآية تبدأ ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ** ﴾ فتعاملهم بالدين صحيح شرعاً، وعليه لا يصحّ أن يكون في تفسير ﴿ **سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ** ﴾ مثل المجنون أو المحجور عليه أو الصغير الذي لا تصح عقوده أو أمثالهم.

ب. كذلك فإن تفسير هذه الأصناف بالغائب مرجوح كذلك لأن الآية ترجح وجود المدين لكنه لا يستطيع الإملال ﴿ **وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِ ۚ** ﴾.

ج. لا يصحّ تفسير الأصناف الثلاثة أو صنفين مثلاً بمعنى واحد لأن الآية تدل على أنهم أصناف ثلاثة، وكلّ صنف غير الآخر ﴿ **سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ** ﴾.

د. أن يكون للتفسير أصل في اللغة.

وبناء عليها أقول: إن ما ذكرته في التفسير هو الراجح فيها.

وهذه الأصناف الثلاثة تُمنع من الإملال على الكاتب ويملي على الكاتب بدلاً منها وليهم.

وعلى الولي في هذه الحالة أن يملي بالحق عمن ولاه فلا يغير شيئاً من الحق الذي

على وليه لا بالزيادة ولا بالنقصان بل يملي بالحق، والحق وحده فهو قائم مقام المدين.

﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ ﴿ وَلِيُّهُۥ ﴾ الضمير هنا عائد إلى من عليه الحق أي المدين، فهو يعني (ولي المدين).

﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ يعود على الإملال لأن الولي وبخاصة الشرعي منه محدد في الشرع كأبيه أو ابنه أو أخيه أو ما يقرره الشرع، وحيث قد عين الولي فيصبح المطلوب أن يملل هذا الولي على الكاتب بالعدل أي بالحق والصدق.

﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾.

يبين الله سبحانه أن يُشهد الطرفان على الكتابة رجلين أو رجلاً وامرأتين لتذكر إحداهما الأخرى إن نسيت بعض الوقائع.

وأن يكون الشهداء عدولاً وذلك بدلالة ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ ﴾ أي منكم وبدلالة ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ وحيث إنَّ الخطاب من بدايته للمؤمنين أي أن يكون الشهداء ممن يرضاهم المؤمنون، وهذا يعني أن يكونوا عدولاً مسلمين أي أن الإسلام ظاهر عليهم في تصرفاتهم، وأن يكون الفسق ـ مخالفة أحكام الإسلام ـ غير ظاهر عليهم فهم بذلك يكونون عدولا تقبل شهادتهم.

﴿ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ رجل رفع على الابتداء ﴿ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ معطوف عليه، والخبر محذوف أي إن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان يقومون مقامهما وهي تفيد كذلك أن شهادة امرأتين مع رجل تقبل سواء كان هناك رجال أم لا، أي إن لم يأتِ الطالب برجلين فليأتِ برجل وامرأتين، فإن أتى بأي الحالتين جاز وليس المعنى أن جواز شهادة رجل وامرأتين لا تصح إلا مع عدم الرجال لأنها لو كانت كذلك لكانت الآية (فإن لم يكن رجلان فرجل وامرأتان) وتكون (كان) تامة بمعنى إن لم يوجد لكن (فإن لم يكونا رجلين) أي إن لم يأتِ بشاهدين رجلين فله أن يأتي بشهود رجل وامرأتين.

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ أي إن شهادة امرأتين مكان واحدة لأجل أن تذكر الواحدة الأخرى لو نسيت جزء من الوقائع.

﴿ أَن تَضِلَّ ﴾ في محل نصب مفعول لأجله.

وتكرار (إحداهما) بدل القول (أن تضل إحداهما فتذكر الأخرى) وذلك للمبالغة

في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال ـ بإحداهما ـ بعينها والتذكير بالأخرى بل المقصود أن التي تنسى تذكرها الأخرى وقد تكون هذه أو تلك.

﴿ أَن تَضِلَّ ﴾ أي أن تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال ضلّ فيها.

ومن الجدير ذكره أن قبول شهادة النساء في المعاملات المالية جعلها الله سبحانه بهذه الكيفية اثنتين مقام واحد من الرجال، ودلالة الآية ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ تفيد أن احتمال نسيان النساء كشاهدات في وقائع المعاملات المالية أكبر من احتمال نسيان الرجال ولعل ذلك بسبب قلة تواجد النساء في المعاملات المالية، فحضورهن لجميع الوقائع المالية أقل من تواجد الرجال وحضورهم، فكانت اثنتان تكملان شهادة بعضهما إن نسيت واحدة بعض الوقائع أو فاتها الحضور الكامل لها ذكرتها الأخرى وأكملت الشهادة، وهي في هذه الحالة كأنها بعدم متابعتها أحداث الواقعة المالية بحذافيرها تقوم مع أختها مقام رجل واحد لمتابعته أحداث الواقعة بدرجة أكبر وذلك بسبب اختلاف واقع حضور الرجال والنساء كشهود على الوقائع المالية الجارية، لأن الشهادة يجب أن تكون بناء على حضور واضح لا لبس فيه للواقعة.

ويؤكد ذلك أن شهادة النساء، واحدة أو أكثر، في الأمور التي توجد فيها النساء عادة كالولادة والإرضاع وأمثالها، هي المعتمدة.

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ ﴾ أي إذا دعي الشهود ليشهدوا على كتابة الدين فليلبوا ولا يرفضوا، والنهي هنا للكراهة لعدم وجود قرينة تفيد الجزم فهو نهي غير جازم.

أي يكره لمن دعي ليشهد على كتابة الدين فرفض ولم يذهب.

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ﴾ أي لا تضجروا من كتابة الدين إلى أجله مهما كانت قيمة الدين، وهذا ترغيب على الكتابة.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي أعدل.

﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ أثبت لها.

﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ أي أقرب إلى انتفاء الريب والشك.

وهذه كلها ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ قرينة ـ كما بينا سابقاً ـ .

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ استثناء منقطع بمعنى (ولكن إذا كانت تجارةً حاضرةً بينكم يداً بيدٍ لا دين فيها ولا حرج عليكم ألا تكتبوها أي مباح لكم الكتابة وعدمها).

﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وهو عائد على التجارة الحاضرة والأمر هنا على الإباحة لأنه خلو من القرائن وليس قربة، فالشهادة على التجارة الحاضرة مباحة.

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ أي لا يؤذى أي منهما سواء بإجبارهما عليها أو الضغط عليهما للكتابة والشهادة بغير الحقيقة أو إثقال كاهلهما بالحضور للشهادة بما يشق عليهما سواء من حيث النفقة أو المشقة، بل معاملتهما بالحسنى والتيسير عليهما.

ومضارة الكاتب والشهود هنا على التحريم بقرينة ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ فهو وصف مفهم يفيد النهي الجازم عن المضارة أي أنها حرام.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم غضب الله وعقابه واخشوه سبحانه.

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي يعلمكم أحكام شرعه فالتزموها.

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية فيعلم حقائق الأمور ويجزيكم بكل ما تعملون.

ولا يقال إن لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ قد ورد مكرراً ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ فإن هذا ليس تكراراً مجرداً بل كلّ منهما بمعنى مستقل زيادة في تعظيم الله سبحانه وعلوّ شأنه، فهو سبحانه أهل التقوى وهو الذي يستند العلم إليه فكلّ علمٍ بما مَنَّهُ الله على عباده مما خلقه في الأشياء وفيهم من خصائص ومكونات وإمكانيات فطرية وعقلية لتعلم ما لم يكونوا يعلمونه، فهو سبحانه صاحب المنة بالعلم على مخلوقاته.

وفي ختام الآية اختصاص الله سبحانه بالعلم الأزلي الذي يحيط بكل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض.

ولذلك فتكرار اسمه سبحانه ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ـ جل جلاله ـ ليس تكراراً مجرداً بل كلٌّ بمعنى مستقل وهو في الوقت نفسه متصل بالمعاني الأخرى في نظم عظيم يأخذ بالألباب،

فسبحان الله خالق الأرض والسماء وكل شيء عنده بمقدار!

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

التفسير:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾.

يبين الله سبحانه في هذه الآية الكريمة أن المتعاملين بالدين إن كانوا على سفر ولم يجدوا أثناء سفرهم من يكتب لهم دينهم، فإن الله سبحانه قد أبدلهم عن ذلك بأن يأخذ الدائن من المدين رهناً يقبضه ضماناً لدينه.

فإن ائتمنوا بعضهم فلا حاجة لكاتب أو شاهد أو رهن، وعلى المدين الذي ائتمنه صاحبه أن يخشى الله في صاحبه الذي ائتمنه على دينه وأن يؤدي إليه حقه دون عناء أن يضطره إلى كثرة مطالبته، بل يتذكر إحسان الدائن إليه فيؤدي إليه حقه بإحسان كذلك.

ثم يحضهم الله سبحانه على عدم كتمان الشهادة وأن في ذلك إثماً عظيماً، وفي ختام الآية يبين الله سبحانه أنه عليم بما يعملون ولا يمكنهم بكتمان الشهادة أن يخفوا عن الله شيئاً فهو علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ فيجازيكم به إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ ﴾ أي مسافرين.

﴿ فَرِهَٰنٞ ﴾ جمع رهن وهو في الأصل مصدر ثم أطلق على المرهون من باب إطلاق المصدر على الاسم المفعول.

و﴿ مَّقۡبُوضَةٞ ﴾ دليل على تسليم الرهن للدائن فيقبضه.

﴿ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞ ﴾ يعني أن الرهن لتوثيق الدين في السفر عند عدم وجود الكاتب فإنه يقوم مقام توثيق الدين عند وجود الكاتب، وبالتالي فحكم الرهن في هذه الحالة هو الندب مثل حكم الكتابة.

والسؤال الآن: إذا كانت كتابة الدين في الحضر مندوبةً، والرهن في السفر عند عدم وجود الكاتب مندوبةً، فهل يجوز الرهن في الحضر مع وجود الكاتب؟ وهل يجوز الرهن في السفر مع وجود الكاتب؟

والجواب على ذلك أنه يجوز، لكن حكم الرهن في هذه الحالة الإباحة وليس الندب.

والدليل على ذلك:

أ- في الحضر: يباح للمتعاقدين في البيع إلى أجل، أي للمتعاملين بالدين، إذا لم يريدا كتابة الدين وفق المبيّن حكمه المذكور في الآية الكريمة، يباح لهما أن يشترطا ما شاءا إلا أن يخالف الشرط أحكام الشرع، لذلك فإنه يجوز للبائع الذي يبيع بضاعته بالدين أن يستوثق من المشتري ليطمئن بسداد دينه، فله أن يأخذ منه رهناً أو يطلب كفيلاً... وكل هذا مباح، وذلك لأن الشروط في العقود مباحة إلا شرطاً حرّم حلالاً أو

أحل حراماً. قال ﷺ: «**الْمُسْــلِــمُــونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**» أخرجه الترمذي... وواضح من الحديث أنه يتعلق بالشروط التي يشترطها المسلمون فيما بينهم، أي في معاملاتهم، وبعبارة أخرى في العقود التي يجرونها بينهم، فلهم أن يشترطوا ما شاءوا في عقودهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً.

ب - في السفر: قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ** ﴾، إن عدم وجود الكاتب في السفر قد خرج مخرج الغالب، فالغالب في السفر أنهم كانوا لا يجدون كاتباً، لقلة المتعلمين في ذلك الزمان، لذلك فإنه لا يعمل بمفهوم المخالفة للقيد (الوصف) ﴿ **وَلَمْ تَجِدُواْ** ﴾**كَاتِبًا**، وإذن يجوز الرهن سواء أكان هناك كاتب أم لم يكن، فقط الحكم يختلف، فمع عدم وجود الكاتب في السفر فالرهن يقوم مقام الكتابة وبالتالي حكمه الندب، والرهن في السفر مع وجود الكاتب على الإباحة.

وكل هذا في غير حالة بيع الأصناف الربوية بالدين، فإن حكم الرهن في هذه الحالة، سواء أكان في حضر أم في سفر، هو الوجوب، أي يجب الرهن لصحة بيع الأصناف الربوية بالدين "بيع القمح أو الشعير أو التمر، أو الملح بالدين" ودليل ذلك:

- صح عن رسول الله ﷺ منع بيع الأصناف الربوية إلا هاء بهاء، يداً بيد. أخرج مسلم عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**». أي دون دين.

- وقد صح عن رسول الله ﷺ كذلك أنه اشترى صنفاً من الأصناف الربوية "الشعير" بالدين ولكنه رهن درعه عند البائع، أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها -: "**أن النبي ﷺ اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهنه درعاً له من حديد**"[1] وفي

---

[1] البخاري: ٢٧٠٠

رواية أخرجها النسائي من حديث ابن عباس: "**تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير لأهله**"[1].

ـ والجمع بين تحريم البيع بالدين في الحديث الأول، وجوازه مع الرهن في الحديث الثاني مع عدم ورود ما يدل على أنه خاص بالرسول ﷺ، الجمع بين الحديثين يدل على أن الرهن واجب عند بيع الأصناف الربوية بالدين.

﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ أي فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين في السفر أو الحضر، فكان حسن الظن بالمدين وبأمانته وعدم مطله أي أن الدائن يثق بالمدين فيسدد دينه له بأمانة ولا مطل، ففي هذه الحالة يمكن الاستغناء عن توثيق الدين بالكتابة والشهود والرهن ويصبح ذلك مباحاً ـ كما بينا ـ إن شاء استوثق وإن لم يشأ فلا يستوثق.

وليست ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ خاصة في حالة السفر والرهن وكونها وردت في هذه الآية التي بدأت بالسفر، لأن المعنى قد اكتمل عند ﴿ **فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ** ﴾ والتعقيب بعدها هو على ما سبق من أحكام الدين بالكتابة والشهود والرهن في الحضر والسفر.

ويؤكد ذلك ذكر ﴿ **وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ** ﴾ في هذه الآية والشهادة ليست مذكورة في الرهن عند السفر بل هي متعلقة بالشهادة المذكورة في الآية السابقة عند الكتابة في الحضر، ومع ذلك ذكرت في هذه الآية التي بدأت بالسفر ﴿ **۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ** ﴾ وعليه فالراجح أن ما جاء بعد ﴿ **فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ** ﴾ متعلق بموضوع الدين السابق في السفر والحضر.

والمعنى يكون: فإن اطمأن الدائنون لأمانة المدين وكان عندهم ثقة به في السداد وعدم المماطلة فيمكن عندها الاستغناء عن وسائل توثيق الدين من كتابة وشهود ورهن في الحضر والسفر على وجهه، وبدل أن يكون التوثيق مندوباً ـ كما بينا سابقاً ـ يصبح مباحا مع هذه الحالة الجديدة المبينة في قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾.

﴿ **فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ** ﴾ أي ليؤد المدين الدائن، وسمي الدين أمانة في هذه الحالة لأنه استغنى عن التوثيق بأمانة المدين.

---

[1] النسائي: ٤٥٧٢، البخاري: ٢٧٥٩، ٤١٩٧، أحمد: ١/٢٣٦، ٣٦١، ابن حبان: ١٣/٢٦٢

والطلب هنا للوجوب، أي أن أداء الدين على الوجوب وذلك بقرينة لفظ ﴿ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ وأداء الأمانة فرض "**لا إيمان لمن لا أمانة له**"[1] وأحاديث أخرى فذكر الأمانة وهي وصف مفهم وأداؤها فرض، وتشبيه الدين بالأمانة وجعل أداء الأمانة هو موضوع الطلب كلّ ذلك قرينة على أن الأمر هنا ﴿ فَلْيُؤَدِّ ﴾ للفرض.

﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ تحذير له من إنكار الحق أو عدم أدائه.

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ خطاب عام للشهود وللدائن والمدين، لا يخفوها أو يحرفوها أو يمنعوها عن وجهها الصحيح، والنهي هنا جازم أي للتحريم بدلالة قوله سبحانه ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾.

وذكر ﴿ قَلْبُهُۥ ﴾ بعد ذكر ﴿ ءَاثِمٌ ﴾ للدلالة على عظم الإثم فإن ذكر الحاسة بعد فعلها أقوى في الدلالة، فإن قول (هذا ما أبصرته عيني) أقوى وأبلغ في الدلالة من (هذا ما أبصرته) وكذلك (هذا ما سمعته أذناي) أقوى من (هذا ما سمعته) وهكذا ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ أقوى من (ومن يكتمها فإنه آثم).

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ أي يعلم ما تعملونه سراً كان أو علانيةً، فإن الله لا تخفى عليه خافية فهو سبحانه يعلم أعمالكم ويحصيها عليكم ويجزيكم بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

* * *

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ

[1] أحمد: ٣/١٥٤، ٢١٠

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

هذه الآيات الثلاث هي خاتمة سورة البقرة، وقد انتهت بما بدأت به: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

وكما بدأت بالبشرى للمؤمنين بالفلاح انتهت كذلك بما سماه الصحابة (نزول الفرج) بتجاوز الله سبحانه عما داخل النفوس، وعدم المحاسبة إلا على ما يظهر من قول أو فعل والله غفور رحيم ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ** ﴾.

ثم كان فضل الله العظيم ورحمته الواسعة وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فعلمنا دعاء يحيي القلوب ويشرح الصدور في ضراعة للرحمن بالإجابة والقبول:

﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾** ﴾.

هذه الآيات الثلاث ختمت هذه السورة العظيمة ببيان فضل الله العظيم على عباده المؤمنين، فسبحان الله رب العرش العظيم!

يبين الله سبحانه في هذه الآيات ما يلي:

١. إن الله سبحانه هو مالك السموات والأرض وكل ما تحتويه، يتصرف فيها كيف يشاء لا رادّ لحكمه، يعلم الجهر وما يخفى ويحاسب عليه، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير.

أخرج مسلم عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿ **وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ** ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من قبل. فقال النبي ﷺ: **قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا. قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى:** ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ** ﴾"[1].

[1] مسلم: ١٨٠، الترمذي: ٢٩١٨، أحمد: ٢٣٣/١، ابن حبان: ٤٥٨/١١

وفي رواية أخرى أخرجها مسلم عن أبي هريرة وأخرجها أحمد كذلك عن أبي هريرة قال: "لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ **فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصوم والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله تعالى عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال** رسول الله ﷺ**: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم** ﴿ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ بل قولوا ﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ **فلما أقرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها** ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ **فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل سبحانه** ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ الآية"[1].

ويتبين من هذين الحديثين أن الآية ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ نسخت بالآية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ وذلك بالنسبة للمحاسبة على ما يخفيه الإنسان في نفسه ﴿ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾.

أ. وهنا لا يقال كيف يُنسَخ الخبر حيث إنَّ الآية في صيغة الخبر ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ لا يقال ذلك لأنها وإن كانت خبراً فهي في معنى طلب الترك أي: لا تظهروا من الأمور إلا الخير، وكذلك لا تضمروا إلا الخير فالله يحاسبكم على ما تبدونه وما تخفونه، ففيها نهي عن إضمار الشر وعن إظهاره. ولذلك فهم الصحابة منها تكليفاً بأن ينتهوا عن إظهار الشر وعن إضماره، وثقل عليهم أن يحاسبوا على ما في داخل نفوسهم لأنهم وجدوا أن المرء قد يخشى الله ويتذكر الجنة فيقلع عن تنفيذ ما أضمره فلا تظهر عليه في قول أو فعل، فإن كان محاسبا على ما أضمره دون تنفيذه يكون أمراً ثقيلاً.

وعليه فإن الصيغة الخبرية في الآية ـ الجملة الشرطية ـ هي في معنى طلب الترك أي النهي عن الشر سواء ظهر على الجوارح من قول أو فعل أو لم يظهر بل بقي في النفس مستتراً.

وهذه الآية على نحو قوله سبحانه: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾ الأنفال/آية٦٥ فهو هنا في صيغة الخبر ـ الجملة الشرطية ـ ولكنها في معنى الطلب، أي ليقاتل الواحد منكم عشرة من الكفار ولا يفر من أمامهم، ثم نسخت هذه

[1] مسلم: ١٧٩، أحمد: ٣٣٢/١

الآية بقوله سبحانه ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ ﴾ الأنفال/آية٦٦ أي ليثبت الواحد لاثنين.

ب. كذلك لا يقال إن ما يخفيه المرء في نفسه إن كان يتعلق بالعقيدة فإن الله يحاسبه بذلك، وهذا الحكم باق والنسخ يعني إزالة الحكم، وعليه فلا نسخ بل يكون تخصيصا بالآية الأخرى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ في الأحكام الشرعية.

لا يقال ذلك لأن الآية ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ ليست في العقيدة بل في الأحكام الشرعية وذلك بقرينة تكملة الآية ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ والمغفرة لا تكون في مخالفة العقيدة لأن ما يداخل النفس من شكّ أو ارتياب فيها هو كفر، والله لا يغفر أن يشرك به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ النساء/آية٤٨.

فكون هناك احتمال المغفرة لما يظهر أو يخفى فهذا يعني أن الآية نصّ في الأحكام الشرعية وليست في العقيدة.

ج. كذلك ليس هناك من داعٍ لمحاولة التأويل في الآية لاستبعاد النسخ فيقال مثلا إنها متعلقة بإبداء الشهادة أو كتمانها، أو أنها متعلقة بإتيانكم بالسوء الظاهر عليكم أو بإتيانكم السوء ولكن خفية، بمعنى أن ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي إبداء الشهادة أو إبداء فعل السوء ثم ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ أي كتمان الشهادة أو فعل السوء خفية، لا يقال ذلك لأن الموضوع متعلق بما يظهر ﴿ تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وما لا يظهر أي يبقى مستتراً لا يظهر بقول أو فعل ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ وذلك بدلالة ﴿ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾. أما إذا ظهر أي نفذ بقول أو فعل سواء بشكل معلن ظاهر أو نفذ في الخفاء فكلّ ذلك واقع تحت ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وذلك إذا سئل شخص الشهادة فأنكرها أو أخفى جزءاً منها وذكر الباقي أو حرف أو بدّل فإن كلّ ذلك لا يقع تحت ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ بل تحت ﴿ وَإِن تُبْدُواْ ﴾ لأن الإخفاء في الآية هو ما لم يظهر بقول أو بفعل بقرينة ﴿ فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ولذلك فلا يصحّ مثل هذا تفسيراً لما ذكر في الآية ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ فالتأويل البعيد لمعنى الآية لإبعاد النسخ لا يصحّ ما دام معنى اللفظ واضحاً دون تأويل. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الروايات الصحيحة كما ذكرنا في أسباب النزول تقول بالنسخ، ويقول به كذلك عدد كبير من الصحابة – رضوان الله عليهم –.

د. كذلك لا يقال لو كان المقصود ﴿ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ هو الذي يدور في

النفس، فإن الله سبحانه بذلك قد كلفنا بما لا يطاق لأن خطرات النفس لا يمكن التحكم بها، أي أن الآية قبل النسخ تكون تكليفاً بما لا يطاق بهذا المعنى.

لا يقال ذلك لأن الإخفاء في الآية غير متعلق بخطرات النفس بل بما تضمره من سوء ولكن لا تنفذه كأن يضمر شخص في نفسه أنه سيسرق أو يزني أو سيشتم فلاناً أو سيعتدي عليه، هذا هو الإخفاء أي ما يبقى حبيساً في النفس ولا يظهر بقول أو فعل، وكل هذا في مقدور المرء فهو ليس تكليفاً بما لا يطاق.

والآية قبل النسخ تفيد أن هذه الأمور يحاسب الله عليها حتى لو لم ينفذها الشخص، ولهذا وجده المسلمون ثقيلاً لأن النفس أمارة بالسوء، وقد يرد هذا في النفس ثم يخشى العبد ربه فلا يقوم به، فإن كانت العقوبة على غير ما يظهر من فعل أو قول فإن الحمل عندها يكون شاقاً ثقيلاً.

أما إن كانت العقوبة على ما يظهر من قول أو فعل فإن التحكم في هذا أيسر، فالمرء قد يضمر شراً ولكنه يتذكر غضب الله ونار جهنم فيرعوي ويخشى الله ولا يقوم بتنفيذ ذلك الشر، فثقل على المسلمين أن يكون الحساب والعقاب على ما يخفونه في أنفسهم لكنهم يقلعون عنه ولا ينفذونه لا في قول ولا فعل.

فاستجاب الله لهم ورحمهم ونسخها بأن جعل التكليف والحساب والعقاب على كسب العبد واكتسابه، أي ما يظهره من أفعال وأقوال بجوارحه دون ما يضمره في نفسه ولا بقول أو فعل.

وفي حديث رسول الله ﷺ الصحيح ما يؤكد ذلك: "**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم**"[1].

وأخرج مسلم من طريق أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ**».

فكانت الآية قبل نسخها تعني أن المرء لو أضمر في نفسه سيئةً ما كأن يسرق أو يعتدي على فلان ثم لم ينفذ ذلك لا بقول ولا فعل، فإنه كان يتعرض لحساب الله على ذلك قبل نسخ الآية، وبعد النسخ أصبح لا يتعرض للحساب إلا عند قيامه بتنفيذ ما أضمره بقول أو فعل، وإن لم ينفذ بقول أو فعل فإن الله سبحانه يتجاوز له عنه فضلا من

[1] البخاري: ٥٢٦٩، مسلم: ٢٠١، ٢٠٢

الله ورحمته.

ولذلك فإن المسلمين اعتبروا نسخها فرجاً عليهم كما روي ذلك من قول بعضهم "حتى أنزل الله الفرج" بنزول قوله سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ قدم الله سبحانه المغفرة على العذاب لتقدم رحمته سبحانه على غضبه ولحثّ المؤمنين على الاستغفار والتقرب إليه سبحانه فيتقوا بذلك غضب الله وعذابه.

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ فهو القاهر فوق عباده لا رادّ لقضائه فإن غفر فهو الغفور الرحيم، وإن عذّب فهو العزيز الحكيم.

٢. تكريماً لرسول الله ﷺ والمؤمنين الذين اتبعوه يخبرنا سبحانه أنهم آمنوا وصدقوا جازمين بالله وملائكته وكتبه ورسله، فهي شهادة من الله سبحانه لنبيه ﷺ من باب التكريم له وللمؤمنين السائرين على دربه المهتدين بهديه ﷺ.

وقد كرمهم الله بصدق إيمانهم وقوة إخلاصهم، يسمعون لله ويطيعون، ويستغفرونه سبحانه، ويؤمنون بيوم يرجعون فيه إلى الله، يرجون منه رحمته سبحانه وفضله. كما أنهم يؤمنون برسل الله جميعاً، ولا يفرقون بينهم، فرسل الله من حيث النبوة لا فرق بينهم، وإن كان الله سبحانه قد ميزهم بميزات أخرى مثل نسخ الشرائع حيث أكرم الله رسوله محمداً ﷺ بأن جعل رسالته خاتمة الشرائع وناسخة لأحكامها كما بيناه في الآية الكريمة ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وعدم تعارضها مع ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فهو عدم تفريق في النبوة، فالرسل أجمعون من حيث النبوة سواء لا تفريق بينهم.

هكذا بين الله سبحانه في كتابه وبين رسوله ﷺ في سنته وسار على ذلك المؤمنون وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، بعد أن كانوا كما قال سبحانه ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فهم مؤمنون صادقون يسمعون ويطيعون سماع قبول واستجابة لا كالكفار من أهل الكتاب في قولهم ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ البقرة/آية٩٣، وهم كذلك يسألون الله المغفرة في كل آن، وبالآخرة يؤمنون وأنهم لا بد إلى رب السموات والأرض راجعون.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي صدق جازماً وأيقن.

أخرج أبو عوانة في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ ءَامَنَ

﴿ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ قرأها رسـول الله ﷺ فلما قـال غفرانك ربنا قال الله قد غفرت لك.

﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ أي القرآن الكريم.

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ معطوف على الرسول ﷺ.

﴿ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ أي كلّ واحد منهم، للدلالة على أن الإيمان لا يكون إيماناً جماعياً بل يتعلـق بكل واحد على حدة، ولذلك لم يرد في الآية الكريمة (آمنوا) بجمع الضمير مع أنه يعود عليهم، ولكن قال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ﴾ بتوحيد الضمير لأن الإيمان يتعلق بكلّ فرد منهم.

وعطف ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ على ﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ هو الراجح فهو أرجح من القول بأن ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ مبتدأ أي (الواو) للاستئناف وذلك لأنها: بالعطف تعني أن إيمان رسول الله ﷺ بما أنزل – القرآن – هو الأصل والمؤمنون تابعون له فهم قد آمنوا بالقرآن الكريم بدعوة رسول الله ﷺ لهم، فالوحي بالقرآن على رسول الله ﷺ سابق لإيمان المؤمنين بالقرآن الكريم، أما لو كانت (الواو) للاستئناف أي:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾.

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾.

يكون الإخبار عن إيمان رسول الله ﷺ بجملة فعلية وعن إيمان المؤمنين بجملة اسمية والجملة الاسمية أقوى، وهذا لا يناسب نزول القرآن على رسـول الله ﷺ أولاً، ثم إيمـان المؤمنين بالقرآن بعد ذلك.

ولذلك فالوقوف بعد ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أرجح من الوقوف بعد ﴿ رَّبِّهِۦ ﴾.

﴿ كُلٌّ ءَامَنَ ﴾ جملـة مستأنفـة من مبتدأ وخبر، ولا تكون ﴿ كُلٌّ ﴾ تأكيداً لـ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ لأن (كل) لا تكون تأكيداً إلا إذا أضيفت لضمير المؤكد وهي هنا ليست كذلك، فتكون كما قلنا مستأنفة مبتدأ وخبر.

﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ۖ ﴾ أي سمـاع قبـول واستجابة وتقـديم السـمع علـى الطاعـة لأن التكليف طريقه السمع والطاعة بعده.

﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ أي اغفر غفرانك، فغفران مصدر في مقام المفعول المطلق أي نائب عن فعله.

﴿ وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ أي الرجوع بالموت والبعث.

٣. وفي الآية الخاتمة لسورة البقرة ما سماه المؤمنون فرجاً، فقد جعل الله الحساب والعقاب على ما يظهر على الجوارح من أفعال وأقوال دون ما يبقى خافياً في الصدور لا يظهر بقول أو فعل.

ثم ما أجراه الله على ألسنة الرسول ﷺ والمؤمنين بأن لا يؤاخذنا الله سبحانه بالنسيان والخطأ وأن لا يأخذ علينا من العهود ما يثقل كاهلنا ولا يكلفنا بما لا نطيق وأن يشملنا سبحانه بعفوه ومغفرته وينصرنا على القوم الكافرين، ثم البشرى باستجابة الله لرسوله والمؤمنين إنه سبحانه البرّ الغفور الرحيم.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ أي لا يكلف الله إلا بما في الوسع، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان دون أن يبلغ مدى الطاقة أي أقصاها، فالله سبحانه كلفنا بالصلاة والصيام ولكنها أقل من مدى الطاقة فنحن نستطيع الصلاة والصيام أكثر مما كلفنا به ولكن الله سبحانه كلفنا بالوسع فقط دون مدى الطاقة.

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ أي يحاسبها على ما ظهر على الجوارح من عمل أو قول مثوبة على الخير وعقوبة على الشر.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ قال: عمل اليد والرِّجل واللسان.

وكانت هذه الآية فرجا على المسلمين لأن الله سبحانه تجاوز بها عما دار في نفوسهم من شر لم يظهروه بقول أو فعل، فإنه سبحانه لم يكلفهم إلا بالوسع ولم يحاسبهم إلا على ما أظهروه من قول أو فعل دون ما بقي خافياً في الصدور ما دام متعلقاً بالأحكام الشرعية، أما العقيدة فهي التصديق الجازم ومحلها الصدور، فالحساب والعقاب يتناول الشك والارتياب فيها ـ كما بيناه سابقاً ـ أما الأحكام الشرعية فيما سوى العقيدة فقد تجاوز الله فيها عما يدور في النفوس ما لم يظهر على الجوارح بقول أو فعل ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾.

وهذه الآية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ هي الناسخة لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ كما بينا سابقاً.

﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾ أي لها ما عملت من خير.

﴿ **وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ** ﴾ أي عليها ما عملت من شرّ.

وفي الآية تخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر ولهذا دلالة: فالاكتساب (افتعال) و(افتعل) أشدّ في الطلب من (فعل)، فكأنه لعلاقة الشر بالشهوات، وهو ما تستهويه النفوس، لذلك تجدّ النفوس في طلبه أكثر من اهتمامها في الخير على نحو قول رسول الله ﷺ: "**حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات**"[1].

﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾** ﴾.

هذا تكريم لرسول الله ﷺ والمؤمنين بأن علمنا دعاء نتضرع فيه إلى الله سبحانه بالمغفرة والرحمة والنصر، وهو ذو الجلال والإكرام سميع مجيب غفور رحيم.

أخرج الإمام أحمد من طريق أبي هريرة قَالَ لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾** ﴾ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... إلى أن يقول: فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ** ﴾ الآية.

ورواه مسلم ولفظه بعد ذلك: "ولما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ** ﴾ قال: نعم ﴿ **رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ** ﴾ قال: نعم ﴿ **رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ** ﴾ قال: نعم ﴿ **وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾** ﴾ قال: نعم" وفي رواية قال: "قد فعلت"[2].

فهذا فضل من الله عظيم أن الله سبحانه علمنا ما ندعوه به وبشرنا بالإجابة "**قال**

[1] مسلم: ٥٠٤٩، الترمذي: ٢٤٨٢، أحمد: ٧٢١٦، ٨٥٨٧، ١٢١٠١، ١٣١٧٧، ١٣٥١٩، الدارمي: ٢٧٢٠، ورواية البخاري "**حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره**" ٦٠٠٦

[2] مسلم: ١٧٩، أحمد: ٣٣٢/١

نعم أو قال فعلت" أي أجبت.

﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ** ﴾ وهي ضراعة إلى الله سبحانه أن لا يؤاخذنا بالنسيان والخطأ.

وهذا يعني أن النسيان والخطأ في الآية يترتب عليه ذنب بدلالة الدعاء إلى الله سبحانه ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ** ﴾ المؤاخذة العقوبة، أي أن النسيان والخطأ في هذه الآية ليس هو النسيان والخطأ في حديث رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**» أخرجه ابن ماجه[1] فالحديث يعني أن لا مؤاخذة على هذه الأمور، فكيف يكون ذلك؟

إنَّ أصل النسيان مأخوذ من الترك غير المتعمد فهو يعني ترك أمر الله بغير عمد، وهذا على وجهين:

الأول: يتم دونما علاقة لفعل العبد الاختياري كمن أكل أو شرب في رمضان ناسياً أو أصابه مرض فأصبحت ذاكرته ضعيفة فنسي بعض ما يحفظه من قرآن أو بعض مواعيد عليه، فهذا النسيان وأمثاله لا مؤاخذة فيه ويدخل تحت مفهوم حديث رسول الله ﷺ: "**وَضَعَ عن أمتي**" أي وَضَعَ المؤاخذة، فلم يؤاخذ سبحانه على هذا النسيان.

والثاني: ما كان لفعل العبد الاختياري علاقة فيه كمن تشاغل عن الصلاة بأعمال أخرى فلم ينتبه إلا وقد دخل وقت الثانية دون أن يصلي الأولى، أو من ترك الاهتمام بكتاب الله فنسي ما حفظ دونما مرض أو ضعف ذاكرة، أو من تشاغل عن مواعيده بمصالحه فنسي المواعيد ولم يحفظها وأمثال ذلك، فهذه ذنوب مترتبة على النسيان وهي ما تدخل تحت الدعاء المذكور في الآية ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ** ﴾.

وكذلك الأمر الخطأ فهو نوعان:

فالأول: خطأ ضد العمد: أي دونما علاقة لفعل العبد الاختياري بتعمد هذا الخطأ كمن اجتهد في تعيين الغروب فأفطر وإذ بالشمس لم تكن قد غربت بعد لغيم حجبها ولا ساعة توقيت لديه، أو كمن ضلّ طريقه في الصحراء في يوم غيم لا تبدو النجوم فيه فاجتهد لتعيين القبلة وصلى الفجر، وفي الصباح طلعت الشمس فعلم أنه لم يصلّ إلى

[1] ابن حبان: ١٦/٢٠٢، وصححه، الحاكم: ٢/٢١٦، ابن ماجه: ٢٠٤٣

القبلة بل إلى جهة غيرها، أو كمن لا يستطيع قراءة الفاتحة قراءة صحيحة في الصلاة لضعف في عقله أو ثقل في لسانه فنطق حروفها على غير وجهها وأخطأ فيها، أو كمن كان الأمر يجهل مثله على مثله فنفذه على غير وجهه وأخطأ فيه كمن جاء من البادية فصلى مع رسول الله ﷺ وشمت العاطس في الصلاة وهو لا يدري أن هذا يبطل الصلاة لعدم سماعه بذلك بسبب عيشه البعيد عن المدينة وعدم وجود من يفقهه في البادية، وأمثال ذلك من أفعال فهي تقع تحت مفهوم حديث رسول الله ﷺ: "**وَضَعَ عن أمتي**".

أما **الثاني:** فهو من تَعَمَّدَ فعل الخطأ ضد الصواب، أي أخطأ في الفعل بأن أتى به خلاف الشرع هذا يعني ما كان من فعل العبد الاختياري بتعمد الخطأ كأن يفطر في رمضان قبل الغروب وهو يعلم ذلك، أو أن لا يتعلم ما يلزمه من أحكام الشرع وهو قادر على ذلك ثم يرتكب ما نهى الله عنه على علم.

هذا وأمثاله من ارتكاب ما نهى الله عنه هو الخطأ الذي يسأل العبد ربه أن لا يؤاخذه به وهو الواقع ضمن هذه الآية الكريمة ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ** ﴾، أي أن يعفو عنه هذا الخطأ، كما هو بيِّن في تكملة الآية ﴿ **وَٱعۡفُ عَنَّا** ﴾.

والمؤاخذة المعاقبة، وفاعَلَ هنا بمعنى فعل فالعقوبة من الله سبحانه للعبد، فآخذ هنا لا تفيد المشاركة فالله سبحانه هو الذي يؤاخذ العبد أي يعاقبه.

وفي الآية الكريمة تضرع إليه سبحانه أن لا يعاقبنا على هذا النسيان أي ترك تنفيذ أوامر الله دونما عمد ولكن بتشاغل عنها وتسويف في الأداء حتى نضيعها.

ولا على هذا الخطأ الذي نأتي به على غير الصواب عامدين فنقع في ما نهى الله عنه.

هذا هو النسيان والخطأ في الآية الكريمة الذي عليه المؤاخذة، وأما ما بيناه من خطأ ونسيان على غير هذا فالمؤاخذة فيه مرفوعة عنا برحمة الله سبحانه كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**".

وهنا قد يرد سؤال إن كان الخطأ والنسيان في الآية والذي نسأل الله سبحانه أن لا يؤاخذنا فيه، إن كان هذا من الذنوب فكيف نفهم استجابة الله سبحانه المذكورة في حديث مسلم الذي ذكرناه؟ كيف نفهم هذه الاستجابة بعد كل دعاء؟ فهل يعني أننا لا نؤاخذ على هذه الذنوب قطعاً؟

إن استجابة الله سبحانه تعني كما فسرها رسول الله ﷺ أن يحقق الله لنا ما

ندعوه فيمحو هذا الذنب عنا ويغفره لنا أو يصرف عنا من السوء مثله أو يدخر لنا أجرا بدعائنا يوم القيامة. أخرج الترمذي من طريق أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدُعَاءٍ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يُكَفَّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ أَوْ يَسْتَعْجِلْ**، قالوا يا رسول الله وكيف يستعجل؟ قال: **يقول دعوتُ ربي فما استجاب لي**». وفي رواية أخرى له من طريق جَابِر قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلاَّ آتَاهُ اللَّهُ مَا سَأَلَ أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**».

وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ** ﴾ غافر/آية٦٠.

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ** ﴾ البقرة/آية١٨٦.

فهي تربط الإجابة بدعاء المؤمنين، وكل ذلك بمعنى الإجابة التي ذكرها رسول الله ﷺ، ولذلك فإن الاستجابة تكون من فضل الله سبحانه على النحو المبين، فنحن ندعو الله العفو والمغفرة والنصر على الكافرين وعدم العقوبة على ذنوبنا بالنسيان والخطأ وأن لا يجعل علينا عهداً وحملاً ثقيلين، وفي كلّ ذلك نوقن بالإجابة كما بشرنا الله سبحانه في حديث رسول الله ﷺ: "**قال: نعم**" وهذه الإجابة إما بتحقيق الدعاء فيمحو الله ذلك الذنب ويغفره لنا سبحانه وينصرنا على القوم الكافرين، أو يصرف الله عنا من السوء مثل ما دعونا، أو يدخره لنا يوم القيامة وهو البر الغفور الرحيم، فالاستجابة ليست بالضرورة أن تكون في الدنيا بل على النحو الذي بيناه.

﴿ **رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ** ﴾ ﴿ **إِصۡرٗا** ﴾ أمراً غليظاً وعبئاً ثقيلاً يأصر صاحبه أي يحبسه فكأنه يثقله، وكل عهد بأمر ثقيل (إصر) ﴿ **وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ** ﴾ الأعراف/آية١٥٧.

وهو دعاء إلى الله سبحانه أن لا يأخذ علينا عهداً بتنفيذ أمور يثقل حملها علينا ويشق علينا أداؤها، كما أخذها الله على الأمم السابقة كبني إسرائيل من أمرهم بقتل أنفسهم كطريق إلى توبتهم وقد استجاب الله سبحانه فجعل التوبة ميسورة لمن يسرها الله له فهي إخلاص لله بترك الذنب وعدم العودة إليه وإصلاح لآثاره وليس بقتل النفس كما كان على بني إسرائيل.

﴿ **رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ** ﴾ أي يا رب لا تعاقبنا بعقوبات لا نطيقها مثلما حدث مع الأمم السابقة من خسف ومسخ وتدمير وصاعقة.

فبعد أن علمنا الله سبحانه أن ندعوه بأن لا يشدد علينا بالتكاليف علمنا سبحانه أن ندعوه أن لا يعاقبنا بما لا طاقة لنا به إنه سبحانه رؤوف رحيم.

﴿ **وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ** ﴾ ولم يبدأها سبحانه (ربنا) كالدعاء السابق لأن هذه الثلاثة جاءت مقابلة للأدعية السابقة فهي معطوفة عليها ونتائج لها فالعفو يقابل عدم المؤاخذة على الذنوب بالنسيان والخطأ والمغفرة تقابل عدم إحساننا القيام بالأمور الغليظة إن أخذت علينا عهوداً ومواثيق.

والرحمة تقابل عقوبتنا بما لا نطيق.

﴿ **أَنتَ مَوْلَىٰنَا** ﴾ أي مالكنا وسيدنا ومتولي أمرنا، وأصله مصدر أريد به الفاعل، وهي في معنى القول أي قولوا أنت مولانا.

﴿ **فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾** ﴾ والفاء للسببية لأن سبب الدعاء بنصر الله أنه سبحانه المولى والمالك ومدبر الأمر، كقول القائل: أنت الجواد فَتَكَرَّمْ علي، وأنت البطل فاحْمِ الجار.

أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ولم يعطَهن نبيٌّ قبلي**».

وفي حديث آخر أخرجه الإمام أحمد من طريق حذيفة قَالَ «... **وَأُعْطِيتُ هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي**».

❋ ❋ ❋

وكلمة أخيرة نقولها بين يدي هذه السورة العظيمة، فإنها قد حوت معظم أصول أحكام الإسلام إن لم يكن كلها من عقيدة وأحكام شرعية.

ففيها بيان الإيمان وحقيقة الكفر والنفاق ثم إقامة الحجة على الكافرين بإفراد الله في العبودية والربوبية والتنزيه عن الصاحبة والولد والمثيل والشريك، ثم التحدي بالقرآن العظيم وأنه كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا يستطيع بشر الإتيان بمثله ولن يستطيع.

وفيها إعداد آدم ـ عليه السلام ـ للخلافة في الأرض وعمارتها فخلقه الله في أحسن تقويم، وجعل بين جنبيه مكونات العقل السليم والفطرة السليمة فيؤمن بخالقه ويعبده ويدعو إليه، ثم آتاه الله علما بمسميات الأشياء فسبقت إليه عنها معلومات من ربه تمكنه من التفكير وإنشاء الأفكار فتعقل ذريته الأشياء وتستبين الحق وتتهيأ لاستقبال رسل الله فيحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

ثم أرسل الرسل بآيات الله مبشرين ومنذرين، رضوان من الله وجنات للمؤمنين ومقت من الله وغضب ونار تميز من الغيظ للكفار والمنافقين.

وفيها بيان ليهود وغدر يهود ومكر يهود وكفرهم بآيات الله وعقم جدلهم وتحريف كتبهم والمتاجرة بالدين والدنيا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، يتآمرون على الرسول ﷺ، ويصدون عن السبيل أصحاب لؤم ونفاق وأهل غدر ونقض لكل ميثاق ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ثم فيها من الأحكام الشرعية الأصل والفصل، فيها بيان الظلم والظلم ظلمات: ظلم مانعي المساجد وكاتمي الشهادة وكاتمي العلم. وفيها عن الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والنكاح والطلاق والإيلاء والرضاع والنفقة في سبيل الله، ثم الربا والدين ثم العفو والمغفرة والرحمة والله واسع عليم.

ولقد انتهت السورة الكريمة على نحو ما بدأت به: بشرى للمؤمنين بالفلاح وعمه للكفار والمنافقين في الطغيان.

ثم الختام وأي ختام! نصر من الله وأي نصر! والله لا يخلف الميعاد ﴿ **أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾** ﴾.

وفضل هذه السورة الكريمة فضل عظيم:

أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم واللفظ لمسلم عن أبي أمامة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». وفي رواية الترمذي (غيابتان).

الغياية أو الغيابة: ما أظلك من فوقك.   الفرق: القطعة من الشيء.

البطلة: السحرة. ومعنى لا تستطيعها: أي لا تستطيع النفاذ في قارئها أي التأثير فيه.

أخرج الإمام أحمد مف مسنده من طريق معقل بن يسار أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ»[1].

❁ ❁ ❁

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ يونس

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»[2]

ولما فرغتُ منه ضحى السبت لـ:

ثلاث عشرة ليلة خلت بعد ذكرى مولد رسول الله ﷺ

سنة ألف وأربعمائة وسبع عشرة قلت:

الحمدُ لله الأحدْ ... قد كان لي خيرَ السَّندْ
فبفضلهِ وبهديهِ ... والعونُ منه مع الرَّشَدْ
بأصولِ تفسيرٍ إلى ... الزهراءِ تيسيرٌ وَرَدْ
تحوي من الآياتِ ... أعظمَها ومن شرٍّ رَصَدْ
فهي السَّنامُ وذا السَّنامُ ... رضاك صاحبُهُ قَصَدْ
فالحمدُ للمولى وقدْ ... سَمِعَ الإلهُ لِمَنْ حَمَدْ

انتهى تفسير سورة البقرة

في يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع أول ١٤١٧هـ

الموافق للعاشر من آب سنة ١٩٩٦م

والحمد لله رب العالمين

---

[1] قال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٦، ص٣١١: (فيه راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني وأسقط المبهم)

[2] أخرجه الترمذي من طريق أبي هريرة

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٧	**المقدمة**
١٦	مصادر العرب في مسمياتهم
١٦	الحقيقة
١٦	المجاز
١٧	الاشتقاق
١٨	التعريب
٢٠	لماذا الاهتمام باللغة العربية
٢٠	هل في اللغة والقرآن مجاز أو لا
٢٧	المحكم والمتشابه
٣٢	الطريقة التي اعتمدت في التفسير
٣٢	من حيث اللغة
٣٥	من حيث العقل
٣٦	من حيث المحكم والمتشابه
٣٧	من حيث ترابط آيات السورة ووحدتها
٣٧	من حيث تعدد الروايات أو الدلالات
٣٩	الحزب الأول/ الجزء الأول
٤٠	الربع الأول/ الحزب الأول/ الجزء الأول
٤١	تفسير {الم(١)}
٤٢	تفسير {ذلك الكتاب(٢)}
٤٣	تفسير {الذين يؤمنون . . . . . . وأولئك هم المفلحون} (٣-٥)
٤٤	**موضوع الإيمان**

تفسير {إن الذين كفروا . . . . ولهم عذاب عظيم} (٦-٧)	٤٨
فائدة عن موضوع القلب والسمع والبصر	٥١
تفسير {ومن الناس من يقول . . . . وما كانوا مهتدين} (٨-١٦)	٥٢
تفسير {مثلهم كمثل الذي . . . . قدير} (١٧-٢٠)	٥٥
تفسير {يا أيها الناس اعبدوا ربكم . . . . خالدون} (٢١-٢٥)	٥٦
موضوع إعجاز القرآن	٥٧
الربع الثاني/ الحزب الأول/ الجزء الأول	٦١
تفسير {إن الله لا يستحيي . . . . الخاسرون} (٢٦-٢٧)	٦٢
فائدة عن أولي الأرحام	٦٤
تفسير {كيف تكفرون . . . . إليه ترجعون} (٢٨)	٦٥
تفسير {هو الذي خلق لكم . . . . وهو بكل شيء عليم} (٢٩)	٦٥
تفسير {وإذ قال ربك . . . . وما كنتم تكتمون} (٣٠-٣٣)	٦٦
موضوع العقل	٦٧
تفسير {وإذ قلنا للملائكة . . . . وكان من الكافرين} (٣٤)	٦٨
تفسير {وقلنا يا آدم . . . . هم فيها خالدون} (٣٥-٣٩)	٦٩
تفسير {يا بني إسرائيل . . . . واركعوا مع الراكعين} (٤٠-٤٣)	٧١
الربع الثالث/ الحزب الأول/ الجزء الأول	٧٣
تفسير {أتأمرون الناس بالبر . . . . أفلا تعقلون} (٤٤)	٧٤
تفسير {واستعينوا بالصبر . . . . إلا على الخاشعين} (٤٥)	٧٤
تفسير {الذين يظنون . . . . إليه راجعون} (٤٦)	٧٥
تفسير {يا بني إسرائيل . . . . لعلكم تهتدون} (٤٧-٥٣)	٧٦
تفسير {وإذ قال موسى لقومه . . . . بما كانوا يفسقون} (٥٤-٥٩)	٧٩
الربع الرابع/ الحزب الأول/ الجزء الأول	٨٢
تفسير {وإذ استسقى موسى لقومه . . . . مفسدين} (٦٠)	٨٣

تفسير {وإذ قلتم يا موسى . . . . وكانوا يعتدون} (٦١)	٨٣
تفسير {إن الذين آمنوا . . . . ولا هم يحزنون} (٦٢)	٨٥
تفسير {وإذ أخذنا . . . . وموعظة للمتقين} (٦٣-٦٦)	٨٨
تفسير {وإذ قال موسى . . . . وما الله بغافل عما تعملون} (٦٧-٧٤)	٨٩
الحزب الثاني/الجزء الأول	٩٤
الربع الأول/ الحزب الثاني/ الجزء الأول	٩٥
تفسير {أفتطمعون أن يؤمنوا . . . . وما يعلنون} (٧٥-٧٧)	٩٦
تفسير {ومنهم أميون . . . . وويل لهم مما يكسبون} (٧٨-٧٩)	٩٨
تفسير {وقالوا لن تمسنا . . . . هم فيها خالدون} (٨٠-٨٢)	٩٩
تفسير {وإذ أخذنا ميثاق . . . . ولا هم ينصرون} (٨٣-٨٦)	١٠٠
تفسير {ولقد آتينا موسى . . . . إن كنتم مؤمنين} (٨٧-٩١)	١٠٣
الربع الثاني/ الحزب الثاني/ الجزء الأول	١٠٧
تفسير {ولقد جاءكم موسى . . . . . . .بما يعملون} (٩٢-٩٦)	١٠٨
تفسير {قل من كان عدوا . . . . بل أكثرهم لا يؤمنون} (٩٧-١٠٠)	١١١
تفسير {ولما جاءهم رسول . . . . لو كانوا يعلمون} (١٠١-١٠٣)	١١٢
تفسير {يا أيها الذين آمنوا . . . . والله ذو الفضل العظيم} (١٠٤-١٠٥)	١١٩
فائدة عن المعنى الاصطلاحي	١٢٠
الوعي السياسي	١٢٠
الربع الثالث/ الحزب الثاني/ الجزء الأول	١٢٩
تفسير {ما ننسخ من آية . . . . من ولي ولا نصير} (١٠٦-١٠٧)	١٣٠
فائدة عن النسخ	١٣٢
تفسير {أم تريدون أن تسألوا . . . . بما تعملون بصير} (١٠٨-١١٠)	١٣٥
تفسير {وقالوا لن يدخل الجنة . . . . فيه يختلفون} (١١١-١١٣)	١٣٦
تفسير {ومن أظلم . . . . عن أصحاب الجحيم} (١١٤-١١٩)	١٣٨

تفسير {ولن ترضى عنك .... ولا هم ينصرون} (١٢٠-١٢٣)	١٤٣
الربع الرابع/ الحزب الثاني/ الجزء الأول	١٤٥
تفسير {وإذ ابتلى إبراهيم .... عهدي الظالمين} (١٢٤)	١٤٦
تفسير {وإذ جعلنا البيت .... والركع السجود} (١٢٥)	١٤٧
تفسير {وإذ قال إبراهيم .... وبئس المصير} (١٢٦)	١٤٩
تفسير {وإذ يرفع إبراهيم .... العزيز الحكيم} (١٢٧-١٢٩)	١٥٠
تفسير {ومن يرغب .... عما كانوا يعملون} (١٣٠-١٣٤)	١٥٢
فائدة عن ملة إبراهيم	١٥٤
تفسير {وقالوا كونوا هودا .... ونحن له عابدون} (١٣٥-١٣٨)	١٥٧
تفسير {قل أتحاجوننا .... عما كانوا يعملون} (١٣٩-١٤١)	١٦٠
الحزب الثالث/ الجزء الثاني	١٦٤
الربع الأول/ الحزب الثالث/ الجزء الثاني	١٦٥
تفسير {سيقول السفهاء .... إنك إذا لمن الضالين} (١٤٢-١٤٥)	١٦٦
تفسير {الذين آتيناهم .... ولعلكم تهتدون} (١٤٦-١٥٠)	١٧٣
تفسير {كما أرسلنا فيكم .... ولا تكفرون} (١٥١-١٥٢)	١٧٧
تفسير {يا أيها الذين آمنوا .... وأولئك هم المهتدون} (١٥٣-١٥٧)	١٧٨
فائدة عن الصبر	١٨٠
الربع الثاني/ الحزب الثالث/ الجزء الثاني	١٨٣
تفسير {إن الصفا والمروة .... فإن الله شاكر عليم} (١٥٨)	١٨٤
تفسير {إن الذين يكتمون .... هو الرحمن الرحيم} (١٥٩-١٦٣)	١٨٧
تفسير {إن في خلق السموات .... لقوم يعقلون} (١٦٤)	١٨٩
تفسير {ومن الناس من .... وما هم بخارجين من النار} (١٦٥-١٦٧)	١٩١
تفسير {يا أيها الناس .... إن الله غفور رحيم} (١٦٨-١٧٣)	١٩٣
تفسير {إن الذين يكتمون .... لفي شقاق بعيد} (١٧٤-١٧٦)	١٩٨

الربع الثالث/ الحزب الثالث/ الجزء الثاني	٢٠١
تفسير {ليس البر....... وأولئك هم المتقون} (١٧٧)	٢٠٢
تفسير {يا أيها الذين...... لعلكم تتقون} (١٧٨-١٧٩)	٢٠٥
تفسير {كتب عليكم....... الله غفور رحيم} (١٨٠-١٨٢)	٢٠٨
تفسير {يا أيها الذين آمنوا...... ولعلكم تشكرون} (١٨٣-١٨٥)	٢١١
تفسير {وإذا سألك عبادي...... لعلهم يرشدون} (١٨٦)	٢١٨
فائدة عن الدعاء	٢١٩
تفسير {أحل لكم ليلة...... لعلهم يتقون} (١٨٧)	٢٢٣
تفسير {ولا تأكلوا...... وأنتم تعلمون} (١٨٨)	٢٢٦
الربع الرابع/ الحزب الثالث/ الجزء الثاني	٢٢٨
تفسير {يسألونك عن الأهلة...... لعلكم تفلحون} (١٨٩)	٢٢٩
تفسير {وقاتلوا في سبيل الله...... إلا على الظالمين} (١٩٠-١٩٣)	٢٣١
تفسير {الشهر الحرام...... إن الله يحب المحسنين} (١٩٤-١٩٥)	٢٣٨
تفسير {وأتموا الحج والعمرة...... أن الله شديد العقاب} (١٩٦)	٢٤٠
تفسير {الحج أشهر...... إن الله غفور رحيم} (١٩٧-١٩٩)	٢٤٦
تفسير {فإذا قضيتم....... والله سريع الحساب} (٢٠٠-٢٠٢)	٢٥٢
الحزب الرابع/ الجزء الثاني	٢٥٥
الربع الأول/ الحزب الرابع/ الجزء الثاني	٢٥٦
تفسير {واذكروا الله في أيام...... إليه تحشرون} (٢٠٣)	٢٥٧
تفسير {ومن الناس من يعجبك...... والله رؤوف بالعباد} (٢٠٤-٢٠٧)	٢٦٠
تفسير {يا أيها الذين آمنوا ...... وإلى الله ترجع الأمور} (٢٠٨-٢١٠)	٢٦٣
تفسير {سل بني إسرائيل...... بغير حساب} (٢١١-٢١٢)	٢٦٨
تفسير {كان الناس أمة...... ألا إن نصر الله قريب} (٢١٣-٢١٤)	٢٧١
تفسير {يسألونك ماذا ...... فإن الله به عليم} (٢١٥)	٢٧٤

تفسير {كتب عليكم .... والله غفور رحيم} (٢١٦-٢١٨)	٢٧٦
الربع الثاني/ الحزب الرابع/ الجزء الثاني	٢٨٦
تفسير {يسألونك عن الخمر...... عزيز حكيم} (٢١٩-٢٢٠)	٢٨٧
تفسير {ولا تنكحوا المشركات...... لعلهم يتذكرون} (٢٢١)	٢٩٣
تفسير {ويسألونك عن المحيض...... وبشر المؤمنين} (٢٢٢-٢٢٣)	٢٩٨
تفسير {ولا تجعلوا الله...... والله غفور حليم} (٢٢٤-٢٢٥)	٣٠٣
تفسير {للذين يؤلون...... فإن الله سميع عليم} (٢٢٦-٢٢٧)	٣٠٥
تفسير {والمطلقات يتربصن...... لقوم يعلمون} (٢٢٨-٢٣٠)	٣٠٧
تفسير {وإذا طلقتم النساء...... وأنتم لا تعلمون} (٢٣١-٢٣٢)	٣٢٢
الربع الثالث/ الحزب الرابع/ الجزء الثاني	٣٢٦
تفسير {والوالدات يرضعن...... أن الله غفور رحيم} (٢٢٣-٢٣٥)	٣٢٧
تفسير {لا جناح عليكم...... بما تعملون بصير} (٢٣٦-٢٣٧)	٣٣٢
تفسير {حافظوا على الصلوات...... ما لم تكونوا تعلمون} (٢٣٨-٢٣٩)	٣٣٥
تفسير {والذين يتوفون...... لعلكم تعقلون} (٢٤٠-٢٤٢)	٣٤٠
الربع الرابع/ الحزب الرابع/ الجزء الثاني	٣٤٤
تفسير {ألم تر إلى الذين خرجوا...... وإليه ترجعون} (٢٤٣-٢٤٥)	٣٤٥
تفسير {ألم تر إلى الملأ من بني...... إن كنتم مؤمنين} (٢٤٦-٢٤٨)	٣٤٧
تفسير {فلما فصل طالوت...... ذو فضل على العالمين} (٢٤٩-٢٥١)	٣٥١
تفسير {تلك آيات الله...... إنك لمن المرسلين} (٢٥٢)	٣٥٤
الحزب الخامس/ الجزء الثالث	٣٥٦
الربع الأول/ الحزب الخامس/ الجزء الثالث	٣٥٧
تفسير {تلك الرسل فضلنا...... هم فيها خالدون} (٢٥٣-٢٥٧)	٣٥٨
تفسير {ألم تر إلى الذي حاج...... عزيز حكيم} (٢٥٨-٢٦٠)	٣٧٢
تفسير {مثل الذين ينفقون...... ولا هم يحزنون} (٢٦١-٢٦٢)	٣٨٠

٣٨٣	الربع الثاني / الحزب الخامس / الجزء الثالث
٣٨٤	تفسير {قول معروف . . . . . . لعلكم تتفكرون} (٢٦٣-٢٦٦)
٣٨٨	تفسير {يا أيها الذين آمنوا . . . . والله بما تعملون خبير} (٢٦٧-٢٧١)
٣٩٨	الربع الثالث / الحزب الخامس / الجزء الثالث
٣٩٩	تفسير {ليس عليك هداهم . . . . ولا هم يحزنون} (٢٧٢-٢٧٤)
٤٠٥	تفسير {الذين يأكلون الربا . . . . وهم لا يظلمون} (٢٧٥-٢٨١)
٤١٥	**فائدة عن الربا**
٤٢٦	تفسير {يا أيها الذين آمنوا . . . . والله بكل شيء عليم} (٢٨٢)
٤٣٦	الربع الرابع / الحزب الخامس / الجزء الثالث
٤٣٦	تفسير {وإن كنتم على سفر . . . . بما تعملون عليم} (٢٨٣)
٤٣٩	تفسير {لله ما في السموات . . . . على القوم الكافرين} (٢٨٤-٢٨٦)
٤٥٢	**خاتمة سورة البقرة**